الطفولة والصبا والشباب

ليف تولستوي

• Author : LEV TOLSTOI
• Title: Childhood, Boyhood,Youth
• Translated by: Ramzy Yassa
• Afaq's first edition: 2018
• Cover Design by: Amr El Kafrawy
• Publishing Consultant: Sawsan Bashier
• General Manager: Mostafa Alsheikh

◆ المؤلف: ليف تولستوي
◆ العنوان: الطفولة والصبا والشباب
◆ ترجمة: رمزي يسَّى
◆ طبعة آفاق الأولى 2018
◆ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
◆ مستشار النشر: سوسن بشير
◆ المدير العام: مصطفى الشيخ

رقم الإيداع:
٢٠١٨ / ٣٩٥٩
الترقيم الدولي : ISBN
978 - 977-765 - 149 - 3

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787
E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

ليف تولستوي

الطفولة والصبا والشباب

رواية

ترجمة

رمزي يسَّى

مراجعة

أحمد خاكي

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

تولستوي، ليف.

الطفولة والصبا والشباب – ترجمة: رمزي يسَّى

ط1 القاهرة – دار آفاق للنشر والتوزيع – 2018

544 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 3959 / 2018

الترقيم الدولي 3 - 149 - 765 - 977 - 978

1 – الأدباء (روايات)

2 – تولستوي، ليف

الطفولة

(١)

«المعلم الخاص، كارل إيفانتش»

في اليوم الثاني عشر من أغسطس سنة ١٨ [١]، وهو اليوم الثالث بعد تاريخ ميلادي العاشر، وكنت قد تسلمت هدايا رائعةً للغاية، أيقظني كارل إيفانتش في الساعة السابعة صباحًا وهو يضرب ذبابةً بمذبة من ورقة مسكرة مثبتة إلى عصا، وقد فعل هذا بطريقة خرقاء، حتى إنه قلقل صورة ملاكي المعلقة على رأس سريري المصنوع من خشب السنديان، وسقطت الذبابة الميتة على رأسي مباشرةً. واختلست النظر من تحت الغطاء، وثبت الصورة التي كانت لا تزال تهتز، ونفضت الذبابة الميتة إلى الأرض، ونظرت إلى كارل إيفانتش بعينين حانقتين يساورهما النعاس، ولكنه تابع طريقه بحذاء الجدران، يصوب ويذب وهو في عباءته الفضفاضة متمنطقًا بحزام من القماش، لابسًا على رأسه غطاءً أحمر ذا عذبة محبوكة.

وقلت في نفسي: «بفرض أنني صغير، لماذا يقلقني؟ لماذا لا يقتل الذباب الذي يحوم فراش فولوديا؟ إن هناك أكداسًا منه. ولكن لا، فإن فولوديا أكبر مني سنًّا، وأنا أصغر الجميع، وهذا هو السبب في أنه

(١) ولد تولستوي في سنة ١٨٢٨ بقرية ياسنايا بوليانا، من أصل ألماني. واستوطنت أسرته روسيا في عهد بطرس الأكبر (المترجم).

يعذبني.. ولا يفكر في شيء آخر في الحياة» وهمست قائلًا: «اللهم إلا عمل أشياء تكدرني، فهو يعلم تمام العلم أنه أيقظني وأفزعني، ولكن -الرجل البغيض- يتظاهر بأنه لا يعرف هذا!! أما عباءته وغطاء رأسه، وعذبته -فيا لها من أشياء تثير الاشمئزاز».

وبينما كنت أعبر عقليًّا على هذا الوجه عن ضيقي بكارل إيفانتش، اقترب من فراشه وتطلع إلى الساعة المعلقة فوقه. وكان ينتعل خفًّا مطرزًا بخرز من الزجاج، فعلق مذبته على مسمار، ثم التفت نحونا، وهو يبدو على أحسن حالاته العقلية، وصاح بصوته الألماني اللطيف[١]: «انهض أيها الطفل، انهض.. لقد حان الوقت.. إن أمك في القاعة».

ثم قصد إليَّ، وجلس عند قدمي، فأخرج من جيبه علبة السعوط، وتظاهرت أنا بالنوم؟ وتناول كارل إيفانتش قبضةً من السعوط، ومسح أنفه، وطقطق أصابعه، ثم وجه انتباهه إليَّ، وأخذ يدغدغ قدمي، ويضحك أثناء ذلك، ثم قال «هيا، هيا يا كسول».

.. وعلى كثرة ما كنت أفزع من الدغدغة، فإنني لم أقفز من فراشي، أو أُجب بأي إجابة، بل دفنت رأسي تحت الوسادة، ورفست بكل ما استطعت من قوة، واستخدمت كل جهد لتحاشي الضحك.

«ما أطيبه، وما أشد حبه لنا، ومع ذلك كنت أسيء به الظن كثيرًا!».

لقد كنت ساخطًا على نفسي وعلى كارل إيفانتش، وكنت أريد أن أضحك وأصرخ: لقد كانت أعصابي مضطربةً.

(١) كان كارل إيفانتش يتحدث بالألمانية عادةً.

فصحت والدموع تترقرق في عيني: «آه، أرجو أن تتركني يا سيدي». ودفعت برأسي من تحت الوسادة، فكف كارل إيفانتش عن دغدغتي مندهشًا، وأخذ يستفسر باهتمام عن أمري: هل كنت أحلم حلمًا مزعجًا؟ وكان وجهه الألماني الحنون، والعطف الذي حاول به جاهدًا التكهن بسبب بكائي، كل ذلك أدى إلى انهمار دموعي. واعتراني الخجل، ولم أستطع أن أعرف كيف تمكنت منذ هنيهة أن أكره كارل إيفانتش، وفكرت في أن عباءته وغطاء رأسه والعذبة كانت جميعًا على العكس، تبدو شيئًا يبعث على السرور إلى أبعد حد، بل إن العذبة كانت تبدو برهانًا واضحًا على طيبته. وقلت له إنني كنت أبكي لأنني رأيت حلمًا مزعجًا –لقد رأيت أمي ميتةً، يحملونها إلى الدفن. لقد اخترعت كل هذا؛ لأنني في الحقيقة لم أعرف ماذا رأيت في حلمي تلك الليلة، ولكن حين أخذ كارل إيفانتش يهدئ ثائرتي ويلاطفني، متأثرًا بقصتي، خيل إليَّ أنني رأيت بالفعل هذا الحلم المخيف، ففاضت دموعي لسبب آخر.

وعندما تركني كارل إيفانتش جالسًا في فراشي أضع جوربي في رجلي الصغيرتين كفكفت دموعي إلى حد ما، ولكن الأفكار المقبضة، أفكار الحلم الوهمي لم تفارقني. ودخل نيكولاي الخادم الخاص –وكان رجلًا أنيقًا صغيرًا جادًّا على الدوام، مدققًا ومحترمًا، وصديقًا حميمًا لكارل إيفانتش.. أحضر ملابسنا وأحذيتنا. وكان لدى فولوديا حذاء طويل، ولكني كنت لا أزل استخدم ذلك النوع ذا الأشرطة غير المحتمل. ولقد خجلت من البكاء أمامه، بالإضافة إلى أن شمس الصباح كانت تشرق من النافذة بابتهاج، وكان فولوديا يقلد ماريا إيفانوفنا (مربية أختي)

ويضحك بصوت مرتفع وطرب بالغ وهو واقف عند حوض الغسيل، حتى إن نيكولاي الوقور -وكان يضع المنشفة على كتفه، وقطعة الصابون في إحدى يديه، وحوضًا يدويًّا في اليد الأخرى- ابتسم وهو يقول: «كفى يا فلاديمير بتروفتش، اغتسل من فضلك».

وابتهجت أيما ابتهاج.

وناداني كارل إيفانتش من حجرة الدرس قائلًا: «هل أنت على وشك الاستعداد؟».

وكان صوته جافًّا، لم يعد يتسم بتلك النغمة الحانية التي هزتني حتى انهمرت دموعي. وكان كارل إيفانتش وهو في حجرة الدرس رجلًا مختلفًا كل الاختلاف، كان المعلم الخاص. ارتديت ملابسي بسرعة، واغتسلت، ودخلت حجرة الدرس وأنا لا أزال أفرش شعري المبلل.

كان كارل إيفانتش، وقد وضع نظارته على أنفه، والكتاب في يده، يجلس في مكانه المعتاد بين الباب والنافذة، وإلى يسار الباب رفان للكتب: أحدهما خاص بنا -أي بالأطفال، والآخر لأشياء كارل إيفانتش الخاصة، وتكدست على رفنا كل صنوف الكتب- كتب مدرسية وغيرها، بعضها قائمًا والبعض الآخر في وضع أفقي، ولم يكن هناك غير مجلدين كبيرين في «تاريخ الرحلات» بغلافين أحمرين في وضعهما الملائم مستندين إلى الحائط، يليهما خليط من الكتب الطويلة والسميكة، الكبيرة والصغيرة -أغلفة عاطلة من الكتب، وكتب عاطلة من الأغلفة. وقد تعودنا حشر كل شيء رأسًا على عقب عندما كان يأمرنا بترتيب «المكتبة»- وهو الاسم الذي أطلقه كارل إيفانتش على الرف -أما مجموعة الكتب التي

على رفه الخاص، وإن لم تكن كبيرةً كمجموعتنا، فإنها كانت أكثر تنوعًا وأتذكر ثلاثةً منها- كتيب ألماني في «تسميد حديقة الكرنب» وهو من دون غلاف، ومجلد في «تاريخ حرب السنوات السبع» بغلاف من الجلد الرقيق، إحدى زواياه محترقة، وسلسلة محاضرات في الاستاتيكا المائية. وكان كارل إيفانتش يقضي الشطر الأكبر من وقته في القراءة، حتى أضر ببصره نتيجةً لذلك، ولكنه لم يقرأ قط شيئًا سوى هذه الكتب ومجلة «النحلة الشمالية».

وكان بين الأشياء الموضوعة على رف كارل إيفانتش شيء يذكرني به أكثر من أي شيء آخر.. هو الكُمَّة مصباح مستديرة من الورق المقوى، على قائم خشبي يمكن تحريكها إلى أعلى وإلى أسفل بواسطة أوتاد من الخشب، ملصق عليها صورة كاريكاتورية لسيدة وحلاق، ولقد كان كارل إيفانتش يحذق كثيرًا صنع أشياء كهذه، واخترع هو نفسه هذه الكُمَّة وصنعها لحماية عينيه الكليلتين من الضوء الساطع.

وأستطيع في خيالي الآن أن أرى قامته الطويلة في عباءته الفضفاضة، وغطاء رأسه الأحمر يظهر من تحته شعره الأشيب.. أراه جالسًا إلى منضدة صغيرة، وكُمَّة مصباحه وعليها صورة الحلاق، تلقي ظلًّا على وجهه، يمسك بإحدى يديه كتابًا، وتستند الأخرى إلى مسند مقعده، ووضع أمامه ساعته المرسوم على وجهها صورة صياد، ومنديله ذا الخطوط المتقاطعة، وعلبة سعوطه المستديرة السوداء، وقراب نظارته الأخضر، ومقص الفتائل موضوعًا على الطبق. أما الترتيب الدقيق للغاية الذي يوضع به كل شيء في مكانه المحدد، فيدعو المرء إلى الجزم بأن

طوية كارل إيفانتش صافية وعقله هادئ.

وكنت أحيانًا بعد أن أجري في القاعة حتى ينالني التعب، أتسلل صاعدًا على أطراف قدمي إلى حجرة الدرس، فأجد كارل إيفانتش جالسًا وحده على مقعده ذي المسندين يقرأ بعض كتبه المحبوبة، وعلى وجهه طابع الهدوء والوقار. وكنت أقصد إليه أحيانًا أخرى في لحظة لم يكن يقرأ فيها، بل يجلس هنالك وحسب، وقد تدلت نظارته فوق أنفه، يتطلع أمامه بعينيه الزرقاوين نصف المغمضتين وعلى وجهه تعبير غريب، وعلى شفتيه ابتسامة مكتئبة. والحجرة يسودها الصمت إلا من صوت تنفسه الهادئ، ودقات ساعة الصياد الخافتة.

ولم يكن يتنبه إلى وجودي في كثير من الأحيان، فأقف عند باب الحجرة وأقول لنفسي: مسكين، مسكين هذا الرجل العجوز! إننا كثيرون، ونستطيع أن نلعب معًا ونستمتع -ولكنه وحيد، ليس لديه من يشفق عليه.. إنه يتيم. لقد قال لنا هذا بنفسه، وقصة حياته مؤسفة للغاية! إني أذكره وهو يقصها على نيكولاي: إنه لمن المزعج أن يكون المرء في مثل هذا الموقف!

كنت أشعر نحوه بأشد الأسف، حتى إنني كنت أذهب إليه، وأتناول يده، وأقول له: «عزيزي كارل إيفانتش!» ولا بد أنه كان يحب أن أقول له ذلك، لأنه كان يدللني، وكان تأثره واضحًا.

وعلقت على جدار آخر خرائط كلها كانت قد تمزقت، لولا أن يد كارل إيفانتش قد أصلحتها بمهارة. وعلى الجدار الثالث، الذي يتوسطه الباب المؤدي إلى السلم، علقت مسطرتان: أحداهما متشققة

كلها -وهذه مسطرتنا-، أما الأخرى -الجديدة- فهي مسطرته الخاصة، وكانت تستخدم في «حكمنا» أكثر من استخدامها في كراساتنا. وكان على الجانب الآخر من الباب سبورة يبين عليها أخطاءنا الجسيمة بواسطة دوائر، والأخطار الأقل خطرًا بواسطة صلبان، وكان على يسار السبورة الركن الذي نركع فيه عندما نعاقب.

ما أقوى تذكري لهذا الركن! إنني أذكر صمام تنظيم هواء المدخنة، والثقب الذي يسمح بدخول الهواء الساخن، والضوضاء التي يحدثها هذا الصمام حين يدار. وكنت أقف في ذلك الركن حتى تؤلمني ركبتاي، وظهري، وكنت أظن أن كارل إيفانتش قد نسي كل شيء عني. «إن كل شيء يجري على ما يرام، لأنه يجلس مستريحًا على مقعده ذي المسندين، ويقرأ الهيدروليكا المائية ولكن، ما هو موقفي؟» ولذلك، فلكي أذكره بوجودي، كنت أفتح الصمام وأقفله برفق أو أقشر بعض الملاط من على الجدار، ولكن إذا سقطت أيضًا قطعة كبيرة على الأرض فجأة وأحدثت صوتًا، فالخوف وحده كان أسوأ من العقوبة كلها، وكنت أسترق النظر إلى كارل إيفانتش، فإذا هو جالس، والكتاب في يده، كأنه لا يلاحظ شيئًا.

وتقوم بوسط الحجرة مائدة عليها غطاء من المشمع ممزق أسود تنفذ منه حواف المائدة، ويمكن رؤية القطوع التي أحدثتها مبراة الأقلام في عدة مواضع، وحول المائدة عدة مقاعد عاطلة من الطلاء، صقلها طول الاستعمال. أما الجدار الأخير فكانت تشغله ثلاث نوافذ تطل على الطريق، وكانت كل ثغرة وحصاة وثلمة مألوفةً لدى غريزة عندي منذ أمد

طويل. وكان على الجانب الآخر من الطريق شارع على جانبيه أشجار الزيزفون المتشابكة، ويلوح على امتداده سياج من الأغصان الملتفة، وفيما وراء الشارع يستطيع المرء رؤية مرجة على أحد جانبيها مخزن غلال، وعلى الجانب الآخر غابة، ويبدو على مسافة كوخ الحارس الصغير، وتشرف النافذة إلى اليمين على جانب من الشرفة المكشوفة حيث كان يجلس الكبار عادةً قبل الغذاء، فإذا تطلعت إلى هذه الناحية حيث كان يصحح كارل إيفانتش صفحة إملائك، فإنك تستطيع أن تلمح رأس أمي الأسود، وظهر شخص ما، وأن تسمع أصوات أحاديث وضحكات خافتةً، ويضايقك عدم وجودك هناك، وتقول لنفسك: «متى أصبح كبيرًا، وأنقطع عن الدروس حتى أستطيع الجلوس على الدوام مع أولئك الذين أحبهم بدلًا من هذه المحاورات؟». إن المضايقات قد تتحول إلى حزن، وتملأ رأسك جميع ضروب الأفكار الغريبة، حتى إنك لا تكاد تسمع حتى كارل إيفانتش وهو ينتهرك بسبب أخطائك..

وأخيرًا خلع كارل إيفانتش عباءته، وارتدى معطفه الأزرق ذا الذيل المشطور، والحدبات والثنيات على الكتفين، ونظَّم رباط رقبته أمام المرآة، ثم قادنا إلى الطابق السفلي لنحيي والدتنا تحية الصباح.

* * *

(٢)

أمي

كانت أمي جالسةً في الردهة تصب الشاي: تحمل بإحدى يديها إبريق الشاي، وتمسك اليد الأخرى بصنبور الغلاية التي كان يتدفق منها الماء على سطح الإبريق، وينسكب على الصفحة. وبالرغم من أنها لم تحول عنه، إلا أنها لم تشعر به، بل لم تشعر بأننا قد دخلنا. إن كثيرًا من ذكريات الماضي تقفز إلى الذهن حين يحاول المرء تذكر معالم كائن محبوب، حتى ليراها الإنسان غائمةً من خلال هذه الذكريات، كأنه يراها من خلال دموع، وهذه هي دموع الخيال. وحين أحاول تذكر أمي كما كانت في الوقت، لا يبدو لي منها شيء غير عينيها الداكنتين، اللتين كانتا تعبران دوامًا عن الحب والحنان، والخال الذي على عنقها تحت منبت خصلات الشعر الصغيرة مباشرةً، وبنيقتها البيضاء المطرزة ويدها الرطبة الناعمة التي طالما كانت تدللني، والتي طالما قبلتها: ولكن صورتها الكاملة تغيب عن ذهني.

وإلى يسار الأريكة يقوم «البيان» الإنجليزي العتيق الضخم، تجلس إليه أختي «ليوبا» ذات البشرة السمراء، تعزف في جهد واضح مقطوعات «كلمنتي» التدريبية، وقد تورد لون أصابعها إذ كانت قد غسلتها لتوها

بالماء البارد. كانت في الحادية عشرة من عمرها، ترتدي ثوبًا من الكتان، مع سروال أبيض محكم ذي شريط مخرم، واستطاعت أن تتدرب فقط على ثمانية سريعة التتابع، وجلست بجوارها ماريا إيفانوفنا وهي تكاد تنصرف عنها، وعلى رأسها غطاء ذو أشرطة وردية وسترة زرقاء. وازداد وجهها الأحمر الغاضب صرامةً حين دخل كارل إيفانتش، ورمقته بنظرة مخيفة دون أن تستجيب لانحناءته، وراحت تعد، وتدق بقدمها وفقًا للنغمات الموسيقية.. واحد، اثنان، ثلاثة –واحد اثنان، ثلاثة، وارتفع صوتها وتزايد إحكامًا عن ذي قبل.

ولم يعر كارل إيفانتش هذا أي التفات، وتقدم من أمي، وحياها بالألمانية كالمعتاد. وراحت هي تهز رأسها كما لو كانت تطارد أفكارها المؤلمة، وناولت يدها لكارل إيفانتش، وقبلته في صدغه عندما انحنى ليقبل يدها. وقال «إني أشكر العزيز كارل إيفانتش»، واستمرت في التحدث بالألمانية، فسألته قائلة:

«هل نام الأولاد نومًا هادئًا؟».

كانت إحدى أذني كارل إيفانتش صماء فلم يسمع أنئذ شيئًا قط بسبب صوت «البيان»، فزاد من انحناءته مقتربًا من الأريكة معتمدًا بإحدى يديه على المائدة، واقفًا على قدم واحدة، وفي ابتسامة خُيِّلَ إليَّ آنئذٍ أنها أسمى درجات التهذيب رفع قبعته وقال:

«أتسمحين لي يا ناتاليا نيكوليفنا؟».

لم يحدث أن خلع كارل إيفانتش قبعته الحمراء مطلقًا خوفًا من

إصابته بالبرد، ولكنه كان في كل مرة يدخل حجرة الاستقبال يطلب السماح له بلبسها.

وقالت أمي وهي تقترب منه وترفع صوتها: «دعها على رأسك يا كارل إيفانتش.. لقد سألتك عما إذا كان الأطفال قد ناموا نومًا هادئًا؟».

ولكنه للمرة الثانية لم يسمع شيئًا، ووقف بقبعته الحمراء على رأسه الأصلع، وابتسم ابتسامةً وديةً لم يبتسمها من قبل.

وقالت أمي لماريا إيفانوفنا مبتسمةً: «توقفي لحظة، فإنا لا نستطيع سماع شيء».

كان وجه أمي جميلًا، لكنه أصبح أكثر بهاءً بما لا يضارع عندما ابتسمت. ولو استطعت في لحظات الحياة الشاقة أن أخطف ومضةً وحسب من تلك الابتسامة لما عرفت للحزن معنى. ويخيل إليَّ أن ما يسمونه جمالًا، إنما يكون في الابتسامة وحدها: فإن سمت الابتسامة بسحر الوجه، فإن ذلك الوجه يكون جميلًا، فإن لم تغيره الابتسامة، فإن الوجه يكون عاطلًا من الجمال، وإن مسحته الابتسامة فإن الوجه يكون قبيحًا.

وعندما حيتني أمي أخذت رأسي بين يديها، وأحنته إلى الوراء، وتفرست في بإمعان قائلةً:

«هل كنت تبكي هذا الصباح؟».

ولم أجب، فقبلت عيني وسألتني بالألمانية:

«لماذا كنت تبكي؟».

عندما كانت تتحدث إلينا حديثًا سارًّا، كانت تخاطبنا بالألمانية التي أجادت معرفتها إلى حد الإتقان.

وقلت: «لقد بكيت أثناء النوم يا أماه». وقد تذكرت حلمي الوهمي بكل تفاصيله وأقشعر بدني برغمي لدى التفكير فيه.

وأيد كارل إيفانتش كلامي، ولكنه لم يذكر شيئًا عن حلمي، وبعد حديث قصير عن الطقس اشتركت فيه ميمي أيضًا، وضعت أمي ست قطع من السُّكَّر على الصحفة لبعض الخدم ذوى الحظوة، وذهبت إلى نول التطريز القائم عند النافذة.

والآن، اذهبا أيها الطفلان إلى والدكما، وأخبراه بضرورة حضوره إليَّ دون تأخير قبل ذهابه إلى البيدر».

وتوقفت الموسيقى والعد والنظرات المخيفة، وذهبنا إلى بابا مجتازين الحجرة التي عرفت منذ أيام جدي «بحجرة أمين المخزن»، ثم دلفنا إلى حجرة المكتب.

* * *

(٣)

أبي

واقفًا بقرب المكتب يشير إلى بعض الأغلفة والأوراق وحزم الأوراق المالية، ويتحدث بحدةٍ مع «الخولي» ياكوف ميخايلوف، «الذي كان واقفًا في مكانه المعتاد، بين الباب والبارومتر، ويداه وراء ظهره، يلف أصابعه ويلويها في توتر عصبي.

وكلما زاد غضب بابا أسرعت حركة الأصابع، وعلى العكس كلما كف عن الكلام توقفت أيضًا حركة الأصابع، ولكن حين أخذ ياكوف نفسه يتكلم، نمت أصابعه عن أشد الاضطراب. فكان يقفز بوحشية. وقد خُيِّلَ إليه أنه من المستطاع التكهن بأفكار ياكوف الخافية من حركاته، وكان وجهه من ناحية أخرى هادئًا دائمًا، معبرًا عن الشعور بالكرامة، وعن الخضوع في نفس الوقت، كأن لسان حاله يقول: «إنني على حق، ولك أن تفعل ما تشاء!».

وعندما رآنا بابا اقتصر على قوله: «انتظرا دقيقةً»، وأومأ إلينا أن نغلق الباب.

وتابع حديثه مخاطبًا الخولي وهو يهز كتفيه، وكانت هذه عادته:

«يا إلهي الرحيم! ماذا دهاك اليوم يا ياكوف؟ إن هذا الغلاف بالثمانمائة روبل التي فيه..».

وهنا حرك لوحته الحاسبة، وأحصى ثمانمائة روبل، وأخذ يتفرس في نقطة ما غير محددة، وانتظر سماع ما سيأتي بعد.

«.. فللصرف على فلاحة الأرض أثناء غيبتي، أفاهم أنت؟ إنك ستحصل من الطاحون على ألف روبل: حسنًا؟ وستحصل على ثمانية آلاف قيمة القروض من الخزينة في مقابل «الدريس» الذي تستطيع أن تبيع منه وفقًا لتقديرك الخاص بسبعة آلاف «بود»[1] -ثمنها خمسة وأربعون «كوبك»، ولنفترض أنك ستحصل على ثلاثة آلاف. والآن، كم جملة ما ستحصل عليه؟ اثنا عشر ألفًا: هل ذلك صحيح؟».

وقال ياكوف: «صحيح تمامًا يا سيدي».

ولكني رأيت من حركة أصابعه السريعة أنه كان على وشك المعارضة في نفس اللحظة حين قاطعه بابا.

وتابع بابا حديثه قائلًا: «والآن، سترسل عشرة آلاف روبل إذَنْ إلى المجلس، إلى بتروفسكوي، أما المال الذي بالإدارة» (وهنا نحى ياكوف الاثني عشر ألفًا جانبًا، وأحصى واحدًا وعشرين ألفًا) «فإنك ستحضرها لي، وتقيدها للمصروفات ابتداءً من تاريخ اليوم» (ورفع ياكوف لوحته الحاسبة مرةً أخرى، ثم قلبها رأسًا على عقب، لعله يشير بذلك إلى أن الواحد والعشرين ألفًا قد اختفت بنفس الطريقة) «أما هذا الغلاف الذي

(١) البود الواحد يساوي أربعين رطلاً تقريبًا.

ينطوي على المال، فأرسله لي بالعنوان المذكور».

كنت واقفًا بالقرب من المائدة، وألقيت نظرةً على الكتابة، كان نصها « كارل إيفانتش موير».

ولا بد أن يكون بابا قد لاحظ أنني اطلعت على عمل لا يعنيني؛ لأنه وضع يده على كتفي، وبحركة ضئيلة أشار إلى أنني يجب أن أبتعد عن المائدة، ولم أدر ما إذا كان ذلك تدليلًا أم تعنيفًا، ولكن مهما كان معناه، فقد قبلت اليد الكبيرة القوية التي استقرت على كتفي.

وقال ياكوف: «حسنًا يا سيدي، وما هي أوامرك فيما يتصل بأموال خاباروفكا؟».

وكانت خاباروفكا قريةً تابعةً لأمي.

«اتركها بالإدارة، واستغلها مهما يكن الأمر دون إذنٍ مني».

وظل ياكوف صامتًا لحظات قصيرةً، ثم أخذت أصابعه تتحرك فجأةً بسرعة زائدة، وزايلته نظرة الغباء الذليلة التي كان يتسم بها عند إصغائه لأوامر سيده، وتحولت إلى نظرة ماكرة حادة وهي نظرته الطبيعية، وجذب إليه لوحته الحاسبة، وبدأ يتكلم:

«اسمح لي يا سيدي، بيتر إلكساندروفتش أن أقرر، إن من المحال، أن ندفع للمجلس في الموعد المحدد، ولقد قلت..» ثم تابع حديثه عامدًا «لا بد لنا أن نتسلم مالًا من القروض، ومن الطاحون ومن الدريس، وكان أثناء ذكره لهذه البنود يمليها من اللوحة الحاسبة»، ثم أضاف قائلًا بعد توقف، وهو يحدج والدي بشدة: «وأخشى أن نكون قد تجاوزنا حسابنا قليلًا».

«لماذا؟».

«اسمح لي يا سيدي أن أوضح: أما عن الطاحون -فإن الطحان، زارني مرتين يطلب التأجيل، ويقسم أنه لا يملك أي مال، وهو هنا الآن، فهل تتفضل بالتحدث إليه بنفسك؟».

وسأله بابا وهو يشير بحركة من رأسه إلى أنه لا يرغب في التحدث إلى الطحان: «وماذا يقول؟».

«نفس القصة القديمة.. يقول إن ليس هناك عمل، وإن المال القليل الذي كان عنده قد صرفه على إقامة الخزان، فإذا طردناه فأي فائدة تعود علينا؟ والآن، فيما يتصل بالقروض، كما يروق لك أن تصفها، فأظنني أبلغتك توًّا أن أموالنا غارقة هناك، ولن نتمكن من الحصول عليها بسرعة. لقد أرسلت حملًا من الدقيق إلى المدينة منذ أيام قلائل،إلى إيفان أفاناستش مع مذكرة عن الموضوع، فأجاب بأنه يكون سعيدًا لو قدم خدمةً لبيتر إلكساندروفتش، ولكن الأمر ليس بيده، ومن المتعذر أن تحصل على مخالصتك في أقل من شهرين. وقد يسرك أن تتحدث عن الدريس: فلنفرض أننا بعناه بثلاثة آلاف..».

وأشار إلى الثلاثة آلاف على لوحة آلته الحاسبة، وظل صامتًا برهةً، ينظر أولًا إلى اللوحة، ثم إلى عينَي أبي كأنه يريد أن يقول:

«إنك ترى بنفسك مقدار ضآلته، هذا بالإضافة إلى أننا سنبيعه بخسارة إذا بعناه الآن، كما تعرف أنت بنفسك..».

من الواضح أنه كان يملك حصيلةً وافرةً وجاهزةً من الحديث، ولا بد

أن يكون قد قاطعه لهذا السبب.

فقال: «لن أغير من ترتيباتي، ولكن إذا حدث تأخير بالفعل في تسلم هذا المال، فلن يكن هناك إذَنْ شيء يُعمل، فلنأخذ ما هو ضروري من موارد خاباروفكا».

وكان واضحًا من تعبير وجه ياكوف ومن أصابعه أن ذلك الأمر الأخير قد منحه أكبر قدر من الرضا.

كان ياكوف عبدًا رقيقًا ورجلًا شديد التحمس والغيرة. وهو كجميع «الخولية» الأمناء، شديد التقتير لصالح سيده، ويرحب بأغرب الأفكار الممكنة فيما يتعلق بصالح سيده. وكان دائم التبرم بكل زيادة تضاف إلى أملاك سيده على حساب أملاك سيدته، وحاول أن يشير إلى ضرورة استثمار كل دخل أملاكها في بتروفسكي (القرية التي كنا نعيش فيها). وفي هذه اللحظة كان مظفرًا؛ لأنه حقق هدفه.

وحيانا بابا، وقال لنا أن الوقت قد حان لوضع حد لبطالتنا: فلم نعد بعد أطفالًا، ويجب أن نبدأ الدراسة بجد.

وقال: لعلكما تعرفان أنني ذاهب الليلة إلى موسكو، وسأصحبكما معي، وستعيشان مع جدتكما، وستبقى أمكما هنا مع الفتيات، وأنتما تعرفان أن عزاءها الوحيد هو أن تسمع أنكما تحسنان الدراسة، وأن معلميكما الخصوصيين راضون عنكم».

وبالرغم من أننا كنا نتوقع شيئًا غير عادي نتيجةً للاستعداد الذي ظل قائمًا لعدة أيام، فإن هذا الخبر سبب لنا ما يشبه الصدمة، فاحمر وجه

فولوديا، وأعاد قراءة رسالة أمي في صوت متهدج.

وقلت لنفسي: «هذا ما تنبأ به حلمي، فلا تسمح اللهم بما هو أسوأ!».

لقد أسفت كثيرًا جدًّا لأمي، ولكني سررت في نفس الوقت عندما ساورتني فكرة أننا أصبحنا كبيرين.

وقلت لنفسي: «إذا كنا سنرحل الليلة فلن نتلقى دروسًا بالتأكيد، وهذا رائع، ولكنني حزين من أجل كارل إيفانتش، إنه سيفصل دون شك، ولهذا أعد له ذلك الغلاف، .. لا، خير لنا أن نظل في دراستنا إلى الأبد، وألا نرحل ونفترق عن أمنا، لا نجرح شعور كارل إيفانتش المسكين.. إنه لتعيس جدًّا!».

وعندما ومضت هذه الأفكار في ذهني، وقفت دون حراك أتأمل الشرائط السوداء في خفي.

وبعد أن قلت لكارل إيفانتش كلمات قليلةً عن هبوط البارومتر، وأمرت ياكوف ألا يطعم الكلاب؛ لأنه قد يذهب بعد الغداء للقيام بتدريب الوداع لكلاب الصيد الصغيرة، أعادنا بابا على عكس ما كنا نتوقع إلى دروسنا، وإن كان قد طمأننا بأن وعد باصطحابنا إلى الصيد.

وفي طريقنا إلى الطابق العلوي جريت في الشرفة المكشوفة، وكانت الكلبة السلوقية «ملكا» الأثيرة عند بابا قابعةً تطرف بعينيها في ضوء الشمس عند الباب، وقلت لها وأنا أربت عليها وأُقبِّل أنفها: «ميلوتشكا، سنرحل اليوم، وداعًا! سوف لا يرى أحدنا الآخر»، وغلبتني العاطفة، فانفجرت باكيًا.

(٤)

الدروس

كان كارل إيفانتش منحرف المزاج كثيرًا، وكان هذا واضحًا من عبوس حاجبيه. ومن الطريقة التي قذف بها سترته إلى صوان الملابس، وأسلوبه الحانق في معالجة حزامه، والعلامة الغائرة التي وضعها على كراسة المحادثة مشيرًا إلى القطعة التي يجب استذكارها. واستذكر فولوديا بجد، أما أنا فقد كنت في حالة من الاضطراب بحيث لم أفعل شيئًا إيجابيًّا، وتأملت في بلادة كتاب المحادثة مدةً طويلةً، ولكني لم أستطع القراءة؛ لأن الدموع تجمعت في عيني عند التفكير في الرحيل الذي ينتظرنا. وعندما حل دوري لأعيد إلقاء القطعة على مسمع من كارل إيفانتش الذي أنصت بعينين نصف مغلقتين (وهي علامة سيئة)، ووصلتُ إلى الموضع الذي يقول فيه المرء «من أين أتيت؟» ويجيبه الآخر بقوله: «لقد أتيت من المقهى»، لم أستطع كفكفة دموعي، ومنعني نشيجي من قولي: «ألم تترك الجريدة؟».

ولما جاء وقت الكتابة، بلغت البقع التي أحدثتها دموعي المتساقطة على الورقة حدًّا خُيِّلَ إليَّ عنده أنني أكتب بالماء على ورقة تغليف.

واستشاط كارل إيفانتش غضبًا، ودفع بي إلى الركن، وصرَّح بأن هذا العمل عناد، ومهزلة صغيرة (وكان هذا تعبيره المفضل)، وهددني بالمسطرة، وأمرني أن أطلب منه الصفح، وإن كنت لم أستطع أن أفوه بكلمة بسبب بكائي، ولا بد أنه شعر آخر الأمر أنه كان غير منصف؛ لأنه دخل إلى حجرة نيكولاي وصفق الباب خلفه.

وكان الحديث في حجرة نيكولاي مسموعًا في حجرة الدراسة.

قال كارل إيفانتش وهو يدخل الحجرة: «أسمعت يا نيكولاي، إن الطفلين سيذهبان إلى موسكو؟».

وأجاب نيكولاي بلهجة تتسم بالوقار: «نعم، لقد سمعت ذلك حقيقةً».

لا بد أن تكون قد بدت منه حركة للنهوض؛ لأن كارل إيفانتش قال: «لا، لا تنهض يا نيكولاي!»، ثم أغلق الباب، وطلعت أنا من الركن وزحفت إلى الباب لأصيخ السمع.

وقال كارل إيفانتش بتأثر: «مهما عملت خيرًا للناس، ومهما كان مدى اتصالك بهم، فينبغي فيما يخيل إليَّ يا نيكولاي ألا تنتظر منهم عرفانًا بالجميل».

وأومأ نيكولاي برأسه بالإيجاب، وكان يجلس بالقرب من النافذة يعمل في صنع حذائه.

وتابع كارل إيفانتش حديثه، رافعًا عينيه وعلبة سعوطه نحو السقف: «لقد عشت في هذا البيت اثني عشر عامًا، وأستطيع أن أقول أمام الله أنني

أحببتهما، وكان ميلي إليهما أكثر منه لو كانا طفليَّ بعينهما، وإنك لتذكر يا نيكولاي حين أصيب فولوديا بالحمَّى، كيف جلست بجانب فراشه، ولم تغمض عيناي طوال تسعة أيام، حقًّا! لقد كنت آنئذ كارل إيفانتش الطيب العزيز، وكنت لازمًا لهما في ذلك الحين، ولكن الآن..» ثم أضاف بابتسامة مريرة: «الآن كبر الطفلان، ويجب أن يدرسا بجد، كأنهما لم يكونا ألبتة هنا يا نيكولاي».

وقال نيكولاي وهو يضع مخرازه ويسحب خيطه بكلتا يديه: «لو سألتني، لقررت أنهما يدرسان كما يجب أن تكون الدراسة».

فقال وهو يضع يده على صدره: «نعم، لم تعد بهم حاجة إليَّ بعد الآن، يجب أن أبعد، ولكن أين وعودهم، وأين عرفانهم بالجميل؟ إنني أحب ناتاليا نيكوليفنا واحترمها يا نيكولاي، ولكنها ماذا تكون؟ إن رغبتها لم تعد ذات أهمية في هذا البيت!!»، وألقى بقطعة من الجلد على الأرض بحركة معبرة، ثم قال في زهو: «إني أعرف سبب ذلك، وأعرف لماذا لم أعد ضروريًّا.. لأنني لا أتملق أو أستعطف كما يفعل بعض الناس.. لقد تعودت أن أقول الحق دائمًا لكل شخص.. فليدنهم الله! إن إبعادهم إياي لن يعنيهم في شيء، وسأعمل بمشيئة الله على كسب عيشي... ألا أستطيع ذلك يا نيكولاي؟».

ورفع نيكولاي رأسه، ونظر إلى كارل إيفانتش كأنه يريد أن يؤكد له هو نفسه، أنه يستطيع حقيقةً كسب معاشه، ولكنه لم يقل شيئًا.

وتحدث كارل إيفانتش كثيرًا على هذا الوجه، ولجَّ في الحديث، فقال إن خدماته قدرت أحسن من هذا بكثير في بيت الجنرال فلان،

والجنرال فلان، حيث كان يعيش من قبل (وتألمت كثيرًا لدى سماعي هذا)، وتحدث طويلًا عن سكسونيا، وعن والديه، وعن صديقه شونهيت الخياط، وما إلى ذلك.

وعطفت على حزنه، وآلمني أن بابا وكارل إيفانتش اللذين كنت أحبهما حبًّا يكاد أن يكون متساويًا، لم يفهم أحدهما الآخر، وعدت ثانيةً إلى ركني، وجلست القرفصاء أتدبر طريقة لإيجاد تفاهم بينهما.

ورجع كارل إيفانتش على التو إلى حجرة الدراسة، وأمرني أن أنهض وأعد كراستي لكتابة الإملاء. وعندما أعد كل شيء، جلس في تعاظم على مقعده ذي المسندين، وفي صوت كأنه صادر من عمق بعيد بدأ يملي عليَّ بالألمانية:

«نكران الجميل من أدعى الشهوات إلى الاشمئزاز»، ثم سألني: «هل كتبت هذا؟»، وهنا تريث قليلًا، ثم تناول في بطء قبضةً من السعوط، ثم تابع إملاءه في نشاط مجدد - «نكران الجميل أدعى الشهوات إلى الاشمئزاز.. النون حرف كبير».

وتطلعت إليه بعد كتابة آخر كلمة متوقعًا ما هو أكثر.

وقال بابتسامة مكشوفة محسوسة: «نقطة. وقف» وأومأ إليَّ لأسلمه كراستي. وقرأ هذا القول المأثور المعبر عن أعمق مشاعره عدة مرات، وبشتى أنواع التنغيم وبمنتهى الرضا، ثم قرر لنا درسًا في التاريخ، وجلس بقرب النافذة، ولم يكن وجهه مكتئبًا كما كان من قبل، بل عبر عن ابتهاج رجل ثأر لنفسه الثأر المناسب لأذى أحاق به.

كانت الساعة الواحدة إلا الربع، ولكن كارل إيفانتش لم يكن في نيته فيما يبدو أن يصرفنا، بل استمر -على العكس- في توزيع دروس جديدة.

وتزايد الضجر والجوع بدرجة متساوية، ولاحظت بأعظم قدر من نفاد الصبر جميع الدلائل التي تشير إلى قرب الغداء، فهناك قدمت المرأة بمنشفتها لغسل الأطباق، واستطعت أن أسمع آنئذ قعقعة الصحون على السكردان (البوفيه)، وسمعتهم يحركون المائدة ويضعون المقاعد، ثم دخلت ميمي من الحديقة مع ليبوتشكا وكاتنكا (كاتنكا هي ابنة ميمي الكبرى، وتبلغ من العمر اثني عشر عامًا)، ولكن لم تقع العين على فوكا، رئيس الخدم، الذي كان يأتي دائمًا فيعلن عن إعداد الغداء، وحينئذ فقط كنا نستطيع أن نلقي بكتبنا جانبًا دون أن نعير كارل إيفانتش أي التفات ونسرع بهبوط الدرج.

وسمع آنئذ صوت وقع أقدام على السلم، ولكنه لم يكن فوكا! فأنا أعرف وقع أقدامه عن ظهر قلب، وأستطيع أن أعرف دائمًا ضغط حذائه.. وفتح الباب وظهر شخص مجهول تمامًا.

❊ ❊ ❊

(٥)

الحاج

دخل الحجرة رجل في نحو الخمسين، ذو وجه مستطيل شاحب به آثار بثور، وشعر رمادي ولحية متباعدة الشعر ضاربةً إلى الحمرة، وكان من الطول بحيث لم يقتصر عند دخوله من الباب أن يحني رأسه وحسب، بل اضطر إلى الإنحاء بكل جسمه، وكان يرتدي لباسًا مهلهلًا يشبه كلًّا من «القفطان» وقباء الكاهن، وبيده عكاز غليظ يدق به الأرض بكل قوته أثناء دخوله إلى الحجرة فاغر الفم، مقطب الحاجبين، وكان يضحك بطريقة بشعة غير طبيعية. وكان أعور، لا يكف إنسان عينه الأبيض عن القفز، ليضيف إلى هيئته، مع قبح قسماته، بشاعةً تشمئز منها النفس.

وصاح: «آ، ها! لقد وجدتك!»، ثم جرى نحو فولوديا في خطوات قصار، وأمسك بيده. وبدأ يفحص قمة رأسه فحصًا دقيقًا، ثم تركه وقد ارتسم على وجهه تعبير جاد كل الجد، وسار نحو المائدة، وأخذ يدق مشمع المائدة، ويرسم فوقه علامة الصليب، وقال في صوت يتهدج بالعبرات وهو يتفرس في فولوديا متأثرًا: «آه، يا للعار! أوه، يا للأسف! إنهما سيرحلان»، ثم أخذ يمسح بكميه دموعه التي كانت تهطل بالفعل.

وكان صوته خشنًا جافًّا، وحركاته متعجلة مرتجة، وحديثه خاليًا من المعنى وغير متصل، ولكن نبراته كانت شديدة التأثير ووجهه القبيح الأصفر يتخذ أحيانًا تعبيرًا قويًّا فيه من الإخلاص والأسى ما يتعذر معه على السامع أن يكبح شعوره بالإشفاق الممتزج بالخوف والحزن.

كان هذا هو الحاج جريشا .

من أين أتى؟ ومن هما والداه؟ وما الذي أغراه باختيار حياة الحج؟ لم يعرف ذلك أحد. ولكني عرفت فقط أنه يتظاهر منذ أن كان في الخامسة عشرة من عمره بأنه أبله، يسير عاري القدمين شتاءً وصيفًا، يزور الأديرة، ويقدم صورًا صغيرةً لأولئك الذين يخطرون بخياله، وينطق بكلمات غامضة، يعتبرها بعض الناس نبوءةً. وإن أحدًا لا يعرف عنه طابعًا آخر غير هذا، وإنه كان يزور جدتي اتفاقًا، وإن البعض يقولون إنه كان ابنًا تعيسًا لأبوين ثريين، وإن روحه نقية قدسية، بينما يعتقد آخرون أنه مجرد فلاح لا يصلح لشيء.

وأخيرًا وصل فوكا المواظب على موعده والذي افتقدناه طويلًا، وهبطنا الدرج، وتبعنا جريشا وهو ينشج ويتحدث لغوًا، ويدق كل درجة من السلم بعكازه، ودخل بابا وأمي حجرة الاستقبال متشابكي الذراعين يتحدثان في صوت خفيض، وجلست ماريا إيفانوفا أولًا على أحد المقاعد ذات المسندين المرصوصة في تناسق على شكل زوايا قوائم بالنسبة للأريكة، وهي تحذر الفتيات اللائي جلسن بجوارها في صوت خفيض متجهم، ثم رفعت بصرها حين دخل كارل إيفانتش الحجرة، ولكنها لم تلبث أن أدارت وجهها بسرعة، واتخذ وجهها مسحةً يمكن

أن تفسر ما تعنيه «إنك تحت ملاحظتي يا كارل إيفانتش». وكان واضحًا في أعين الفتيات أنهن كن شديدات الرغبة في إبلاغنا بعض أخبار بالغة الأهمية بأسرع ما في الطاقة، ولكن هذا قد يكون مما يخالف قواعد «ميمي» أن يقفزن ويأتين إلينا، إذ لا بد لنا أولًا أن نذهب إليها، ونقول لها «صباح الخير يا ميمي» مع حك القدم بالأرض.

كم كانت تلك «الميمي» مخلوقةً متزمتةً!! فقد كان من العسير التحدث عن أي شيء في حضورها: كانت تعتبر كل شيء غير لائق، وتحضنا فوق ذلك باستمرار على التحدث بالفرنسية، وكان يحدث هذا كأنه نكاية بنا عندما نريد أن نثرثر بالروسية، أو في أثناء الغداء –حين تأخذ في الاستمتاع بأكلتك، وترغب في أن تترك وحدك يكون من المحقق أن تقول: «كلوا إذن الخبز» أو «كيف تمسكون بالشوكة؟»، وقد تقول في نفسك: «وماذا يكون عملها معهن، دعها تعلم فتياتها –فإن لدينا كارل إيفانتش يهتم بنا». لقد كنت أشاركه بغضه لبعض الناس كل المشاركة.

وهمست كاتنكا، وهي تمسك بي من سترتي عندما دخل الكبار إلى حجرة الطعام: «اطلبوا من أمي اصطحابنا إلى الصيد». «حسن، سنحاول». وأكل جريشا أيضًا في حجرة الطعام، ولكن على مائدة صغيرة منفصلة ولم يرفع عينيه عن صحنه، وقد تجهم تجهمًا مخيفًا، وكان يتنهد مرارًا ويتمتم لنفسه قائلًا: «وا حسرتاه لقد طارت.. ستطير الحمامة إلى السماء.. آه، هناك حجر على القبر!» وما إلى هذه العبارات.

وكانت أمي في حالة انزعاج عقلي منذ الصباح، وقد ضاعف وجود جريشا وكلماته وتصرفه على ما يظهر من انزعاجها.

وقالت أمي وهي تناول بابا طبقًا من الحساء: «آه، نعم لقد أوشكت أن أنسى أن أطلب منك شيئًا واحدًا».

«وما هو؟».

«أرجوك أن تحبس كلابك المخيفة، فقد كانت على وشك أن تعقر جريشا المسكين وهو يجتاز الفناء، وربما هاجمت الأطفال».

ولدى سماع جريشا لاسمه التفت إلى ناحية المائدة، وأخذ يكشف عن أطراف ثوبه الممزقة، ويتحدث وهو ممتلئ الفم.

«لقد أرادت أن تعقرني حتى الموت.. ولكن الله لم يدعها تفعل.. إنه لمن الإثم تحريض الكلاب! لا تضرب، يا بولشاك[1]. لماذا تضرب؟ إن الله سيغفر، لقد تغيرت الأيام الآن».

وسأل بابا وهو يتفرس فيه بجفاء وتروٍّ: «ماذا يقول، إنني لا أفهم كلمةً واحدةً». وأجابت أمي: «حسن -أنا فهمت، فهو يقول أن أحد الصيادين حرض كلابه عليه قاصدًا -فيما يقول- أن تعضه حتى الموت وهو يتوسل إليك ألا تعاقب الرجل على فعلته».

وقال بابا: «آه، عرفت، ولكن كيف يعرف أنني أقصد معاقبة الصياد؟ إنك تعلمين أنني لست شديد الولع بهؤلاء السادة»، ثم أضاف بالفرنسية «وهذا الشخص بنوع خاص لا يروق لي، وينبغي أن..».

وقاطعته أمي، كما لو كانت مذعورةً: «آه، لا تقل ذلك، فماذا تعرف عنه؟».

---

(١) البولشاك هو كبير القرية أو العائلة أو الجماعة.

«أظن أن الفرصة كانت كافيةً لديَّ لمعرفة وسائل هؤلاء الناس عن ظهر قلب: ويأتي إليَّ منهم عدد كاف...وهم جميعًا على غرار واحد، والقصة نفسها تتكرر المرة بعد المرة».

كان من الواضح أن رأي أمي مختلف كل الاختلاف في هذه النقطة ولكنها لم تناقش.

وقالت: «ناولني فطيرةً من فضلك، أهي اليوم لذيذة؟».

واستمر بابا في حديثه وهو يتناول بيده فطيرةً، ولكنه يمسك بها على مسافة بعيدة عن متناول يد أمي قائلًا: «إنه ليضايقني أن أرى أناسًا عقلاء مثقفين يقعون في الفخ».

ثم ضرب المائدة بشوكته.

وأعادت أمي عبارتها وهي تمد يدها: «لقد طلبت أن تناولني فطيرةً».

واستمر بابا في حديثه وهو يبعد يده عن ذي قبل: «وهم يحسنون صنعًا حين.. يقبضون على أمثال هؤلاء الناس». ثم أضاف مبتسمًا إذ أدرك أن حديثه قد ضايق أمي كثيرًا، وناولها الفطيرة وهو يقول: «والخير الوحيد الذي يفعلونه هو إفساد الأعصاب الضعيفة عند أفراد معينين».

عندي شيء واحد فقط أقوله في هذا الموضوع: «إنه لمن العسير أن أصدق أن رجلًا -بالرغم من بلوغه سن الستين- يسير عاري القدمين صيفًا وشتاءً، ويعلق سلاسل تزن «بودين» لا يخلعها مطلقًا من تحت ثيابه، ويرفض أكثر من مرة عرضًا يهيئ له حياةً ميسرةً- من العسير أن أصدق أن مثل هذا الرجل يفعل كل هذا لمجرد الكسل».

وأضافت أمي وهي تتنهد بعد تريث: «أما عن التنبؤ، فقد تقاضيت ثمن إيماني به، وأظنني ذكرت لك كيف تنبأ كريوشا بنفس اليوم ونفس الساعة التي توفي فيها والدي».

وقال بابا مصطنعًا الفزع وهو يضحك ويضع يده على فمه، من الناحية التي تجلس فيها ميمي: «آه، يا عزيزتي، ماذا فعلت بي!» (وعندما كان يفعل هذا كنت أصغي بانتباه شديد متوقعًا سماع شيء مسلٍّ) لماذا ذكرتني بقدميه؟ لقد نظرت إليهما، ولن أستطيع الآن أكل أي شيء.

كان طعام الغداء قد أوشك على النهاية، وكان ليوبوتشكا وكاتنكا تغمزان لنا دون توقف وهما تتململان على مقعديهما وأظهرتا قلقًا كبيرًا، وكانت غمزاتهما تشيران بطبيعة الحال إلى السؤال: «لماذا لم تطلبوا منهما اصطحابنا إلى الصيد؟». ووكزت فولوديا بكوعي، ووكزني فولوديا، وأخيرًا استجمع شجاعته: فأوضح أول الأمر في صوت هياب، ثم في صوت راسخ ومرتفع كل الارتفاع بعد ذلك، قائلًا: «إنه لما كان لا بد لنا أن نرحل في ذلك اليوم، فإنا نحب أن نصحب الفتيات في العربة إلى الصيد»، وبعد مشاورات قصيرة جرت بين الكبار، تقرر الأمر لصالحنا، وكان أكثر ما يدعو إلى البهجة قول أمي إنها ستأتي معنا هي الأخرى.

* * *

(٦)

الإعداد للصيد

وفي أثناء تناول الحلوى بعد الطعام، استدعى ياكوفا، فتلقى الأوامر الخاصة بالعربة والكلاب وخيل الركوب -فنسق كل شيء بأعظم جانب من التفصيل، وعين كل حصان باسمه. وكانت مطية فولوديا عرجاء: فأمر بابا بأن يسرج له حصان صيد، وكانت عبارة «حصان صيد» غريبة الوقع دائمًا على أذني أمي: كان يبدو لها أن «حصان الصيد» لا بد أن يكون ذا طبيعة كطبيعة الحيوان المفترس، ومن المحقق أنه سيجري بفولوديا ويقتله، وبالرغم من تأكيدات بابا وفولوديا كلها -وتصريح فولوديا بشدة أنه ملائم كل الملاءمة، وأنه يحب الحصان حين يسرع- فإن أمي المسكينة أصرت على أنها ستكون منزعجةً طوال الرحلة.

وانتهى الغداء، وذهب الكبار إلى المكتبة ليشربوا القهوة، بينما جرينا نحن إلى الحديقة لنحك أقدامنا على الممرات المغطاة بأوراق الأشجار اليابسة الصفراء، وللتحدث عن ركوب فولوديا حصان الصيد، ومدى ما لحق ليوبوتشكا من خجل؛ لأنها لم تستطع أن تضارع كاتنكا في السرعة وما كان من مزاحنا حين رؤية سلاسل جريشا، وما إلى ذلك. ولم تصدر كلمة واحدة عن افترقنا، وقطع حديثنا وصول العربة، وكان

يجثم على كل «ياي» منها خادم، وجاء الصيادون بكلابهم وراء العربة يتبعهم الحوذي إجنات راكبًا الحصان الذي عقد العزم على أن يركبه فولوديا، يقود حصاني الصغير من لجامه. واندفعنا إلى السياج لكي نشهد كل هذه الأشياء المسلية، ثم صعدنا الدرج طائرين نتصايح ونضرب بأقدامنا الأرض؛ لكي نرتدي ملابس أقرب ما تكون إلى ملابس الصيادين ما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، وكانت إحدى الوسائل لتحقيق هذه الرغبة هي أن نحشو سراويلنا في أحذيتنا الطويلة، ولم نضع وقتًا في هذا العمل، واندفعنا إلى الخارج قاصدين إلى سقيفة الباب لإمتاع أعيننا بالكلاب والجياد، والثرثرة مع الصيادين.

كان اليوم حارًّا، وكانت السحب البيضاء ذات الأشكال الخيالية تحوم فوق الأفق منذ الصباح، وبعد قليل بدأ يدفعها نسيم خفيف، فتقترب شيئًا فشيئًا، حتى كانت تخفي قرص الشمس الفينة بعد الفينة. وبالرغم من حلكة هذه السحب وتكاثرها، فقد كان واضحًا أنها لا تنذر بالتجمع لإحداث عاصفة مرعدة تعكر علينا صفونا في آخر يوم لنا، وأخذت تتفرق ثانيةً قرابة المساء: فشحب لون بعضها، واستطالت ثم أسرعت إلى الأفق وتحول بعضها، المسامت لنا مباشرةً، إلى حلقات شفافة، ولم تبق غير سحابة كبيرة داكنة تتسكع نحو الشرق، وكان كارل إيفانتش يعرف دائمًا المكان الذي يتجه إليه كل نوع من أنواع السحب، فأعلن أن هذه السحابة ستتجه إلى ماسلوفكا، وأن المطر لن يهطل، وأن الطقس سيكون لطيفًا.

وجرى فوكا بالرغم من تقدم سنه، فهبط الدرج على جانب عظيم من الرشاقة وصاح قائلًا: «انطلق!» ومكن لقدميه المنفرجتين، واتخذ لنفسه

موقفًا وسط المدخل بين النقطة التي ينبغي أن تقف فيها العربة، وبين عتبة الباب، فكان في وضع الرجل الذي لا يحتاج إلى من يذكره بواجبه. وتبعته السيدات، وبعد نقاش قصير حول من سيجلس على الجانبين، ومن سيمسك به (مع ما كان يبدو لي من عدم وجود أي ضرورة للتشبث بأحد قط)، وجلسن ثم فتحن مظلاتهن، وسارت بهن العربة، وأشارت أمي عندما بدأت العربة[1] سيرها إلى حصان الصيد، وسألت الحوذي في صوت متهدج قائلةً:

«هل ذلك هو الجواد الذي أعد لفلاديمير بتروفتش؟».

وعندما أجاب الحوذي بالإيجاب، أشارت بحركة يسيرة من يدها، وأشاحت بوجهها، وكنتُ نافد الصبر؛ امتطيت جوادي، ونظرت مباشرةً فيما بين أذنيه، وأخذت في عمل مناورات مختلفة في الفناء.

وقال لي أحد الصيادين: «احذر من فضلك أن تدوس أحد الكلاب». فأجبته في تعال: «لا تقلق؛ لقد ركبت الجياد من قبل».

وامتطى فولوديا حصان الصيد، ولكن اعترته رجفة خفيفة بالرغم من طبعه العنيد، وسأل عدة أسئلة بينما كان يربت عليه:

«أهو سلس القياد؟».

وكان يبدو جميلًا على صهوة الحصان، كأنه أحد الكبار، وكانت فخذاه على السرج في جلسة بالغة الإتقان، حتى لقد غبطته عليها، وخاصةً

---

(١) نوع خاص من العربات القليلة الارتفاع المستعملة في روسيا، وهي ذات أربعة مقاعد، ويُطلق عليها «لينيكا **Lineika**».

لأنني حكمت بقدر ما استطعت أن أميز من ظلي، أنني أبعد ما أكون عن تمثيل رشاقة المظهر.

ثم سمعنا وقع أقدام بابا على السلم، فساق ملاحظ الكلاب الصغيرة كلاب الصيد المتفرقة، وجمع الصيادون كلابهم السلوقية وبدأوا يمتطون جيادهم، وقاد «السايس» الحصان إلى السلم، واندفعت كلاب بابا التي كانت راقدةً هنا وهنالك في أوضاع مختلفة وجرت نحوه، وجاءت بعدهم «ملكا» في طوقها المزين بالخرز، تجلجل بلجامها الحديدي في مرح، وكانت تحيي الكلاب الأخرى على الدوام حين تخرج، فتلعب مع البعض، وتشمشم أو تزمجر للبعض وتصيد البراغيث من الأخرى.

وامتطى بابا حصانه، ومضى.

* * *

(٧)

الصيد

كان كبير الصيادين، ويُدعى توركا، يركب حصانًا رماديًّا داكنًا في المقدمة، ويلبس قبعةً شعثاء، ويضع على كتفه بوقًا ضخمًا، وفي حزامه سكينًا، فسرعان ما يخيل للمرء إذا حكم على مظهر الرجل أنه ذاهب إلى نزال مميت، لا إلى رحلة صيد، وتجري خلف حصانه كلاب الصيد، متزاحمةً كأنها حزمة متعددة الألوان متماوجة.. وكان من المؤلم أن ترى ما حدث للكلب التعس، الذي أصر على السير متمهلًا في الخلف، وكان لا بد له أن يجر مقوده معه، ولذلك فما إن فعل هذا، حتى سارع واحد من ملاحظي الكلاب الراكبين بالمؤخرة فلسعه بسوطه قائلًا: «هيا إلى الجماعة».

وعندما برزنا من الأبواب، أصدر بابا أمره إلينا، وإلى الخدم أن نسير قدمًا في الطريق، بينما عرج هو إلى حقل جاودار[١].

كان محصول الحبوب في كامل نموه، والحقل الأصفر المشرق الممتد إلى ما وراء البصر يحيط به من جانب واحد فقط غابة سامقة

(١) نبات يشبه الشعير.

زرقاء، كان يخيل إليَّ في ذلك الحين أنها في مكان شديد البعد والغموض تنتهي فيما وراءه الدنيا، أو يبدأ عنده إقليم غير مأهول، وكان الحقل مرقطًا بأكداس من الحزم ومن الناس، وكنت ترى هنا وهنالك على امتداد المماشى ظهر امرأة حصَّادة محنية بين سنابل القمح وهي تتناولها بين أصابعها، أو امرأةً أخرى مكبةً فوق مهد وضع في مكان ظليل، أو حزمًا متفرقةً فوق أعقاب الحنطة التي تشيع فيها أزهار العنبر، والفلاحين على مبعدة يرتدون القمصان الطويلة، ويقفون على عربات يوثقونها بالحزم، ويثيرون سحبًا من الغبار على الحقول الجافة التي لفحتها الشمس. وما إن لمح بابا من مسافة بعيدة النبيل صاحب الأرض بحذائه الطويل، وقد أمسك فوق كتفيه الأرمباك[1] وأمسك بقوائم الحساب، حتى خلع قبعته المصنوعة من صوف الخراف، ومسح بمنشفة شعر رأسه ولحيته الضارب إلى الحمرة، ونادى النساء. وركض الجواد الأشقر الذي يمتطيه بابا خببًا في خطوة نشيطة لعوب، يحني رأسه ويشد شكيمته الفينة بعد الفينة، ويهف بذيله الغزير البعوض والذباب الذي التصق به متعطشًا إليه، وكان كلبا صيد بذيلهما الملتويين كالمنجل يقفزان في أذيال الجواد برشاقة فوق بقايا أعواد الحنطة، وجرت «ملكا» في المقدمة، وقد أدارت رأسها إلى الخلف مترقبةً. إن طنين الأصوات وضوضاء الخيل والعربات وزقزقة السمان، وأزيز الحشرات المعلقة أسرابًا في الهواء، ورائحة الشيح والدريس وعرق الخيل، وآلاف الألوان والظلال المتباينة التي تعكس الشمس الحارقة فوق بقايا أعواد الحنطة اللامعة، والغابة الزرقاء النائية،

---

(١) سترة طويلة فضفاضة يرتديها الفلاحون.

والسحب البنفسجية الشاحبة، وخيوط العناكب البيضاء الطافية في الهواء أو المستقرة على بقايا أعواد الحنطة... كل ذلك رأيته وسمعته وأحسسته.

وعندما بلغنا غابات كالينوفو، وجدنا العربة هنالك، ووجدنا على غير أي توقع منا، المركبة التي جلس فيها خادم المائدة، وقد برز من تحت القش إبريق الشاي وقصعة ملآى بالمثلجات، وغير ذلك من مختلف الأسفطة والسلال الأخرى، التي يشحذ منظرُها الشهيةَ، وهذه دلائل لا تخطئ على أننا سنتناول الشاي والقشدة المثلجة والفاكهة في الهواء الطلق. وهتفنا بهجة لدى رؤية المركبة؛ إذ كان شرب الشاي في الغابات على الحشائش، وبخاصة في مكان لم يشربه فيه إنسان من قبل يُعَدُّ وليمةً كبرى.

وحضر توركا إلى هذه الغابة الصغيرة، ووقف مصغيًا بانتباه إلى توجيهات بابا الدقيقة كطريقة وقوفهم ومكان هجومهم (بالرغم من أنه لم يتبع مطلقًا هذه التوجيهات، وكان يعمل بالضبط ما يروقه)، ففك الكلاب ورتب الأربطة على مهل، وامتطى جواده، واختفى وراء أشجار البتولا الصغيرة، وبصبصت كلاب الصيد بأذنابها من فرحتها لفك إسارها، فهزت أجسامها وتشممت الأرض، ثم ولت الأدبار في شتى الاتجاهات وهي لا تزال تبصبص بأذنابها.

وسألني بابا: «ألديك منديل؟».

فأخرجت منديلًا من جيبي، وأريته إياه.

«حسن، اربطه في هذا الكلب الرمادي».

فتساءلت بلهجة العارف قائلًا: «زيران؟».

«نعم. اركض معه في الطريق، فإذا ما وصلت إلى مرجة صغيرة، قف وتلفت حولك ولا ترجع إليَّ من دون أرنب بري».

لففت المنديل حول رقبة «زيران» المشعثة الشعر، وانطلقت بسرعة قاتلة إلى المكان المعين، فضحك بابا وصاح بي قائلًا:

«أسرع، أسرع، وإلا تأخرت كثيرًا».

وظل «زيران» واقفًا، يرهف أذنيه، يتسمع إلى أصوات المطاردة فجذبته بكل قوتي، ولكني لم أستطع حمله على الحركة حتى صحت به أستحثه: «هيا، هيا»، فانفلت مسرعًا بحيث لم أملك منعه إلا بشق النفس، وسقطت غير مرة قبل أن أصل إلى مكاني، وتخيرت مكانًا مستويًا ظليلًا عند أصل شجرة سنديان، حيث استلقيت على الحشائش، وجعلت زيران يرقد إلى جانبي، وانتظرت. لقد سبق خيالي الواقع بكثير كما يفعل دائمًا في مثل هذه الأحوال، فكنت في تصوري كأنني أُطارد بالفعل حين سمعت عواء أول صيد وجلجل صوت توركا عاليًا واضحًا داخل الغابة، وارتفع صوت صيد باك، وتكرر الصوت مرةً ومرةً، ثم لحق به صوت آخر أشد عمقًا، ثم ثالث ورابع، ولكن هذه الأصوات كانت تنخفض، ثم ترتفع مرةً أخرى، كل منها يطغى على الآخر. ثم تعالت الأصوات شيئًا فشيئًا حتى ضاعت كلها في جلبة مستمرة، واستعادت الغابة لغتها كما يقول الصيادون، فلقد انطلقت حيوانات الصيد في أسرع عدو.

وتسمرت في مكاني، وثبتُّ عينيَّ على حافة الغابة، وابتسمت في

بلاهة، وكنت أتقطر عرقًا، ومع أن القطرات كانت تدغدغني وهي تسيل على ذقني، فإنني لم أمسحها، فكانت هذه اللحظة كما بدا لي أكثر الأشياء حسمًا، وكان موقف الترقب هذا أقسى من أن يستمر طويلًا، وكانت تصدر صيحة حيوانات الصيد آنًا من حافة الغابة، ثم تتراجع آنًا، ولكن لم يظهر هناك أي أرنب بري، وتطلعت فيما حولي، وكان زيران في نفس الحالة، يشد في عنف وينشج في أول الأمر، ثم رقد بجانبي واضعًا أنفه على ركبتي، ولاذ بالهدوء.

وتجمعت أسراب النمل حول جذور شجرة السنديان العارية التي جلست تحتها، بأعداد لا حصر لها فوق الأرض الرمادية الجافة، بين أوراق أشجار السنديان الذابلة وثمار البلوط وأعواد الطحلب النامية، والطحلب الأخضر الضارب إلى الصفرة، وأوراق الحشيش الأخضر الرفيعة، تسرع الواحدة إثر الأخرى على امتداد درب صنعته هي لنفسها، بعضها مثقل بحمله، والبعض الآخر لا يحمل شيئًا ألبتة، والتقطت غصنًا، اعترضت به طريقها، وكان من العجيب أن أرى بعضها وقد تسلق الغصن مستخفًا بكل خطر، بينما ارتبك بعضها الآخر فيما يظهر، وبخاصة من لم يكن يحمل شيئًا، فلم يعرف ماذا يفعل، فتوقف، وبحث عن طريق آخر يدور حوله، أو عاد أدراجه أو زحف فوق الغصن حتى بلغ يدي، بقصد الدخول في كم سترتي على ما بدا لي. وقد صرفتني عن هذه الملاحظات المسلية فراشة ذات أجنحة صفراء كانت ترفرف أمامي بصورة مغرية، فما إن وجهت إليها انتباهي، حتى طارت مبتعدةً عني مسافة خطوتين، تحوم حول برعم طرفي من البرسيم البري الأبيض الموشك على الذبول فاستقرت عليه،

ولا أدري ما إذا كانت تريد أن تدفئ نفسها في الشمس، أم لتمتص من هذا العشب عصارته، ولكن كان من الواضح أنها تستمتع. وكانت بين آونة وأخرى ترفرف بجناحيها وتقترب من الزهرة، ثم توقفت في النهاية عن الحركة، فأسندت رأسي بكلتا يدي، وأخذت أتطلع إليها بسرور.

أخذ «زيران» على حين غرة يعوي، وجذبني جذبةً كدت أسقط من جرائها، وتطلعت، فإذا أرنب بري يقفز عند حافة الغابة، متدلية إحدى أذنيه والأخرى مرفوعة، واندفع الدم إلى رأسي، ونسيت لساعتي كل شيء آخر، وأطلقت صيحةً طائشةً، وأفلت الكلب يعدو وراءه. ولكني أسفت بعد برهة أنني فعلت هذا -إذ أقعى الأرنب ثم وثب، ولم أر شيئًا أكثر من ذلك.

ولكن كم كانت مذلتي حين تبعد حيوانات الصيد التي خرجت إلى حافة الغابة تعوي، وظهر توركا من وراء الآيلة! فرأى غلطتي (وهي عدم انتظاري) وتفرس فيَّ باحتقار قائلًا: «يا سيدي!!»، ولم يقل غير ذلك، ولكن لهجته جعلتني أتمنى لو علقت في سرجه مثل الأرنب.

ووقفت برهةً طويلةً في نفس البقعة، يائسًا أعمق اليأس، فلم أنادِ على الكلب ولم أستطع عمل شيء إلا أن أضرب فخذي، وأكرر هذا مرارًا قائلًا: «آه، يا عزيزي، ماذا فعلت!».

وسمعت أصوات عَدْو حيوانات الصيد عن بعد، سمعتها تعدو بأسرع ما تطيق على الجانب الآخر من الغابة، وتقتل الأرنب البري، وتوركا يستدعي الكلاب بسوطه الطويل: «ولكني ظللت جامدًا لا أتحرك من مكاني».

(٨)

الألعاب

انتهى الصيد، وفُرش بساط في ظل أشجار البتولا الصغيرة، واجتمعت الزمرة كلها حوله، وداس جافريلو خادم المائدة الحشيش الريان الأخضر تحت قدميه، وجفف الأطباق، وأفرغ سلال البرقوق والخوخ الملفوف بالورق، وكانت الشمس تضيء من خلال أغصان البتولا الصغيرة الخضراء، وتلقي من حولنا أشعةً مرتجفَّة، على رسوم البساط، وعلى قدمي، بل على رأس جافريلو الأصلع المندي بالعرق، وكان يهب نسيم هادئ منعش من بين الأوراق يداعب شعري، ووجهي ينضح بالبخار.

وعندما أتينا على المثلجات والفاكهة، لم يعد هناك شيء يربطنا بالبساط، وبالرغم من ميل الشمس التي كانت أشعتها لا تزال حاميةً، نهضنا، وانصرفنا إلى اللعب.

وقالت لبوبتشكا وهي تحجب عينيها عن الشمس، وتثب فوق الخضرة: «وماذا نفعل الآن؟ فلنلعب روبنصن!».

وقال فولوديا وهو يتمرغ متكاسلًا فوق الخضرة ويمضغ ورقةً: «لا،

إنها لعبة متعبة، ونحن نلعب روبنصن دائمًا! فإن كان لا بد من لعب شيء ما، فلنبن تعريشةً».

وكان من الوضح أن فولوديا كان يتصنع: لا بد أنه كان فخورًا، لأنه ركب حصان الصيد، فادعى إنه متعب للغاية، أو أنه يمتاز بقسط كبير من حسن الإدراك، وقسط ضئيل جدًّا من الخيال، لا يجعله يستمتع إلى أقصى حد بلعبة روبنصن، وتتضمن هذه اللعبة تمثيل مناظر مختلفة من روبنصن السويسري[1] التي كنا قد قرأناه منذ وقت ليس ببعيد.

وألحت الفتيات، فقالت كاتنكا وهي تحاول جذبه من على الأرض من كمي سترته: «آه، نرجوك... لمجرد إدخال السرور إلى قلوبنا!».

«إنك ستقوم بدور تشارلز، أو إرنست، أو الأب، أو أي دور تريد».

فقال فولوديا وهو يتمدد مبتسمًا راضيًا عن نفسه: «إنني لا أريد اللعب في الحقيقة، إنه يبعث على الضجر».

وقالت ليوبتشكا من خلال دموعها: «كان من الأفضل أن نبقى في البيت إذا كان لا يريد أحد منا أن يلعب».

وبكت، وكان بكاؤها مزعجًا، كما يكون بكاء الطفل.

«تعالي إذَنْ، وحسبك أن تكفي عن البكاء، فأنا لا أستطيع احتماله».

ولم يمنحنا تنازل فولوديا إلا قدرًا قليلًا جدًّا من الارتياح. بل على العكس، أفسدت نغمته الثقيلة المتكاسلة كل ما في اللعب من فتنة، وحين جلسنا على الأرض متخيلين أننا سنخرج في رحلة لصيد السمك وأخذنا

---

(١) أسرة روبنصن السويسرية.

نجدف بكل قوتنا، أصر فولوديا على الجلوس، وقد طوى ذراعيه في وضع مصطنع يصلح لأي شيء آخر غير وضع صياد السمك. وقد قلت له ذلك، ولكنه أجاب بأننا سوف لا نكسب مع ذلك شيئًا من التلويح بأذرعنا، وأننا لن نسير بالتأكيد إلى أبعد من ذلك، وقد وافقته كارهًا. وعندما تظاهرت بأننا سنذهب للقنص وخرجنا إلى الغابات، ووضعت العصا على كتفي، انطرح فولوديا وظهره على الأرض، واضعًا يديه تحت رأسه، وطلب مني أن أتظاهر بذهابه هو الآخر. وأدت مثل هذه الأحاديث والتصرفات إلى فتور اهتمامنا بالصيد، وأصبحت بغيضةً إلى أقصى حد، وبخاصة أنه لم تكن لنا حيلة في شعورنا بأن فولوديا كان على حق.

كنت أعرف، أنا نفسي، أن إطلاق النار على طائر بواسطة عصا، فضلًا عن قتله، أمر مستحيل، ولكن هذا لم يكن غير لعب، فإن عللت الأمر تعليلًا عقليًّا على هذه الصورة، فإنك بالمثل لا تستطيع أن تجعل من المقاعد مطيةً تركبها. ولكني ظننت أن فولوديا نفسه لا بد قد تذكر كيف كنا في أمسيات الشتاء الطويلة نغطي مقعدًا ذا مسندين بالقماش ونجعل منه عربة ذات عجلات صغيرة. وبينما كان أحدنا يركب في مكان السائق كان الآخر يقوم بدور السايس، وتجلس الفتيات في الوسط، بالإضافة إلى ثلاثة مقاعد تمثل جياد العربة (ترويكا)[1] الثلاثة، ثم نخرج إلى رحلة، وكم من مغامرات مثيرة كانت تقابلنا في الطريق! فإن التُزمت الحقائق، لما كانت هناك ألعاب، وإذا ذهبت الألعاب فماذا يبقى بعدها؟!

(١) ترويكا: اسم لنوع خاص من العربات المعروفة في روسيا، وتجرها ثلاثة جياد جنبًا لجنب.

(٩)

شيء كالحب الأول

تظاهرت ليوبتشكا بأنها تقطف بعض الفاكهة الأمريكية من شجرة، فنزعت ورقةً عليها دودة كبيرة، فألقتها على الأرض في فزع، ورفعت يديها، واندفعت إلى الخلف، كما لو كانت تخشى أن تقذفها ببعض السم. وتوقف اللعب، وانحنينا جميعًا لفحص هذا الشيء الغريب، فتقاربت رؤوسنا بعضها إلى بعض.

ونظرت من فوق كتف كاتنكا وهي تحاول التقاط الدودة على ورقة وضعتها في طريقها.

لقد لاحظت أن فتيات كثيرات لهن طريقة انتفاضة خاصة بأكتافهن لسحب ثيابهن ذوات الفتحات الواسعة عند نحورهن لردها إلى مكانها عندما تنزلق، وأذكر أن هذه الحركة كانت دائمًا تغضب «ميمي» فتقول: «هذه حركة تليق بخادمة حجرة النوم»، وقد أتت كاتنكا هذه الحركة وهي تنحني فوق الدودة، وفي نفس اللحظة أطاحت الريح بالمنديل الأبيض من على عنقها فأصبح كتفها الصغير على مسافة قيراطين من شفتي ولم أعد بعد أنظر إلى الدودة. تفرست وتفرست في كتف كاتنكا، ثم قبلته

بكل قوتي، ولم تلتفت وراءها، ولكني لاحظت أن عنقها بل وأذنيها استحالا إلى اللون الأحمر، وقال فولوديا باحتقار دون أن يرفع رأسه: «يا لها من رقة!».

ولكنَّ عينيَّ امتلأتا بالدموع.

لم أستطع أن أحول عينيَّ عن كاتنكا، لقد ألفت منذ مدة طويلة وجهها الصغير الغض وأحببته دائمًا، ولكني بدأت الآن ملاحظته بانتباه أكثر، ولا أزال أحبه بدرجة أعظم.

وعندما لحقنا بالكبار، كان أشد ما أبهجنا أن أعلن أبي بناءً على رجاء أمي، تأجيل رحيلنا إلى اليوم التالي.

وركبنا العربة إلى البيت، وعدونا راكبين، فولوديا وأنا، إلى جانب العربة، نتنافس معًا في استعراضنا للفروسية والجسارة. كان ظلي أطول من ذي قبل، وتخيلت قياسًا على ذلك أنني أبدو كفارس لطيف جدًّا، ولكن هذا الشعور بالرضاء عن الذات سرعان ما تحطم نتيجة للحادث التالي: فلرغبتي في أن أفتن جميع الراكبين في العربة، تخلفت إلى الوراء قليلًا، وبضربة سوط وغمزة مهماز حينذاك أطلقت حصاني إلى الركض، وتظاهرت برشاقة غير متكلفة بقصد الانقضاض مارًّا بهم كالإعصار، من الجانب الذي كانت تجلس فيه كاتنكا. ولكن في الوقت الذي كنت أحاول فيه بالضبط أن أقرر ما إذا كان الأفضل أن أركض صامتًا أم أصيح وأنا أمر بهم، وقف الحصان القذر على غير توقع مطلقًا عندما وصل إلى جياد العربة، حتى إنني طرت من على السرج إلى عنقه، وكدت أن أقع بعيدًا عن ظهره.

(١٠)
أي نوع من الرجال كان أبي

كان رجلًا ينتمي إلى القرن الماضي، وأخلاقه مزيج لا يمكن تفسيره من الفروسية والإقدام والثقة بالنفس والمروءة والدعارة الشائعة في شباب ذلك العهد، وكان ينظر باحتقار إلى الجيل الحاضر. وقد نشأت نظرته هذه إلى هذا الحد من الكبرياء الفطرية، وكذلك من غيظ باطن لعدم قدرته على حسن استخدام انتصارات عصرنا أم الاستمتاع بها كما استمتع في أيامه السالفة. وكانت الشهوات المسيطرة على حياته هي لعب الورق والنساء. ولقد كسب في مجرى حياته الملايين من لعب الورق، وكانت له علاقات مع نساء لا يحصيهن الحصر من جميع الطبقات.

كان طويلًا ذا منظر جليل، ومشية متأنقة غريبة، فيه لازمة هز الكتفين، ذا عينين صغيرتين ضاحكتين أبدًا، وأنف كبير أعقف، وشفتين غير عاديتين بل غريبتين، وإن كانتا مضمومتين بلطف، ألثغ اللسان أصلع الرأس. كان هذا مظهر بابا منذ الوقت الذي فطنت له، وهو مظهر لم يكسب به شهرته كرجل واسع الثراء، وحسب -كما كان في الواقع-، بل ليجعل نفسه محبوبًا عند كل الناس دون استثناء -أناس من جميع الطبقات والمراكز، وبخاصة أولئك الذين كان يحب إرضاءهم.

وكان يعرف كيف يكون صاحب اليد العليا على الجميع، وبالرغم من أنه لم يكن ينتمي إلى طبقة راقية جدًّا، فإنه كان يتحرك دائمًا في تلك المجالات، ويدبر الأمر بحيث يكون موضع احترام الجميع، وكان يعرف بالضبط الدرجة التي تصل إليها كبرياؤه وثقته بنفسه، وهما اللتان رفعتا من قدره في نظر العالم دون أن يغض من قدر الآخرين. وكان مبدعًا، وإن لم يكن هكذا على الدوام، واستخدم إبداعه أحيانًا، بديلًا للسلالة أو الثروة، ولم يكن في الحياة شيء يمكن أن يثير شعوره بالدهشة: فبرغم نباهة مركزه، كان يبدو أنه وُلد له، ولا يملك المرء إلا أن يحسد قدرته على الاختفاء عن الآخرين، وإبعاد الجانب المظلم من الحياة، بكل مضايقاته ومنغصاته الصغيرة.

وكان خبيرًا بجميع الأشياء التي تهيئ الراحة أو السرور، ويعرف كيف يستمد منها أكبر فائدة، ويزهو بعلاقاته الممتازة التي كوَّنها عن طريق زواجه بأمي من ناحية، وعن طريق أصدقاء شبابه من ناحية أخرى. وكان يحمل لهؤلاء حقدًا دفينًا؛ لأنهم ارتقوا جميعًا في وظائفهم، بينما ظل هو نقيبًا متقاعدًا من قوة الحرس. ولم يكن يعرف كبقية الضباط القدماء كيف يرتدي الملابس على الطراز الحديث، ومع ذلك، فإن رداءه كان مبتكرًا وأنيقًا، وثيابه دائمًا فضفاضةً خفيفةً، وملابسه الداخلية البيضاء من أفخر الأنواع، وأكمامه وبنيقاته الواسعة مثنية إلى الخلف، فكان كل شيء يرتديه يلائم في الحقيقة طوله ومظهره القوي، ورأسه الأصلع، وحركاته الهادئة الواثقة. وكان رقيق الشعور، بل سريع الانفعال لدرجة البكاء، فإذا ما بلغ أثناء قراءته بصوت مرتفع فقرةً مثيرةً للشجن،

فإن صوته يأخذ في التهدج، ويسقط منه الكتاب في معظم الأحيان، وكان يحب الموسيقى، ويغني بمصاحبة «البيان»، ويهوى القصص التي كتبها صديقه وأغاني الغجر، وقليلًا من نغمات الأوبرا، ولكنه لا يأبه بالموسيقى الجادة، ويقول صراحةً، مزدريًا الرأي العام، إن سوناتا بتهوفن تسلمه إلى النوم، وإنه لم يعرف ما هو أروع من «لا توقظ الصبية» كما تغنيها مدام سيمنوفا، و «لا أحد إلا أنت» كما تغنيها المرأة الغجرية تانيوشا. وكانت طبيعته من تلك الطبائع التي لا غنى للشعب عن مآثرها. ولم يكن يقدر أو يحترم إلا تلك التي تواضع العالم كله على تقديرها أو احترامها. وسواء أكان يدان أخلاقيًّا أم لا، فهذا من العسير القول به، فلقد كانت حياته مليئةً للغاية بالدوافع من كل صنف، حتى إن وقته لم يتسع للتفكير فيها، وكان هانئًا في حياته فلم يجد ضرورة للتفكير.

وعندما تقدمت به السن، اكتسب وجهةً معينةً في الحياة، وقانونًا جامدًا للسلوك، كان برغم ذلك عمليًّا خالصًا؛ فهذه الأعمال وهذه الطريقة في الحياة التي نال بها السعادة والسرور، اعتبرها خيرًا، وأعتقد أن كل امرئ ملزم باتباعها. كان يتكلم بطلاقة، فرفعت هذه الصفة فيما يبدو لي من مرونة مبادئه: لقد كان قادرًا على تصوير نفس العمل على أنه مرح فاتن أو أنه دعارة صريحة.

* * *

(١١)

في المكتب وحجرة الاستقبال

كانت الدنيا قد أظلمت عندما وصلنا إلى البيت، وكانت أمي تجلس إلى «البيان»، وذهبنا نحن الأطفال فأحضرنا أوراقنا وأقلامنا وألواننا، وجلسنا حول المائدة المستديرة؛ لكي نرسم. ومع أنه لم يكن لديَّ غير لون أزرق، إلا أنني قمت بتصوير القنص، ورسمت بسرعة صبيًّا باللون الأزرق، يمتطي حصانًا أزرق، وبعض كلاب زرقاء، ولكني لم أكن واثقًا إذا كنت أستطيع رسم أرنب بري باللون الأزرق، فجريت إلى المكتبة أستشير بابا. وكان بابا يقرأ وأجاب على سؤالي دون أن يرفع رأسه: «أتوجد أرانب زرقاء» فأجبت: «نعم يا بابا العزيز، هناك أرانب زرقاء»، ورجعت إلى المائدة المستديرة ورسمت أرنبًا أزرق، ثم وجدت لزامًا أن أحول الأرنب الأزرق إلى شجيرة، ولكن الشجيرة لم تعجبني كذلك، فحولتها إلى دوحة، والدوحة إلى بيدر من الدريس، ثم حولت هذا إلى سحابة، وأخيرًا رسمت مثل هذا الخليط على ورقتي كلها باللون الأزرق حتى إنني مزقتها، وقد ضاقت نفسي بها، وذهبت إلى مقعد كبير ذي مسندين؛ لأهجع قليلًا.

كانت أمي تعزف قطعة «كنسرتو «فيلد» الثانية»، الذي كان مدرسًا

لها، -فأخذت أحلم، وقفزت إلى خيالي أضغاث أحلام براقة واهمة، ثم عزفت «سوناتا بتهوفن الشجية»، فاستحالت ذكرياتي مقبضةً محزنةً، ولما كانت أمي تعزف هاتين المقطوعتين في كثير من الأحيان، فإنني لأذكر جيدًا الشعور الذي كانتا تثيرانه في نفسي.. لقد كان شيئًا شبيهًا بالذكرى -ولكن ذكرى ماذا؟ يبدو لي في أغلب الظن، أنني تذكرت شيئًا لم يحدث قط.

كان باب حجرة المكتب في الجانب الآخر، ورأيت ياكوف وبعض الرجال ذوي اللحى والقفاطين يدخلون، وأغلق الباب وراءهم بعد دخولهم مباشرةً. وقلت في نفسي: «والآن قد بدأ العمل»، وتراءى لي أن شيئًا في العالم لا يمكن أن يكون أكثر أهميةً من العمل الذي يُقضى في حجرة المكتب تلك، ومما ثبت فكرتي هذه أن جميع من دخلوا من باب حجرة المكتب، إنما دخلوا على أطراف أصابعهم وتحدثوا همسًا. ونفذ من خلال الباب صوت بابا المرتفع، ورائحة السيجار التي كانت تثيرني دائمًا، ولا أعرف لذلك سببًا. ودهشت أثناء إغفاءتي على المقعد لدى سماعي صرير حذاء مألوف لديَّ في مخزن رئيس الخدم، وظهر كارل إيفانتش، وعلى وجهه مسحة من التصميم العابس، يحمل في يده بعض الأوراق، ويسير على أطراف أصابعه إلى الباب، وطرقه بخفة، وسمح له بالدخول، وصفق الباب ثانيةً.

وقلت لنفسي: «آمل ألا يحدث شيء سيئ، إن كارل إيفانتش غاضب، وهو على استعداد لعمل أي شيء».

ثم رحت ثانيةً في إغفاءة.

ولكن لم تحدث كارثة. ولم تمض ساعة حتى أيقظني نفس صرير الحذاء، وخرج كارل إيفانتش من المكتب وهو يجفف عينيه -اللتين رأيتهما ممتلئتين بالدموع- بمنديله، وصعد الدرج وهو يهمهم في سره، وخرج بابا في أثره، ودخل غرفة الاستقبال.

وقال مبتهجًا وهو يضع يده على كاهل أمي: «أتعرفين ماذا قررت؟».

«وماذا قررت يا عزيزي؟».

«سأصحب كارل إيفانتش مع الطفلين إذ يوجد له مكان بالعربة؛ لأنهما ألفاه، ويبدو أن علاقته بهما وثيقة جدًّا، ثم إن سبعمائة روبل في العام ليست بالمبلغ الكبير: ثم إنه في الواقع عفريت لطيف جدًّا!».

.. ولم أستطيع أن أعرف لماذا تحدث بابا عن كارل إيفانتش بهذا القدر من قلة الاعتبار.

وقالت أمي: «أنني لسعيدة جدًّا، لصالح الطفلين ولصالحه.. إنه عجوز طيب».

«ليتك رأيت مقدار تأثره حين قلت له أن يتحفظ بالخمسمائة روبل كمنحة! ولكن الذي يبعث على التسلية أكثر من أي شيء آخر، هو هذه القائمة التي سلمها لي على التو، فهي جديرة بالنظر»، ثم أضاف بابا بابتسامة وهو يناولها قائمةً مكتوبةً بخط يد كارل إيفانتش «إنها لتدعو إلى الانبساط!».

وهذا ما كانت تضمه القائمة:

«صنارتان لصيد السمك للطفلين، سبعون كوبك».

«ورق ملون، حاشية مذهبة، مكبس وغراء لصنع علب للهدايا، ستة روبلات وخمسة وخمسون كوبك».

«كتاب وقوس، هدية للطفلين، ثمانية روبلات وستون كوبك».

«سروال لنيكولاي، أربعة روبلات».

«ساعة ذهبية، وعدني بيتر إلكسندرتش بإحضارها من موسكو سنة ١٨٠٠، مائة وأربعون روبل».

«مجموع ما يستحقه كارل موير، بالإضافة إلى مرتبه، مائة وتسعة وخمسون من الروبلات وتسعة وسبعون كوبك».

.. إن من يقرأ هذه القائمة التي يطالب كارل إيفانتش بدفعها له، لا بالنسبة للنقود التي صرفها على الهدايا وحسب، بل بالنسبة للهدية التي وعد بها لشخصه، ليظن أن كارل إيفانتش لم يكن أكثر من أناني شحيح قاسي القلب –وإنه مخطئ جدًّا.

وعندما دخل المكتب بهذا البيان في يده، والحديث معدٌّ جاهزٌ في رأسه، كان يقصد أن يضع في طلاقة أمام بابا كل ما كابده في بيتنا، ولكنه حين بدأ الكلام بذلك الصوت المؤثر، وبتلك التنغيمات العاطفية التي اعتاد استخدامها عندما كان يملي علينا، بلغ تأثره بفصاحته مبلغًا كبيرًا، حتى إنه عندما وصل إلى الموضع الذي يجب أن يقول فيه: «وبقدر ما يؤلمني انفصالي عن الطفلين» انهار، وتهدج صوته، واضطر إلى جذب منديله ذي المربعات من جيبه.

وقال من خلال دموعه (ولم تكن هذه الفقرة موجودةً في حديثه

المعد): «نعم، يا بيتر إلسكندرتش، لقد ألفت الطفلين إلى الحد الذي أصبحت معه لا أدري كيف أعيش من دونهما... فدعني أبق معهما دون مرتب»، ثم أخذ يجفف دموعه بإحدى يديه، ويقدم القائمة بيده الأخرى.

ولمعرفتي بشفقة قلب كارل إيفانتش أستطيع الجزم بإخلاصه. أما كيف وفق بين هذا البيان وبين كلماته فهذا لا يزال سرًّا غامضًا عليَّ.

وقال بابا وهو يربت كتفه: «إذا كان من المؤلم لك أن نفترق لهو أكثر إيلامًا لنا. لقد غيرت رأيي».

دخل جريشا الحجرة قبل طعام العشاء بوقت قصير، ولم يكن منذ أن دخل المنزل قد انقطع عن التنهد والعويل، وكان هذا في نظر أولئك الذين اعتقدوا في قدرته على التنبؤ علامةً مؤكدةً على أن شرًّا ما سيلحق بنا. وانصرف أخيرًا وهو يقول إنه انتوى الرحيل في الصباح التالي، فغمزت بعيني لفولوديا وغادرت الحجرة.

«ماذا هناك؟».

«إذا كنت تريد رؤية سلاسل جريشا ، فلنصعد إلى الطابق العلوي، إذ إن جريشا ينام في الغرفة الثانية، ونستطيع رؤية كل شيء من حجرة المهملات».

«هذا رائع! انتظر هنا، سأدعو الفتيات».

وخرجت الفتيات مسرعات، وصعدنا السلم، وبعد نقاش قليل حول من يذهب أولًا، دخلنا حجرة السطح المظلمة، وقبعنا هناك ننتظر.

(١٢)

جريشا

ثقلت وطأة الظلام علينا جميعًا، تكدسنا معًا ولم نتكلم، ودخل جريشا غرفته مباشرةً بخطواته الساكنة، يحمل عكازه بإحدى يديه، وبيده الأخرى شمعةً مثبتةً في شمعدان نحاسي، فحبسنا أنفاسنا.

أخذ يصلي: «سيدي يسوع المسيح! يا أم الله الممتلئة بالنعمة! أيها الأب والابن والروح القدس!»، وكرر هذه الترنيمات والتلخيصات المختلفة الخاصة بأولئك الذين كثيرًا ما اعتادوا تكرار هذه الكلمات.

وظل يصلي وهو يضع عكازه في الزاوية، وفحص فراشه، وأخذ يخلع ملابسه، وفك حزامه الأسود، وخلع قميصه الممزق الأصفر القاتم، وطواه بعناية وعلقه في ظهر مقعد، ولم يعد وجهه يتسم بطابع العجلة والبلاهة المألوفين، بل على العكس، كان رزينًا، مكتئبًا، بل مهيبًا، وكانت حركاته متأنيةً مليئةً بالتأمل.

وغاص في فراشه برفق بعد أن ارتدى ملابسه الداخلية، ورمز بإشارة الصليب على جميع الجوانب، وأحكم وضع سلاسله تحت قميصه بجهد واضح (لأنه تجهم)، وبعد أن جلس هناك برهةً، وفحص بعناية عدة تمزقات في ملابسه التيلية البيضاء، نهض فرفع الشمعدان إلى

مستوى الهيكل الصغير القائم في ركن الغرفة، وكان يضم صورًا عدةً، ثم تلا صلاة وأشار بعلامة الصليب أمامها، وقلب الشمعة رأسًا على عقب، فخبت، ثم انطفأت.

ونفذ ضوء القمر الذي كان في تمامه تقريبًا من النافذة المطلة على الغابة، وسقطت أشعته الواهنة الفضية على جانب واحد من وجه المهرج الأبيض الطويل، بينما كان الجانب الآخر في ظل قاتم، غارقًا مع الأطياف التي يعكسها إطار النافذة على الأرض والجدران، وتصل إلى السقف من كل ناحية، وكانت قعقعة الحارس تسمع في الفناء السفلي.

وشبك جريشا ذراعيه الضخمتين فوق صدره، وأحنى رأسه، ووقف صامتًا أمام الصور يتنهد ببطء ودون أن يقف، ثم ركع في شيء من العناد، وأخذ يصلي.

وتلا أول الأمر الصلوات المألوفة في رفق، لا يضغط إلا على كلمات معينة وحسب، وكرر الصلوات، ولكن بصوت مرتفع وانتعاش أقوى، ثم أخذ في استعمال كلماته الخاصة محاولًا في جهد ظاهر التعبير عن ذاته بلغة سلافية. كانت كلماته متقطعةً، ولكنها مؤثرة. صلى من أجل المحسنين إليه جميعًا (إذ أنه ذكر أولئك الذين منحوه مأوى) ومن بينهم أمي ونحن، وصلى لنفسه، والتمس من الله أن يغفر له ذنوبه الفظيعة، وقال: «يا إلهي، اغفر لأعدائي!». ونهض وهو يتأوه، ويكرر نفس الكلمات من جديد، ويهبط إلى الأرض مرةً، ثم ينهض أخرى بالرغم من ثقل السلاسل التي كانت تحدث قعقعةً كلما ارتطمت بالأرض.

وضغط فولوديا على قدمي بشدة، ولكني لم ألتفت حولي مجرد

التفاتة، بل اكتفيت بدعك الموضع بيد واحدة، ورحت أتابع كل كلمة يفوه بها جريشا أو حركة يأتيها، بشعور الدهشة والإشفاق والاحترام الذي يميز الطفولة.

وبدلًا من المزاح والضحك اللذين كنت أتوقعهما عند دخولي غرفة السطح، شعرت برجفة وهبوط في قلبي.

وظل جريشا وقتًا طويلًا على هذه الحال من التمجيد الديني والصلوات المرتجلة، وكرر عبارة: «ارحمني يا ربي» عدة مرات متوالية، ولكنه كان يكررها في كل مرة بقوة متجددة وتعبير جديد. أو، «اللهم اغفر لي، علمني يا إلهي ماذا أفعل، علمني يا إلهي ماذا أفعل» في تعبير كما لو كان يتوقع استجابةً سريعةً لكلماته، وفي بعض الأوقات كان يسمع فقط رثاءً محزنًا.. ونهض على التو راكعًا، وشبك ذراعيه فوق صدره، والتزم الصمت.

ودفعت برأسي إلى الباب دون حراك وحبست أنفاسي.. لم يتحرك جريشا، وكانت تنهدات ثقيلة تمزق صدره، وجمدت دمعة في عينه العوراء تلمع في ضوء القمر على حدقته المعتمة.

وصاح فجأةً بتعبير يصعب وصفه قائلًا: «فلتكن مشيئتك!» ثم سجد بمقدم رأسه على الأرض وانتحب كالطفل.

ومضى زمن طويل منذ ذلك الحين، وفقدت ذكريات كثيرة عن الماضي كل ما تعنيه بالنسبة لي، وأصبحت مطموسةً غير محددة المعالم كأنها الأحلام، حتى الحاج جريشا قد انقضى وقت طويل منذ أن انتهى من

آخر حجة له، ولكن الأثر الذي تركه فيَّ والشعور الذي أيقظه في نفسه لا يمكن أن يفنى من ذاكراتي.

آه يا جريشا، المسيحي العظيم! إن إيمانك كان من القوة بحيث جعلك تشعر بقربك من الله، وكان من عمق حبك أن تدفقت الكلمات من بين شفتيك فيضًا من نفسك ولم تحبسها في نطاق عقلك، وكم استطعت تمجيد عظمته، حين لم تجد كلمات، فارتميت على الأرض وانتحبت!

ولم يستطع التأثر الذي استمعت به من جريشا البقاء طويلًا، أولًا لأن فضولي كان قد أُشبع، وثانيًا لأن ساقي كانتا قد تصلبت لجلوسي في موضع واحد، ولأنني أردت المشاركة في الهمس والحركة المسموعين من خلفي في الظلام، وأمسك شخص بيدي وقال: «يد من هذه؟» لقد كانت الظلمة حالكةً، ولكني عرفت باللمس والهمس بجانبي، أنها يد كاتنكا.

وأمسكت بذراعها من كمه، وبطريقة خارجة عن وعيي، ووصلت إلى مرفقها فحسب، ورفعته إلى شفتي، ولا بد أن تكون كاتنكا قد دهشت؛ لأنها جذبت يدها بعيدًا فاصطدمت وهي تفعل هذا بمقعد مكسور كان بالحجرة، ورفع جريشا رأسه وتطلع حوله وهو يتلو صلاةً، وأخذ يشير بعلامة الصليب في جميع أركان الحجرة، وجرينا نحن دون جلبة إلى غرفة السطح هامسين بصوت مرتفع فيما بيننا.

* * *

(١٣)

ناتاشكا سافيشنا

في نحو منتصف القرن الماضي كانت هناك فتاة تُدعى ناتاشكا، مهلهلة الثياب عارية القدمين، ولكنها ممتلئة الجسم، ذات وجنتين متوردتين، دائمة المرح، اعتادت التجول مسرعةً في الأفنية بقرية خاباروفكا، وكان جدي قد أخذها إلى الطابق العلوي، أي أنه جعلها إحدى خادمات جدتي؛ اعترافًا بخدمات والدها «سافا»، وهو رقيق عازف بوق، وكان قد اختار هذا العمل لنفسه. وكانت ناتاشكا بوصفها خادمةً تمتاز برقة طبعها وحماستها. وعندما ولدت أمي احتاج الأمر إلى مربية، فعهد بهذا العمل إلى ناتاشكا، فظفرت في هذا العمل الجديد بالمديح والمكافآت معًا على عملها وأمانتها وتعلقها بسيدتها الصغيرة.

ولكن فوكا، رئيس الخدم الشاب القوي، برأسه المزين بالمساحيق، وجواربه الطويلة، ظفر بقلب ناتاليا الساذج الودود لكثرة اتصاله بها بحكم وظيفته، وقد شجعها حبها فذهبت بنفسها إلى جدي، وطلبت إليه أن يأذن لها بالزواج من فوكا، وإذ رأى جدي في طلب الفتاة نكرانًا للجميل، طرد المسكينة وعاقبها بإبعادها إلى قرية يملكها في السهوب لتعمل راعية بقر. ومضت ستة أشهر، ولم يستطع أحد ملء مكانها، أُعيدت ناتاليا للقيام

بمهامها السابقة. ولدى عودتها ذهبت إلى جدي، وارتمت على قدميه وتوسلت إليه أن يعيد لها حظوتها عنده وحنوه عليها، وأن ينسى رعونتها، التي أقسمت ألا تتكرر، وقد حافظت على قسمها.

وأصبحت ناتاشكا منذ ذلك اليوم تعرف باسم ناتاليا سافيشنا، ولبست قبعةً. إن جميع كنوز الحب التي ينطوي عليها قلبها، قد منحتها لسيدتها الصغيرة في سخاء.

وعندما حلت محلها فيما بعد مربية أخرى، أُسند إليها إدارة المنزل، وعُهد إليها بجميع البياضات والمؤن، فقامت بهذه الواجبات الجديدة بنفس الحب والحماس، وعاشت للحافظ على متاع سيدها. ورأت أن الإتلاف والتخريب والسرقة تقترفها كل يد، فاعتبرت أن واجبها الملزم هو مقاومتها.

وعندما تزوجت أمي، وأرادت مكافأة ناتاليا سافيشنا على خدماتها والتصاقها بالأسرة مدى عشرين عامًا، واستدعتها وعبرت عن حبها لها والعرفان بجميلها، بعبارات بالغة الإطراء، وسلمتها وثيقةً رسميةً تعترف فيها بأن ناتاليا سافيشنا امرأة حرة(١)، وأضافت أن لها أن تتقاضى معاشًا سنويًّا قدره ثلاثمائة روبل، سواء استمرت في خدمة المنزل أو لم تستمر، وأصغت ناتاليا سافيشنا إلى كل هذا في صمت، ثم تناولت الوثيقة بين يديها، وفحصتها غاضبةً، وهمست بشيء من بين شفتيها، ثم انفلتت إلى خارج الحجرة، وصفقت الباب خلفها، فذهبت أمي إلى حجرة ناتاليا مندهشةً لتصرفها الغريب، فوجدتها جالسةً على صندوقها، تفيض عيناها

---

(١) يجب أن نذكر أن هذا كان في عهد الاسترقاق.

بالدموع، تلوي منديلها بين أصابعها، وتنظر عامدةً إلى قطع ورقة تحريرها المتناثرة على الأرض أمامها.

وسألتها أمي وهي تتناول يدها: «ماذا دهاك يا ناتاليا سافيشنا العزيزة؟»، فأجابتها: «لا شيء يا سيدتي العزيزة، لا بد أن أكون منفرةً لك بوجوه من الوجوه، ما دمت ترغبين في طردي من البيت... حسن، سأنصرف».

وجذبت يدها، وكانت على وشك مغادرة الحجرة وهي تحبس دموعها بمشقة، ولكن أمي منعتها وقبلتها، ثم بكتا معًا.

ومنذ ذلك الحين أستطيع أن أتذكر كل شيء فأنا أذكر ناتاليا سافيشنا، وحبها ورقتها، ولكني الآن فقط أستطيع تقديرهما -أما في ذلك الوقت فلم يدر في ذهني مطلقًا، كم كانت هذه المرأة العجوز مخلوقةً نادرةً، مدهشةً. إنها لم تقتصر على عدم التحدث عن نفسها وحسب، بل يبدو أنها لم تفكر في نفسها قط: كانت حياتها كلها حبًّا وإنكارًا للذات، ولقد بلغ من اعتيادي حبها الرقيق لنا المبني على إنكار الذات، إنني حتى لم أتخيل شيئًا غير هذا، ولم أعبر لها عن امتناني على الأقل، ولم أتوقف لأسال نفسي عما إذا كانت سعيدة أو قانعة.

كنت أهرب من دروسي إلى غرفتها متعللًا، وأروح أنسج أوهامًا بصوت مرتفع فلا أرتبك أقل ارتباك لوجودها، وكانت دائمًا تشغل نفسها بشيء ما: فإما أن ترفو الجوارب أو ترتب الصناديق التي تمتلئ بها غرفتها، أو تحصي البياضات وتصغي في أثناء عملها إلى جميع اللغو الذي أفوه به، مثل «عندما أصبح قائدًا سأتزوج بفتاة رائعة الجمال، وأبتاع لنفسي جوادًا أشقر، وأبني بيتًا من البللور، واستدعي جميع أقارب كارل إيفانتش

من سكسونيا»، وما إلى ذلك، فتقول: «نعم، يا عزيزي، نعم»، وكانت عندما أنهض وأتأهب للرحيل، تفتح صندوقًا أزرق بداخل غطائه، فيما أذكر الآن، صورة ملصقة لجندي راكب، وصورة منزوعة من علبة مرهم، ورسم بيد فولوديا -فتأخذ منه عودًا من البخور وتشعله، وتقول لي وهي تلوح به: «هذا يا عزيزي بخور أوتشاكوف فعندما ذهب المرحوم جدك- أراح الله روحه! إلى الحرب ضد الأتراك، أحضره معه من هناك،» ثم تضيف قائلة وهي تتنهد:

«وهذه هي القطعة الأخيرة».

وكانت الصناديق التي تملأ غرفة ناتاليا سافيشنا تحتوي على كل شيء على الإطلاق، فإذا ما احتاج الأمر إلى شيء، تقول: «يجب أن نسأل عنه ناتاليا سافيشنا» والواقع أنها كانت بعد قليل من النبش تعثر دائمًا على الشيء المطلوب. وتقول: «لقد كان من الخير أن خبأتها في مكان بعيد». وكانت هذه الصناديق آلاف الأشياء التي لا يعرفها في البيت، أو يهتم بها أحد سواها.

ولقد أغضبتني مرةً غضبًا شديدًا، وإليك ما حدث: أسقطت الدورق بينما كنت أصب لنفسي شيئًا من جعة الجاودار، فلطخت غطاء المائدة.

فقال لي أمي: «استدع ناتاليا سافيشنا، ودعها ترى ماذا فعل محبوبها».

وجاءت ناتاليا سافيشنا، فما إن رأت البقعة التي أحدثتها، حتى هزت رأسها، وحينئذ همست أمي بشيء في أذنها، فخرجت وهي تشير إليَّ بأصبعها.

كنت بعد الغداء في طريقي إلى الردهة، أقفز وأنا على أحسن حال من الابتهاج، فإذا ناتاليا سافيشنا تندفع فجأةً من وراء الباب، وبيدها غطاء المائدة وأمسكت بي، وأخذت بالرغم من مقاومتي اليائسة، تدعك وجهي بالجزء المبتل من الغطاء وهي تصرخ: «لا توسخ غطاء المائدة أبدًا، لا توسخ غطاء المائدة أبدًا»، وبلغ من استيائي أن أخذت أهدر غضبًا.

وقلت في نفسي وأنا أقطع الغرفة جيئةً ورواحًا، وأبتلع دموعي: «كيف تجرؤ على ضرب وجهي بغطاء مائدة مبلل كما لو كنت خادمًا! إنه لشيء فظيع».

وحالما رأتني أبكي ابتعدت، وتركتني أسير جيئةً وذهابًا، وأدبر الأخذ بثأري من تلك «الناتاليا» الوقحة للإهانة التي ألحقتها بي.

وعادت ناتاليا سافيشنا بعد دقائق قليلة، فاقتربت مني على استحياء، وحاولت تهدئتي:

«والآن يا عزيزي، لا تبك، اغفر لي، إنني عجوز غبية، وهذه غلطتي، ستغفر لي يا عزيزي، أليس كذلك؟ خذ، هذه لك».

وأخرجت من تحت منديلها حزمةً حمراء من الورق، كان بها قطعتان من الحلوى وثمرة تين، وناولتني إياها بيد مضطربة. ولم أستطع أن أتفرس في وجه المرأة العجوز الحنون، بل درت ناحيةً، وتناولت هديتها، وفاضت دموعي من جديد، لا غضبًا في هذه الحالة، ولكن حبًّا وخجلًا.

(١٤)

الرحيل

في الساعة الثانية عشرة من اليوم التالي للحوادث التي ذكرتها، وقفت كل من المركبة الصغيرة والبرتشكا بالباب، وكان نيكولاي يرتدي ملابس السفر، أي أنه حشر سرواله في حذائه الطويل، وكان معطفه القديم مشدود الحزام، ووقف بجانب البرتشكا يحزم المعاطف والوسائد تحت المقعد، وعندما وجد أن الكومة أكبر مما يجب جلس فوق الوسائد وأخذ يثب فوقها ليضغطها.

وقال خادم أبي الخاص وقد انحني فوق العربة الصغيرة مبهور الأنفاس: «ألا نستطيع يا نيكولاي ديمترتش، بحق السماء أن نضع صندوق السيد بداخلها؟ إنه لا يستغرق مكانًا كبيرًا».

فأجابه نيكولاي بسرعة وغضب وهو يطرح حزمة على أرض البرتشكا: «كان ينبغي أن تقول ذلك من قبل». ثم أضاف وهو يخلع قبعته ويمسح قطرات العرق الكبيرة من على حاجبه الذي لوحته الشمس: «يا إلهي، إن رأسي يدور. وها أنت تأتي بصندوقك!».

وقف الخدم الرجال بمعاطفهم وقفاطينهم وقمصانهم حاسري

الرؤوس، والنساء بثيابهن المخططة، بأطفال على أذرعتهن وأطفال حفاة بالقرب من سقيفة الباب يراقبون المهمات ويتحدثون فيما بينهم، وأمسك أحد الحوذية -وهو رجل عجوز محني الظهر يرتدي قبعةً شتويةً وقميصًا طويلًا أبيض -بعمود العربة الصغيرة وفحصه بدقة، وعاين عمله باهتمام، والآخر شاب حسن المظهر يرتدي قميصًا أبيض ذا مثلثين على الكتفين من قماش وبري أحمر، وقبعة من صوف الخراف الأسود، غطى بها أول الأمر إحدى أذنيه، ثم غطى بها الأخرى وهو يحك خصلات شعره الأشقر، ووضع قميصه الأبيض على الصندوق، وهناك ألقى الأعنة كذلك، ويطرقع بوسطه المضفور، ويتأمل حذاءه حينًا، والسائقين الذين يعملون في تشحيم البرتشكا، وكان أحدهم يبذل جهده في رفع العجلة، وآخر محنيًّا فوقها يشحم المحور، بل ويدهن الحافة من أسفل لكي لا يذهب سدى شيء آخر من الشحم الذي على قطعة القماش. ووقفت عند السياج جياد البريد المرهقة من مختلف الألوان، تهش الذباب بذيولها -بعضها رسخت أرجلها المشعثة المنتفخة متباعدةً، وأغمضت عينيها في إغفاءة، وأخرى أتعبها طول الوقوف جامدةً، فأخذت تتحاك مع بعضها البعض، أو تقطف أوراق السرخس وسيقانه الخضراء القاتمة المزروعة بالقرب من السقيفة، ورقدت عدة كلاب سلوقية تلهث في الشمس، ويتسكع بعضها في الظل تحت العربات، وتلعق الشحم من حول محاور العجلات.

وكان الجو كله محملًا بنوع من ضباب الغبار، وكان لون الأفق بنفسجيًّا ضاربًا إلى الرمادي، ولكن لم تكن هناك أي سحابة صغيرة في الجو. ورفعت الرياح الغربية القوية أعمدة التراب من الطرقات والحقول،

وأمالت نواصي أشجار الزيزفون والبتولا السامقة في الحديقة، وحملت إلى مسافة بعيدة الأوراق الذابلة الصفراء. وجلست بقرب النافذة أنتظر بفارغ الصبر إنجاز جميع هذه الترتيبات.

وعندما التأم الجميع حول المائدة الكبرى بغرفة الطعام لقضاء دقائق قليلة معًا لآخر مرة، لم يخطر ببالي أن هناك لحظة مؤلمة في انتظارنا، وكانت أكبر الأفكار تفاهةً هي التي تجول بذهني، حاولت أن أخمن أي حوذي هو الذي سيقود العربة الصغيرة وأيهم سيقود البرتشكا، من سيسافر مع أبي، ومن مع كارل إيفانتش، ولماذا يجب أن ألتف بوشاح ومعطف فضفاض طويل.

«هل أنا رقيق البنية إلى هذا الحد؟ إنني لن أتجمد، وأرغب في الانتهاء من هذا بأسرع ما يمكن!! أريد ركوب العربة والابتعاد».

ودخلت ناتاليا سافيشنا بعينين متورمتين باكيتين، وبيدها القائمة، وسألت أمي: «لمن أعطي قائمة بياضات الطفلين؟».

«أعطيها لنيكولاي، وتعالي لتوديع الطفلين».

حاولت المرأة العجوز أن تقول شيئًا، ولكنها توقفت فجأةً، وغطت وجهها بمنديلها، وغادرت الغرفة وهي تلوح بيدها.

وضاق قلبي بالألم عندما رأيت هذه الحركة، ولكن تعجلي الرحيل كان أقوى من ذلك الشعور، فأخذت أصغي إلى حديث أبي مع أمي دون اهتمام، كانا يتحدثان عن أشياء من الواضح أنها لا تهم أحدهما: ماذا كان يهم الحديث عن ابتياع منزل، وماذا يجب أن يقال للأميرة صوفي والسيدة

جولي، وهل سيكون السفر مريحًا..

ودخل فوكا، ووقف على عتبة الباب وأعلن: «إن العربات جاهزة»، بنفس اللهجة التي قال بها «إن الغداء معد»، ولاحظت أن أمي ارتعدت وشحب لونها عند هذا الإعلان، كأنها لم تكن تتوقعه.

وصدر الأمر إلى فوكا بإغلاق جميع أبواب الحجرات[١]، وأظن أن هذا الأمر مضحك جدًّا، كأننا جميعًا كنا مختبئين من شخص ما».

وعندما جلسنا جميعًا، جلس فوكا أيضًا على حافة مقعد، ولكن ما إن فعل هذا حتى انفتح الباب فالتفت نحوه الجميع، ودخلت ناتاليا سافيشنا على عجل، وجلست دون أن ترفع عينيها على نفس المقعد مع فوكا. ويبدو لي حتى الساعة أنني أرى رأس فوكا الأصلع المغضن، ووجهه الجامد، وشكل انحناءة قبعته التي يظهر من تحتها الشعر الأشيب... لقد كانا محشورين في مقعد واحد، وشعر كل منهما بالحرج.

وظللت غير مهتم، نافد الصبر، وخيل إليَّ أن الثواني العشر التي جلسناها هناك والأبواب مغلقة كأنها ساعة كاملة. وأخيرًا نهضنا جميعًا ورسمنا إشارة الصليب وأخذنا نتصرف، واحتضن أبي والدتي وقبَّلها عدة مرات.

وقال والدي: «كفى يا عزيزتي، إنا لن نفترق إلى الأبد».

وقالت أمي بصوت يرتجف بالبكاء: «ولكنه مؤلم مع ذلك».

وعندما سمعت ذلك الصوت، وشاهدت شفتيها الراجفتين وعينيها

(١) عادة روسية قديمة: وهي إغلاق جميع الأبواب، والجلوس برهة قبل بدء رحلة طويلة.

المغرورقتين نسيت كل شيء، وشعرت بأشد الحزن والتعاسة، وارتعدت إلى الحد الذي فضلت معه الفرار على قولي لها وداعًا، وأدركت في تلك الآونة حين احتضنت والدي، أنها ستودعنا على التو.

وقبلت فولوديا ورسما عليه إشارة الصليب مرات عدة، ولظني أنها ستتحول إليَّ آنئذ، خطوت إلى الأمام، ولكنها استمرت في مباركته وضمه إلى صدرها. وأخيرًا احتضنتها وتشبثت بها، وبكيت دون أي تفكير فيما وراء حزني.

وعندما خرجنا لركوب العربة تقدم الخدم المتعبون بالغرفة الملاصقة لتوديعنا، فكانت عبارة «أعطني يدك يا سيدي من فضلك» وتقبيلهم الصاخب لأكتافنا، ورائحة الشحم على رؤوسهم أثارت في نفسي شعورًا شبيهًا بشعور الاشمئزاز، وتحت تأثير هذا الشعور قبلت ناتاليا سافيشنا بفتور شديد على قبعتها، وحيتني تحية الوداع وهي غارقة في دموعها.

ومن العجيب أنني حتى الآن أستطيع رؤية وجوه هؤلاء الخدم، وأستطيع تصويرهم مع كل التفاصيل الدقيقة، ولكن وجه أمي وهيئتها قد غابت عن ذهني تمامًا، ولعل السبب هو أنني طوال ذلك الوقت لم أستطع مرة استجماع شجاعتي للتفرس فيها، إذ كان يخيل إليَّ أنني إذا فعلت، فلا بد أن يزيد حزنها وحزني إلى حد لا يُحتمل.

واندفعت إلى العربة الصغيرة في مقدمة الآخرين، وجلست على المقعد الخلفي ولما كان ظهر المقعد مرتفعًا، فإنني لم أستطع رؤية شيء، ولكنَّ دافعًا فطريًّا قال لي أمي لا تزال هناك.

وقلت لنفسي: «هل أنظر إليها ثانيةً، أم لا؟ حسن، فلتكن إذَنْ آخر مرة!» ثم انحنيت إلى خارج العربة نحو سقيفة الباب، وفي هذه اللحظة كانت أمي قد انتقلت إلى الجانب الآخر من العربة لنفس الغرض ونادتني بالاسم، وحين سمعت صوتها من خلفي التفت ورائي، ولكني فعلت هذا فجأةً حتى إن رأسينا ارتطما معًا، فابتسمت بأسى وقبلتني طويلًا وبحرارة لآخر مرة.

ولم أتجاسر على النظر إليها إلا بعد أن سارت العربة بضع خطوات، ورفع النسيم المنديل الأزرق الذي كانت تربطه حول رأسها، وصعدت الدرج في بطء مطأطئة الرأس، وقد غطت وجهها بيديها. وكان فوكا يسندها.

وجلس أبي بجانبي صامتًا، وخنقتني العبرات، وكان هناك ما يشبه السد في حلقي حتى إنني خفت أن أختنق. وعندما بلغنا الطريق العام رأينا منديلًا أبيض كان يلوح به من الشرفة شخص ما، فأخذت ألوح أنا أيضًا بمنديلي، فهدأت نفسي لهذه الحركة بعض الشيء. واستمر بكائي، ومنحني اعتقادي بأن دموعي برهنت على رقة قلبي، سرورًا وسلوانًا.

وبعد أن قطعنا من سفرتنا فرسخًا أو نحوه هدأت قليلًا، وأخذت أركز انتباهي في أقرب الأشياء إلى عيني –عجز الحصان الأبلق الذي يركض إلى جانب العربة من ناحيتي، ولاحظت كيف يلوح الحيوان بذيله، وكيف يضع قدمًا واحدةً على الأرض بعد الأخرى، وكيف يلاحقه سوط صبي البريد المضفور فتبدأ قدماه في الوثب معًا، ولاحظت كيف يقفز سرجه من على ظهره، والحلقات من فوق السرج. وظللت أراقبه

حتى غطى الزبد الأحزمة في مواضع قريبة من الذيل. ثم بدأت أتأمل فيما حولي -في حقول الجاودار الناضجة المتموجة، والأرض الراقدة الدكناء التي ترى عليها هنا وهنالك فلاحًا بمحراثه، أو فرسًا بجانبها مهر، بل كنت أنظر عند شواخص المسافات إلى مقعد الحوذي لأعرف من ذا الذي يقودنا. ولم تكن دموعي قد جفت من على وجهي عندما انصرفت أفكاري عن أمي التي ربما أكون قد تركتها إلى الأبد، ومع ذلك فإن كل تذكر كان يؤدي إلى التفكير فيها. وحينئذ تذكرت على حين فجأة الفطر الذي وجدته في اليوم السابق في ممشى أشجار البتولا، وتذكرت أن ليوبتشكا وكاتنكا قد تنازعنا حول من يقتلعه، وتذكرت كيف بكتا عندما افترقنا عنا.

كم كان شعوري بالحزن عندما فارقتهما، وفارقت ناتاليا سافيشنا، وممشى البتولا وفوكا، حتى ميمي الخبيثة. كل هؤلاء سأفتقدهم. وأمي الحبيبة المسكينة؟ وملأت الدموع عيني مرةً أخرى، ولكن لفترة غير طويلة.

* * *

(١٥)

الطفولة

يا للطفولة السعيدة، سعيدة، تلك الرحلة الهانئة التي لا يمكن استرجاعها مطلقًا! فما حيلتي في حبها والحفاظ على ذكرياتها المشرقة؟ تلك الذكريات تنعش روحي وتسمو بها، إنها مصدر فرحي الذي لا ينضب.

كنت حين أتعب من الجري أجلس إلى مائدة الشاي على مقعدي المرتفع، لقد شربت قدحي من اللبن والشاي والسكر منذ وقت طويل، ومع ذلك فإن النوم يلصق عيني فلا أتحرك من مكاني،.. أجلس وأصغي... إن أمي تتحدث مع شخص ما وجرس صوتها عذب، إن هذا الجرس وحده يقول لقلبي أشياء كثيرةً جدًّا! وما إن يغبش عيني النعاس وأتفرس في وجهها، حتى تبدو فجأةً صغيرةً -صغيرة للغاية- لا يزيد وجهها على حجم زر صغير -ولكنني لا أزال أراه واضحًا.. أراها تنظر إليَّ وتبتسم. إنني أحب أن أراها صغيرةً جدًّا... وأجذب جفنيَّ اللذين لا يزالان متقاربين، وهي لا تزيد على حجم الأولاد الصغار الذين يراهم المرء في حدقات الأعين، ولكنني أتحرك ويتحطم الوهم، وأحكم إغلاق عيني، وأدور محاولًا استرجاعه بكل وسيلة، ولكن دون جدوى.

وأنهض، وأصعد إلى مقعد مريح حيث أستريح.

وتقول أمي: «إنك ستنام مرةً أخرى يا نيكولنكا، خير لك أن تصعد».

فأجيب والأحلام الحلوة المبهمة تملأ ذهني... إن نوم الطفولة السليم يغمض جفني وفي لحظة أغيب عن الشعور وأنام حتى يوقظوني، وأشعر في أحلامي أن يد شخص ما ناعمة تلمسني، فأعرفها بهذه اللمسة وحدها، وأظل نائمًا، وأمسك بها وأضغط عليها بحرارة، بحرارة شديدة، على شفتي.

لقد سافر الجميع على التو. شمعة واحدة فقط موقدة في حجرة الاستقبال. لقد قالت أمي إنها ستوقظني: إنها هي التي جلست على المقعد الذي أنام عليه، وتمسح على شعري بيدها العجيبة النعومة، ويتردد في أذني الصوت الحبيب المألوف.

«انهض، يا حبيبي، لقد حان وقت نومك».

ليست هناك نظرات جامدة تربكها، ولا تخاف أن تصب عليَّ كل حنانها وحبها.. إنني لا أتحرك ولكني أُقبِّل يدها بشغف.

«استيقظ، يا ملاكي».

وتلف يدها الأخرى حول عنقي، وتدغدغني بأصابعها الدقيقة.. الحجرة هادئة وتكاد أن تكون مظلمةً.. الدغدغة وإيقاظي من النوم يستفزان أعصابي.. وتجلس أمي بالقرب مني، تلمسني، وأنا أعرفها بعطرها وبصوتها، فأقفز، وألقي بذراعي حول عنقها، وأضغط رأسي على صدرها، وأتنهد قائلًا: «آه يا حبيبتي، يا أمي العزيزة، لكم أحبك!».

وتبتسم ابتسامتها المحزونة الساحرة، وتتناول رأسي بكلتا يديها، ثم تقبلني في جبيني، وتضعني على ركبتيها، وتتحدث إليَّ قائلةً: «وإذَنْ فأنت تحبني حبًّا جمًّا، ولن تنساني أبدًا؟ وعندما ينتهي أجل أمك، فسوف لا تنساني؟ سوف لا تنساها يا نكولنكا؟».

وتظل تقبلني بحنان أوفر.

فأصيح وأنا أقبل ركبتيها، وتفيض الدموع من عيني -دموع الحب وفرط السرور: «لا، أرجوك، لا تقولي ذلك يا أعز أم!».

وبعد ذلك حين أصعد إلى غرفتي بالطابق العلوي، وأقف أمام الصور في قميص نومي الفضفاض، كم كنت أكرر في حماسة: «اللهم بارك أبي وأمي!». وعند تكراري للصلوات التي تعلمت أول شفاه طفولتي ترديدها متلعثمًا وراء أمي المحبوبة، كان حبي لها وحبي لله يتحدان معًا في شعور واحد وبصورة عجيبة.

فإذا ما انتهيت من صلاتي، لففت نفسي في غطائي الصغير، بروح نشيطة مبتهجة، فأرى حلمًا يعقب حلمًا، ولكن عمَّ تدور هذه الأحلام جميعًا؟ إنها أحلام غير حسية، ولكنها مليئة بالحب الطاهر، والآمال في السعادة. ثم أفكر بعدئذ في كارل إيفانتش ونصيبه المحزن من الحياة -وهو الرجل الوحيد التعس الذي أعرفه- فأشعر نحوه بأسى شديد. إني أحبه إلى الحد الذي يفعم عيني بالدموع، وأقول لنفسي: «اللهم امنحه السعادة، وامنحني القوة لكي أساعده وأخفف أساه.. إنني مستعد للتضحية بكل شيء في سبيله». ثم أدس لعبي المحبوبة -كلب أو أرنب من الخزف الصيني- في زاوية الوسادة الناعمة، ويسعدني تفكيري في

مدى دفئها وراحتها وهي في هذا المكان، وأصلي مرةً ثانيةً لله عسى أن يمنح السعادة للجميع، وأن يكون كل إنسان راضيًا، وأن يكون الطقس في الغد لطيفًا يسمح بالسير. وأدور إلى الجنب الآخر، وتختلط أحلامي بصورة مشوشة، ثم أروح في السبات بهدوء وسكينة، ووجهي لا يزال مبللًا بالدموع.

هل يمكن لتلك العذوبة، وتلك الروح الخفيفة، وتلك الحاجة إلى الحب، وتلك القوة في الإيمان التي يملكها الإنسان في الطفولة، أن تعود أبدًا؟ وأي وقت يمكن أن يكون خيرًا من الوقت الذي تكون فيه أعظم فضيلتين، السرور البريء، والتعطش غير المحدود إلى الحب، هما الدافع الوحيد في الحياة؟.

أين تلك الصلوات الملتهبة؟ وأين تلك الهبة التي تفضل الهبات جميعًا، تلك الدموع النقية، دموع الانفعال؟ لقد اعتاد ملاك السلوان أن يأتي ويمسح تلك العبرات بابتسامة، وبث الرؤى الحلوة في خيال الطفولة النقي.

هل ألقت الحياة على كاهل قلبي مثل هذا العبء الثقيل بحيث هجرتني تلك الدموع وتلك المسرات المفرطة إلى الأبد؟ وهل بقيت لي الذكريات فحسب؟

* * *

(١٦)

الأشعار

بعد شهر تقريبًا من وصولنا إلى موسكو، كنت جالسًا مع جدتي أكتب في الطابق العلوي من بيت جدتي، وكان يجلس إلى الجانب الآخر من المائدة الكبيرة معلم الرسم يقوم بالتصحيحات النهائية لرسم تخطيطي لرأس شخص تركي، وكان فولوديا واقفًا وراء المعلم مشرئبًا بعنقه ليرى من فوق كتفه. وكانت هذه الرأس أول رسم بالقلم الرصاص يقوم به فولوديا، وكان يجب أن يُهدى إلى جدتي في ذلك اليوم وهو عيد قديسها.

وقال فولوديا وهو ينهض على أطراف أصابعه ويشير إلى عنق التركي: «أفتضع هنا ظلًّا أكثر قليلًا؟» فقال المعلم وهو يضع يراعه وقلم الرسم في القراب: «إنه على ما يرام الآن، ولست بحاجة إلى عمل أي شيء آخر فيه أكثر من ذلك»، وأضاف وهو ينهض، ويداوم النظر إلى التركي من زاوية عينيه: «حسن، وأنت يا نيكولنكا، ألا تكشف لنا عن سرك؟ ما عسى أن تقدم لجدتك. أظن أن رأسًا ثانيًا كهذا تمامًا سيكون أجمل هدية». وتناول قبعته وسجله وانصرف قائلًا: «أستودعكم الله يا سادة».

لقد كنت أنا نفسي أفكر في نفس اللحظة أن رأسًا قد تكون أفضل مما كنت أعمل فيه. وعندما أُعلن لنا أن عيد قديس[(١)] الجدة أصبح قريبًا جدًّا، وأننا يجب أن نعد الهدايا لهذه المناسبة، فقد خطرت لي فكرة الشِّعر، وأنشأت على التو بيتين من الشِّعر على أمل أن البقية سرعان ما ترد إلى ذهني، ولم أعرف في الحقيقة كيف وردت الفكرة إلى عقلي -وهي فكرة غريبة جدًّا بالنسبة لطفل- ولكنني أذكر أنها راقتني كثيرًا، وأنني أجبت على جميع الأسئلة الخاصة بالموضوع بأنني سأقدم هديةً لجدتي دون شك، ولكنني لم أذكر لأحد قط ما هي الهدية.

وعلى عكس جميع ما توقعته، وبالرغم من كل جهودي لم أستطع تكوين أكثر من زوجين من الشِّعر فكرت فيهما عفو اللحظة. وأخذت أقرأ بعض القصائد في كتبنا، ولكن لم يستطع ديمتربيف ولا درزافين مساعدتي، بل على العكس، أقنعاني بعجزي الكامل، ولعلمي أن كارل إيفانتش كان مغرمًا بكتابة الشِّعر، فقد نقبت بين أوراقه خلسةً، فوجدت بالإضافة إلى القصائد الألمانية، قصيدة روسية كذلك، لا بد أنها من إنتاج قلمه شخصيًّا:

إلى السيدة ل.

تذكريني عن قرب،

تذكريني عن بعد،

تذكريني دائمًا أبدًا،

---

(١) جرت عادة المسيحيين على تسمية أبنائهم عند التنصير باسم أحد القديسين، ويحتفل كل شخص بعيد القديس الذي سُمِّيَ به.

نعم، وتذكري أيضًا فيما وراء القبر،

أنني أحببتك كل الحب.

بتروفسكوي، في ٣ من يونيه سنة ١٨٢٨، كارل موير.

وأعجبت بهذه القصيدة بعد أن نسخت على ورقة رقيقة من أوراق المذكرات بخط متحرر مستدير الحروف، نظرًا للشعور المؤثر الذي استوحيته فيها. ثم حفظتها فورًا عن ظهر قلب، وصممت على اتخاذها نموذجًا، ثم أصبح التقدم بعد ذلك سريعًا.

وفي يوم عيد القديس كانت تهنئتي المكونة من اثني عشر بيتًا من الشِّعر جاهزةً، وجلست في حجرة الدراسة لنسخها على ورقة نصف شفافة.

وما لبثت أن أتلفت ورقتين، لا لأنني أردت تغيير أي شيء من أشعاري -فقد بدت لي كلها رقيقة جدًّا-، ولكن لأن نهايات السطور ابتداءً من السطر الثالث كان تتجه إلى أعلى شيئًا فشيئًا، ولذلك كانت تبدو، حتى من مسافة بعيدة، أنها كتبت كلها كتابةً معوجةً لا تصلح لشيء.

وكانت الورقة الثالثة منحرفةً أيضًا كالأخريين، ولكني صممت على عدم نسخها مرةً أخرى، وهنأت جدتي في قصيدة وتمنيت لها أعوامًا كثيرةً في صحتها، وختمتها كما يلي:

لكي نسعدك فسنحاول جهدنا،

أن نحبك مثل حبنا للعزيزة أمنا.

وبدت لي غايةً في الجودة، ومع ذلك فقد كان السطر الأخير سيئ الوقع على أذني بدرجة غريبة، وظللت أكرر وأعيد في سري: «أن نحبك

حبنا للعزيزة.. أم.. نا أي قافية يمكنني استخدامها بدلًا من «أمنا»؟... سرورنا؟ أملنا؟... حسن لا بأس في ذلك إنها أفضل على أي حال من أشعار كارل إيفانتش».

وهكذا نسخت السطر الأخير، ثم قرأت كل عملي بصوت مرتفع في حجرة النوم بتأثر وإشارات، وكانت أبيات الشِّعر عاطلةً كل العطل من القافية والوزن، ولكنني لم أتوقف عندهما، ومع ذلك فإن السطر الأخير كان لا يزال يصدمني بقوة ويبعث في نفسي الكدر، فجلست في فراشي وأخذت أفكر على هذا الوجه:

«لماذا كتبت عبارة «مثل حبنا للعزيزة أمنا» إنها ليست هنا، ولم يكن من الضروري ذكرها.. حقيقة أني أحب جدتي، وأحترمها، ولكنها مع ذلك ليست مثلها، فلماذا كتبت ذلك؟ لماذا كتبت كذبًا؟ فما كان ينبغي أن أجعل حبهما واحدًا، حتى إذا كان في الشِّعر».

ودخل الخيَّاط في هذه اللحظة ومعه سترتي الجديدة.

وقلت في ضيق شديد وأنا أدس أشعاري تحت الوسادة، وأجرى لقياس ملابسي الجديدة: «حسن، فليكن».

لقد كانت ملابسي لطيفةً حقًّا، فالمعطف القصير ذو اللون البني الخفيف بأزراره النحاسية، صُنع بتأنق لا كما يُصنع في الريف، وكذلك كانت السراويل السوداء محكمةً، وكان إبرازها للعضلات وإخفاؤها للحذاء شيئًا رائعًا.

.. وقلت في نفسي وأنا أكاد أطير من الفرح، بينما كنت أستعرض

سروالي من كل جانب: «وأخيرًا حصلت على سروال ذي أحزمة حقيقية»، وبالرغم من أن الملابس الجديدة كانت ضيقةً جدًّا، وكانت الحركة بها صعبةً، فقد أخفيت ذلك عن الجميع، بل أعلنت، على العكس، أنني مستريح فيها إلى أقصى حد، وأنه إن كان في الملابس أي خطأ، وإن كان هناك شيء فهو اتساعها قليلًا. ووقفت بعد ذلك وقتًا طويلًا أمام المرآة، أصفف شعري الغزير المدهون: ولكن بالرغم مما بذلت من جهد لم أستطع أن أجعل خصلة الشعر في قمة رأسي ترقد منبسطةً، فكلما توقفت عن ضغطها بالفرشاة لأرى إذا كانت قد أذعنت لي، ترتفع وتبرز في جميع الاتجاهات وتجعل وجهي يبدو مضحكًا.

كان كارل إيفانتش يرتدي ملابسه في حجرة أخرى، وقد حمل إليه عبر حجرة الدراسة معطف السهرة الأزرق، وملابسه الداخلية البيضاء، وسمعت صوت إحدى خادمات جدتي عند الباب الذي يؤدي إلى الطابق السفلي، فخرجت لأعرف ماذا تريد. كانت تمسك بيدها قميصًا ذا صدر مقوى، ذكرت لي أنها أحضرته لكارل إيفانتش، وأقسمت أنها لم تنم طوال الليلة السابقة لكي تجهزه له. وأخذت على نفسي تسليمه له، وسألتها عما إذا كانت جدتي قد استيقظت.

«آه، نعم يا سيدي! لقد تناولت قهوتها على التو، ووصل الكاهن».. ثم أضافت وهي تتأمل مبتسمةً حلتي الجديدة: «يا لك من شاب لطيف!».

أخجلتني ملاحظتها، فدرت سريعًا على قدم واحدة، وطقطقت أصابعي، ووثبت. كنت أرغب في أن تعرف أنها لم تقدر فخامتي حق قدرها.

وعندما أحضرت القميص ذا الصدر المقوى إلى كارل إيفانتش، وجدت أنه لم يعد بحاجة إليه، فقد ارتدى قميصًا آخر، انحنى أمام مرآة صغيرة موضوعة فوق المائدة، ممسكًا بكلتا يديه- عقدة ربطة عنقه الفاخرة، يحرك فيها ذقنه الحليقة إلى أعلى وأسفل للتأكد من ملاءمتها. وبعد تسوية ملابسنا من كل جانب، والتماسنا من نيكولاي أن يفعل مثلنا، تقدمنا إلى جدتنا. وإنني لأضحك الآن حين أتذكر مدى نفاذ المرهم العطري الذي شممناه نحن الثلاثة ونحن نهبط الدرج.

حمل كارل إيفانتش علبةً صغيرةً هديةً من صنع يديه، وكان مع فولوديا رسمه، ومعي أشعاري، وكان على لسان كل منا التحيات التي ينوي أن يقدم بها هديته، وفي نفس الوقت الذي فتح فيه كارل إيفانتش باب حجرة الاستقبال، كان الكاهن يرتدي ثيابه، وتتردد الكلمات الأولى من الصلاة.

وكانت جدتي موجودةً فعلًا بحجرة الاستقبال: كانت واقفةً قرب الحائط، مسندةً ذراعيها على ظهر مقعد، تصلي بورع وهي محنية الرأس، ووقف والدي بجانبها، فالتفت نحونا وابتسم حين رآنا نخفي هدايانا بسرعة وراء ظهورنا، ونقف داخل الباب محاولين تحاشي رؤيتنا، وتحطم كل الأثر الذي اعتمدنا عليه للمفاجأة.

وعندما حان الوقت للصعود وتقبيل الصليب شملتني فجأة نوبة قاهرة من الخجل، والشعور بأن الشجاعة لن تواتيني مطلقًا لتقديم هديتي، فاختبأت وراء كارل إيفانتش الذي ما إن هنأ جدتي في لغة منتقاة، حتى نقل علبته من يده اليمنى إلى اليسرى، ثم ناولها إياها، وتراجع خطوات قليلةً ليفسح طريقًا لفولوديا. وبدا فرح جدتي بالعلبة المزينة بأشرطة ذهبية

ملصقة على حوافها، وابتسمت معبرةً عن امتنانها بأحر الابتسامات. ومع ذلك فقد كان من الواضح أنها لم تعرف أين تضع العلبة، ولعل هذا كان السبب في أنها أعطتها لأبي وطلبت إليه أن يلاحظ مدى دقة صنعها.

وبعد أن أشبع حب استطلاعه، أعطاها الكاهن الذي سر أيما سرور بهذا الشيء الزهيد، فهز رأسه، وأخذ يتفرس مرةً في العلبة وأخرى في الفنان الذي استطاع أن يصنع مثل هذا الشيء الجميل. لقد أنتج فولوديا صورة التركي. وتلقى أعظم إطراء من كل ناحية.

والآن جاء دوري: فالتفت إلى جدتي بابتسامة تشجيع.

إن الذين يقاسون من الخجل يعرفون أنه شعور يتزايد تزايدًا مطردًا، بينما يقل التصميم بنفس الدرجة؛ أي أنه كلما بقي الشعور مدةً أطول، تزداد قابليته للتدهور وتقل البقية الباقية من التصميم.

إن بقايا الشجاعة والتصميم خذلتني عندما قدم كارل إيفانتش وفولوديا هديتهما، وبلغ خجلي الذروة، وشعرت أن الدم يندفع دون توقف من قلبي إلى رأسي، وانتابني الشحوب والاحمرار على التعاقب، وانتشرت قطرات العرق الكبير على أنفي وجبيني؛ والتهبت أذناي وشعري بقشعريرة وعرق بارد شمل كل جسمي، وأخذت أبدل قدمًا بقدم دون أن أتحرك من موضعي.

وقال أبي: «تعال يا نيكولنكا» أرنا ما معك -علبةً أم رسمًا؟».. لم تكن هناك حيلة، قدمت بيد مرتعشة القرطاس المطوي المغضن المشئوم، ولكن صوتي خذلني كل الخذلان فوقفت أمام جدتي صامتًا، ولم أستطع أن أتحمل التفكير في أنه بدلًا من الرسم الذي كان متوقعًا ستقرأ أشعاري

التافهة أمام أي شخص بما في ذلك عبارة» (أن نحبك مثل حبنا للعزيزة أمنا) التي ستبرهن بوضوح على أنني لم أحب أمي قط وأنني نسيتها. كيف أستطيع وصف عذابي عندما أخذت جدتي في قراءة قصيدتي بصوت مرتفع، وعندما عجزت عن حل طلاسمها... توقفت عند منتصف سطر وتطلعت إلى أبي بابتسامة خُيِّلَ إليَّ أنها ابتسامة سخرية، وعندما لم تنطق بكلمة ملائمة لي، وعندما ناولت الورقة لأبي، نظرًا لضعف بصرها، قبل أن تتم قراءتها، ورجته أن يقرأها كلها من أولها مرةً أخرى؟ لقد خُيِّلَ إليَّ أنها فعلت هذا؛ لأنها لم تعبأ بقراءة مثل هذا الشِّعر الأخرق الرديء الكتابة، ومع ذلك فقد أرادت أن يقرأ أبي لنفسه ذلك السطر الأخير، الذي يثبت بجلاء افتقاري إلى الشعور.

لقد توقعت أنه سيلطمني على أنفي بهذه الشعار قائلًا: «يا لك من صبي خبيث نسي أمه -تناول هذا»، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، بل حدث العكس، فحين قرئت الأشعار كلها، قالت جدتي: «رائعة!»، وقبلتني على جبيني. وعرضت العلبة والرسم والأشعار في صف بجانب منديلين من التيل الرفيع وعلبة سعوط مع صورة لأمي، على منضدة متحركة ملاصقة للمقعد الذي كان تجلس عليه جدتي دائمًا.

وأعلن أحد الخادمين الضخمين اللذين رافقا عربة جدتي قائلًا: «الأميرة فارفارا الينتشنا».

وتأملت جدتي باهتمام الصورة الموضوعة على غلاف علبة السعوط المصنوع من صدف السلحفاة، ولم تجب.

وأعاد الخدم يقول: «أتسمحين سموك باستقبالها؟».

(١٧)
الأميرة كورناكوفا

وقالت جدتي وهي تستقر على مقعدها ذي المسندين: «دعها تدخل». كانت الأميرة امرأةً في نحو الخامسة والأربعين، صغيرة الجسم واهنةً، تافهةً وصارمةً، ذات عينين خضراوين ضاربتين إلى اللون الرمادي تبعثان على النفور، يبدو في وضوح أنهما تتعارضان مع التعبير الودي غير الطبيعي الذي يستقر على شفتيها، ومن تحت قبعتها المخملية التي بينها ريشة نعام يظهر شعرها الأشقر ذو الصباغ الضارب إلى الحمرة، وحاجباها ورمشاها تبدو جميعًا أكثر شقرةً واحمرارًا بعكس وجهها الشاحب الدال على السقم، ولكن مع ذلك كله فإن سلوكها الطليق، ويديها الدقيقتين، والصلابة الغريبة في ملامحها لتنم على شيء ما أرستقراطي ومؤثر في مظهرها العام.

«تحدثت الأميرة طويلًا جدًّا، ومع ذلاقة لسانها التي تختص بها هذه الطبقة من الناس الذين يتحدثون دائمًا كما لو كان هناك من يعارضهم، بالرغم من أن أحدًا لم ينطق بكلمة واحدة: كانت ترفع صوتها وتخفضه شيئًا فشيئًا على التعاقب، ثم تأخذ لتوها في الحديث بحيوية جديدة وهي تتطلع إلى جميع الحاضرين، حتى وإن لم يشتركوا في النقاش، كما لو

كانت تحاول الحصول على مؤازرتهم.

وبالرغم من أن الأميرة قبلت يد جدتي، وكانت تناديها دائمًا بعمتي الطيبة، فقد لاحظت أن جدتي لم تكن مسرورةً منها، كان ينتفض حاجباها بطريقة غريبة وهي تصغي إلى اعتذاراتها عن عدم زيارة الأمير ميخايلو شخصيًا لتهنئة جدتي بالرغم من رغبته الحارة في ذلك، وتجيب بالروسية على حديث الأميرة بالفرنسية.

قالت ببطء غريب: «إنني لشديدة الامتنان يا عزيزتي لاهتمامك، أما عن تخلف الأمير ميخايلو عن الحضور فأرجو عدم التنويه به، فهو مشغول دائمًا، وفوق ذلك فأي مسرة يمكن أن يجدها في زيارة سيدة عجوز مثلي؟» وسألتها دون أن تفسح للأميرة وقتًا لمعارضتها قائلةً: «وكيف حال أطفالك يا عزيزتي؟».

«أحمد الله يا عمتي، إنهم يتقدمون تقدمًا حسنًا، ويدرسون ويلهون، وبخاصة اتيين، وهو أكبرهم، ويتجه إلى طيش لا نعرف كيف نعالجه، ولكنه مجتهد -صبي واعد.. تخيل يا ابن عمي..» وواصلت حديثها وهي ملتفتة إلى أبي؛ لأن جدتي التي لم تكن تهتم بأطفال الأميرة، وأرادت أن تفاخر بالأحرى بأحفادها هي؛ فتناولت أشعاري من الصندوق بعناية كبرى وأخذت تنشرها، «تخيل يا ابن عمي ماذا فعل منذ أيام قليلة» ثم مالت الأميرة نحو أبي وأخذت تقص عليه شيئًا في كثير من الانتعاش، وعندما أتممت حكايتها التي لم أسمعها، ضحكت، ونظرت إلى بابا مستفسرة؛ وقالت:

«ما رأيك في ذلك يا ابن عمي؟ إنه كان بحاجة إلى الجلد ولكن لهوه

كان حاذقًا ومدعاةً إلى التسلية يا ابن عمي، بحيث غفرت له».

وثبتت الأميرة نظراتها على جدتي، ثم راحت تبتسم، ولكنها لم تقل شيئًا.

واستفسرت جدتي وهي ترفع حاجبيها باهتمام، «هل تضربين أطفالك يا عزيزتي؟». وشددت النطق عند كلمة «تضربين».

وأجابت الأميرة بلهجة هادئة، ونظرة سريعة ألقتها على بابا: «يا لأسف يا عمتي الطيبة، فأنا أعرف رأيك في هذه الناحية، إنني آسفة، ولكن لا بد أن أخالفك الرأي في هذا الموضوع الخاص: فبالرغم من كل تفكيري وقراءتي في الموضوع، وبالرغم من كل نصيحة انتصحت بها، فإن التجربة أرشدتني إلى الاقتناع بأن الأطفال يجب أن يحكموا بالخوف، إن الخوف ضروري لكي تصنع من الطفل شيئًا. أليس كذلك يا ابن عمي؟ والآن أسألكم قليلًا... هل يخاف الأطفال شيئًا أكثر من العصا؟». وعند هذا رمقتنا بنظرة متسائلة، وأعترف أنني شعرت في تلك اللحظة بالضيق نوعًا ما «ومهما قلتم، فإن صبيًّا في الثانية عشرة أو حتى في الرابعة عشرة لا يزال طفلًا، والفتاة بطبيعة الحال شيء مختلف كل الاختلاف».

وقلت في نفسي: «ما أسعدني أنني لست ابنها!».

وقالت جدتي وهي تطوي أشعاري وتضعها تحت العلبة كأنها اعتبرت الأميرة بعد ذلك غير جديرة بسماع مثل هذا الإنتاج: «كل هذا جميل جدًّا، ولكن أرجو أن تخبريني كيف تتوقعين بعد ذلك أي رقة في شعور الأطفال؟».

وأضافت جدتي وقد اعتبرت النقاش لا يحتمل الإجابة، ولكي تضع حدًّا للحديث: «ومع ذلك، فلكل شخص الحق في إبداء رأيه الخاص في ذلك الموضوع».

ولم تجب الأميرة، ولكنها ابتسمت متلطفةً، وبذلك هيأت لنا أن ندرك أنها صفحت عن هذه الآراء المبتسرة التي أدلى بها شخص تحترمه جد الاحترام.

وقالت وهي تتفرس فينا، وتبتسم متلطفةً: «أرجو أن تقدموني لصغاركم».

فنهضنا وثبتنا أعيننا على وجه الأميرة، ولكن لم نعرف مطلقًا ماذا ينبغي أن نفعل لكي نبين أن التعارف قد تم.

وقال أبي: «قَبِّلْ يد الأميرة».

فقالت وهي تقبل فولوديا في رأسه: «ستحب عمتك العجوز، أليس كذلك؟»، ثم أضافت وهي توجه ملاحظاتها إلى جدتي بنوع خاص: «ولكني أقدر علاقات الصداقة أكثر من علاقة الدم». ولكن جدتي ظلت غير راضية عنها وأجابت:

«آه يا عزيزتي، وهل تساوي هذه العلاقة شيئًا في هذه الأيام؟».

وقال أبي مشيرًا إلى فولوديا: «إن هذا سيكون فتى الدنيا»، ثم أضاف قائلًا: «وهذا هو الشاعر» في اللحظة التي كنت أُقَبِّل فيها يد الأميرة العجفاء الصغيرة وأتخيل بأجلى وضوح أن باليد قضيبًا، وأن تحت القضيب كرسيًّا، وما إلى ذلك.

وسألته الأميرة وهي تحتجزني بيدها قائلة: «من؟».

وأجاب أبي وهو يبتسم مبتهجًا: «هذا الشخص الصغير الذي تعلو ناصيته خصلة الشعر».

وقلت في نفسي وأنا أنسحب إلى الركن: «وماذا تعنيه خصلة شعري؟ ألا يوجد شيء عداها يتحدث عنه؟».

لقد كنت أحمل أغرب الأفكار عن الجمال، بل كنت أعتبر كارل إيفانتش أجمل رجل في العالم، ولكني كنت أعرف جيدًا أنني لم أكن مليح المنظر، ولم أكن مخطئًا في هذه الناحية: ومن ثَمَّ فإن أي تلميح إلى مظهري الشخصي كان يسيء إليَّ إساءةً عميقةً.

إنني لأذكر جيدًا كيف حدث مرة –وكنت في السادسة من سني في ذلك الوقت– أنهم كانوا يتناقشون على مائدة الغداء عن شكلي، وأن أمي كانت تحاول الكشف عن شيء جميل في وجهي فقالت إن لي عينين ذكيتين، وابتسامةً محبوبةً وأخيرًا، فإذعانًا لحديث والدي وللحقيقة الملموسة اضطررت إلى الاعتراف بأنني عاطل من الجمال، وعندما شكرتها آنئذ على الغداء، ربتت على خدي مدللةً، وقالت:

«تذكر يا حبيبي، إن أحدًا لن يحبك لجمال وجهك، ولذا يجب أن تحاول أن تكون طيبًا وذكيًّا، أستكون كذلك؟».

ولم تقتصر هذه الكلمات على إقناعي وحسب أنني لم أكن جميلًا، ولكنني مضطر أيضًا أن أكون طيبًا وذكيًّا.

ومع ذلك، فكثيرًا ما كانت تنتابني لحظات من اليأس: كنت أتخيل

عدم وجود سعادة لإنسان على وجه الأرض له مثل هذا الأنف الواسع والشفتين الغليظتين، ومثل هاتين العينين الرماديتين، وكنت أتوسل إلى الله أن يصنع معجزةً ليحيلني جميلًا، على أن أقدم كل ما أملكه في حاضري، وما يمكن أن أملكه في المستقبل في مقابل وجه جميل.

* * *

(١٨)

الأمير إيفان إيفانتش

وعندما سمعت الأميرة الأشعار، وأغدقت على المؤلف المديح، أخذت جدتي تخاطبها بالفرنسية مترفقةً، وتوقفت عن مناداتها بـ «أنت» و«يا عزيزتي»[١]، ودعتها إلى زيارتها مرةً أخرى في المساء بصحبة أطفالها، وقد وافقت الأميرة على ذلك، وبعد أن مكثت قليلًا غادرت المكان.

لقد حضر زائرون كثيرون في ذلك اليوم يحملون تهانيهم، حتى إن العربات كانت تقف في الفناء بالقرب من المدخل طوال الصباح.

وقال أحد الضيوف وهو يدخل الحجرة ويُقبِّل يد جدتي: «صباح الخير يا ابنة عمي العزيزة».

كان رجلًا يناهز السبعين من عمره، طويل القامة، يرتدي الزي العسكري المطرز الكتفين بشريط القصب، من تحت البنيقة التي يظهر من تحتها صليب كبير أبيض، ويرتسم على تقاسيم وجهه الهدوء والصراحة. وقد أدهشتني بساطته وتصرفاته. وكان وجهه جميلًا بدرجة ملحوظة، بالرغم من أن كل ما بقي له من الشعر هو نصف دائرة رفيعة على قفاه، وأن

---

(١) أي أنها كانت تخاطبها بضمير المفرد (أنتِ).

شفته العليا الغائرة تكشف عن فم ليس فيه أسنان.

قام الأمير إيفان إيفانتش قرب نهاية القرن الماضي بعمل باهر وهو شاب صغير جدًّا، وذلك بفضل خلقه النبيل وشخصه اللطيف وشجاعته البارزة وعائلته الشهيرة القوية، ثم بفضل حظه السعيد بنوع خاص. وظل في الخدمة، وأشبع طموحه كل الإشباع بسرعة كبرى حتى لم يعد أمامه شيء يتمناه في هذا الجانب من الحياة. وساس نفسه منذ شبابه الباكر كأنه يستعد لشغل تلك المكانة- المجيدة في العالم- التي وضعه فيها الحظ أخيرًا، ومن ثمَّ، فبالرغم من مواجهته لبعض ضروب الإخفاق واليأس في حياته اللامعة، المنطوية على شيء من الخيلاء، كالتي يكابدها كل الناس، فإن مزاجه الهادئ وطريقته الراقية في التفكير، ومبادئه القائمة على أساس قوي من الدين والأخلاق، كل ذلك لم يخذله قط، فظفر بالاحترام الشامل نتيجةً لقوة عزمه وثباته أكثر منه نتيجةً لمركزه الممتاز. وهو لم يكن ذا عقلية ممتازة، ولكن بفضل المركز الذي سمح له بازدراء كل عبث الحياة وضجيجها ارتقت نظرته الفكرية. وكان بطبيعته شفوقًا حساسًا، ولكنه في تصرفه كان يبدو فاترًا ومتعاليًا إلى حد ما. وقد نشأ هذا من وضعه في مركز يستطيع معه أن يكون مفيدًا لكثير من الناس، وحاول بتصرفه الفاتر حماية نفسه من الالتماسات التي لا تنقطع وطلبات الأشخاص الذين يرغبون في استغلال نفوذه وحسب. ولكن هذا الفتور صقله الأدب المتلطف الذي يتسم به رجل «مجتمع بالغ الرقي».

وكان مثقفًا يحسن القراءة، ولكن ثقافته توقفت عند حصيلة شبابه -أي عند نهاية القرن الماضي، قرأ كل شيء مشهور كتب في فرنسا في

موضوع الفلسفة وعلم البلاغة إبان القرن الثامن عشر، وكان ملمًّا إلمامًا تامًّا بجميع آثار الأدب الفرنسي، ولذلك كان قادرًا على اقتباس فقرات من «راسين» و«كورنيي» و«بوالو» و«موليير» و «مونتاني» و «فنلون»، وأغرم بهذا العمل، وحصل على معلومات ممتازة من الأساطير، ودرس الروائع القديمة من الشِّعر القصصي في ترجماته الفرنسية وأفاد منه، وحصل على قدر طيب من المعرفة في التاريخ من كتابات «سيجير»[1]، ولكنه لم يكن يعرف شيئًا ألبتة عن العلوم الرياضية فضلًا عن الحساب، ولا عن العلوم الطبيعية ولا الأدب المعاصر، وكان يعتصم بالصمت المهذب أو يفوه بعبارات عادية قليلة عن جوته وشيلر وبيرون، ولكنه لم يقرأ لهم شيئًا. وبالرغم من هذا التعليم الفرنسي التقليدي الذي لا يزال باقيًا منه أمثلة قليلة جدًّا، فإن حديثه كان بسيطًا، وهذه البساطة في ذاتها كانت تخفي جهله بأشياء مختلفة، وكانت تُضفي على حديثه في نفس الوقت لونًا من السماحة والذوق المصقول، وكان يكره الشذوذ من كل نوع، ويعلن أنه من اختراع الدهماء، ويرى المجتمع ضرورةً بالنسبة إليه، وحيثما كان يعيش سواء في موسكو أو في الخارج، كان يعيش في سخاء، ويستقبل في أيام معينة كل سكان المدينة. وكانت منزلته في المجتمع كأنها دعوة منه تستخدم كجواز مرور إلى كل حجرات الاستقبال، وكانت كثيرات من النساء الصغيرات الجميلات يقدمن له وجناتهن الوردية التي كان يقبلها في ظاهر الأمر بشعور أبوي؛ وبقدر ما أرى من ظاهر الأمر، كان

(١) الكونتس دي سيجير (١٧٩٩ -١٨٧٤). واسمها الأصلي رستوبشين، وهي كاتبة فرنسية، ولدت في روسيا، ولها آثار أدبية قيمة قصدت بها توجيه النشء والأطفال. ومن أهم مؤلفاتها: مذكرات حمار، وفندق الملاك الحارس. ويمتاز أسلوبها بالسهولة. (المترجم).

كثير من الناس ذوى المكانة والاحترام الكبيرين يسرهم أن يسمح لهم بالحضور إلى ولائم الأمير.

لم يبق آنئذ غير عدد قليل جدًّا من الناس على شاكلة جدتي، ممن كانوا أعضاء في نفس الحلقة، ومن نفس السن، ونفس التعليم ووجهات النظر، ومن أجل هذا كان يمتدح بنوع خاص صداقته لها، ويظهر لها على الدوام أعظم الاحترام.

لم أستطيع التفرس طويلًا في الأمير. فالاحترام الذي أولاه إياه كل شخص، والزخرف القصبي الضخم على كتفيه، والابتهاج الخاص الذي أظهرته جدتي عند رؤيته، وكونه الشخص الوحيد الذي لم يكن يخشاها ويعاملها بغاية اليسر، بل إنه ليتجاسر فيخاطبها «بابنة عمي»، كل ذلك أوحى إليَّ باحترامه الذي تساوي مع احترامي الذي كنت أشعر به نحو جدتي، إن لم يزد عليه. وحين أطلعته على أشعاري استدعاني إليه، وقال لجدتي:

«من يدري يا ابنة عمي، فقد يكون «درزافين» آخر؟».

وعندئذ قرص وجنتي بشدة بالغة، وإن كنت لم أصرخ؛ فلأنني قدرت أن المقصود بها التدليل.

وانصرف الضيوف، وخرج أبي وفولوديا؛ وبقي الأمير وجدتي وأنا بحجرة الاستقبال.

وسأل الأمير بعد لحظات قصيرة من الصمت: «لماذا لم تحضر عزيزتنا ناتاليا نيكولايفنا؟».

وأجابت جدتي وهي تميل برأسها وتضع يدها على كم ثوبه الرسمي: «آه يا عزيزي، كان لا بد أن تأتي لو كانت حرةً تفعل ما تشاء، إنها تكتب لي بأن بيير قد اقترح أن تحضر، ولكنها رفضت، إذ لم يكن لديهم دخل ألبتة في هذا العام، وهي تكتب قائلةً: «وفوق ذلك فليس هناك سبب لانتقالي إلى موسكو في هذا العام مع جميع أهل المنزل، وإن ليوبتشكا لا تزال صغيرةً جدًّا، أما عن الولدين اللذين يعيشان معك، فأنا أكثر اطمئنانًا عليهما مما لو كانا يعيشان معي..»، وتابعت جدتي حديثها قائلةً بلهجة تكشف بوضوح تام إنها لم تعتبر ذلك شيئًا ملائمًا ألبتة: «كل هذا جميل! كان ينبغي أن يُرسل الولدان إلى هنا منذ وقت طويل؛ لكي يتعلما شيئًا، ويعتادا حياة المجتمع، فأي نوع من التعليم يمكن أن يقدم لهما في الريف؟». إن أكبرهما سيبلغ الثالثة عشرة قريبًا جدًّا، والآخر في الحادية عشرة، ولعلك لاحظت يا ابن عمي، أنهما غير مصقولين مطلقًا هنا، فهما لا يعرفان كيف يدخلان الغرفة».

وأجاب الأمير: «ولكني لا أفهم سبب هذه الشكاوى المستمرة من ظروف هذا الضيق؟ إن لديه أملاكًا حسنةً جدًّا، وأنا أعرف خارباروفكا، قرية ناتاليا –حيث كنت أمثل معك المسرحيات في وقت من الأوقات– معرفتي لراحة يدي، إنها أملاك طيبة، وينبغي أن تغل دخلًا حسنًا».

وقاطعته جدتي قائلةً والأسف باد عليها: «لا يهمني أن أخبرك، كصديق مخلص، إذ يبدو لي أن كل هذه الأعذار إنما اخترعت فقط بقصد السماح له بأن يعيش هنا وحده، ولكي يتلكأ في النوادي في أوقات الغداء، والله يعلم ماذا يفعل غير هذا؛ ولكنها لا تشك في شيء قط، فأنت تعرف

أي ملاك هي، إنها تثق به تمام الثقة، وهو يؤكد لها ما كان من ضرورة إحضار الطفلين إلى موسكو، وتركها وحيدةً في الريف مع تلك القهرمانة الغبية. وقد صدقته. وإن قال إنه من الضروري ضرب الطفلين بالسياط، كما قالت الأميرة فارفارا الينتشنا، فمن المحتمل أيضًا أن يصدقها»، وقالت جدتي وهي تدور في مقعدها وقد ارتسمت عليها علامات الاحتقار التام: «نعم يا صديقي». وتابعت جدتي حديثها بعد توقف لحظة وهي تتناول أحد منديليها لتمسح دمعةً طفرت من عينيها: «كثيرًا ما أفكر في أنه لا يستطيع تقديرها ولا يستطيع فهمها، وذلك بالرغم من طيبتها وحبها له، وجهودها التي تبذلها لإخفاء حزنها -إنني أعرفها حق المعرفة، فهي لا تستطيع أن تسعد معه، واصغ إلى كلماتي، فإذا لم-».

وغطت جدتي وجهها بمنديلها.

وقال الأمير عاتبًا: «آه، يا صديقتي الطيبة، أرى أنك جافيتِ كل تعقل، فأنتِ تغتمين لحزن وهمي، تعالي، ألستِ خجلانةً من نفسكِ؟ لقد عرفته منذ أمد طويل، وأعرف أنه رجل طيب، يقظ، وزوج ممتاز، فما هو الشيء الأساسي؟ أن يكون رجلًا أمينًا كل الأمانة».

ولما كنت قد سمعت عن غير قصد محادثةً ما كان ينبغي لي سماعها، فقد انسحبت من الحجرة على أطراف قدمي في حالة من الاضطراب العنيف.

* * *

(١٩)

أبناء إيفن

صحت قائلًا: «فولوديا! فولوديا! أبناء إيفن!» وذلك حين وقع نظري من النافذة على ثلاثة أولاد يرتدون معاطف زرقاء ذات بنيقات من جلد القندس، كانوا يعبرون الممشاة الجانبية المواجهة لمنزلنا، وعلى رأسهم معلمهم الخاص، الشاب المتأنق.

إن أبناء إيفن يمتُّون لنا بالقرابة، وفي نحو عمرنا، وقد تعرفوا بنا حال وصولنا إلى موسكو، وأصبحنا آنئذ أصدقاء مخلصين.

وكان سريوزا، الابن الثاني أسمر البشر مجعد الشعر، ذا أنف صغير أشم، وشفتين حمراوين غضتين قلما تنطبقان فوق أسنانه البيضاء، بل على أسنانه العليا الناتئة، وعينين قاتمتي الزرقة، وتعبير يقظ بشكل غريب. لم يبتسم مرةً. فهو إما أن يبدو جادًّا تمام الجد، أو يضحك من أعماق قلبه ضحكةً رنانةً شديدة العدوى، وقد لفت نظري جماله غير العادي لأول نظرة، وشعرت نحوه بجاذبية لا تقاوم، وكانت تكفيني رؤيته لأكون سعيدًا كل السعادة. وفي ذلك الحين كانت كل روحي مركزةً في هذه الرغبة الوحيدة، فإذا تصادف أن مرت ثلاثة أو أربعة أيام دون أن أراه، فإني أشعر بالانقباض والحزن، بل كان يصل بي الحال إلى حد البكاء. وكانت كل أحلامي في سيري ونومي تدور حوله. وعندما أرقد لأنام، أتمنى أن أحلم

به، وحين أغمض عيني أراه أمامي، واعتز بالرؤيا، كأنها أعظم متعة. كان هذا الشعور من التعاسة بحيث لم أستودع سره أحدًا، وكان من الواضح أنه يفضل أن يلعب ويتحدث مع فولوديا على أن يلعب أو يتحدث معي، وربما كان يضايقه شعوره بعيني القلقتين اللتين تتفرسان فيه باستمرار، أو ربما كان السبب هو عدم شعوره وحسب بالمشاركة الوجدانية، ولكن مهما كان الأمر فقد كنت قانعًا. لم أرغب في شيء، ولم أطلب شيئًا، وكنت مستعدًّا للتضحية بكل شيء في سبيله؛ وبالإضافة إلى العلاقة التي بعثها فيَّ، فإن وجوده كان يثير في شعورًا آخر بدرجة لا تقل قوة –الخوف من إيلامه أو الإساءة إليه، أو تكديره. كان شعوري بالخوف عليه كالشعور بالحب، ولعل ذلك كان راجعًا إلى أن وجهه كان يتسم بطابع الكبرياء، أو لازدرائي لمظهري الخاص، فأنا أقدر جمال الآخرين تقديرًا عاليًا جدًّا، أو على أصح الاحتمالات جميعًا، إنها علامة الحب التي لا تخطئ.

عندما تحدث إليَّ سريوزا لأول مرة، فقدت كل فطنتي أمام هذه الغبطة غير المتوقعة، إلى درجة أنني أُصبت بالشحوب والخجل، ولم أُحِرْ جوابًا. كانت فيه عادة سيئة حين كان يفكر، وذلك أنه يثبت نظره في شيء ما، وتطرف عينه دون توقف، ويختلج أنفه وحاجباه في نفس الوقت، وقد اتفق الجميع على أنها عادة قبيحة، ولكني كنت أرى فيها من قوة الفتنة ما جعلني أنا نفسي اعتادها طواعيةً. وبعد أيام قليلة من تعارفنا لأول مرة، تساءلت جدتي عما إذا كانت عيناي تؤلماني، وذلك لأنني كنت أطرف بهما كالبومة. لم نتبادل فيما بيننا كلمة حب واحدة، ولكنه كان يشعر بسيطرته عليَّ، ونفذ هذه السيطرة عن غير قصد، ولكن في طغيان أثناء

اختلاطنا الصبياني. أما فيما يتعلق بي، فلئن كنت أصبو إلى سكب قلبي كله من أجله، إلا أنني كنت أخاف كثيرًا التحدث إليه في صراحة، وكنت أحاول إظهار عدم الاهتمام، وأخضع له دون تذمر، وكان نفوذه في بعض الأحيان يبدو جائرًا غير محتمل، ولكن لم يكن في طاقتي الهرب منه.

إنه ليحزنني التفكير في ذلك الشعور العذب الجميل، الشعور بالحب الخالي من الأثرة والقيود، الذي مات دون أن يجد متنفسًا أو يلقى تجاوبًا.

لماذا كافحت عندما كنت طفلًا لكي أبدو شخصًا مكتملًا، فلما انتهت مرحلة الطفولة تاقت نفسي إلى أن أكون كالطفل؟

لطالما حالت رغبتي في ألا أبدو كالطفل في علاقاتي مع سريوزا، دون الشعور الذي كان على استعداد للتدفق، مما حدا بي إلى النفاق! ولم أتجاسر على مجرد تقبيله وهو ما كانت تشتد بي الرغبة فيه أحيانًا، وفي أن أمسك بيده، وأقوله له إنني سعيد برؤيته، بل إنني لم أتجاسر أن أدعوه سريوزا، وظللت محافظًا بدقة على مناداته باسمه الرسمي، سيرجي، لقد كان كل تعبير عن الشعور يعد طفولةً، والانغماس في إظهار مثل هذا الشعور إنما كان مجرد دلالة على أن الشخص لم يزل صبيًّا صغيرًا. ودون أن نجتاز بعد هذه التجارب المريرة التي أدت بالكبار إلى الحذر والفتور في علاقاتهم مع بعضهم البعض، حرمنا أنفسنا من المتعة النقية، متعة انعطاف الطفولة اللين، وذلك بسبب الرغبة العجيبة في تقليد الكبار دون غيرها.

قابلت أبناء إيفن في غرفة الانتظار، وتبادلنا التحيات، ثم طرنا مباشرةً إلى جدتي وأنبأناها بحضورهم في كثير من الابتهاج، كما لو كانت هذه الأخبار لا بد أن تجعلها سعيدةً كل السعادة؛ ثم تبعت سريوزا إلى غرفة

الاستقبال دون أن أبعد عنه نظري، وأراقب كل حركاته. وبينما كانت جدتي تخبره أنه كبر إلى حد بعيد، وترمقه بعينيها المتفحصتين، داخلني ذلك الشعور بالخوف والأمل الذي لا بد أن يجربه الرسام عندما ينتظر الحكم على عمله من قاض يحترمه.

وذهب معنا هر فروست، معلم أبناء إيفن الشاب بعد استئذان جدتي إلى الحديقة الأمامية، وجلس على مقعد أخضر، يضع ساقًا على ساق في جلسة جديرة بالتصوير، ووضع بينهما عصا ذات رأس من البرونز، وأخذ يدخن سيجارةً وهو راض كل الرضا عن تصرفه.

كان هر فروست ألمانيًّا، ولكنه من نوع مختلف جدًّا عن صاحبنا كارل إيفانتش الطيب، فقد كان قبل كل شيء يتحدث اللغة الروسية السليمة، ويتحدث الفرنسية في لهجة رديئة، ويشتهر بوجه عام وخاصة بين النساء، بأنه رجل علم ضليع جدًّا. ثم إن شاربه كان أحمر، ويضع دبوسًا كبيرًا من الياقوت في ربطة عنقه السوداء المصنوعة من الأطلس، تنحشر أطرافها في حمالته، ويرتدي سروالًا خفيفًا أزرق ذا طرفين ناتئين وأربطة، وثالث الأمور أنه كان شابًّا ذا مظهر جميل، ويتسم بالرضا الذاتي، له ساقان لطيفتان قويتان بصورة ملحوظة، وواضح أنه كان فخورًا بنوع خاص بهاتين الساقين، ويعتبر أن الجنس الآخر لا يستطيع مقاومتهما، ولعل هذا كان السبب في محاولته عرضهما ما وسعه ذلك. فقد كان يحرك ساقيه على الدوام سواء كان واقفًا أو جالسًا. كان طرازًا من الشاب الروسي الألماني الطامح في أن يكون شخصًا مرحًا، زير نساء.

كنا غاية في المرح بالحديقة، ولم تكن لعبتنا «الحرامية» يومًا أنجح

منها في هذه المرة، ولكن حادثًا طرأ فأفسد كل شيء... لقد كان سريوزا يقوم بدور «الحرامي» وبينما هو يسرع في تعقب المسافرين، سقط وارتطمت ركبته بشجرة ارتطامًا بلغ من شدته أنني ظننتها قد كُسرت. وبالرغم من قيامي بدور رجل الشرطة، ومن واجبي القبض عليه، فقد اقتربت منه، وسألته في عطف عما إذا قد أوذي. وغضب مني سريوزا، وضم قبضته، وضرب على قدمه، وصاح بصوت يدل بوضوح على أنه قد أصيب إصابة بالغة:

«حسن، وماذا يهم؟ إنك تفسد اللعبة كلها! تقدم واقبض عليَّ! لماذا لا تقبض عليَّ؟» وظل يكرر هذه العبارة مرات عدةً وهو يرمق من جنب عينيه فولوديا وإيفن الكبير اللذين كانا بوصفهما من المسافرين، يركضان في الممر، ثم صرخ عليَّ حين فجأة، واندفع وراءهم وهو يطلق ضحكةً عاليةً.

لا أستطيع أن أصف كيف تأثرت بهذا التصرف البطولي، فبالرغم من شدة الألم لم يقتصر على عدم البكاء، بل لم يظهر حتى إنه أُصيب، ولم ينس اللعب لحظةً واحدةً قط.

وبعد ذلك بقليل عندما لحق بجماعتنا أيضًا «ألنكا جراب»، صعدنا إلى الطابق العلوي؛ لكي نلعب حتى يحين وقت الغداء، أدهشني سريوزا مرةً أخرى وأبهجني بشجاعته الغريبة وثبات خلقه.

كان ألنكا جراب ابن رجل أجنبي فقير عاش في وقت ما عند جدي؛ وكان مدينًا له بصورة ما، فرأى آنئذ أن واجبه الحتمي يقتضيه إرسال ابنه إلينا في كثير من الأحيان. فلو كان يفترض أن معرفتنا ستضفي عليه أي شرف أو تعويضًا، فهو مخطئ كل الخطأ؛ لأننا لم نرفض أن نجعل منه صديقًا وحسب،

بل إننا لم نعره أي اهتمام إلا حين كنا نريد السخرية منه؟ وكان ألنكا جراب ولدًا طويلًا نحيلًا في نحو الثالثة عشرة، ذا وجه شاحب يشبه وجه الطائر، عليه سمات الخضوع الفطري. وكانت ملابسه رثةً للغاية، ولكن شعره كان دائمًا كثير الدهان لقد جاهرنا في يوم مشمس بأن دهان جراب سوف يذوب ويسيل تحت سترته. وأرى حين أتذكره الآن أنه كان كريمًا لطيفًا، وشفوقًا جدًّا، ولكنه كان يبدو لي في ذلك الوقت مخلوقًا محتقرًا إلى حد بعيد، لم يكن من الضروري العطف عليه أو حتى التفكير فيه.

وعندما بلغت لعبة «الحرامية» نهايتها، وصعدنا إلى الطابق العلوي وأخذنا نتط ونستعرض مختلف الألعاب الرياضية أمام بعضنا البعض، وكان ألنكا يشاهدنا وعلى شفتيه ابتسامة إعجاب هيابة، وعندما اقترحنا عليه أن يحاول بدوره، رفض قائلًا إنه ليس قويًّا كما ينبغي. كان سريوزا يبدو ساحرًا بصورة مدهشة، فقد خلع معطفه، وكانت وجنتاه وعيناه متأججةً، ويضحك دون توقف؛ وابتدع كل ضروب الألعاب الجديدة، كان يقفز من فوق ثلاثة مقاعد موضوعة في صف واحد، وأنجز عمل عجلات العربة، ووقف برأسه على قاموس تاتشيف الذي وضعه في وسط الحجرة وجعل منه ركيزةً، وفي نفس الوقت قام بقفزات مضحكة بالقدمين، حتى إننا لم نستطع مقاومة الضحك، وبعد هذه اللعبة الأخيرة تدبر الأمر قليلًا -وهو يرمش بعينيه كالمعتاد- وتقدم من ألنكا بوجه جاد تمامًا، وقال له: «والآن ستفعل أنت ذلك، إنه شيء صعب في الحقيقة». وإذ أدرك جراب أن الانتباه العام موجه إليه، احمر وجهه، وأعلن في صوت خافت أنه لا يستطيع القيام به.

«ما أمر هذا الشخص؟ لماذا لا يريد أن يفعل شيئًا؟ لعلكم ظننتموه فتاةً! إنه سيقف على رأسه».

وأمسك به سريوزا.

وصحنا جميعًا: «نعم، نعم، قف على رأسك فورًا»، وأحطنا بألنكا الذي ظهر عليه الخوف في تلك اللحظة وشحب لونه، فقبضنا على ذراعيه وسحبناه إلى القاموس وصاحت الضحية التعسة: «اتركوني، سأفعل ذلك وحدي، إنكم ستمزقون سترتي»، ولكن كل هذه الصيحات البائسة لم تجد شيئًا غير تحفيزنا إلى المزيد. وكنا نضج بالضحك، وتمزق المعطف الأخضر أيما تمزق.

وثنى فولوديا وإيفن الكبير رأسه إلى أسفل ووضعوه فوق القاموس، وأمسكنا، سريوزا وأنا، بساقي الصبي المسكين النحيلتين اللتين كانتا تتأرجحان في كل اتجاه وطوينا سرواله حتى الركبة ورفعنا ساقيه عاليًا في الهواء ونحن نهدر بالضحك، بينما حاول إيفن الصغير المحافظة على توازن بقية جسمه.

وهدأت ضجة ضحكنا على حين فجأة، وران علينا الصمت، وبلغ من سكون الحجرة أن أصبح تنفس جراب هو الصوت الوحيد المسموع، ولم أكن متأكدًا بحال في تلك اللحظة إن كل هذا الذي حدث كان مدعاةً للضحك والتسلية إلى هذا الحد.

وقال سريوزا وهو يصفعه: «إليكم الآن زميل لطيف».

وظل ألنكا صامتًا. وفي أثناء محاولته تخليص نفسه كان يطوح

بساقيه في جميع الاتجاهات، وفي حركة من هذه الحركات اليائسة، صدم سريوزا في عينه بمؤخرة قدمه صدمةً مؤلمةً للغاية، ترك على أثرها سريوزا الساق، وشد على عينه التي أخذت تسيل منها الدموع دون انقطاع، ودفع ألنكا بكل قوته. ولما لم يكن أحد منا يسند النكا، فقد سقط على الأرض بكل ثقله، وكان كل ما استطاع أن ينطق به بسبب انهمار دموعه هو:

«لماذا تعذبونني هكذا؟».

إن منظر ألنكا المسكين المكتئب، بوجهه الذي لطخته الدموع، وشعره المشعث وسرواله المطوي إلى أعلى، الذي تظهر من تحته ساقاه القذرتان المنتعلتان، أعادت إلينا وعينا، فوقفنا صامتين نغتصب الابتسام اغتصابًا.

كان سريوزا هو أول من أفاق.

وقال وهو يدفعه بقدمه بتهور: «أيها الولد الغبي، المخَّاط، البكاء كالطفل، ألا تعرف المزاح! يكفيك هذا الآن، انهض».

وقال ألنكا غاضبًا وهو منصرف ينشج بصوت مرتفع: «إنك لولد قذر خبيث».. وصاح سريوزا: «لماذا ترفسني أولًا، ثم تشتمني؟!».

وأمسك بالقاموس، وطوح به إلى رأس الولد البائس الذي لم يفكر قط في الدفاع عن نفسه، واقتصر على تغطية رأسه بيديه.

وقال سريوزا وهو يضحك ضحكةً مغتصبةً: «خذ تلك الضربة! وتلك! ولنتركه وحيدًا إذا كان لا يفهم المزاح، ولنهبط إلى الطابق السفلي».

وتطلعت في عطف إلى الزميل المسكين الذي رقد على الأرض

مخفيًا وجهه بالقاموس يبكي بكاءً حارًّا حتى لقد خُيِّلَ إليَّ أنه سيموت من الرجفة التي تهز كل بدنه.

وقلت: «آه، يا سرجي! لماذا فعلت ذلك؟».

«تلك علقة طيبة»! إنني لم أبكِ، هل بكيت عندما جرحت ركبتي اليوم وكاد الجرح يبلغ العظم؟».

وقلت في نفسي: «نعم، هذا صحيح، إن ألنكا ليس إلا طفلًا كثير البكاء، لديك الآن يا سريوزا زميل شجاع!».

.. لم تساورني أي فكرة في أن بكاء الولد المسكين لم يكن من الألم البدني بقدر ما كان من أن خمسة أولاد، من المرجح أنه كان يحبهم، قد اجتمعوا دون أي سبب على بغضه واضطهاده.

إنني في الواقع لا أستطيع أن أفسر لنفسي قسوة سلوكي، فلماذا لم أذهب إليه وأدافع عنه وأواسيه؟ وماذا حدث للمشاعر الرقيقة التي دفعتني إلى البكاء بمرارة لدى رؤية غراب صغير كان قد سقط من عشه، أو لرؤية الجرو الذي كان على وشك أن يُلقى به في الطريق، أو الدجاجة التي كان الطباخ يحملها ليصنع منها حساء؟

هل كان حبي لسريوزا ورغبتي في الظهور أمامه بمظهر الرجولة التي كان هو نفسه يمتاز بها، يخفيان ذلك الشعور الجميل؟ لو كانت الحالة هذه، لكان ذلك الحب، وتلك الرغبة في الظهور بمظهر الرجولة صفتين لا أحسد عليهما، بل إنهما البقعتان السوداون الوحيدتان في صفحات ذكريات طفولتي.

(٢٠)

كان لدينا زائرون

كان من المتوقع حضور عدد كبير من الضيوف في تلك الليلة إذا أدخلنا في حسابنا النشاط غير العادي بمخزن المؤن، والأضواء الساطعة التي أضفت طابعًا احتفاليًّا جديدًا على الأشياء في قاعة الاستقبال و«الصالون» التي ألفتها منذ زمن طويل، وبخاصة أن الأمير إيفان إيفانتش كان قد أرسل إلى منزلنا عازفي موسيقاه.

كنت أجري إلى النافذة عند سماع كل عربة سائرة، فأضغط أنفي على الزجاج وأتفرس في الشارع بفضول نافد الصبر، ومن خلال الظلام الذي كان يُخفي عن النافذة في أول الأمر كل المعالم، كان يظهر بالتدريج على الجانب الآخر من الطريق الدكان المألوف، وإلى جانبه المصباح، والبيت الكبير بنافذتيه المضيئتين بالطابق السفلي على مسافة قصيرة، وفي منتصف الشارع حوذي فقير مع اثنين مع المسافرين، أو عربة صغيرة خاوية تسير متمهلةً. ولكن تتقدم الآن عربة إلى سقيفة الباب، فهي دون شك عربة آل إيفن الذين وعدوا بالحضور في ساعة مبكرة، فأسرعت بالهبوط لمقابلتهم في غرفة الانتظار، ولكن بدلًا من آل إيفن ظهرت سيدتان وراء الخادم ذي الكسوة الخاصة، الذي فتح الباب: وكانت إحداهن طويلةً

ترتدي معطفًا أزرق ذا بنيقة من فراء السمور، أما الأخرى القصيرة فكانت متشحةً كلها بشال لا يظهر من تحته غير قدميها الصغيرتين في نعلين من الفراء. وتقدمت الصغيرة من الأخرى الكبيرة فوقفت أمامها دون أن تلقي بالًا إلى وجودي -بالرغم من أن واجبي كان يقتضيني أن أحييهما بالانحناء. ونزعت الكبرى المنديل الذي يغطي رأسها الصغير، وفكت أزرار معطفها. وعندما عهد إلى الخادم ذي الكسوة الخاصة بهذه الأشياء، ونزع من قدميها نعليها الصغيرين المصنوعين من الفراء، ظهر من تحت هذه الدثارات جميعًا فتاة صغيرة في نحو الثانية عشرة ترتدي جلبابًا واسع فتحة النحر من الموصلين، وسروالًا قصيرًا أبيض، وخفين صغيرن أسودين، وعلى عنقها الأبيض شريط أسود من القطيفة. وكان رأسها كتلةً من الشعر المجعد ذي اللون الكستنائي القاتم تلائم كل الملائمة وجهها البديع، وينسدل على كتفيها في وضع بلغ من الفتنة مبلغًا لم أكن أصدق معه كارل إيفانتش نفسه لو قال لي أن تجعيد الشعر على هذا الوجه جاء نتيجةً للفه على قطع من ورق جريدة «موسكو جازيت» منذ الصباح وكيه بمكواة الشعر الحامية. إنها لتبدو كأنها ولدت بذلك الرأس المجعد الشعر.

كان أوضح معالمها عيناها الواسعتان بصورة غير عادية، البارزتان نصف المغمضتين اللتان تشكلان مع فمها الصغير تناقضًا غريبًا وإن كان مستحبًّا، وكانت شفتاها مضمومتين بإحكام، وفي عينيها نظرة جادة جدًّا، وتعبير وجهها بوجه عام لا يدعك تتوقع ابتسامةً ترتسم عليه، مما جعل ابتسامتها أقوى ما تكون فتنةً.

وتسللت إلى القاعة محاولًا ألا تقع عليَّ عين، ورحت أسير جيئةً ورواحًا متظاهرًا بالتفكير العميق متغافلًا عن وصول الضيوف. وعندما بلغتا إلى منتصف الحجرة أخذت في الانحناء لهما، وأخبرتهما أن جدتي بحجرة الاستقبال.

وأومأت إلى السيدة فالاخينا التي راق لي وجهها إلى أبعد حد إيماءةً رشيقةً، وبخاصة لأنني أدركت فيها شبهًا قويًّا لابنتها سونتشكا.

وظهر على جدتي الابتهاج الشديد لدى رؤيتها سونتشكا: واستدعتها إليها، وصففت لها خصلةً مجعدةً من الشعر كانت متدليةً على جبينها، وقالت وهي تتفرس باهتمام في وجهها: «يا لك من طفلة فاتنة!» وابتسمت سونتشكا، واعتراها خجل ظريف للغاية، حتى إننا خجلت أنا أيضًا عندما وقع نظري عليها.

وقالت جدتي وهي تمسك بذقنها وترفع وجهها الصغير: «آمل ألا يثقل عليك المكان هنا يا طفلتي، وأرجو أن ترقصي بملء قلبك». ثم أضافت قائلةً وهي تلتفت إلى السيدة فالاخينا، وتلمسني بيدها: «ها قد أصبح لدينا الآن سيدة وسيدان».

وقد سرني كثيرًا هذا الجمع بيننا، حتى عراني الخجل مرةً أخرى.

وانسحبت عند شعوري بتزايد خجلي وسماعي صوت عجلات العربة، فوجدت في غرفة الانتظار الأميرة كورناكوفا وابنها وعددًا لا يصدق من بناتها –وكانت جميع الفتيات متشابهات كل التشابه– فهن يشبهن الأميرة، قبيحات ليس بينهن واحدة تستحق النظر إليها. وبينما

كن يخلعن أعطفتهن، ويزحن طرحهن، رحن جميعًا يتحدثن بأصوات حادة، ويحدثن ضجةً، فيضحكن لشيء ما -من المرجح أن يكون عددهم الكبير- كان آتيين فتى طويل القامة ممتلئ الجسم يناهز الخامسة عشرة، ذا وجه لا دم فيه، وعينين غائرتين تحف بأسفلهما دوائر زرقاء، ويدين وقدمين لا يتناسب كبر حجمها مع سنه: كان ثقيل الحركة ذا صوت خشن منفر، ولكنه يبدو راضيًا عن نفسه كل الرضا، فهو على التحديد من وجهة نظري صبي من ذلك النوع الذي يُجلد بالسوط.

وقفنا برهة معًا، وجهًا لوجه دون أن ننطق بكلمة، يتفحص كل منا الآخر بعناية، ثم تقاربنا قليلًا، حتى ليبدو كأننا قصدنا أن يُقبِّل كل واحد منا أخاه، ولكنا غيرنا قصدنا لسبب ما بعد أن نظر كل منا في عيني صاحبه، وعندما خشخشت ملابس إخوته جميعًا أثناء مرورهن بنا، سألته لكي أبدأ الحديث عما إذا كانت العربة لم تكتظ بهم.

وأجاب في فتور: «لا أعرف؛ لأنني لا أركب أبدًا في داخل العربة، فهي تسبب لي دوارًا، وأمي تعرف ذلك، وعندما نذهب إلى أي مكان في المساء أجلس دائمًا على مقعد الحوذي، فهو أدعى إلى الابتهاج، وأنت تعرف كل شيء، ويتركني فيليب أقود العربة، وأحيانًا أمسك السوط أيضًا، وأحيانًا أخرى، كما لا يخفاك.. يمسك المارة كذلك بالسوط. ثم أضاف قائلًا بحركة معبرة: «إنه لمزاح ممتع!».

وقال السايس وهو يدخل غرفة الانتظار: «إن فيليب يريد أن يعرف يا صاحب السمو أي مكان أعجبك فوضعت فيه السوط؟».

«لقد أعطيته إياه بطبيعة الحال».

«يقول إنك لم تعطه إياه».

«حسن إذَنْ، لقد علقته على الفانوس».

واستمر السايس في حديثه قائلًا وقد استشاط غضبًا: «يقول فيليب إنه ليس على الفانوس، وإنه كان من الخير لك القول إنك أخذته وأضعته، وإلا فإن على فيليب أن يدفع ثمن مزاحك من ماله الخاص».

وظهر أن السايس وكان يبدو شخصًا محترمًا، قد انحاز إلى جانب فيليب، وصمم على توضيح المسألة بأي ثمن. وانتحيت جانبًا بحركة لبقة غير إرادية، كأنني لم ألاحظ شيئًا. ولكن الخدم الذين كانوا حاضرين تصرفوا تصرفًا مختلفًا كل الاختلاف. فقد اقتربوا ونظروا إلى الخادم العجوز نظرة استحسان.

وقال آتيين متحاشيًا الدخول في تفصيلات أبعد مدى: «حسن جدًّا، لقد فقدته إذَنْ، وماذا يهم؟» ثم أضاف قائلًا وهو يقترب مني ويقودني إلى قاعة الاستقبال: «سأدفع له ثمن هذا السوط، إنه لشيء مسلٍّ».

«معذرة يا سيدي كيف تدفع؟ أعرف أنك منذ ثمانية أيام تدفع عشرين كوبك لماريا فاسيليفنا، والحالة بعينها بالنسبة لي، وقد مضت سنتان على بتروشكا منذ أن»، وصاح الأمير الصغير وقد استحال وجهه إلى الشحوب من الغضب: «أمسك لسانك سأروي أنا».

وقال السايس ساخرًا: «أنت تروي! أنت تروي!».

ثم أضاف بانفعال عندما دخلنا قاعة الانتظار، وذهب هو بالأعطفة نحو خزانة الملابس: «عار عليك يا صاحب السمو».

وقال صوت استحسان من ورائنا بغرفة الانتظار: «حقًا، حقًّا!».

امتازت جدتي بموهبة في التعبير عن رأيها في الناس عندما ترغب في ذلك، وذلك باستخدامها ضمائر المفرد والجمع في صيغة المخاطب بتشديد معين، فهي تستخدم كلًّا من أنتم وأنت بعكس المعنى تمامًا، الذي تواضع عليه كافة الناس، وكانت الكلمات عندها تتضمن تعبيرًا مختلفًا كل الاختلاف. فلما اقترب منها الأمير الصغير، وجهت إليه كلمات قليلة، وخاطبته بـ «أنتم»، ونظرت إليه وقد ارتسم على وجهها تعبير من الاحتقار، لو كنت في مكانه لارتبكت ارتباكًا تامًّا. ولكن من الواضح أن آتيين لم يكن ولدًا من ذلك الطراز: فهو لم يقتصر على عدم إعارة استقبال جدتي أي اهتمام، بل فعل ذلك بالنسبة لشخصها أيضًا، وحيا المجموعة كلها بتحية، إن لم تكن لطيفةً، فقد كانت على الأقل خاليةً من التحفظ.

واحتلت سونتشكا كل التفاتي، وأذكر أننا حين كنا نتحدث معًا، فولوديا وآتيين وأنا، في ناحية من الغرفة كنا نستطيع منها رؤية سونتشكا، وتستطيع هي رؤيتنا وسماعنا، كنت أتحدث بسرور. فكنت أتحدث بصوت مرتفع وأتطلع إلى باب حجرة الاستقبال عندما تلوح الفرصة لقول شيء ما، يبدو لي أنه سار أو إبداء ملاحظة تنطوي على شهامة، ولكنا حين تحولنا إلى مكان آخر يستحيل معه رؤيتنا أو سماع صوتنا من حجرة الاستقبال كنت ألوذ بالصمت، ولا أجد بعد متعةً في الحديث.

وامتلأت حجرة الاستقبال و «الصالون» شيئًا فشيئًا بالضيوف. وكان هناك عدد كبير من الأطفال الكبار بين عدد الحاضرين كالمعتاد في حفلات الأطفال، ممن لا يرغبون في إضاعة فرصة للرقص والمرح، بل

كانوا يتظاهرون بذلك لمجرد إدخال السرور إلى قلب المضيفة.

وعندما وصل آل إيفن، شعرت بدلًا من السرور الذي كنت أتذوقه عادةً لدى مقابلتي سريوزا، بإحساس غريب من الضيق حين فكرت في أنه سيري سونتشكا، وأنها ستراه.

❋ ❋ ❋

(٢١)

قبل رقصة المازوركا

قال سريوزا وهو قادم من حجرة الاستقبال وكان يجذب من جيبه قفازًا جديدًا من جلد الماعز: «أرى أنكم سوف ترقصون فيجب أن ألبس قفازي».

وقلت في نفسي: «وماذا نفعل -ليس لدينا قفازات، ويجب أن أصعد للبحث عن بعض منها».

ولكن بالرغم من أنني نبشت جميع الأدراج، كان كل ما عثرت عليه قفازاتنا الخضراء الخالية من الأصابع، وقفازًا واحدًا من جلد الماعز ليس لي فيه أي نفع -أولًا لأنه كان قديمًا كثير البقع، وثانيًا لأنه كان واسعًا جدًّا بالنسبة إليَّ، وبخاصة لأنه كان خاليًا من الأصبع الوسطى، إذ كانت قد قُطعت منذ مدة طويلة، ومن المرجح أن يكون كارل إيفانتش هو الذي قطعها لتقرح أصاب يده. ومع ذلك فقد ألبست يدي هذه الفضلة من القفاز، وتفرست في مكان الأصبع الوسطى الذي كان ملطخًا دائمًا بالحبر.

وقلت في نفسي: «لو كانت ناتاليا سافشنا هنا لوجدت لي بالتأكيد بعض القفازات»، إذ كان من المحال أن أهبط إلى الطابق الأسفل من دونهما؛ لأنهم لو سألوني لماذا لم أرقص، فبماذا أجيب؟ كما أن بقائي هنا مستحيل أيضًا؛ لأنني كنت على ثقة من أنهم سيفتقدونني، فما العمل؟

وسألني فولوديا وهو يدخل مسرعًا: «ماذا تفعل هنا؟ اذهب واحجز فتاتك؛ لأن الرقص سيبدأ فورًا».

وقلت في يأس وأنا أريه يدي وقد برز أصبعان من القفاز القذر: «فولوديا، لقد نسيت هذا يا فولوديا».

فقال وقد نفد صبره: «ماذا؟ آه! القفازات» ثم أضاف بغير اهتمام: «حقًّا، ليس لدينا منها شيء. فيجب أن نسأل جدتي رأيها في هذا» وهبط مسرعًا إلى الطابق السفلي دون تمهل للتفكير.

وكان فتوره مبعث طمأنينتي في ناحية كانت تبدو لي ذات أهمية بالغة، فأسرعت إلى حجرة الاستقبال وقد نسيت تمامًا أنني لا أزال لابسًا القفاز الممزق في يدي اليسرى.

واقتربت في حذر إلى مقعد جدتي ذي المسندين، ولمست وشاحها بلطف، وقلت هامسًا: «ماذا نفعل يا جدتي؟ ليس لدينا قفازات!».

«ماذا يا عزيزي؟».

«فأعدت قولي وأنا أقترب منها وأقترب، وأضع يدي على مسند مقعدها:

«ليس لدينا قفازات».

فقالت على الفور وهي تنظر إلى يدي اليسري: «وما هذه؟ ثم أضافت وهي تلتفت إلى السيدة فالاخينا: «انظري يا عزيزتي، لقد جعل هذا الرجل الصغير من نفسه شخصًا أنيقًا؛ لكي يراقص ابنتك».

وأمسكتني جدتي من يدي بإحكام، ونظرت إلى ضيوفها في وقار وتساؤل، إلى أن أشبع فضول المجموعة كلها وشاع الضحك بينها.

كان لا بد أن أنزعج انزعاجًا كبيرًا لو أن سريوزا رآني في اللحظة التي تجهم فيها وجهي خجلًا، وحاولت عبثًا إطلاق حرية يدي، ولكن لم يسبب لي وجود سونتشكا أي إحباط، إذ إنها ضحكت حتى امتلأت عيناها بالدموع، وتشوشت جميع عضلات شعرها على وجهها المتورد، ووجدت أن ضحكها الصادر من أعماق قلبها، على السجية، لا يمكن أن يكون سخريةً، بل على العكس ضحكنا معًا، ويبدو أن ذلك قد قارب بيننا. ولئن كان حادث القفاز قد انتهى نهايةً سيئةً، فقد أكسبني ميزة وضعي في يسر في الحلقة التي كانت تبدو لي دائمًا على أكبر جانب من الفظاعة، وهي دائرة حجرة الاستقبال، فلم أعد بعد أشعر بأقل خجل وأنا أدخل قاعة الرقص.

إن ما يعانيه الناس الذين يشعرون بالخجل ناجم عن عدم الثقة في الفكرة التي كونها الناس عنهم، وحالما تتضح هذه الفكرة بجلاء -سواء أكانت طيبة أم سيئة- تتوقف هذه المعاناة.

كم كانت سونتشكا فالاخينا ساحرةً وهي ترقص قبالتي رقصة

الكدريل الفرنسية[1] مع الأمير الصغير الأخرق! وكم كانت ابتسامتها حلوةً عندما ناولتني يدها الصغيرة في التتابع! وما أجمل خصلاتها الذهبية وهي تموج بانتظام، وما أشد بساطتها وهي تقارب إلى الجانب الآخر، وانتظرت النقرة استعدادًا لرقصتي المنفردة، ما بين قدميها! وعند الخطوة الخامسة، حين تركتني زميلتي وذهبت، ضمت سونتشكا شفتيها في جد ونظرت إلى الجانب الآخر. ولكن لم يكن هناك ضرورة لخوفها عليَّ، فقد قمت بخطوتي إلى الأمام، وخطوتي إلى الخلف، ثم بالانزلاق، وعندما اقتربت منها أريتها مداعبًا قفازي الذي يبرز منه إصبعاي، فانفجرت مقهقهةً، وخطت قدماها الصغيرتان فوق الأرض المدهونة بالشمع خطوات أشد سحرًا من أي وقت مضى، ولا أزال أذكر كيف أنها حين كونَّا حلقة رقص وتشابكت أيدينا جميعًا، طأطأت رأسها الصغير، ودون أن تسحب يدها من يدي حكت أنفها الدقيق بقفازها، وأستطيع رؤية هذا كله كأنه يحدث أمام عيني مباشرةً، ولا أزال أسمع معزوفة الكدريل من «عذراء الدانوب» التي يرجع إلى موسيقاها كل ما حدث.

ورقصت الكدريل الثانية مع سونتشكا نفسها، ومع ذلك فحين ذهبنا للجلوس معًا في فترة الاستراحة شعرت بالارتباك على أشده، ولم أعرف على الأقل ماذا أقول لها.. ولما طال صمتي أكثر مما ينبغي، بدأت أخاف أن تظنني غبيًّا، فصممت من جانبي إنقاذها من أي خطأ كهذا بأي ثمن، فقلت لها بالفرنسية: «إنك من سكان موسكو؟».

(١) رقصة رباعية، يقوم بها أربعة أزواج من الراقصين، وتتكون من خمس حركات، ولها موسيقى خاصة بها. (المترجم).

وبعد أن تلقيت جوابها بالإيجاب تابعت حديثي قائلًا: «وأنا لم أتردد قط حتى الآن على العاصمة» تقديرًا مني بنوع خاص للتأثير الذي ستحدثه كلمة «أتردد» وبالرغم من أنني شعرت بأنها بداية رائعة جدًّا، برهنت تمامًا على معرفتي باللغة الفرنسية، فإنني لم أستطع الاستمرار في هذا الأسلوب من الحديث. ولم يكن دورنا في الرقص سيحل وشيكًا، وران علينا الصمت مرةً أخرى، ونظرت إليها في غير ارتياح تواقًا إلى معرفة الأثر الذي أحدثته فيها منتظرًا أن تساعدني. وكم كان سروري وراحة نفسي عظيمين حين استفسرت مني فجأةً: «أين عثرت على هذا القفاز المضحك؟»، فأوضحت لها أنه قفاز كارل إيفانتش، بل وتهكمت على كارل إيفانتش نفسه، وحدثتها عن منظره المضحك حين يخلع قبعته الحمراء، وكيف أنه ارتدى مرةً معطفًا أخضر، وأنه سقط من على صهوة جواده مباشرةً في بركة موحلة، وما إلى ذلك. وانتهت رقصة الكدريل دون أن تشعر بها، وكان كل شيء يبعث على السرور. ولكن لماذا سخرت من كارل إيفانتش؟ هل كنت أفقد حسن ظن سونتشكا بي لو كنت وصفته بالحب والاحترام اللذين أكنهما له!

وعندما بلغت رقصة الكدريل نهايتها، قالت سونتشكا: «أشكرك» في لفظ بالغ العذوبة، كأنني أستحق امتنانها حقيقةً، كدت أن أطير من الفرح، ولم أعرف نفسي منذ أن ظفرت بالجسارة والثقة بل والشجاعة. وقلت في نفسي وأنا أسير في قاعة الرقص جيئةً وذهابًا دون اكتراث: «لن يستطيع شيء أن يخجلني، إنني مستعد لكل شيء».

وسألني سريوزا أن أكون مواجهًا له، فقلت: «حسن جدًّا، ليس لي

زميلة»، ولكني سأعثر على واحدة «وألقيت نظرةً أخيرةً حول الحجرة، فوجدت أن جميع السيدات مرتبطات فيما عدا واحدة –سيدة شابة واقفة عند باب الردهة، وكان يقترب منها شاب بقصد دعوتها إلى الرقص– فيما ظننت، وكان منها على مسافة خطوتين، بينما كنت في آخر القاعة، وفي غمضة عين طرت إليها مجتازًا المسافة الفاصلة، أنزلق في رشاقة على الأرض المدهونة، وبصريف من قدمي، وبصوت حازم دعوتها إلى الرقص، فابتسمت السيدة الشابة معضدةً وناولتني يدها، وبقي الشاب دون زميلة.

كنت شديد الشعور بقوتي، حتى إنني لم أُعِر امتعاض هذا الشاب أي التفات، وإن كنت قد عرفت فيما بعد أنه استفسر عن ذلك الولد الأشعث الذي قفز من أمامه، ثم خطف زميلته.

* * *

(٢٢)

المازوركا

رقص الشاب الذي سلبته فتاته، رقصة المازوركا في الثنائي الأول، فقد قفز واقفًا وأمسك يد فتاته، وبدلًا من أن يخطو خطوات الباسك كما علمتنا ميمي، جرى إلى الأمام وحسب، وعندما وصل إلى الركن توقف، وضرب بكعبيه، ثم استدار، وراح ينط بعد ذلك.

ولما لم تكن لي زميلة في رقصة المازوركا، فقد جلست وراء مقعد جدتي المرتفع، وأخذت أشاهد.

«لماذا يفعل ذلك؟ إنها ليست ألبتة الطريقة التي علمتنا ميمي إياها، لقد كانت تقول دائمًا إن كل الناس يرقصون المازوركا على أطراف أقدامهم، ويحركون أقدامهم في حركة انزلاق دائرية، ولكنها تتغير حتى إنهم لا يرقصونها بتلك الطريقة مطلقًا، وهناك آل إيفن وآتيين كلهم يرقصون، ولكن واحدًا منهم لا يرقصها بخطوات الباسك. حتى فولوديا اختار الطريقة الجديدة! إنها ليست سيئةً!! وما أجمل سونتشكا! إنها ذاهبة إلى هناك!».

لقد كنت مرحًا للغاية.

قاربت رقصة المازوركا نهايتها، وقدم عدد كبير من السيدات والسادة الكبار ليودعوا جدتي، ثم انصرفوا. وكان الخدم يتحاشون بمهارة طريق الراقصين ويدخلون بالأطباق إلى الغرفة الخلفية. ومن الواضح أن جدتي كانت متعبةً، يبدو عليها أنها تتحدث كارهةً وفي بطء شديد. وأخذ الموسيقيون يعزفون متراخين نفس النغمة للمرة الثلاثين. ورأتني السيدة الشابة التي رقصت معها، بينما كانت تمشي مزهوةً بنفسها وتبتسم ابتسامةً خداعةً -ولا بد أنها كانت تريد إرضاء جدتي- .. فقدمت لي سونتشكا وإحدى الأميرات العديدة وقالت: «أتريد وردةً أم حشيشةً شائكةً؟».

وقالت جدتي وهي تستدير في مقعدها: «آه، ها أنت ذا هنا! اذهب وارقص يا عزيزي».

وكنت أفضل كثيرًا في تلك اللحظة إخفاء رأسي تحت مقعد جدتي على الظهور من ورائه، ولكن كيف أستطيع الرفض؟ فوقفت وقلت: «وردة»، بينما كنت أتطلع خجلًا إلى سونتشكا. وقبل أن أستعيد شعوري، استقرت في يدي يد شخص عليها قفاز أبيض من جلد الماعز، وبدأت الأميرة على الفور وعلى فمها ابتسامة، دون أن تشك في أنني لا أعرف على الأقل ماذا أفعل بقدمي.

كنت أعرف أن خطوات الباسك غير ملائمة وغير لائقة، بل إنها ستسبب لي المهانة، ولكن أصوات المازوركا المشهورة تؤثر في أذني وتوصلها إلى الأعصاب السمعية التي توصلها بدورها إلى قدمي، وهذه الأخيرة لا إرادية على الإطلاق. ولشد ما أدهش كل المشاهدين أن بدأ

الرقص بخطوة الانزلاق الدائرية المشئومة على أطراف القدمين. وقد اتبعنا الأسلوب ما دمنا قد تحركنا قدمًا، ولكن حين درنا لاحظت أنني لا بد أن أسبق إذا لم أتخذ بعض الحيطة. ولكي أتحاشى مثل هذه النكبة، وقفت جامدًا بقصد القيام بنفس الدورة السريعة التي قام بها الشاب في الثنائي الأول برشاقة كبرى. ولكن في نفس اللحظة، وعندما باعدت بين قدمي استعدادًا للقفز، دارت الأميرة بسرعة حولي، ورمقت قدمي بنظرة فيها سمات الذهول والفضول والحيرة، فقضت عليَّ هذه النظرة، وفقدت السيطرة على نفسي إلى الحد الذي جعلني أضرب الأرض بقدمي رفعًا وخفضًا في نقطة واحدة وبأسلوب غاية في الغرابة، بدلًا من الرقص، وأخيرًا توقفت دون حراك. وتطلع إليَّ الجميع، بعضهم في دهشة، وآخرون بفضول أو حيرة أو عطف، وكانت جدتي هي الوحيدة التي تطلعت إلى دون أي اكتراث.

وهمس بابا في أذني بصوت غاضب: «ينبغي ألا ترقص إذا لم تكن تعرف كيف ترقص»، ودفعني جانبًا دفعةً خفيفةً، وتناول يد زميلتي، ورقص معها دورة من الطراز القديم مما أثار ابتهاجًا عظيمًا بين الحاضرين، وقادها إلى مقعدها. وانتهت رقصة المازوركا على التو.

لقد احتقرني كل الناس، وسيحتقرونني على الدوام.. إن الطرق المؤدية إلى كل شيء -إلى الحب والصداقة والشرف- قد سدت في وجهي.. ضاع كل شيء! لماذا أومأ فولوديا إليَّ بإشارات رآها كل إنسان، ولم تكن لها أي فائدة لي؟ ولماذا نظرت الأميرة البغيضة إلى قدمي على هذا الوجه؟ ولكن لماذا ابتسمت سونتشكا في نفس الوقت -وكانت

جميلة؟ ولماذا احمر وجه أبي وأمسك بيدي؟ حتى هو اعتراه الخجل من أجلي؟ آه، إنه لفظيع! لو كانت أمي هنالك لما خجلت من ابنها نيكولنكا. وحملني خيالي بعيدًا إلى تلك الرؤية العذبة.. تذكرت المرجة التي أمام المنزل، وأشجار الزيزفون السامقة في الحديقة، والبركة الصافية التي ترفرف فوقها عصافير السنونو، والسماء الزرقاء المعلقة بها السحب البيضاء الشفافة، وأكداس الدريس الطرية العطرة، وأشياء أخرى كثيرة مفرحة، وذكريات تبعث إلى الهدوء كانت تؤثر في خيالي الشارد.

❊ ❊ ❊

(٢٣)

ما بعد المازوركا

جلس الشاب الذي رقص في الثنائي الأول إلى مائدة الأطفال معنا، وأولاني اهتمامًا خاصًّا، وهو شيء كان لا بد أن يشبع زهوري إلى حد ليس بالقليل، لو كنت قادرًا على الشعور بأي شيء بعد المحنة التي حلت بي. ولكن يبدو أن الشاب كان مصرًّا على أن يطيب خاطري، فكان يمازحني ويدعوني بالزميل اللطيف، ويساعدني على تناول النبيذ من مختلف الزجاجات؛ إذا لم يكن يرانا أحد من الكبار، ويحملني على الشرب. وفي نهاية العشاء، عندما صب لي الساقي من زجاجة «الشمبانيا» الملفوفة «بالفوطة» ليملأ ربع كوبي وحسب، وأصر الشاب على أن يملأه كله، واضطرني إلى ابتلاعه في جرعة واحدة، فشعرت بدفء محبب يسري في جميع بدني، وبنوع من الائتناس نحو ظهيري الفكه وضحكت طربًا.

ترددت من قاعة الرقص على حين فجأة أصوات رقصة «الجد»، وأخذ الضيوف ينهضون تاركين المائدة، وانتهت صداقتي على التو بالشاب، فقد ذهب إلى الكبار، ولما لم أتجاسر على ملاحقته، اقتربت في فضول لأستمع إلى ما كانت تقوله السيدة فالاخينا لابنتها.

قالت سونتشكا متوسلةً: «أرجوك مجرد نصف ساعة أخرى».

«هذا محال يا ملاكي».

فقالت ملاطفة: «آه، من فضلك، من أجل مرضاتي».

وقالت السيدة فالاخينا، وكانت من الفطنة بحيث ابتسمت: «هل يسرك إذا ما أصبحت في الغد مريضةً؟».

وصاحت سونتشكا وهي ترقص فرحًا: «وإذَنْ يمكننا أن نبقى؟ نعم؟».

فقالت وهي تشير إليَّ: «ماذا أفعل؟ حسن جدًّا، اذهبي وارقصي، وإليك زميلك».

وناولتني سونتشكا يدها، وأسرعنا إلى قاعة الرقص.

إن النبيذ الذي شربته، ووجود سونتشكا، والانشراح، كل ذلك جعلني أنسى تمامًا ورطتي التعسة في المازوركا، وقمت بقفزات مسلية بقدمي مقلدًا الحصان، ورحت أسير خببًا في رفق أرفع ساقي في كبرياء، ثم أضرب بقعةً واحدةً مثل كبش أثاره كلب، وأضحك ملء قلبي دون أي اهتمام بما يتركه ذلك من أثر على المشاهدين. ولم تتوقف سونتشكا أيضًا عن الضحك: ضحكت حين استدرنا في حلقة متماسكي الأيدي، وضحكت حين وقع نظرها على سيد عجوز كان يرفع قدميه بحذر ويخطو من فوق منديل، متظاهرًا بأن أداء ذلك يصعب عليه، وضحكت حتى كادت تستلقي عندما قفزت إلى السقف تقريبًا؛ لكي أستعرض خفة حركتي.

وبينما كنت أجتاز مكتب جدتي، تأملت نفسي في المرآة: كان وجهي يستحم في العرق، وشعري مشعثًا، وخصلة الشعر في قمة رأسي منتصبة على أسوأ ما تكون، ولكن ملامحي العامة كانت بالغة المرح واللطف والصحة، بحيث كنت راضيًا عن نفسي.

وقلت في نفسي: «لو كنت كذلك دائمًا، لاستطعت أن أسر الآخرين»، ولكن حين تأملت ثانيةً وجه زميلتي الجميل الصغير، رأيت فيه المرح والصحة وخلو البال من الهموم، وهي أشياء استرحت إليها في سرى، كما رأيت الكثير من الجمال الوديع الكيس مما جعلني أثور على نفسي، وأدركت مدى غفلتي إذا أؤمل في جذب انتباه مثل هذا الكائن الرائع إلى شخصي.

لم أكن أؤمل أن يقابلني حبًّا بحب، ولم أفكر حقيقةً في هذا. كانت روحي تفيض بالسعادة، ولم أستطع أن أتصور مقابلًا لحبي الذي غمر نفسي ببهجة لا يطلب المرء إزاءها أي سعادة تفضلها، أو أي رغبة أكثر من أن يبقى هذا الشعور إلى الأبد. كنت سعيدًا، قلبي يخفق كجناحي حمامة، والدم يتدفق فيه دون توقف، ورغبت في البكاء.

وعندما كنا نجتاز الدهليز مارين بمخزن المؤن المظلم تحت السلم، نظرت إليه وقلت في نفسي: «كم تكون الهناءة، لو استطعت العيش معها إلى الأبد في ذلك المخزن المظلم، ولو جهل الناس جميعًا أننا نعيش هنالك».

وقلت في صوت هادئ متهدج: «أليست هذه ليلةً مبهجةً؟» ثم أسرعت الخطى، ولم يكن خوفي مما قلت، بقدر خوفي مما كنت أهتم

بقوله.

فأجابت وهي تدير رأسها الصغير نحوي وعليها سيماء صريحة حانية أزالت عني مخاوفي: «نعم، مبهجة جدًّا».

«وبخاصة بعد العشاء، ولكن لو عرفت كم كنت آسفًا (وكنت أريد أن أقول تعيسًا ولكنني لم أجرؤ)؛ لأنك سترحلين بهذه السرعة، فلن يرى أحدنا الآخر بعد ذلك!».

فقالت وهي تتأمل عامدةً طرفي خفيها، وتجري أصابعها على الستار الشبكي الذي كنا نمر به: «لماذا لن يرى أحدنا الآخر؟ إن أمي وأنا، نذهب إلى تفرسكوي بوليفار كلا ثلاثاء وجمعة، ألا تذهب للنزهة هنالك أبدًا؟».

«سأطلب الإذنَ بالذهاب إلى هناك يوم الثلاثاء القادم، فإذا لم يأذنوا لي، .. فسأهرب وحدي، حتى دون أن آخذ قبعتي... إنني أعرف الطريق».

وقالت سونتشكا على حين فجأة: «هل تعرف ما كنت أفكر فيه الآن؟ إنني أقول دائمًا «أنت»، للأولاد الذين يزورون بيتنا، فليخاطب كل منا الآخر «بأنت»». ثم تابعت حديثها وهي تدفع برأسها الصغير إلى الخلف وتحدق في عيني مباشرةً: «ألا توافق «أنت» على ذلك؟».

ودخلنا في هذه اللحظة قاعة الرقص، في بدء الشطر الثاني من رقصة «الجد» النشيطة فقلت: «إنني متفق... معكم» وذلك ظنًّا مني أن صوت الموسيقى سوف يطغى على كلماتي.

فقالت سونتشكا تصحح الكلمة وهي تضحك: «قل معك».

وانتهت رقصة «الجد»، ولم أكن قد تدربت على النطق بعبارة واحدة

فيها كلمة «أنت» بالرغم من أنني لم أتوقف قط عن ابتداء ما يسمح بتكرار ذلك الضمير مرات عدة، ولم تكن لديَّ الشجاعة الكافية. وطنت في أذني كلمة «أتوافق»؟ وسببت لي نوعًا من الخدر، فلم أر شيئًا ولا أحدًا إلا سونتشكا... رأيت خصلات شعرها مزمومةً خلف أذنيها، تكشف عن أجزاء من حاجبيها وصدغيها لم أرها من قبل، لقد رأيتها متشحةً كلها بشال أخضر، يغطيها بحيث لا يظهر منها طرف أنفها الصغير، والواقع أنها لو لم تفتح ثغرةً ضيقةً من فمها، بأصابعها الوردية الصغيرة لاختفت دون شك... ورأيت كيف استدارت نحونا بسرعة وهي تهبط الدرج مع أمها وأومأت برأسها، ثم مرت من الباب واختفت.

إن فولوديا، وآل إيفن، والأمير الشاب، وأنا؛ كلنا أحببنا سونتشكا، وتبعناها بأعيننا ونحن وقوف على السلم، ولست أعرف من الذي خصته بإيماءة رأسها الصغير، ولكني في تلك اللحظة كنت مقتنعًا كل الاقتناع أن الإيماءة كانت موجهة إليَّ.

وعندما ودعت أبناء إيفن تحدثت إليهم وصافحتهم غير مكره، بل في شيء من الفتور بالنسبة لسريوزا، ولو عرف أنه فقد في ذلك اليوم كلًّا من حبي له وسلطانه عليَّ، لأسف لذلك بالتأكيد، بالرغم من أنه حاول أن يبدو غير مكترث أي اكتراث.

ولأول مرة في حياتي لم أكن أمينًا على حبي، ولأول مرة أجرب لذة هذا الشعور، لقد سرني أن أستبدل بعاطفة الود البالية المألوفة، شعورًا جديدًا بالحب المليء بالغموض والشك. وفوق ذلك، فإن الوقوع بعيدًا عن الحب، وفي الحب في نفس الوقت، يعني الحب بحماسة مضاعفة عن ذي قبل.

(٢٤)

في الفراش

أخذت أتأمل وأنا راقد في فراشي: «كيف أحببت سريوزا بكل هذه العاطفة وطوال هذه المدة؟، لا، إنه لم يفهمني قط، ولم يستطع تقدير حبي له، ولم يكن في وقت ما جديرًا به، وسونتشكا؟ يا لها من محبوبة! أموافقة؟، لقد حل دورك لكي تبدئي».

وقفزت في فراشي حين تصورت بجلاء وجهها الصغير، وغطيت رأسي بالغطاء وحشرته تحتي من جميع النواحي، ولما لم تعد هناك أي فتحة في أي ناحية، رقدت وقد ساورني شعور لذيذ بالدفء، واستغرقت في رؤى وذكريات حلوة، وعندما ركزت نظرتي دون حراك في بطانة اللحاف المحشو، رأيتها واضحةً في مثل الوضوح الذي رأيتها عليه منذ ساعة مضت، وتبادلت معها الحديث عن طريق العقل وبالرغم من أن هذه المحادثة عاطلة كل العطل من الحس، فقد أمدتني بمسرة يعجز عنها الوصف، إذ وجدت فيها الضمائر «أنت، وإنك ومعك ولك» على الدوام.

وكانت هذه الرؤى من الوضوح بحيث لم أستطع النوم، فأضيع به الإحساس الجميل، وأردت أن يشاركني شخص ما هذه الغبطة الفائقة.

وقلت في صوت يكاد أن يكون مرتفعًا، وأنا أدور فجأةً إلى الجنب الآخر:

«الحبيبة! هل أنت مستيقظ يا فولوديا؟».

وأجاب في صوت يغالبه النعاس: «لا، ماذا بك؟».

«لقد وقعت في الحب يا فولوديا، إنني لا شك وقعت في حب سونتشكا».

وقال وهو يتمطى: «حسن! وماذا يضيرك من هذا؟».

«آه يا فولوديا! لا يمكنك أن تتخيل ما يدور في دخيلة نفسي: لقد كنت راقدًا هنا الآن، ملفوفًا في الغطاء، فرأيتها بوضوح، بوضوح تام، وتحدثت إليها، كان شيئًا رائعًا وحسب! وهل تعرف أنني حين أرقد فأفكر فيها، أشعر بحزن شديد، حتى لأستطيع البكاء».

وتحرك فولوديا.

وتابعت حديثي قائلًا: إنني أريد شيئًا واحدًا، وهو أن أظل معها دائمًا، وأراها دائمًا، ولا شيء غير هذا؛ وأنت هل تحب؟ أصدقني القول يا فولوديا!».

إنه لشيء شاذ، ولكني أريد أن يقع جميع الناس في حب سونتشكا، وأريدهم أن يتحدثوا جميعًا عن هذا الحب.

وقال فولوديا وهو يدير وجهه نحوي: «وماذا يفيدك هذا؟ ربما».

وأدركت من عينيه اللامعتين أنه لا يفكر في النوم أقل تفكير، فأزحت الغطاء ناحيةً، وصحت قائلًا: «إنك غير راغب في النوم، ولكنك تتظاهر

به فحسب، فلنتحدث عنها.. إنها لمحبوبة، أليست كذلك؟»، ثم قلت: «وهي من الرقة بحيث إذا قالت لي اقفز يا نيكولنكا من النافذة، أو ارتم في النار، فأقسم أنني أفعل ذلك على التو، وبسرور. آه، ما أشد سحرها!»، وبينما كنت أستحضر صورتها إلى خيالي؛ ولكي أستمتع على هذا الوجه أعظم استمتاع، درت فجأةً إلى الجنب الآخر، وحشرت رأسي تحت الوسادة وأضفت قائلًا: «آه، أريد أن أبكي بكاءً فظيعًا يا فولوديا!».

فابتسم قائلًا: «يا لك من أبله!»، وساد الصمت برهة، ثم تابع حديثه قائلًا: «إنني لا أشعر بشيء مما تشعر، وأظن من الأفضل، إذا كان ممكنًا، أن أجلس بجانبها وأتحدث إليها».

فاعترضتُهُ قائلًا: «آه، وأنت أيضًا وقعت في حبها؟».

وتابع فولوديا حديثه وهو يبتسم في رقة: «وحينئذ، حينئذ أقبل أصابعها الصغيرة وعينيها وشفتيها وأنفها، وقدمها الدقيقة -أقبل كل شيء فيها».

فصحت به من تحت الوسادة: «هذا هراء!».

وقال فولوديا متعاليًا: «نعم، إنني أعرف بالتأكيد، ولكنك أنت لا تعرف، وتقول لغوًا».

«حسن، ليس هناك شيء تبكي من أجله، يا لك من طفل كثير البكاء!».

(٢٥)

الرسالة

في السادس عشر من أبريل، أي بعد ستة أشهر تقريبًا من اليوم الذي وصفته، صعد إلينا بابا أثناء ساعة الدرس، وأخبرنا أننا سنسافر معه إلى الريف في تلك الليلة، فانقبض صدري لهذا الخبر، وتحولت أفكاري فور ذلك إلى أمي.

وكانت الرسالة التالية هي السبب في رحيلنا غير المتوقع:

بتروفسكوي في الثاني عشر من أبريل:

«لقد تسلمت توًّا رسالتك المؤرخة في الثالث من أبريل، في الساعة العاشرة مساء، وها أنا أرد عليها كالمعتاد مباشرةً.. ولقد أحضرها فيودور من المدينة الليلة الماضية، ولما كانت الساعة متأخرةً، فقد سلمها إلى ميمي، وإذ كنت مريضةً وعصبية المزاج، فقد حجبتها ميمي عني طوال النهار، والحقيقة أنني محمومة قليلًا، وأصدقك القول أن هذا هو اليوم الرابع لملازمتي الفراش.

«أرجو يا عزيزي ألا تنزعج، فأنا أشعر أنني في صحة تامة، وإذا سمح لي إيفان فاسيلتش، فسأفكر في مغادرة الفراش غدًا».

«أخذت الأطفال يوم الجمعة إلى نزهة راكبين، ولكن الجياد غرزت في الوحل بالقرب من مدخل الطريق العام بجانب تلك القنطرة نفسها التي كانت تخيفني دائمًا، وكان اليوم صافيًا جدًّا، وظننتني مستطيعة السير راجلةً حتى الطريق العام، بينما كانوا يسحبون العربة، وعندما وصلت إلى الكنيسة الصغيرة كان لا بد من الجلوس إذ كنت متعبةً جدًّا، وانقضت على هذه الحال ساعة ونصف ساعة، بينما كانوا يستدعون الناس لسحب العربة. وشعرت ببرودة، وبخاصة في قدمي؛ إذ كنت أنتعل حذاءً ذا نعل رقيق، فنفذ منه الماء. وشعرت بالحمى بعد الغداء، ولكني لم أذهب إلى الفراش. وجلست كعادتي بعد تناول الشاي أعزف ثنائيةً مع ليوبتشكا (إنك لا تعترف بها.. لقد تقدمت تقدمًا كبيرًا!)، ولكن تخيل دهشتي حين وجدت أنني لا أستطيع أن أحصي الوقت، وأخذت أحصيه عدة مرات، ولكن رأسي أصيب بدوار شديد، وشعرت بضجة غريبة في أذني، وأحصيت، واحدًا، اثنين، ثلاثة، ثم انتقلت دفعةً واحدةً إلى ثمانية، ثم إلى خمس عشرة، وأعجب ما عجبت له أنني كنت أقول هراءً دون أن تكون لي في ذلك حيلة، وأخيرًا جاءت ميمي لمعاونتي، فوضعتني في الفراش بالقوة تقريبًا. فإليك يا عزيزي بيانًا مفصلًا عن سبب مرضي، وكيف أنني أستحق اللوم. وفي اليوم التالي كانت درجة حرارتي مرتفعة كل الارتفاع، وجاء صاحبنا الطيب العجوز إيفان فاسيلتش، ولم يفارقنا منذ ذلك الوقت، ووعد بأنه سيجعلني أقف على قدمي ثانيةً، وشيكًا جدًّا، يا له من رجل عجوز مدهش! عندما كنت محمومةً أهذي، جلس بجانبي طوال الليل، وهو الآن إذ يعرف أنني أكتب، يجلس مع الفتيات، وأستطيع أن

أسمعه من حجرتي يقص عليهن حكايات ألمانيةً، يكاد يقتلهن الضحك وهن يستمعن إليه.

«إن الفلمنكية الحسناء كما تسميها أنت، مكثت معي طوال الأسبوعين الماضيين؛ لأن أمها سافرت إلى مكان ما، وهي أشد ما تكون عنايةً بي وملازمةً لي، وهي تعهد إليَّ بكل أسرار قلبها، ولو تناولتها أيد طيبة لتحولت إلى فتاة لطيفة جدًّا بوجهها الجميل وقلبها الحنون ونضارة شبابها، ولكنها ستتحطم تحطمًا تامًّا في المجتمع الذي تعيش فيه إذا حكمنا على ذلك من قصتها الخاصة، ولقد خطر لي، لو لم يكن لديَّ عدد كبير من الأطفال، أن أقوم برعايتها كعمل من أعمال البر.

«أرادت ليوبتشكا الكتابة إليك بنفسها، ولكنها مزقت حتى الآن ثالث صحيفة من الورق وهي تقول: «إنني أعرف مقدار سخرية أبي، فأنت إذا ارتكبت غلطةً واحدةً، أطلع عليها الجميع» إن كاتنكا لطيفة كما هي دائمًا، وميمي كذلك تشق طريقها.

والآن سأحدثك عن شئون جدية. لقد كتبت لي أن أعمالك لا تسير سيرًا حسنًا هذا الشتاء، وإنك مضطر إلى أخذ الدخل من خابارفكا، وإنه ليدهشني أن تسألني الموافقة على ذلك. إن ما أملكه، لتملكه أنت كذلك دون شك.

«إنك لمن الحنان والطيبة بحيث تخفي عني الحالة الحقيقية لشئونك خوفًا من إيلامي: ولكني أخمن أنك فقدت مبلغًا كبيرًا في لعب الورق على الأرجح، وأؤكد لك أنني لست غاضبةً عليك، ولذا، فإن استطعت وحسب التغلب على هذه الضائقة، فأتوسل إليك ألا تفكر فيها طويلًا.

لقد تعودت عدم التعويل على مكاسبك فيما يتصل بالأطفال، ولا كل التعويل حتى (واغفر لي) على كل أملاكك. وإن مكاسبك تسبب لي أقل سرور كما تسبب لي خسائرك أقل ألم، والشيء الوحيد الذي يؤلمني حقًّا هو غرامك التعس بالمقامرة، الذي يسلبني جزءًا من حنانك الرقيق، ويضطرني إلى مصارحتك بمثل هذه الحقائق المرة التي أذكرها لك الآن -ويعلم الله كم يؤلمني هذا! ولن أكف عن الابتهال لله أن يمنحني شيئًا واحدًا، هو أن ينقذنا سبحانه- لا من الفقر (فما هو الفقر؟) -ولكن من ذلك الموقف المخيف، وعندما تتعارض مصالح أطفالنا، التي ألتزم بحمايتها، مع مصالحنا نحن. ولقد استجاب الله من قبل إلى دعائي؛ فأنت لم تتجاوز الخط الذي نضطر عنده إما إلى التضحية بأملاكنا- التي لم نعد نملكها حتى الآن، بل يملكها أطفالنا -وإما- والتفكير في هذا مخيف -وإن كان سوء الطالع الرهيب هذا، يهددنا على الدوام. نعم إنه لصليب ثقيل ذلك الذي أرسله الله لنا معًا.

«إنك تكتب عن الطفلين وتعود إلى نزاعنا القديم، تسألني الموافقة على إرسالهم إلى أحد معاهد التعليم.

«إنني لا أعرف يا صديقي العزيز، ما إذا كنت توافقني، ومع ذلك أرجوك أن تعد، إكرامًا لي، ألا تفعل ذلك ما دمت على قيد الحياة، ولا بعد وفاتي إن أراد الله التفريق بيننا.

«كتبت لي أنك يجب أن تذهب إلى سانت بترسبورج لملاحظة أعمالك، فليكن المسيح معك يا صديقي، اذهب وعد بأسرع ما تستطيع. إن الحياة تشق علينا كثيرًا دون وجودك! إن الربيع رائع الجمال، وقد

أنزلنا باب الشرفة على التو، والممرات المؤدية إلى الصوبة جافة تمامًا منذ أربعة أيام، وأشجار الخوخ في تمام ازدهارها، والثلج «يتلبث» بقعًا قليلةً فقط، وجاءت طيور السنونو، وأحضرت لي ليوبتشكا بواكير أزهار الربيع. ويقول لي الطبيب أنني سأكون على خير حال في مدى ثلاثة أيام، وسأستطيع تنفس النسيم النقي والاستدفاء في شمس إبريل،.. والآن إلى اللقاء يا صديقي العزيز: أرجوك ألا تقلق لمرضى ولا لخسائرك، أنجز عملك بأسرع ما في طوقك، وتعال إلينا مع الطفلين لقضاء الصيف كله، فأنا أضع مشروعات عظيمةً للصيف، ومجيئك وحده هو الذي ينقص اكتمالنا.

أما الشطر الباقي من الخطاب فقد كتب باللغة الفرنسية، خطته يد متشنجة غير هادئة على قطعة أخرى من الورق. وها أنا أترجمه كلمة بكلمة:

«لا تصدق ما كتبته لك بشأن مرضي، ولا يشك أحد في مقدار خطره، وأنا وحدي الذي أعرف أنني لن أغادر الفراش مرةً أخرى، فلا تضيع لحظةً: تعال وأحضر الطفلين؛ فقد أستطيع أن أُقبِّلهما مرةً أخرى وأباركهما: هذه هي رغبتي، وأنا أعرف أي صدمة قوية أوجهها لك، ولكنك ستتلقاها إن عاجلًا أو آجلًا من الآخرين. فلنتحمل هذه المحنة بثبات، ونثق في رحمة الله، ولنخضع لمشيئته تعالى.

«لا تظن أن ما أكتبه هذيان خيال محموم، بل إن أفكاري على العكس، صافية في هذه اللحظة صفاءً عجيبًا، رابطة الجأش تمامًا، ولا تُعَزِّ نفسك كذلك بآمال باطلة، كأن هذه ليست إلا هاجسات مبهمةً كاذبةً

لنفس هيابة. لا، فأنا أشعر وأعرف حقيقة؛ لأن الله رضي أن يكشف لي عن هذا؛ لأنه لم يعد أمامي طويل وقت في الحياة.

«هل سينتهي حبي لك وللأطفال بانتهاء هذه الحياة؟ أعرف أن هذا محال، وفي هذه اللحظة التي يملؤني فيها الحب امتلاءً يجعلني أفكر في أن ذلك الحب، الذي لا أستطيع من دونه فهم الوجود يمكن أن يغني. إن روحي لا تستطيع أن توجد من دون حبها لك، وأعلم أنها ستبقى إلى الأبد بهذا وحده، وإن حبًّا كحبي لم يكن ليوجد إذا لم يكن من المقدر له أن يحيا إلى الأبد.

«سوف لا أكون معك، ولكنني مقتنعة كل الاقتناع بأن حبي لم يفارقك ألبتة، وفي هذه الفكرة من العزاء لقلبي ما يجعلني أنتظر الموت الذي يقترب وشيكًا، في هدوء ودون فزع.

«إنني هادئة، ويعلم الله أنني كنت دائمًا أنظر إلى الموت، ولا أزال أنظر إليه، بوصفه الطريق إلى حياة أفضل، ومع ذلك فلماذا لا أستطيع حبس دموعي؟ ولماذا لا بد أن يحرم أطفالي من الأم التي يحبونها؟ ولماذا لا بد أن يكون نصيبك كل هذه الصدمة الشديدة غير المتوقعة؟ لماذا يجب أن أموت في الوقت الذي جعل حبك من حياتي سعادةً لا حد لها؟».

«فلتكن مشيئته المقدسة!

«لا أستطيع أن أكتب لك مزيدًا بسبب دموعي، وأخشى ألا أراك... أشكرك يا حبيبي لكل السعادة التي أحطتني بها في هذه الحياة، وسأبتهل إلى الله أن يجزيك عني... وداعًا يا أعز عزيز، وتذكر حين أصبح نسيًا

منسيًّا أن حبي لن يفارقك مطلقًا أينما كنت.. وداعًا يا ملاكي فولوديا، وداعًا يا صغيري بنيامين، ويا نيكولنكا».

«هل يمكن أن ينسوني؟

وكان هذا الخطاب يشتمل على ملاحظة بالفرنسية من ميمي، نصها كالآتي: - «إن الخوالج التي تتكلم عنها ليست إلا ما أيده الطبيب تأييدًا تامًّا، وقد أمرتني في الليلة الماضية أن أحمل هذه الرسالة إلى البريد توًّا. وظنًّا مني أنها تهذي فقد انتظرت إلى الصباح، ثم فكرت في أن أفضها، وما إن فعلت ذلك، حتى سألتني ناتاليا نيكوليفنا عما فعلته بالرسالة، ثم أمرتني بحرقها إذا لم أكن قد أرسلتها، وهي دائمة التحدث عنها، وصرحت بأنها ستقتلك، فلا تؤخر حضورك إن كنت تريد رؤية ملاكنا قبل أن يفارقنا إلى الأبد. معذرةً لهذه الكتابة المشوشة، لأنني لم أنم منذ ثلاث ليال، فأنت تعلم مقدار حبي لها.

أخبرتني ناتاليا سافشنا التي قضت طوال ليلة الحادي عشر من إبريل في حجرة نوم أمي، أنها بعد كتابة الشطر الأول من الرسالة، وضعتها على مائدة صغيرة بجانبها، ثم ذهبت لتنام.

وقالت ناتاليا سافشنا: «أعترف أنني غفوت في المقعد ذي المسندين، وسقط جوربي من يدي؛ ولكن في نحو الساعة الواحدة سمعت في أحلامي كأنها تتحدث إلى شخص ما، وفتحت عيني، فوجدتها جالسةً في الفراش، وجدت حمامتي الصغيرة، بيديها الصغيرتين مضمومتين هكذا، والدموع تفيض من عينيها، وقالت: «وهكذا ينتهي كل شيء؟»، ثم دفنت وجهها بين يديها، وقفزت واقفةً على قدمي وسألتها: «ماذا بك؟».

فقالت: «آه ناتاليا سافشنا، لو عرفت ماذا رأيت الآن!».

«ولكن لا يهم كيف توسلت إليها أن تجيبني؛ لأنها لم تزد على ذلك شيئًا. إنما طلبت مني فقط إحضار المائدة الصغيرة فأضافت إلى الرسالة شيئًا ما، وجعلتني أختمها لساعتي وأرسلها مباشرةً. ثم أخذت حالتها بعد ذلك تتزايد سوءًا».

* * *

(٢٦)

ما كان ينتظرنا في الريف

في الثامن عشر من إبريل نزلنا من عربتنا عند سقيفة البيت في بتروفسكوي، وكان بابا مستغرقًا في التفكير حين غادرنا موسكو، فلما سأله فولوديا عما إذا كانت أمه مريضةً، نظر إليه في أسى وهز رأسه في صمت، ثم بدا أهدأ حالًا في أثناء الرحلة. ولكن حين اقتربنا من البيت اتخذ وجهه شيئًا فشيئًا طابع الحزن. وعند نزوله من العربة سأل فوكا الذي أسرع لاهثًا: « أين ناتاليا نيكولايفنا؟»، ولم يكن صوته ثابتًا، تتندى عيناه بالدموع. ونظر إلينا فوكا العجوز الطيب وغض من عينيه، وفتح باب حجرة الانتظار، ثم التفت جانبًا وأجاب: «إنه اليوم السادس يا سيدي منذ أن لزمت غرفتها، ولم تبارحها».

أما «ملكا» (التي عرفت فيما بعد أنها لم تتوقف عن العواء المحزن منذ اليوم الذي حملت فيه أمي المريضة)، فقد اندفعت مغتبطةً نحو بابا وقفزت عليه، وهي تعوي وتلعق يديه، ولكنه دفعها عنه جنبًا واجتاز حجرة الاستقبال إلى المخدع، حيث يوجد باب يؤدي مباشرةً إلى حجرة النوم. وعندما اقترب من الحجرة تزايد اضطرابه الذي كان ظاهرًا في كل حركة؛ دخل المخدع على طرفي قدميه لا يكاد يجسر على التنفس، ورسم إشارة

الصليب قبل أن يعمد إلى مقبض الباب المغلق. وفي تلك اللحظة دخلت ميمي مسرعةً من الممر مشعثةً دامعة العينين، وقالت هامسةً وقد انطبع على وجهها قنوط حقيقي: «آه، بيوتر إلكسندروفتش»، وما إن لاحظت أن أبي يدير المقبض، حتى أضافت بصوت لا يكاد يسمع: «ليس من هنا، إن هذا الباب مغلق، والدخول عن طريق حجرة الخادمات».

آه، كم أثر كل هذا على خيالي الصبياني الذي جعله التشاؤم المفزع متوافقًا مع الحزن!

وذهبنا إلى حجرة الخادمات، فقابلنا في الممر «آكيم» الأبله الصغير الذي كان يسلينا دائمًا بتقطيبات وجهه، ولكن في هذه اللحظة لم أشاهد فيه شيئًا يبعث على الضحك، فلم يصدمني في الواقع شيء مؤلم إلى هذا الحد بقدر ما صدمني ذلك الوجه العاطل من الشعور والاكتراث. وكانت في حجرة الخادمات اثنتان منهن عاطفات على شغل الإبرة، نهضن للانحناء لنا بالتحية، عليهن من سمات الحزن ما أفزعني. وبمرورنا بحجرة «ميمي» المجاورة، فتح أبي باب حجرة النوم ودخلنا. كان إلى يمين الباب نافذتان يتدلى منهما وشاحان. جلست على إحداهما ناتاليا سافشنا بنظارتها على أنفها تحيك جوربًا، ولم تقبلنا كما كانت تفعل عادةً، ولكنها نهضت وحدقت فينا من خلال نظارتها وحسب، وهطلت الدموع على وجنتيها، لقد أزعجني أن أرى أناسًا هادئين على الدوام، يأخذون في البكاء حالما يروننا.

وإلى يسار الباب ينسدل ستار، خلفه فراش ومنضدة صغيرة، وصوان صغير مليء بالعقاقير، والمقعد الكبير ذي المسندين الذي أغفى عليه

الطبيب. ووقفت إلى جانب الفراش فتاة شابة بالغة الجمال ذات شعر أشقر، وقد شمرت عن كمي ردائها الصباحي الأبيض، وهي تضع الثلج على رأس أمي، أما أمي نفسها فلم أرها. وكانت هذه الفتاة هي «الفلمنكية الحسناء» التي كتبت عنها أمي من قبل، والتي قامت بدور كبير الأهمية في حياة الأسرة كلها. وحالما دلفنا إلى الحجرة، رفعت يدها من على رأس أمي، ورتبت ثنيات صدر قميصها، ثم قالت بصوت خافت: «إنها فاقدة الحس».

كنت شديد التعاسة في تلك اللحظة، ولكن لاحظت كل هذه الأشياء التافهة قسرًا. وكانت الحجرة مظلمة تقريبًا، والجو حارًّا، وقد اختلطت روائح النعناع وماء «الكولونيا» والبابونج ونقط هوفمان، فتأثرت بهذه الرائحة حتى بلغت بي الحال حين أشمها أو حتى أتذكرها أن يحملني خيالي على التو إلى الماضي، إلى تلك الحجرة الخانقة المظلمة، وأستعيد كل تفاصيلها، بل أدق ما وعته تلك اللحظة.

كانت عينا أمي مفتوحتين، ولكنها لم تر شيئًا، ولن أنسى مطلقًا تلك النظرة المرعبة. لقد كانت طافحةً بالعذاب.

وأبعدونا.

عندما سألت ناتاليا سافشنا فيما بعد عن لحظات أمي الأخيرة، روت عليَّ ما يأتي:

«بعد إبعادكم، ظلت سيدتي العزيزة وقتًا طويلًا تتململ، كأن شيئًا ما يضايقها، ثم مالت برأسها على وسادتها، وأغفت في هدوء وسلام

كاملين كأنها ملاك هبط من السماء، وخرجت أرى لماذا لم يحضروا لها شرابًا. وعندما عدت كانت حبيبتي قد استيقظت ثانيةً، وأومأت إلى والدك ليقترب منها، فانحنى فوقها، ولكن قواها خذلتها، فلم تستطع النطق بما كانت ترغب في قوله، واستطاعت أن تفتح شفتيها فقط وتتأوه قائلةً: «آه يا إلهي!! يا ربي! الأطفال، الأطفال!». وأردتُ أن أسرع فأستدعيكم، ولكن إيفان فاسيلتش استوقفني وقال: «إن ذلك يزيد من تأثرها، فمن الخير ألا تفعلي، وبعد ذلك رفعت يدها فقط، ثم أنزلتها ثانيةً. فماذا كانت تعني بذلك الله وحده هو الذي يعلم. وأظنها كانت تبارككم في غيبتكم، ولكن الله لم يمنحها نعمة رؤية أبنائها الصغار قبل أن تلقى نهايتها. ثم رفعت حمامتي الصغيرة جسمها، وقامت بهذه الحركة متكئةً على يدها، وتكلمت بصوت لا أستطيع تحمل التفكير فيه قائلةً: «يا أم الله، لا تتخلي عنهم!»، ولا بد أن يكون الألم آنئذ قد وصل إلى قلبها، وقد عرفنا من عينها مدى ما كانت تقاسيه هذه المخلوقة المسكينة، ثم سقطت على الوسادة، وأمسكت بأغطية الفراش بين أسنانها، وأخذت دموعها تفيض وتنهمر».

وسألتها: «ثم ماذا؟».

ولكن ناتاليا سافشنا لم تزد شيئًا، وتحولت عني، وأخذت تبكي بكاءً مريرًا.

لقد ماتت أمي بعد احتضار أليم.

(٢٧)

الحزن

في ساعة متأخرة من مساء اليوم التالي رغبت في رؤيتها مرةً أخرى، وتغلبت على شعور الخوف القسري، ففتحت الباب بخفة، ودخلت القاعة على أطراف قدمي.

وُضع التابوت على مائدة في وسط الحجرة، وأُشعلت من حوله الشموع في شمعدانات طويلة من الفضة، وفي الركن البعيد جلس المنشد يقرأ المزامير في صوت خفيض رتيب.

توقفت عند الباب وتطلعت، ولكن عيني كانتا كليلتين من البكاء، وأعصابي شديدة الاضطراب حتى إنني لم أستطع رؤية شيء. كان كل شيء يجري بطريقة غريبة؛ الأضواء والنسيج الحريري، والمخمل، والشمعدان الضخم، والوسادة ذات اللون الوردي المخرمة الأطراف، وغطاء الرأس ذو الأشرطة، ثم شيء شفاف يشبه الشمع. وصعدت على كرسي لكي أرى وجهها، ومع ذلك فحيث كان ينبغي أن توجد، رأيت نفس الشيء الشفاف الشبيه بالشمع، فلم أستطع تصديق أن هذا وجهها، ومع ذلك فبينما عكفت على النظر إليه أخذت أميز شيئًا فشيئًا القسمات

المألوفة المحبوبة، وعرتني رعدة حين تحققت من أنها هي. ولكن لماذا كانت العينان المغلقتان غائرتين إلى هذا الحد؟ ولماذا ذلك الشحوب المخيف والبقعة الضاربة إلى السواد تحت الجلد على إحدى الوجنتين؟ ولماذا كانت قسمات الوجه جميعًا عابسةً باردةً إلى هذا الحد؟ ولماذا كانت الشفتان بالغتي الشحوب، وبلغ رسمهما من الجمال والجلال والتعبير عن الرصانة المخيفة حدًّا بعث فيَّ قشعريرةً باردةً، سرت إلى أسفل ظهري، وشملت شعر رأسي عندما نظرت إليها؟

وعندما تطلعت، شعرت بقوة غامضة لا تقاوم تجتذب عيني إلى ذلك الوجه العاطل من الحياة فلم أحول عنه عيني، ورسم لي خيالي صورًا من الحياة المزدهرة والسعادة، ونسيت أن الجسد الميت الممدود أمامي الذي كنت أتطلع إليه في بلاهة، كأنني أتطلع إلى شيء شائع في أحلامي، كانت هي، وتخيلتها مرةً أخرى كما كنت أراها في غالب الأحيان نشيطةً مرحةً مبتسمةً، ثم صدمتني للحال قسمة من قسمات هذا الوجه الشاحب الذي استقرت عليه عيناي، وتذكرت الحقيقة المفزعة، فاقشعر بدني، ولكني لم أتوقف عن تطلعي.

وحلت الرؤى محل الحقيقة مرةً أخرى، ثم ألجأها الشعور بالحقيقة إلى الهرب ثانيةً. وأخيرًا تعب الخيال وتوقف عن خداعي، واختفى كذلك الشعور بالحقيقة، وفقدت حواسي، فلا أعرف كم من الوقت بقيت على هذه الحال، أو ماذا تضمنت، ولا أعرف إلا أنني فقدت كل الشعور بوجودي وقتًا ما، ومررت بتجربة قوية، سارة ومحزنة، تفوق كل وصف.

لعل روحها الجميلة وهي تطير من هنا إلى عالم أفضل تتطلع خلفها

محزونةً إلى العالم الذي تركتنا فيه، شعرت بحزني، وعطفت عليه، وهبطت إلى الأرض على أجنحة الحب، وعلى شفتيها ابتسامة حنان سماوية؛ لكي تعزيني وتباركني، وصفق الباب ودخل الحجرة منشد آخر ليريح الأول، فنبهتني هذه الضوضاء، وكانت الفكرة الأولى التي طرأت عليَّ، هي أنني لم أكن أبكي، وأنني كنت أقف على كرسى في موقف لا يتصل به في شيء، فلربما يحسبني ولدًا عديم الإحساس صعد على الكرسي بدافع العطف أو حب الاستطلاع، فرسمت علامة الصليب، وأحنيت رأسي، وأخذت أبكي.

وعندما أتذكر انطباعاتي أجد أن لحظة نسياني لذاتي كانت هي لحظة الحزن الحقيقي. ولم أكف عن البكاء قط قبل الدفن وبعده، وكنت حزينًا، ومع ذلك فإنه ليعتريني الخجل حين أتذكر ذلك الحزن؛ لأن شعورًا بحب الذات كان يختلط به دائمًا، فمرةً كان رغبة في إظهار أنني أشد غمًّا من أي شخص آخر، ومرةً أخرى كان اهتمامًا بما أتركه من أثر في الآخرين، وفي مرة ثالثة حب استطلاع بلا هدف، كان يدفعني إلى إبداء ملاحظات عن قبعة «ميمي» وعن وجوه أولئك الحاضرين، وقد ازدريت نفسي لأن الشعور الذي ساورني لم يكن شعور حزن خالص. وحاولت إخفاء جميع المشاعر الأخرى، ومن أجل هذا كان حزني غير صادق وغير طبيعي. وفوق هذا فقد خبرت لونًا من السرور بمعرفتي أنني لست سعيدًا، وحاولت إثارة شعوري بالسعادة، وهذا الشعور الأناني أخمد في دخيلة نفسي الحزن الحقيقي أكثر من جميع المشاعر الأخرى.

وبعد أن قضيت الليلة في نوم عميق هادئ كما هو الحال دائمًا بعد الحزن الكبير، استيقظت وقد جف دمعي وهدأت أعصابي. وفي الساعة

العاشرة استُدعينا لحضور القداس الذي أقيم لتكريم الميتة قبل موارة الجثة التراب، وامتلأت الحجرة بخدم المنزل والفلاحين الباكين، الذين قدموا لتوديع سيدتهم. وفي أثناء إقامة الصلاة بكيت كثيرًا جدًّا، ورسمت علامة الصليب، وسجدت على الأرض، ولكنني لم أبتهل بقوة، بل كنت أبتهل بنفس هادئة. لقد كنت قلقًا؛ لأن المعطف القصير الذي ألبسوني إياه كان ضيقًا من تحت الإبطين، وكنت أفكر كذلك في عدم تلويث ركبتي سروالي أكثر مما ينبغي، ولاحظت خفيةً كل أولئك الحاضرين. ووقف بابا عند رأس التابوت، وكان شاحب اللون كشحوب منديله، يحبس دموعه بصعوبة واضحة، وكان هيكله الفارع في معطفه الأسود، ووجهه الشاحب المعبر، وحركاته الرشيقة الثابتة، كما كانت دائمًا، وهو يرسم إشارة الصليب، أو وهو ينحني حتى يلمس الأرض بيده، أو يتناول الشمعة من يد الكاهن، أو يقترب من التابوت، كانت حركاته جميعًا مؤثرةً إلى أقصى حد، ومع ذلك لا أعرف لماذا كانت هذه القدرة التي تبدو على هذا القدر من التأثير في لحظة كهذه، لم ترقني تمامًا. ووقفت «ميمي» متكئةً على الجدار كأنها لا تكاد تقوى على الوقوف، وكان رداؤها مغضنًا مرقطًا بالوبر، وقبعتها مائلةً إلى أحد الجانبين، وعيناها المنتفختان حمراوين، ورأسها يهتز، ولم تكف مطلقًا عن النشيج في صورة تمزق القلب، تدفن وجهها باستمرار في يديها ومنديلها، وقد خيل إليَّ أنها إنما تفعل ذلك لكي تخفي وجهها عن الناظرين، ولكي تستريح برهةً بعد نشيجها المتغالي. لقد تذكرتها وهي تخبر والدي في اليوم السابق أن وفاة أمي كانت صدمةً فظيعةً لها حتى إنها لم تكن تأمل في الحياة لهذا السبب، وإنها حرمتها كل شيء، وأن ذلك الملاك (كما كانت تسمي أمي) لم

تنسها قبل موتها، فأبدت رغبتها في تأمين مستقبلها ومستقبل كاتنكا من الهم إلى الأبد. وذرفت دموعًا حارة وهي تقول هذا، ولربما كان حزنها حقيقيًّا، ولكنه لم يكن خالصًا وشاملًا، ووقفت ليوبتشكا بجلبابها الأسود الملائم للحداد ووجهها المبلل بالدموع، منكسة الرأس ترنو إلى التابوت الفينة بعد الفينة بتعبير ينم عن الفزع الصبياني. ووقفت كاتنكا بجانب أمها، وبالرغم من طابع الحزن فقد كانت وردية اللون كما كانت دائمًا. وكانت طبيعة فولوديا الصريحة، صريحةً حتى في حزنه. كان يقف أحيانًا بنظرته المفكرة الثابتة مركزةً على شيء ما، ثم بدأ فمه يختلج على حين فجأة، فرسم علامة الصليب بسرعة، وانحنى باحترام، وضقت باحتمال جميع الحاضرين في حفلة الدفن، وكانت عبارات المواساة التي وجهوها إلى أبي، من أن أمي ستكون هنالك أسعد حالًا، تثير نوعًا من غضبي.

بأي حق كانوا يتحدثون عنها ويحزنون عليها؟ كان بعضهم حين يتحدث عنها يطلق علينا «الأيتام»، كأننا لم نكن نعرف من دون مساعدتهم أن الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم يُطلق عليهم هذا الاسم! واضح أنه كان يسعدهم أن يكونوا أول من يمنحنا هذه التسمية، تمامًا كإسراعهم عادةً بتلقيب الفتاة الشابة عقب زواجها مباشرةً بلقب «السيدة» لأول مرة.

وفي الركن البعيد من القاعة، كانت هذه سيدة ذات شعر رمادي يكاد باب مخزن المؤن المفتوح أن يخفيها عن الأنظار، راكعة ساجدة، متشابكة اليدين. مرفوعة العينين إلى السماء. لم تكن تبكي، ولكنها كانت تبتهل، تتطلع روحها إلى الله، وتتوسل إليه تعالى أن يلحقها بتلك التي أحبتها أكثر مما أحبت جميع من على الأرض، وتمنت مخلصةً أن يتحقق

لها هذا سريعًا.

وقلت وقد اعتراني الخجل من نفسي: «هناك واحدة تحبها حبًّا صادقًا!».

انتهى القداس، وكشف عن وجه السيدة الميتة، واقترب جميع الحاضرين من التابوت فيما عدانا نحن، فقبلوه واحدًا بعد واحد.

وكان ممن اقتربوا لوداعها أخيرًا، امرأة فلاحة تقود صبيةً جميلةً في الخامسة من عمرها، أحضرتها إلى هناك، لسبب يعلمه الله، وفي تلك اللحظة سقط مني منديلي المبلل فجأةً فانحنيت لالتقاطه، فما إن انحنيت عليه، حتى صدرت صرخة مخيفة حادة أفزعتني، لقد كانت صرخة رعب لن أنساها مطلقًا حتى لو عشت مائة عام، وعندما أتذكرها تسري في كل بدني قشعريرة باردة، ورفعت رأسي: كانت نفس المرأة.. الفلاحة واقفة على كرسي بجوار التابوت تحمل في مشقة بين ذراعيها الصبية الصغيرة التي كانت تحدق مهتاجةً في وجه أمي الخامد، وتطلق صرخات مفزعةً متعاقبةً، وهي تضرب الهواء بيديها الصغيرتين، وتشيح بوجهها المذعور، وصرخت أنا أيضًا في صوت قد يكون أشد إزعاجًا من الصوت الذي أفزعني، فاندفعت إلى خارج الحجرة.

وفي هذه اللحظة فقط عرفت من أين أتت تلك الرائحة الثقيلة المختلطة برائحة البخور التي ملأت الحجرة، وحين فكرت في أن ذلك الوجه الذي كان قبل أيام قليلة مليئًا بالجمال والحنان، ذلك الوجه الذي أحببته أكثر من أي شيء آخر في الحياة، بدا لي لأول مرة أنه يكشف لي عن الحقيقة المرة، ويملأ روحي باليأس.

(٢٨)

أخر الذكريات المحزنة

لم تعد أمي معنا بعد، ولكن حياتنا جرت في مجراها الطبيعي، فكنا ننام ونستيقظ في نفس الساعات وفي نفس الحجرات، ونتناول شاي بعد الظهر، والغداء والعشاء في الموعد المعتاد. الموائد والمقاعد قائمة في نفس أماكنها. لم يتغير شيء في البيت ولا في نمط حياتنا، لم يتغير شيء إلا -هي.

لقد خيل إليَّ، بعد تعاسة كهذه، أن كل شيء لا بد أن يتغير -وبدا لي أن نمط حياتنا العادية إهانة لذكراها، وتذكرت غيابها بوضوح بالغ.

وبعد طعام الغداء، في الليلة السابقة على يوم الدفن، أردت أن أنام، فذهبت إلى حجرة ناتاليا سافشنا، بقصد الاستلقاء على فراشها المحشو بالريش الناعم، وتحت الغطاء الدافئ الفضفاض. وكانت ناتاليا سافشنا عند دخولي راقدةً في فراشها، نائمةً على الأرجح: ولدى سماعها صوت أقدامي نهضت، ونحت جانبًا القماش الصوفي الذي يحمي رأسها من الذباب، وأصلحت من وضع غطاء رأسها، ثم جلست على طرف الفراش.

كنت قد اعتدت الحضور إلى حجرتها في كثير من الأحيان؛ لأغفو قليلًا بعد الغداء، وحالما دخلت الحجرة عرفت لساعتها لماذا حضرت.

وقالت: «ها قد أتيت لتستريح قليلًا. أليس كذلك؟ ارقد إِذَنْ يا عزيزي».

فقات وقد تناولت يدها: «آه، لا يا ناتاليا سافشنا، ليس هذا مطلقًا، لقد فكرت في الحضور وحسب، إنك أنت نفسك متعبة، وخير لك أن ترقدي».

فقالت: «لقد نمت يا عزيزي وقتًا كافيًا» (وكنت أعرف أنها لم تنم طوال ثلاثة أيام)، ثم أضافت وهي تتأوه تأوهًا عميقًا: «وفوق ذلك، فمن ذا الذي يستطيع التفكير الآن في النوم».

كنت أرغب في التحدث مع ناتاليا سافشنا عن سوء طالعنا، إذ كنت أعرف مدى حبها الخالص لأمي، وقد يعزيني أن أبكي معها.

فقلت وأنا أجلس على الفراش بعد صمت قليل: «أكنت تتوقعين ذلك يا ناتاليا سافشنا؟»، فتفرست في المرأة العجوز في ذهول وفضول، ولعل من المرجح أن يكون السبب أنها لم تعرف لماذا سألتها عن ذلك.

فكررت عبارتي قائلًا: «من كان يتوقع هذا؟».

فقالت وهي تلقي عليَّ أرق نظرة من العطف: «آه يا عزيزي، وحتى الآن لا أستطيع أن أصدق هذا.. إنني امرأة عجوز، كان ينبغي أن تكون عظامي الواهنة قد دفنت منذ وقت طويل، ومع ذلك فإن سيدي العجوز أي جدك الأمير نيكولاي ميخايلوفتش (أراح الله روحه)، وأخوي الاثنين، وأختي أنوشكا، كل هؤلاء قد دفنوا قبلي، وإن كانوا جميعًا أصغر مني

سنًّا، فمن الواضح الآن أنه بسبب ذنوبي كان مصيري أن أعيش من بعدها. فلتكن مشيئته المقدسة! لقد أخذها سبحانه وتعالى لأنها تستحق ذلك، وهو يريد هناك الأرواح الصالحة».

وقد أدخلت هذه الفكرة البسيطة العزاء إلى نفسي، فاقتربت من ناتاليا سافشنا وشبكت يديها على صدرها وتطلعت إلى فوق، وعبرت عيناها الغائرتان المغروقتان عن ألم كبير، ولكنه ألم صامت. وتشبثت بأمل راسخ أن الله لن يفرق طويلًا بينها وبين من ركزت فيها أعوامًا عدةُ كل قوة حبها.

«نعم يا عزيزي، يخيل إليَّ أنه لم يمض وقت طويل منذ كنت مربيتها، ألبس ثيابها وكانت تدعوني «ناشا».. كانت تسرع إليَّ وتطوقني بذراعيها الصغيرتين وتأخذ في تقبيلي، وتقول لي: «يا عزيزتي ناشا، وجميلتي، ومحبوبتي!»، وكنت أقول لها ممازحةً: «لا يا عزيزتي إنك لا تحبينني، انتظري حتى تكبري وتتزوجي وتنسي عزيزتك ناشا، فترد عليَّ بعد أن تستغرق في التفكير: «أفضل ألا أتزوج إذا لم أصحب معي ناشا، إنني لا أتخلى عن ناشا، والآن ها هي ذي قد فارقتني، ولم تنتظرني فكيف أحبتني! حقًّا، فمن ذا الذي لم تكن تحبه؟ يجب ألا تنس أمك مطلقًا يا عزيزي، فإنها لم تكن إنسانًا عاديًّا، لقد كانت ملاكًا من السماء. وحين تصل روحها إلى مملكة السماء، فستحبك هنالك وتبتهج من فوقك».

وسألتها: «لماذا تقولين تصل إلى مملكة السماء يا ناتاليا سافشنا؟ إنني أظنها هنالك الآن».

وقالت ناتاليا سافشنا وهي تخفض من صوتها وتجلس على الفراش بالقرب مني: «لا يا عزيزي، إن روحها هنا الآن، وأشارت إلى فوق.

وكانت تتحدث همسًا تقريبًا، وفي كثير من الاقتناع حتى إنني رفعت عيني قسرًا، وتطلعت إلى الطنف بحثًا عن شيء ما، وقالت: «قبل أن تذهب روح البار إلى الفردوس تعاني يا عزيزي أربعين تغييرًا، ويمكن أن تبقى في بيتها أربعين يومًا».

وتحدثت كثيرًا في هذا الصدد، وفي كثير من البساطة والإيمان، كأنها كانت تقص أحداثًا يوميةً شاهدتها بنفسها، ولا يساور الشك فيها عقل أي إنسان. وكنت أمسك أنفاسي وأنا أصغي إليها، ومع أنني لم أفهم ما قالته فهمًا جيدًا، فقد صدقتها كل التصديق.

وقالت ناتاليا سافشنا في خاتمة حديثها: «نعم يا عزيزي، إنها هنا الآن، وهي تنظر إلينا، ولربما تسمع ما نقوله».

وطأطأت رأسها، ولاذت بالصمت، ثم احتاجت إلى منديل تمسح به دموعها المتساقطة، فنهضت وتفرست في وجهي، وقالت بصوت يرتجف بالانفعال:

«لقد قربني الله منه بذلك عدة خطوات، فماذا بقي لي الآن، وأي شيء أعيش من أجله؟ ومن لي أحبه؟».

وقلت معاتبًا وأنا أحبس دموعي بمشقة: «ألا تحبيننا؟».

«الله يعلم كم أحبكم يا أحبائي، ولكنني لم أحب أحدًا قط كما أحببتها، ولن أستطيع أن أحب أحدًا مطلقًا إلى هذا الحد».

ولم تستطع أن تزيد على هذا، بل ابتعدت، وأخذت تنشج بصوت مرتفع.

لم أعد أفكر في النوم بعد ذلك، فجلسنا متقابلين في صمت وبكينا. ودلف فوكا إلى الحجرة، ولكنه ما إن رأى حالتنا، ولعله لم يرد إزعاجنا، حتى نظر إلينا في خجل وصمت، وتوقف عند الباب.

وسألته ناتاليا سافشنا، وهي تمسح عينيها: «ماذا تريد يا فوكا الطيب؟».

«أريد رطلًا من الزبيب، وأربعة أرطال من السكر، وثلاثة أرطال من الأرز؛ لصنع الكوتيا»[١].

وقالت ناتاليا سافشنا وهي تتناول متعجلةً قبضةً من السعوط: «نعم، لحظةً واحدةً، ثم ذهبت إلى الصوان بخطوات نشيطة. واختفت آخر آثار الحزن التي آثارها حديثنا حين أخذت في أداء واجبها الذي كانت تعتبره أمرًا بالغ الأهمية.

وقالت في تذمر وهي تخرج السكر وتزنه بالميزان: «ماذا تريد أن تعمل بأربعة أرطال، يكفي ثلاثة أرطال ونصف رطل»، وأخذت عدة قطع من الميزان، وتابعت حديثها: «وكيف تحتاج إلى مزيد من الأرز؟ لقد أعطيتك بالأمس ثمانية أرطال! لا ذنب لك يا فوكا ديمدتش، ولكني لا أستطيع أن أعطيك مزيدًا من الأرز. إن فانكا سعيد؛ لأن البيت انتكس رأسًا على عقب، ويظن أن أحدًا لن يلاحظ... لا، إنني لا أريد أي عبث بحاجيات سيدي.. ثمانية أرطال! من سمع بمثل هذا!».

«وماذا نفعل؟ يقول إنه نفد كله».

---

(١) طبق من الحلوى، يتناوله أصحاب الحداد في المآتم الروسية.

«حسن، إليك هي، خذها إذَنْ، فليأخذها!».

ودهشت لهذا الانتقال من الشعور المؤثر الذي كان يسود حديثها معي إلى هذا التذمر والتقدير الزهيد. وعندما فكرت فيه فيما بعد، وجدت أنه بالرغم مما يجري في دخيلة نفسها، تحتفظ بقدر كاف من حضور الذهن لتشغل نفسها بعملها، وجرتها قوة العادة إلى أداء واجباتها اليومية. وكان حزنها أقوى وأصدق من أن تحتاج إلى تظاهر بعجزها عن الانشغال بالأمور التافهة، ولا هي فهمت أن مثل هذه الفكرة يمكن أن تطرأ على ذهن أي شخص.

إن الزهو شهور يتعارض كل التعارض مع الحزن الحقيقي، ومع ذلك يبلغ من قوة امتزاجه بطبيعة الكثيرين، أن تعجز عن طرده معظم الهموم إلا في النادر القليل. ويظهر الزهو في الحزن عند الرغبة في إظهار الأسى أو التعاسة أو الثبات، وهذه الرغبات الهابطة التي لا نعلنها، ويندر أن تفارقنا، حتى في أعمق حالات قلقنا، إنما تحرمه من القوة والكرامة والصدق، ولكن ناتاليا سافشنا كان جرحها من تعاستها من العمق، بحيث لم تبق في روحها رغبة مطلقًا، فسارت في حياتها بمحض العادة.

بعد أن أعطت فوكا المواد التي طلبها، وذكرته بالفطيرة التي يجب إعدادها للاحتفاء برجال الدين، صرفته وتناولت جوربها، وجلست ثانيةً بالقرب مني.

وتحول الحديث مرةً أخرى إلى نفس الموضوع كما كان من قبل، وعدنا إلى البكاء سويًّا.

كانت هذه الأحاديث مع ناتاليا سافشنا تتكرر كل يوم، ومنحتني دموعها الهادئة وكلماتها الرصينة الورعة الراحة والعزاء.

ولكن كان لا بد لنا أخيرًا أن نفترق، إذ انتقل كل أهل المنزل بعد ثلاثة أيام من الدفن إلى موسكو، وقدر لي ألا أراها مرةً أخرى.

وتلقت جدتي وحدها الخبر المفزع لدى وصولنا، وكان حزنها شديدًا، فلم يسمح لنا برؤيتها؛ لأنها ظلت أسبوعًا كاملًا فاقدة الوعي، وخشي الطبيب على حياتها، وبخاصة لأنها لم تقتصر على عدم تعاطي أي دواء، بل لم تتحدث إلى أحد أو تتناول أي غذاء. وكانت أحيانًا، وهي جالسة وحيدة في غرفتها، على مقعدها ذي المسندين، تنفجر بالضحك فجأةً، ثم تأخذ في النشيج بلا دموع، أو كانت ترتد إلى تشنجاتها، فتصرخ بكلمات مزعجة غير متصلة، وكان هذا أول حزن عرفته في حياتها. فألقى في مهاوي اليأس. وكانت تشعر بحاجة إلى إلقاء اللوم إلى شخص ما تحسبه سبب تعاستها، فكانت تنطق بأشياء مخيفة، وتكلم شخصًا غير منظور بحماسة فائقة، وتقفز من على مقعدها في خطوات طويلة سريعة فاقدة الوعي.

دخلت حجرتها في مناسبة ما، وكانت جالسةً كالمعتاد على مقعدها ذي المسندين، وكانت مظاهرها هادئةً، ولكن نظرتها أفزعتني. كانت عيناها مفتوحتين شديدتي الاتساع، ولكن نظرتهما كانت قلقةً خاويةً، وتطلعت نحوي مباشرةً دون أن تبصرني، وأخذت شفتاها تبتسمان ببطء، وتحدثت بصوت فيه رقة مؤثرة قائلة: «تعالي هنا يا عزيزتي، تعالي هنا يا ملاكي». وظننتها تخاطبني فاقتربت منها، ولكنها لم تنظر إليَّ، وأضافت: «آه، لو أنكِ عرفت يا حبيبتي أي عذاب قاسيت، وكم أنا

سعيدة بحضوركِ!» وحينئذ فهمت أنها تخيلت رؤية أمي، فتوقفت. ثم تابعت حديثها وقد تقطب وجهها: «يا للعبث! أيمكن أن تموتي قبلي؟» ثم ضحكت ضحكةً هستيريةً مخيفةً.

إن الناس الذين يستطيعون أن يحبوا حبًّا عميقًا، هم وحدهم الذين يستطيعون معاناة الحزن العظيم، ومع ذلك فإن نفس هذه الحاجة إلى الحب، تساعد على مقاومة حزنهم وإبرائهم. ولهذا السبب تكون طبيعة الإنسان الأخلاقية أشد تماسكًا من طبيعته الجثمانية، والحزن لا يقتل أبدًا.

وبعد انقضاء أسبوع استطاعت جدتي أن تبكي، وتحسنت حالتها، وكنا نحن أول من فكرت فيهم عند عودتها إلى حواسها، وازداد حبها لنا، ولم تفارق مقعدها ذا المسندين قط، وكانت تبكي بهدوء، وتتحدث عن أمنا، وتدللنا بحنان.

لم يكن يدور بخلد أحد ينظر إلى جدتي، أن حزنها مبالغ فيه، وكانت التغييرات عن ذلك الحزن ذات تأثير عميق، ومع ذلك لا أعرف لماذا كنت أكثر تعاطفًا مع ناتاليا سافشنا، ولا أزال حتى اليوم مقتنعًا بأن أحدًا لم يحب والدتي ويحزن عليها بصفاء وإخلاص كما فعلت هذه المخلوقة البسيطة الودود.

انتهت أيام طفولتي السعيدة بموت أمي، وبدأ عهد جديد –عهد الصبا– ولكن لما كانت ذكرياتي عن ناتاليا سافشنا، التي لم أرها قط بعد ذلك، والتي تركت مثل هذا الأثر القوي الخير على سيري في الحياة ونمو مشاعري، إنما تنتمي إلى العهد الأول، فسأقول عبارات أخرى قليلةً عنها وعن موتها.

بعد رحيلنا، كما قيل لنا فيما بعد، بقيت هي في الريف، ووجدت أن الوقت يمضي متثاقلًا بين يديها لعدم وجود ما يشغلها. وبالرغم من أن خزانات الملابس كانت في عهدتها، وأنها لم تنقطع عن تقليب محتوياتها، تعلق أشياء ثم تعود فتخزنها، فإنها مع ذلك فقدت ضوضاء وجود سيدها بالمنزل وضجيجه لأنها كانت قد اعتادت ذلك منذ الطفولة، فالحزن، وتغير نمط حياتها وفقدانها مسئولياتها سرعان ما أظهرت علةً قديمةً طالما تاقت إليها نفسها، فبعد مضي عام واحد على موت أمي، أصيبت بمرض الاستسقاء، وعكفت على فراشها.

لقد كان من الصعب على ناتاليا سافشنا فيما أظن، أن تواصل العيش -وأصعب من ذلك- أن تموت وحيدةً في بيت خاوٍ في بتروفسكوي، من دون أقارب أو أصدقاء. إن كل شخص في البيت قد أحب ناتاليا سافشنا واحترمها، ولكنها لم تعقد صداقات، وكانت فخورةً بذلك، إذا اعتبرت أن عقد صداقة مع شخص، بالنسبة لمركزها كمدبرة شئون البيت، وتتمتع بثقة سيدها، وفي عهدتها كثير جدًّا من الصناديق الملأى بجميع صنوف المتاع، سيؤدي حتمًا إلى المحاباة والتلطف الخاطئ. ولهذا السبب وربما لأنه ليس لديها ما يربطها بالخدم الآخرين، اعتزلت الجميع، وقالت إنها ليس لديها أقارب ولا خلان بالمنزل، فلم تسمح بأي استثناء فيما يتصل بمتاع سيدها.

ولقد بحثت ووجدت العزاء في أن تسلم شعورها لله في صلاتها الحارة، ومع ذلك ففي بعض الأحيان، في لحظات الضعف تلك التي نتعرض لها جميعًا، حين يجد الإنسان خير عزاء له في الدموع، وفي

العطف على كائن حي، فكانت تضع كلبها الصغير في فراشها (كان يلعق يدها، ويثبت عليها عينيه الصفراوين) وتتحدث إليه وتبكي في رقة وهي تدلله، وعندما كان الكلب الصغير يأخذ في العواء حزينًا تحاول تهدئته وتقول له: «كفى، كفى! إنني أعرف دون أن تخبرني، إن نهايتي قد حانت».

وقبل شهر من موتها، أخرجت من صندوقها قماشًا أبيض «بفتة» وآخر من الموصلين، وأشرطةً وردية اللون، وصنعت لنفسها بمساعدة خادمتها ثوبًا أبيض، وغطاء للرأس، ورتبت كل شيء ضروري لدفنها حتى أقل التفاصيل الصغيرة. ونسقت كذلك صناديق سيدها وكتبت قائمةً بمحتويات، وعهدت بها إلى رئيس الخدم، وكان كل ما احتفظت به ثوبان من الحرير، و «شال» قديم كانت جدتي قد أعطتها إياه في وقت ما، وحلة جدي العسكرية الرسمية التي كان قد أعطاها إياها أيضًا، وبفضل عنايتها ظل تطريز الحلة وشريطها الذهبي ناضرين كل النضر، ولم تمس «العتة» قماش الحلة.

وأعلنت قبل موتها عن رغبتها في أن أحد الثوبين، ذا اللون الوردي ينبغي أن يُعطى لفولوديا؛ ليصنع منه عباءة لحجرة النوم أو سترة، أما الرداء الآخر البني ذو المربعات فيُعطى لي لنفس الغرض، ويُعطى الشال لليوبتشكا، وأورثت الحلة لأي منا يصبح ضابطًا قبل الآخر، أما بقية متاعها ونقودها فقد تركتها لأخيها، باستثناء أربعين روبل وضعتها جانبًا لجنازتها وللقداس، وكان أخوها الذي حصل على حريته قبل ذلك بوقت طويل، يحيا حياةً داعرةً للغاية بإقليم بعيد، ومن ثمَّ لم يكن لها في أثناء حياتها أي اتصال به.

وعندما قدم أخو ناتاليا سافشنا للحصول على ميراثه، وتبين أن كل ما تملكه المتوفاة يتكون من خمسة وعشرين روبل من الأوراق المالية لم يصدق، وقال إن امرأةً عجوزًا عاشت ستين عامًا في أسرة غنية، وكان عليها وحدها حراسة المنزل، وكانت تعيش دائمًا عيشة التقتير، وتغضب لكل كسرة، لا يمكن أن تموت من غير أن تترك شيئًا، ولكن هذه كانت حقيقة الحال.

قاست ناتاليا سافشنا من علتها طوال شهرين، وتحملت الألم بصبر مسيحي حقيقي، فلم تتذمر أو تشك، ولكنها كانت تصلي دون انقطاع، جريًا على عادتها. وقبل أن توافيها منيتها بساعة واحدة، اعترفت، وتقبلت السر الأخير والمسحة الأخيرة بابتهاج هادئ.

والتمست من جميع خدم المنزل أن يغفروا لها أي أذى قد تكون ألحقته بهم، وناشدت كاهنها الأب فاسيلي أن يخبرنا جميعًا أنها لم تعرف كيف تعبر عن شكرها لنا عن كل إشفاقنا عليها، وتوسلت إلينا أن نغفر لها إن كانت قد آلمتنا عن غفلة منها، «ولكن لم أسرق أبدًا، وأستطيع القول بأنني لم أخدع سادتي مطلقًا مثقال ذرة». وكانت هذه هي الصفة الوحيدة التي تقدرها في نفسها.

وأُلبست الدثار وغطاء الرأس اللذين كانت قد أعدتهما، وأسندت إلى الوسائد ولم تكف عن الحديث مع الكاهن حتى لحظة موتها. وتذكرت أنها لم تترك شيئًا للفقراء، فأعطته عشرة روبلات، طلبت إليه أن يوزعها في الأبرشية[1]، ورسمت علامة الصليب، واضطجعت، ثم

(١) دائرة الكنيسة.

تنهدت للمرة الأخيرة، ونطقت باسم الله في نغمة سارة.

وفارقت الحياة غير آسفة، ولم تخش الموت، بل تقبلته بوصفه نعمةً. إن هذا ليقال كثيرًا، ولكن قلما يكون قولًا صادقًا! فناتاليا سافشنا لم تخش الموت؛ لأنها ماتت ثابتة الإيمان منفذةً لقانون الأناجيل، وكانت حياتها برمتها طهرًا وحبًّا غير أناني، وتضحيةً بالذات.

وماذا يهم لو كان اعتقادها أسمى، ولو كانت حياتها مكرسةً لأغراض أرقى؟ أيمكن أن تكون هذه الروح الطاهرة أقل استحقاقًا للحب والاحترام على ذلك الاعتبار؟

لقد أنجزت أحسن عمل وأعظمه في هذه الحياة، ماتت دون أسف أو خوف. ودفنت وفقًا لرغبتها، غير بعيد عن المصلى القائم فوق قبر أمي، وتزايد نمو حشيشة القريض والأرقطيون[1] فوق الرابية التي ترقد تحتها، ويحيط بها سياج من الحديد الأسود، ولم أنس مطلقًا الذهاب من المصلى إلى ذلك السياج والانحناء في تبجيل على الأرض. وأحيانًا أتريث في منتصف الطريق بين المصلى والسور الحديدي، وتقفز إلى ذهني ذكريات مؤلمة، والفكرة التي تساورني هي: هل ربطتني العناية الإلهية بهاتين المخلوقتين لمجرد أن تجعلني أحزن عليهما إلى الأبد؟

* * *

(١) من النباتات الشائكة.

الصبا

(٢٩)

رحلة بلا محطات

وللمرة الثانية قدمت إلى سقيفة بيت بتروفسكوي عربتان، إحداهما كبيرة تجلس فيها ميمي وكاتنكا وليوبتشكا والخادمة، ومعهن كاتينا ياكوف، على كرسي الحوذي، والأخرى صغيرة (برتشكا) يسافر بها فولوديا وأنا مع الخادم فاسيلي الذي كان قد أعيد أخيرًا إلى الخدمة بالأجر.

ويقف بابا الذي كان سيلحق بنا في موسكو بعد أيام قلائل، عاري الرأس تحت السقيفة يرسم علامة الصلب على نافذة العربة والبرتشكا.

«فليكن المسيح معكم! سافروا على بركة الله!»، ويخلع ياكوف والحوذي قبعتهما (كنا مسافرين في عربتنا الخاصة)، ويرسمان شارة الصليب ويقولان: «فليكن الله معنا! ويستحثان الخيل على المسير.. (شي.. شي..).

وتأخذ العربة والبرتشكا في التأرجح على الطريق الوعر، وتمر بنا أشجار البتولا مسرعةً على طول طريق المركبات الكبير، الواحدة في أثر الأخرى. لم أكن حزينًا ألبتة. ولم أكن أرى بعيني عقلي ما إنا تارك، بل

ما ينتظرني. ولما كانت الأشياء المرتبطة بالذكريات المؤلمة التي ملأت رأسي حتى هذه اللحظة تتراجع بمضي الزمن، فإن هذه الذكريات تفقد قوتها، وتخلي المكان للشعور اللذيذ بأن الحياة مليئة بالقوة والجدة والأمل.

فلما قضيت أيامًا -لا أكاد أقول بالغة المرح، لأنني كنت لا أزال محزون القلب نوعًا ما بفكرة أنني استسلمت للمرح- ولكنني كنت كثير الرضا والسرور أثناء الأيام الأربعة التي استغرقتها الرحلة.

لن ترى عيناي بعد الآن باب غرفة أمي المغلق، الذي لم أكن أمر به دون أن تنتابني رعدة، ولا «البيانو» المغلق الذي لم يجسر أحد أن يتطلع إليه، فضلًا عن فتحه، دون أن ينتابه نوع من الخوف، ولا ملابس الحداد (كنا جميعًا نرتدي ملابس السفر البسيطة)، ولا أي شيء من هذا كله الذي يذكرني بقوة بخسارتي التي لا تعوض، والتي تدفعني إلى النكوص عن أي مظهر من مظاهر الحياة؛ خشية أن أسيء إلى ذكراها بوجه من الوجوه. وهنا من ناحية أخرى أماكن جديدة بهيجة المنظر، وأشياء تجتذب انتباهي وتستوقفه، وتوقظ في نفسي طبيعة الربيع إحساسًا بالطرب والرضا بالحضار، والأمل المزدهر في المستقبل.

وفي وقت مبكر من الصباح، مبكر جدًّا، يسحب فاسيلي الذي لا يرحم الغطاء، وكان شديد التحمس كما يفعل دائمًا أولئك الناس الذين يوضعون في مناصب جديدة، ويعلن أن وقت السفر قد أزف وإن كل شيء على أهبة الاستعداد. ويمكنك أن تستريح أو تثور أو تناضل كما تشاء؛ لكي تؤجل هجمة الصباح اللذيذة حتى لمدة ربع ساعة، ولكنك

ترى في وجه فاسيلي المصمم أنه لا يلين، وأنه مستعد لسحب الغطاء عشرين مرةً، ولذلك فإنك تقفز وتجري إلى الفناء لتغتسل.

إن الغلاية تغلي في حجرة الانتظار، ويقوم «ميتكا» خادم العربة بالنفخ فيها حتى أصبحت حمراء مثل جراد البحر. إن الجو رطب كثير الضباب في الخارج، كأن البخار يتصاعد من كومة روث دخنة، وتشع الشمس المبكرة ضوءًا لامعًا مفرحًا فوق الأفق الشرقي، وفوق أسطح الزرائب الفسيحة المصنوعة من الغاب المحيطة بالساحة المتألقة بالندى، يمكن أن نرى من تحتها جيادنا مربوطة إلى مزاودها، وتسمع صوت عضعضة لجامها المعتادة.

ويتمطى كلب أشعث أسود كان قد تكوم قبل الفجر فوق ربوة من السباخ الجافة متكاسلًا، ثم يجتاز الفناء ركضًا، ويهز طوال الوقت ذنبه، وتفتح ربة البيت في ضجة الأبواب ذات الصرير، وتسوق الأبقار الساهمة إلى الشارع الذي تأتي منه الآن قطعان الماشية الجوابة بخوارها وثغائها، ثم تتبادل كلمةً أو كلمتين مع جارتها النائمة، ويسحب فيليب وقد طوى كمي قميصه، الدلو الذي يترشش منها الماء اللامع، من البئر العميقة، فيسكبها في البرميل السندياني الذي يكون البط في البركة من حوله يغطس غطسة الصباح.

وأتطلع في سرور إلى وجه فيليب الجميل، وإلى لحيته الكثة، وإلى أوتار عضلاته السميكة التي تنفر على ذراعيه العاريتين القويتين كلما بذل أي جهد.

وتأتي أصوات الحركة من وراء الجدار الفاصل، حيث تنام ميمي

والفتيات، والذي كنا نتجاذب عبره أطراف الحديث في المساء. وتظل خادمتهن «ماشا» تدخل وتخرج بمختلف الأشياء التي تحاول إخفاءها بثوبها عن فضولنا. وأخيرًا تفتح الباب، وتدعونا لشرب الشاي.

ويأخذ فاسيلي في الجري بحماسته الفائقة إلى داخل الحجرة يحمل شيئًا واحدًا في أول الأمر، ثم شيئًا آخر وهو يغمز لنا، ويبذل قصارى جهده لإغراء ماريا إيفانوفنا بالرحيل مبكرين ما وسعنا ذلك. فالخيول مسرجة، وهي تعلن عن نفاد صبرها الفينة بعد الفينة، وذلك بشخشخة أجراسها، وتحزم الحقائب والصناديق وعلب الملابس مرةً أخرى، ونأخذ أماكننا. ولكنا نجد في كل مرة جبلًا من أمتعتنا بدلًا من المقاعد في داخل العربة (البرتشكا) بحيث يتعذر معرفة الطريقة التي رتبت بها في اليوم السابق، ولا كيف سنجلس الآن. وقد أثار غضبي بخاصة وجود صندوق شاي من خشب الجوز ذي غطاء مثلث الزوايا وضع تحتي في البرتشكا. ولكن فاسيلي يقول إنها ستستقر، فأصدقه كارهًا.

وأشرقت الشمس لتوها فوق السحب البيضاء المتراكمة التي تغشى الشرق -وأضاءت جميع جنبات الريف من حولنا بنور هادئ مبهج. كل شيء حولي جميل، وأنا هادئ خالي البال. وكان الطريق يتعرج من أمامنا فسيحًا غير محدود بين حقول أعقاب الحنطة الجافة، والحشيش الأخضر المتلألئ بالندى. وكنا نمر، هنا وهنالك، على جانب الطريق بأشجار الصفصاف المقبضة أو إحدى أشجار البتولا الصغيرة ذات الأوراق الغضة تنشر ظلها الطويل الساكن على الأخاديد الصلصالية الجافة، وحشائش الطريق العام القصيرة الخضراء، ولا تطغى أصوات العجلات

والأجراس الرتيبة على شدو القنابر المحومة بالقرب من الطريق. وتضيع رائحة القماش المعثوث، والتراب، ورائحة حريفة معينة علقت بعربتنا، إزاء أريج الصباح، وأشعر بضيق مفرح في نفسي، رغبةً في عمل شيء ما، وهو دلالة على الاستمتاع الحقيقي.

لم أستطع تلاوة صلواتي في محطة البريد، ولكن لما كانت قد لاحظت أكثر من مرة أن المصائب تحل بي في اليوم الذي أنسى فيه أداء هذه الشعيرة الدينية لسبب أو لآخر، فإنني أحاول إصلاح هذا الإهمال، فأخلع قبعتي وأتحول إلى ركن من البرتشكا، فأتلو صلاتي، وأرسم علامة الصليب من تحت سترتي حتى لا يراني أحد، ومع ذلك آلاف الأشياء تصرف انتباهي، فأعيد نفس عبارات الصلاة عدة مرات، وأنا شارد الذهن.

وعلى ممر المشاة الذي يتعرج بجانب الطريق يتحرك لى مدى البصر في بطء بعض الأشخاص: إنهم حجاج، رؤوسهم مغطاة بمناديل مغبرة، وعلى ظهورهم أكياس من لحاء شجر البتولا، وأقدامهم بلفافات من أسمال بالية، وينتعلون أحذيةً ثقيلةً من ألياف النبات، ويلوحون بعصيهم في حركة متوافقة، وقلما ينظرون إلينا، يسيرون مكدودين في بطء صفًّا مفردًا. وتساءلت مندهشًا عن المكان الذي يقصدونه ولماذا؟ وهل ستستغرق رحلتهم وقتًا طويلًا؟ وهل ستتحدد وشيكًا ظلالهم النحيلة التي يلقونها على الطريق مع ظل شجرة الصفصاف المُلقى على طريقهم؟ وهنا عربة بريد ذات أربعة جياد تأتي مسرعةً فتقابلنا، وبعد ثانيتين أخريين كانت الوجوه التي تتطلع إلينا بابتسامة الفضول على مدى ذراع واحدة قد مرقت مارةً بنا كالبرق، ويبدو من المستبعد أن تكون هذه الوجوه، وجوه

أناس غرباء تمامًا، وأنه من المحتمل ألا تقع عليهم عيناي ألبتة مرةً أخرى.

ثم يأتي بعد ذلك جوادان مشعثان يتقطران عرقًا يعدوان على جانب الطريق في شكيمتيهما، وقد ربط الخطامان بالطوق الخلفي، بينما يركب في المؤخرة صبي البريد ينشد ببطء أغنيةً مقبضةً، وقد أمال قبعته المصنوعة من صوف الغنم على أحد الجانبين، ويتدلى ساقاه في حذائه الضخم على جانبي حصان ذي قوس (دوجًا)[١] وأجراس تصلصل بصوت خافت بين حين وآخر، يعبر وجهه وهيئته عن الكثير من الكسل والإهمال والقناعة، حتى ليبدو لي أن غاية السعادة أن يكون المرء صبي بريد يركب الجياد ويعودإلى بيته وهو يغني أغنيات حزينةً. وهنالك فيما وراء الوادي الضيق بمسافات طويلة، توجد كنيسة قروية بسقفها الأخضر متميزة من السماء المشرقة الزرقاء، وهنالك مزرعة، وبيت سيد ذو سقف أحمر وحديقة خضراء.. من يسكن هذا البيت؟ هل فيه أطفال وأب وأم ومدرس خاص؟ لماذا لا نسير إليه ونتعرف بصاحبه؟ وهنا صف طويل من عربات البضاعة الثقيلة مشدودة إلى عربات من نوع الترويكا التي تجرها جياد جيدة التغذية ضخمة السيقان، فاضطررنا إلى الابتعاد عن الطريق لكي نمر. ويستفسر فاسيلي من أول سائق من سائقي عربات النقل: «ماذا تحملون؟»، وكان يدلي قدميه الكبيرتين من على اللوح الذي يكون مقعده، ويرمقنا بنظرة طويلة خاوية، ويلوح بسوطه، ويجيب بنوع من الإجابة عندما يبتعد عنا بمسافة أطول يتعذر معها سماعه. ويسأل

---

(١) قوس فوق الحصان الأوسط الذي يجر العربة (الترويكا)، أو ثلاثة خيول مشدودة بعدتها جنبًا إلى جنب.

فاسيلي وهو يلتفت إلى مجموعة أخرى: «ما نوع حمولتكم؟»، وكان يضطجع على سياجها الأمامي سائق آخر تحت حصيرة جديدة من القش، فيبرز رأس أشقر ذو وجه متورد ولحية حمراء برهة من تحت الحصيرة، ثم يختفي ثانيةً، وخطرت لي فكرة أن هؤلاء السائقين لا يستطيعون أن يعرفوا بالتأكيد من نحن، ولا المكان الذي نقصده.

واستغرقت في ملاحظاتي المختلفة حتى إنني في مدى ساعة ونصف ساعة لم ألاحظ الأرقام المعوجة المكتوبة على أعمدة المسافات. ولكن الشمس تبدأ تحرق رأسي وظهري، وتصبح الطرق متربةً، ويأخذ رصاص صندوق الشاي المثلث يزعجني إزعاجًا شديدًا، فأغير مكاني مرات عدةً. ويبدأ شعوري بالحر وقلة الراحة والضجر، ويتجه كل اهتمامي إلى أعمدة الفراسخ والأرقام التي تحملها، وأقوم بعمل إحصاءات حسابية عن الوقت الذي سنقضيه للوصول إلى المرحلة التالية.

«إن اثني عشر فرسخًا معناها ثلث الستة والثلاثين فرسخًا، وإن واحدًا وأربعين حتى ليتنز، وإذن فقد قطعنا ثلث الطريق وأكثر قليلًا؟» وهكذا.

وألاحظ أن فاسيلي أخذ في تنكيس رأسه فأقول: «فاسيلي، دعني أجلس في مقعد القيادة، إنه لشيء محبوب». ويوافق فاسيلي، ونتبادل مكانينا، ثم يأخذ مباشرةً في الغطيط والتمدد بحيث لم يترك مكانًا لأي شخص في البرتشكا. وتظهر أمامي، من مجثمي الجديد أروع صورة – جيادنا الأربعة نيروتشنسكايا، ودياكون، ولييفايا، وهو حصان «العريش»، وأبوثيكاري. وجميعها أعرفها جد المعرفة، حتى أصغر تفاصيلها وتفاوت صفات كل منها.

وأستفسر في شيء من الخجل: «لماذا يوضع دياكون اليوم من الجانب القريب بدلًا من الجانب البعيد يا فيليب؟».

«دياكون؟».

فأقول: «ونيروتشنسكايا لا يجر شيئًا ألبتة».

ويقول فيليب دون أن يعير ملاحظتي الأخيرة أي التفات: «إنك لا تستطيع أن تشد دياكون على الجانب البعيد، إنه ليس من النوع الذي يصلح لهذا -إنك بحاجة إلى حصان من النوع الذي... حسن.. حصان حقيقي، وليس دياكون من ذلك النوع».

وعند هذه الكلمات يميل فيليب إلى اليمين، ويجذب الأعنة بكل قوته، ويأخذ في ضرب دياكون بالسوط، على ذيله وأرجله بطريقة خاصة من أسفل، وبالرغم من أن دياكون يشد كل عضلة بحيث كانت البرتشكا تميل، فإن فيليب لا يتخلى عن خطته حتى يشعر بحاجته إلى الراحة، وإلى إمالة قبعته جانبًا، بالرغم من إنها كانت متوازنةً ثابتةً على رأسه من قبل، وأستفيد من هذه الفرصة المواتية، فالتمس من فيليب أن يسمح لي بالقيادة فيعطيني فيليب أولًا عنانًا واحدًا، ثم يعطيني عنانًا آخر، ثم تنتقل إلى يدي آخر الأمر الأعنة الستة والسوط، وأشعر بغاية السرور. وأحاول تقليد فيليب في كل صغيرة، وأسأله عما إذا كنت أحسن التصرف، ولكنه يبدو غير راض بوجه عام، ويقول إن حصانًا يتحمل عبئًا أكبر في الجر، وإن آخر لا يجر مطلقًا، ثم ينحني ويتناول الأعنة مني. وتشتد الحرارة شيئًا فشيئًا، وتأخذ السحب الشبيهة بصوف الغنم تنتفخ، وترتفع كفقاقيع الصابون، وتندمج وتتخذ لونًا رماديًّا قاتمًا. وتظهر من نافذة العربة يد

ممسكة بزجاجة وحزمة صغيرة، فيقفز فاسيلي من كرسي القيادة بمرونة مدهشة بينما نتحرك نحن، ويحضر لنا قليلًا من كعك الجبن وجعة الجويدار[١].

ونهبط جميعًا من العربات عند انحدار حاد، ونركض إلى القنطرة بينما يضع فاسيلي وياكوف الدعامات ويسندان العربة من جانبيها بأيديهما كما لو كانا يرفعانها في حالة تعطلها. وبإذنٍ من «ميمي» يركب فولوديا أو أنا في العربة، وليوبتشكا أو كاتنكا تأخذ ما كان في البرتشكا. وتهيئ هذه التغيرات سرورًا كبيرًا للفتيات؛ لأن ركوب البرتشكا، كما ظنن بحق، أدعى إلى الطرب. وعندما يشتد الحر أحيانًا ونحن نجتاز الغابة، نتمهل خلف العربة ونقطع الأغصان الخضراء، ونبني تعريشةً في البرتشكا. وتفاجأ العربة بهذه التعريشة المتحركة، وتصفر ليوبتشكا صفيرًا حادًّا إلى أقصى حد، لا تنسى ألبتة أن تفعله في كل مناسبة؛ لأنه يمنحها السرور.

ولكن هذه هي القرية التي سنتناول فيها غداءنا ونستريح.. لقد شممنا رائحة القرية من قبل، ورائحة الدخان والقطران والخبيز، وسمعنا ضجة الأصوات ووقع الأقدام والعجلات. ولم تعد ترن أجراس الخيل كما كانت تفعل في الحقول المكشوفة، ونمر على الجانب الآخر بأكواخ ذات أسقف من القش، وطنف مصنوعة من شرائح خشبية، ونوافذ صغيرة ذات مصاريع حمراء وخضراء يلوح من بينها وجه امرأة فضولية؛ وصغار الصبيان والفتيات من الفلاحين لا يرتدون غير القمصان، أعينهم محملقة وأيديهم ممدودة في دهشة، يقفون مسمرين في أماكنهم أو يلتمسون

(١) نوع من الجعة الروسية، وتُسمَّى كفاس. (المترجم).

طريقهم برشاقة، بين التراب بأقدام حافية، يحاولون التسلق على الصناديق خلف العربات بالرغم من تهديد فيليب لهم بالإشارات. ويسرع أصحاب الحانات ذوو الشعر البرتقالي إلى العربات من كل ناحية. يحاول كل منهم اجتذاب المسافرين من الآخر بالكلمات والإشارات المغرية، ثم نتوقف! ويسمع صرير الباب وتربط عارضة العربة بقوائم الباب، ثم ندلف إلى الفناء لننعم بالراحة والحرية أربع ساعات.

❊ ❊ ❊

(٣٠)

العاصفة الرعدية

تنحدر الشمس نحو الغرب، وتلفح عنقي ووجنتي بأشعتها الحامية المائلة غير المحتملة، فكان من المحال أن تلمس جوانب البرتشكا اللاسعة، وثار تراب كثيف فوق الطريق وملأ الهواء. ولم يكن هناك هبة نسيم تحملها بعيدًا عنا، وكان هيكل العربة الطويل المعفر بالتراب يتمايل بانتظام محتفظًا على الدوام بنفس المسافة أمامنا؛ وكنا نلمح السوط بأعلى العربة أحيانًا حين يلوح به السائق وقبعته وقبعة ياكوف. ولم أعرف ماذا أفعل بنفسي، فلا وجه فولوديا الذي اسود من العفار، وقد أغفى بجانبي، ولا حركات ظهر فيليب ولا ظل البرتشكا الطويل المائل التي تتابعنا في قوة واندفاع، لا شيء من هذا استطاع أن يمنحني أي تسلية. كان كل انتباهي مركزًا على أعمدة المسافات التي أراقبها عن بعد، وعلى السحب التي كانت من قبل متناثرة على صفحة السماء، وهي الآن تتجمع في كتلة واحدة داكنة متوعدة. وكان الرعد البعيد يهدر بين وقت وآخر، وضاعف هذا الحادث الأخير -أكثر من أي حادث آخر- من تعجلي للوصول إلى محطة البريد. وأوحت إليَّ العواصف المرعدة بشعور من الضجر والخوف والحزن يجل عن الوصف.

كان لا يزال بيننا وبين أقرب قرية إلينا عشرة فراسخ، ولكن السحابة الضخمة الأرجوانية القاتمة التي ظهرت من حيث لا أدري، تتحرك بسرعة فوقنا، مع أنه لم تكن هناك هبة نسيم، وكانت الشمس التي لم تتوار بعد وراء السحب تضيء بنورها الباهر كتلتها المعتمة، والخطوط الرمادية الممتدة منها إلى قلب الأفق. وكان البرق يومض من بعيد بين حين وآخر. وتسمع قعقعةً خافتةً ترتفع رويدًا رويدًا كلما اقتربت. ثم تغرق في هزيم متقطع يشمل السماء. وصعد فاسيلي فوق كرسي الحوذي، ونشر غطاء البرتشكا. وارتدى الحوذية معاطفهم الفضفاضة، وكانوا ينزعون قبعاتهم عند كل قرقعة، ويرسمون شارة الصليب. وأرهفت الجياد آذانها، ونفخت خياشيمها، كما لو كانت تشم الهواء النقي الذي كان يهب من السحابة المرعدة المقتربة. وأسرعت البرتشكا بالمسير على الطريق المتربة، وشملني شعور بعدم الاكتراث؛ فقد كنت أحس الدم ينبض بقوة في عروقي. وللحال حجبت السحب الأولى قرص الشمس. ولآخر مرة تبزغ وتلقي بآخر شعاع من الضوء على الأفق الغاضب، ثم تختفي. وتحول المنظر الطبيعي برمته فجأةً واتخذ طابعًا كئيبًا. واهتزت شجيرات الحور، واصطبغت الأوراق بلون رمادي، فبرزت بوضوح إزاء السحابة الأرجوانية -وخشخشت واضطربت وتأرجحت أعالي أشجار البتولا العالية، ودومت خصل الحشيش الجافة مسرعةً عبر الطريق، وجاءت طيور السنونو الرشيقة ذات الصدور البيضاء تحوم حول البرتشكا، وتنقض إلى ما تحت صدور الخيل كأنها أرادت وقفنا. وطارت في الهواء غربان الحقول تخفق بأجنحتها من الجانبين. ورفرفت حواف

الغطاء الجلدي الذي ثبتناه فوقنا. وسمح بدخول الريح الرطبة، فصفقت وضربت جسم العربة. وخيل إليَّ كأن البرق يومض في البرتشكا نفسها فيبهر أعيننا، يضيء لحظة القماش الرمادي بحاشيته المجدولة ووجه فولوديا، الرابض في الزاوية. وفي نفس اللحظة دوت فوق رؤوسنا مباشرة دمدمة هائلة. وخيل إليَّ إنها تعلو وتعلو، وتتسع وتتسع إلى ما لا نهاية. في حلزون عظيم يتزايد شيئًا فشيئًا حتى انفجر في دمدمة تصم الآذان. بعثت فينا رعدة اضطرتنا إلى حبس أنفاسنا. إنه غضب الله!! وكم في ذلك التصور المألوف من شاعرية.

وتدور العجلات أسرع وأسرع. ثم أدرك من ظهر فاسيلي، وظهر فيليب الذي كان دائم التلويح بأعنته، أنهما هما أيضًا خائفان. وتنحدر البرتشكا مسرعةً من على التل، وترتطم مدويةً بالقنطرة الخشبية، فلا أجرؤ على الحركة، متوقعًا في رعب أن الدمار سيحل بنا جميعًا في أي لحظة.

«قف! إن جرَّار العربة مكسور». ونضطر إلى التوقف عند القنطرة رغم قرقعة الرعد المستمرة التي تصم الآذان.

وأميل برأسي عند جنب البرتشكا، وأحبس أنفاسي. ويتملك اليأس قلبي حين أشاهد حركات أصابع فيليب السمينة السوداء، فهو يربط عقدةً في بطء ويقوي الجرارات، ويضرب جنب الحصان براحة يده وبمقبض السوط.

وازدادت مشاعري المكروبة حزنًا ورعبًا كلما ازدادت العاصفة قوةً. ولكن عندما حل الصمت العظيم الذي يسبق عادةً هدير الرعد، بلغت تلك المشاعر حدًّا من الشدة، بحيث اقتنعت بأنه لو طال الموقف ربع

ساعة لقتلني الهياج. وظهر في تلك اللحظة من تحت القنطرة شكل رجل يرتدي قميصًا قذرًا مهلهلًا، وجهه منتفخ فاقد الشعور، ورأسه عار حليق متأرجح، وساقاه عاطلان من الأعصاب، وفي مكان اليد بقية من يد حمراء لامعة دفعها إلى داخل البرتشكا.

وقال الشحاذ في صوت مرتجف وهو يرسم شارة الصليب عند كل كلمة ثم ينحني بشدة: «في محبة المسيح، ساعدوا كسيحًا!».

لا أستطيع وصف الرعب الذي اقشعرت له روحي في تلك اللحظة، وسرت في شعري رجفة، وتسمرت عيناي على الشحاذ في خوف مذهل.

وكان فاسيلي الذي شمل الرحلة بحسناته، يعطي فيليب التعليمات في كيفية تقوية الجرار. ولم يبدأ فيليب في تحسس جيبه الجانبي إلا عندما أعد كل شيء وجمع في يده الأعنة وصعد إلى كرسي القيادة، ولكن ما إن بدأنا المسير ثانية، حتى أضاء برق يبهر الأعين، وغمر كل الوادي برهةً بلمعانه الحاد فأدى إلى توقف الخيل، وكان مصحوبًا برعد هادر يصم الآذان دون أقل انقطاع حتى خيل إليَّ كأن قبة السماء برمتها ستتحطم على رؤوسنا، وأصبحت الرياح أعنف من ذي قبل، وأخذت أعراف الخيل وذيولها وعباءة فاسيلي وأطراف غطاء العربة، كل هذه تصفق بشدة في نفس الاتجاه تحت قصفات الريح الغاضبة الهوجاء. وسقط سيل غزير من المطر فوق غطاء البرتشكا الجلدي، ثم هطل سيل آخر وثالث ورابع. وسرعان ما أمطرتنا كما تضرب الطبل، ورددت كل أنحاء الصقع نقرات هطول المطر المطردة، ولاحظت من حركة كوع فاسيلي إنه يفك كيس نقوده، وكان الشحاذ لا يزال يرسم شارة الصليب وينحني وهو يجري

بالقرب من العجلة حتى خيل إليَّ أنه سيتهشم «محبة في المسيح!»، وأخيرًا طارت قطعة نقد نحاسية مارةً بنا، وتوقف المخلوق التعس مترددًا يتأرجح في الريح، والتصق قميصه الذي بلله المطر بأطرافه المقوسة، ثم اختفى عن أنظارنا.

كانت الأمطار المنحدرة مدفوعةً بالرياح العاتية تتدفق كالسيل الجارف وتتقاطر مسايل الماء من معطف فاسيلي الخشن إلى بركة الماء القذر الموحلة التي تجمعت على غطاء العربة. والتراب الذي كان من قبل في شكل حبات، أصبح الآن وحلًا سائلًا ترشه العجلات. وأصبحت الهزات أقل من ذي قبل، وتدفقت الجداول الكدرة في الأخاديد، وأصبحت ومضات البرق أوسع مدى وأكثر شحوبًا، ولم تعد قرقعة الرعد مفزعةً إلى حد كبير فوق نقرات المطر.

ولم يعد المطر يهطل بغزارة، وبدأت السحابة الراعدة تتوزع وسطع الضوء في المكان الذي يجب أن تكون فيه الشمس، وكادت تظهر فرجة من اللون الأزرق الصافي من خلال أطراف السحابة الشهباء. وبعد برهة سطع شعاع خجول من ضوء الشمس في البرك التي على الطريق، وفي مسايل المطر الرفيعة المستقيمة كأنها سقطت من ثقوب غربال، وفوق الحشائش على جانب الطريق بخضرتها التي اغتسلت لتوها.

ولم تكن السحابة السوداء المرعدة الممتدة على الجانب المقابل من الأفق أقل وعيدًا بالشؤم، ولكني لم أعد أخافها، وشملني شعور سار بالأمل في الحياة يقصر عنه الوصف، بدد شعوري الطاغي بالخوف. وابتسمت روحي كابتسام الطبيعة وتجددت وانتعشت.

وأرخى فاسيلي بنيقة معطفه، وخلع قبعته ونفضها، وألقى فولوديا العباءة، وأطللت أنا خارج البرتشكا وعببت في لهفة من الهواء النقي العطر. وتسير البرتشكا أمامنا قدمًا بجسمها اللامع المغسول وعارضتها المتقاطعة وصناديق الملابس وكانت ظهور الجياد وحبال الربط وأعنة الجياد، وإطارات العجلات كلها مبللةً تلمع في ضوء الشمس، كأنها مغطاة بدهان البلك. وعلى أحد جانبي الطريق حقل حنطة شتوية لا يحده البصر، تشوبه هنا وهنالك أخاديد ضحضاحة تلمع مع الأرض الندية والخضرة النضرة. كأنها بساط متباين الألوان ممدود إلى صميم الأفق. وعلى الجانب الآخر من الطريق غيضة من أشجار الحور، مع شجيرات البندق والكرز البري تقف ثابتةً، كأنها تائهة في السعادة، تنفض في بطء قطرات المطر اللامعة من أغصانها التي غسلتها العاصفة فوق أوراق السنة الماضية الجافة. وتحلق القنابر ذات الشواشي في كافة الأنحاء، مغردةً في مرح ثم تعود فتهبط مسرعةً، بينما تصدر من الأدغال الرطبة ضوضاء صغار الطيور، ويرن تغريد الوقوف صافيًا من صميم الغابة. وبلغ من سحر أريج الغابة بعد هذه العاصفة الربيعية –رائحة شجر البتولا– وأزهار البنفسج والأوراق الميتة، وعيش الغراب، والكرز البري. إنني لم أقوَ على الجلوس ساكنًا في البرتشكا، بل قفزت من على الدرجة وأسرعت إلى الأدغال. وبالرغم من هطول قطرات المطر قطفت نباتات من كرز العصافير، فضمخت بها وجهي لأسكر برائحتها الرائعة.

وخضت في الوحل مسرعًا إلى باب العربة غير مكترث بحذائي الذي لطخه الطين ولا بجوربي الذي غمره الماء طويلًا.

وصحت بصوت مرتفع، وأنا أمد يدي ببعض أغصان من أزهار الكرز: «ليوبتشكا! كاتنكا!.. انظرا.. ما أجملها!».

ولهثت الفتاتان وصرختا في فزع، وصاحت بي ميمي أن أبتعد وإلا داستني العربة دون شك.

وصحت: «بل شماها وحسب لتريا مقدار شذاها».

* * *

(٣١)

آراء جديدة

كانت كاتنكا تجلس بجانبي في البرتشكا ورأسها الجميل محنيًا يراقب مفكرًا الطريق المترب وهو يجري مارًّا من بين العجلات. وتأملتها في صمت، ودهشت للملامح البعيدة عن ملامح الطفولة التي رأيتها لأول مرة على وجهها الوردي.

وقلت: «سنكون الآن بموسكو حالًا، فماذا تظنين شكلها؟».

فأجابت كارهةً: «لست أدري».

«ولكن ماذا تظنين؟ هل هي أكبر من سربوخوف أم لا؟».

«ماذا؟».

«آه – لا شيء».

ولكن عن طريق هذه الغريزة التي يتكهن بها الشخص بأفكار شخص آخر، والتي تستخدم كخيط يوجهه أثناء المناقشة، فهمت كاتنكا أن عدم اهتمامها يؤلمني، فرفعت رأسها، والتفتت ناحيتي. وقالت:

«هل أخبرك بابا أننا سنعيش مع الجدة؟».

«نعم. إن جدتنا تصر على أن نعيش معها».

«بالطبع. سنعيش في الطابق العلوي في نصف بيت، وستعيش أنت في النصف الآخر، أما والدي ففي الجناح، ولكننا جميعًا سنتناول الطعام مع جدتنا».

«تقول أمي إن جدتك مبجلة للغاية -وسيئة الطباع».

« آه. لا. إنها ليست كذلك! بل تبدو هكذا فقط لأول وهلة.. إنها مبجلة، ولكن طباعها ليست سيئةً، بل على العكس، حنونة وأنيسة جدًّا، ولو أنك رأيت فقط أي حفلة رائعة أقمناها في عيد قديسها!».

«لا أزال خائفةً منها. وهذا بالإضافة، والله يعلم لو أننا..».

وأمسكت كاتنكا عن الكلام فجأةً، وراحت تفكر.

وسألتها في قلق: «ماذا ألم بك؟».

«لا شيء».

«لقد قلتِ والله يعلم».

«وأنت قلت أي حفلة رائعة أقمناها لعيد قديس جدتي!».

«نعم، ويا للأسف أنك لم تكوني موجودة»، فقد كان هناك ضيوف كثيرون جدًّا، مئات منهم -والموسيقى وقادة الجيش. ورقصت» ثم توقفت أثناء شرحي وقلت: «إنك غير مصغية يا كاتنكا».

«نعم. إنني، لقد كنت تقول إنك رقصت».

«ما سبب اكتئابك إلى هذا الحد؟».

«إن المرء لا يستطيع أن يكون مرحًا طوال الوقت».

«ولكنكِ تغيرتِ كثيرًا جدًّا منذ عودتنا من موسكو»، ثم تابعت حديثي بنظرة إصرار وأنا التفت نحوها: «أخبريني بصدق. ما الذي جعلكِ منحرفة المزاج إلى هذا الحد».

وأجابت كاتنكا في انتعاشة أظهرت اهتمامها بملاحظتي: «هل أنا منحرفة المزاج؟ لست منحرفة المزاج ألبتة».

وتابعت حديثي قائلًا: «لست كما اعتدت أن تكوني، فقد كان من الواضح كل الوضوح أنك كنتِ تشعرين بنفس شعورنا إزاء كل شيء، وتعتبريننا كالأقارب، وتحبيننا كما نحبك تمامًا، ولكنكِ الآن أصبحتِ كثيرة الجد، ثم إنكِ شديدة العزلة».

«لا، لست كذلك...».

واعترضت حديثها، إذ شعرت لتوي بدغدغة في أنفي -نذير الدموع التي تفيض بها عيناي دائمًا حين أُنفِّس عن فكرة شعر بها قلبي وطال احتباسها. فقلت: «إنكِ تبتعدين عنا، ولا تتحدثين إلى أحد سوى ميمي، كأنكِ أردتِ تجاهلنا».

وأجابت كاتنكا، التي كان من عادتها تفسير كل شيء بنوع من الضرورة القاتلة عندما لا تعرف ماذا تقول: «حسن. إنك لا تستطيع أن تكون دائمًا كما أنت. بل لا بد أن تتغير في بعض الأحيان».

لقد تشاجرت مرةً مع ليوبتشكا، وقالت لها في شجارها «يا مغفلة»، فأجابتها بقولها: «لا يمكن لكل إنسان أن يكون حكيمًا. فلا بد أن يكون

بعض الناس مغفلين». ولم ترضني إجابتها حين قالت: «إنك لا بد أن تتغير في بعض الأحيان. فتابعت توجيه أسئلتي».

«ولماذا لا بد لكِ أن تتغيري؟».

وأجابت كاتنكا وقد اعتراها خجل طفيف. وتطلعت إلى ظهر فيليب: «إننا لا نستطيع أن نعيش معًا على الدوام. إن أمي استطاعت أن تعيش مع أمك المتوفاة لأنهما كانتا صديقتين. ولكن الله يعلم ما إذا كانت تستطيع مسايرة الكونتيسة التي يقولون إنها سيئة الطباع. وفوق هذا فلا بد لنا من الافتراق يومًا ما مهما كانت الحال. فأنتم أغنياء، تملكون بتروفسكوي. ولكنا فقراء ووالدتي لا تملك شيئًا».

«أنتم أغنياء. ونحن فقراء!!»، وبدت لي تلك الكلمات وما يرتبط بها من أفكار شيئًا غريبًا جدًّا. فقد كنت أظن في تلك الأيام أن الشحاذين والفلاحين (الموزيك) وحدهم، هم الذين يمكن أن يكونوا فقراء –ولم أستطع قط أن أربط فكرة الفقر هذه بكاتنكا الجميلة الرشيقة. وخُيِّل إليَّ أنه ما دامت ميمي وكاتنكا قد عاشتا معنا دائمًا فإنهما مستطيعتان أن تظلا معنا ومقاسمتنا كل شيء، ولكن الآن لاحت لي ألف فكرة تتصل بموقفهم الانعزالي، وشعرت بالخجل من كوننا أغنياء وهم فقراء حتى لقد احمر وجهي حياءً. ولم أفكر في التحديق مباشرةً في وجه كاتنكا. وقلت في نفسي: «ما معنى أننا أغنياء وهم فقراء؟ وكيف يستدعي هذا أننا لا بد أن نفترق؟ ولماذا لا نتقاسم كل شيء على قدم المساواة؟». ولكني فهمت أن هذا شيء يجب ألا أتحدث عنه مع كاتنكا. وحدثتني على التو تلك الغريزة العملية المعارضة لهذه الاستنتاجات المنطقية، بأنها كانت

على حق، وأنه من تحصيل الحاصل أن أشرح لها فكرتي.

وسألتها: «أحقيقة إنك ستتركيننا؟ وكيف نستطيع العيش وكل منا بعيد عن الآخر؟».

«وما حيلتنا في هذا؟ إنه لشيء مؤلم لي أنا أيضًا. ولكنه إذا حدث بالفعل فأنا أعرف ما سأفعله».

وقاطعتها قائلًا: «ستصبحين ممثلةً! يا له من عبث!» وكنت أعرف أن حلمها الدائم هو أن تصبح ممثلةً.

«لا. لقد قلت حين كنت صغيرة جدًّا».

«وماذا تفعلين إذَنْ؟».

سأصبح راهبةً وأعيش في الدير، وأتجول في رداء أسود وقلنسوة من المخمل. وانفجرت كاتنكا بالبكاء.

وهل حدث لك مرةً أيها القارئ أن لاحظت على حين فجأة، وفي أي مرحلة من مراحل حياتك، أن نظرتك إلى الأشياء قد تغيرت تغيرًا تامًّا، كما لو كانت كل الأشياء رأيتها من قبل قد تحولت إلى الجانب الآخر الذي لم تكن تدركه؟ إن تغيرًا عقليًّا من هذا النوع قد حدث لي أثناء رحلتنا. ومنذ ذلك الوقت أؤرخ بداية صباي.

ولأول مرة، وقع في نفسي أننا –أي أسرتنا– لم نكن وحدنا في هذا العالم وأننا لسنا المركز الذي تدور حوله جميع الاهتمامات، وأن هناك حياةً أخرى لأناس لا تربطهم بنا رابطة، ولا يهتمون بنا في شيء، بل ليس لديهم فكرة عن وجودنا. ولا شك أنني عرفت كل هذا من قبل، ولكنني

لم أعرفه على الوجه الذي عرفته الآن، ولم أحسه بشعوري.

إن الفكرة تصبح اعتقادًا فقط بطريقة محددة يغلب ألا تكون متوقعةً مطلقًا ومختلفةً عن الطريقة التي تصل بها عقول أخرى إلى نفس الاعتقاد. إن المحادثة مع كاتنكا التي أثرت فيَّ تأثيرًا عميقًا، وجعلتني أمعن النظر في موقفها في المستقبل، كانت هي الطريق الذي انتهجته. لقد تطلعت إلى القرى والمدن التي نجتازها، والتي تعيش في كل بيت منها أسرة على الأقل كأسرتنا، وإلى النساء والأطفال الذين ينظرون في فضول طارئ بعد مرور عرباتنا واختفائها عن الأنظار إلى الأبد، وإلى أصحاب الحوانيت والفلاحين، الذين لم يحيونا وحسب كما تعودت أن أراهم يفعلون في بتروفسكوي، بل إنهم لم يكرموننا بأكثر من نظرة. ولذلك خطرت لي فكرة لأول مرة وهي: ماذا يمكن أن يشغلهم إذا كانوا لا يهتمون بنا أقل اهتمام؟ ومن هذا السؤال انبثقت أسئلة أخرى: كيف، وبأي وسيلة يعيشون؟ وكيف يعاقبونهم؟ وما إلى ذلك.

* * *

(٣٢)

في موسكو

عند وصولنا إلى موسكو كان التغير في آرائي عن الأشياء والناس وعن علاقاتي بهم لا يزال محسوسًا. وعندما رأيت جدتي في أول اجتماع بها نحيلةً مغضنة الوجه كليلة العينين، تحول شعوري بالتبجيل الحقير، والخوف الذي كان يخالجني نحوها إلى عطف، وعندما ضغطت وجهها برأس ليوبتشكا بكت، حتى لكأنها تنظر إلى جثة ابنتها المحبوبة. بل إن عطفي استحال إلى حب. وضاقت نفسي لرؤية حزنها لدى مقابلتها لنا. ورأيت أننا لا نساوي شيئًا بذاتنا في نظرها، وأننا أعزاء لديها كذكريات. وشعرت أنه لم يعد هناك غير فكرة واحدة مائلة في كل قبلة من القبلات التي غمرت بها وجنتي: «لقد ذهبت. ماتت. ولن أراها مرةً أخرى».

أما أبي الذي لم يكن لديه بعدئذ شيء آخر يفعله لنا في موسكو، وكان وجهه مهمومًا على الدوام، ويجيء إلينا في وقت الغداء فقط في معطف أسود أو ثوب السهرة، فإنه فقد الشيء الكثير في نظري كما فقدت بنيقاته الكبيرة اللامعة، وعباءته، ورؤساء خدمه، وكتبته، وسعيه إلى الجرن وصيده الشيء الكثير. ثم كان هناك كارل إيفانتش الذي كانت تطلق عليه جدتي «ديادكا»، والذي استقر في ذهنه على حين فجأة أنه يستبدل بصلعته

المألوفة المحترمة، شعرًا أحمر مستعارًا به فارق في وسط رأسه تقريبًا. والله يعلم السبب في هذا. وقد بلغ مما بدا لي من غرابة هذا العمل وما ينطوي عليه من سخرية وأنني تساءلت كيف فشلت في ملاحظة ذلك من قبل.

ونشأ أيضًا فيما بيننا وبين الفتيات حاجز غير مرئي. فقد كانت لهم أسرارهن، وكانت لنا أسرارنا، فكنَّ فيما يبدو يتظاهرن أمامنا بوزراتهن التي ازدادت طولًا، ونزهو نحن بسراويلنا ذات الأربطة عند القدمين. وظهرت ميمي في غداء أول يوم أحد في ثوب أنيق وأشرطة على رأسها، وكانت من الجمال بحيث خُيِّل إلينا لأول وهلة أننا لسنا في الريف، وأن كل شيء أصبح الآن مختلفًا.

❊ ❊ ❊

(٣٣)

الأخ الأكبر

كنت أصغر من فولوديا بعام وبضعة أشهر فقط. نشأنا معًا. ولم نفترق مطلقًا لا في الدروس ولا في الألعاب. ولم يحدث بيننا تمييز مطلقًا بين الأكبر والأصغر. ولكن قرابة الوقت الذي أتحدث عنه بالضبط بدأت أتحقق من أنني لم أكن متساويًا مع فولوديا لا في السن، ولا في الميول والقدرات. بل بدأت أتصور أن فولوديا كان عارفًا بتفوقه، مزهوًّا به. ويحتمل أن يكون هذا اعتقادًا خاطئًا أثار فيَّ حب الذات، وكان يجرحه في كل مقابلة معه.. لقد كان يبزني في كل شيء -في اللعب والدراسة، والمشاحنات وفي معرفته كيف يتصرف. كل هذا أبعده عني، وسبب لي تعذيبًا عقليًّا لم أعرف له سببًا. ولو قلت في صراحة، عندما ارتدي فولوديا في أول مناسبة قميصًا من التيل ذا ثنيات، إنني متضايق لأنني لا أملك قميصًا مثله، لكان الأمر أهون من ذلك دون شك، ولما ظننت في كل مرة كان يصلح فيها من بنيقته، أنه يريد أن يفعل ذلك بمفرده لكي يؤذي شعوري.

ومما كان يعذبني أكثر من كل شيء آخر أن فولوديا كان يفهمني. وهذا ما كنت أتخيله في بعض الأحيان، ولكنه كان يخفي ذلك عني.

من ذا الذي لم يلاحظ تلك العلاقات الغامضة الصامتة التي تكشف عنها الابتسامة العارية المحسوسة، أو الحركة، أو النظرة، التي تنشأ بين أناس يعيشون معًا إخوةً وأصدقاء أو زوجًا وزوجه، أو سيدًا وخادمًا، وبخاصة حين لا يكون هؤلاء الناس غير صرحاء من كل الوجوه مع بعضهم البعض! وكم من رغبات وأفكار ومخاوف غير منطوقة –عن أشياء مفهومة– يعبر عنها بنظرة عارضة حين تلتقي الأعين على استحياء وتردد!

ولكن لعلي كنت مخدوعًا في هذه الناحية؛ نتيجةً لشدة حساسيتي وميلي إلى التحليل. ولربما لم يشعر فولوديا ألبتة بما كنت أشعر به؛ إذ إنه كان مندفعًا صريحًا، غير ثابت في نزعاته. وكان منساقًا لمطامحه، مستسلمًا لها بكل روحه.

كان يتملكه في وقت ما شغف بالصور. ثم راح يرسم بنفسه، وكان يصرف على الرسم كل ما له الذي يلتمسه من معلم الرسم ومن بابا ومن جدته، ثم كان شغفه بالأدوات التي يزين بها منضدته. يجمعها من جميع أنحاء المنزل. ثم غرامه بالروايات التي يحصل عليها خلسةً، ويعكف على قراءتها ليلًا ونهارًا. وقد جرفتني هواياته رغمًا عني. ولكني كنت أشد كبرياء من أن أترسم خطاه، وأكثر اعتمادًا على الآخرين من أن اختار طريقي لنفسي. ولكن لم يكن هناك شيء بقدر ما كنت أغار من أخلاق فولوديا الراضية الصريحة النبيلة، التي كانت تتجلى بوضوح عجيب عندما نتشاحن. وكنت أشعر أنه يتصرف تصرفًا سليمًا. ومع ذلك لم أستطع حمل نفسي على تقليده.

حدث مرةً حين بلغ شغفه بالتحف النادرة ذروته أن قصدت إلى منضدته، فكسرت مصادفةً قارورة عطر صغيرةً فارغةً متعددة الألوان.

وقال فولوديا حين دخل الحجرة ولاحظ الاضطراب الذي أحدثته في تنسيق التحف المتنوعة الموضوعة على منضدته: «من سمح لك أن تلمس أشيائي؟ وأين قارورة العطر الصغيرة؟ إنك دائمًا-».

«لقد سقطت مني مصادفةً، وانكسرت، فأي ضرر في هذا؟».

فقال وهو يضع شظايا القارورة المكسورة مع بعضها البعض ويتأملها بأسى: «أرجو ألا تتجاسر على لمس أشيائي».

فأجبته معترضًا: «وأرجو ألا تأمرني، لقد كُسرت، وهذا ما حدث، فماذا تجدي الضجة؟».

وابتسمت، مع أنه لم تكن لديَّ أي رغبة في الابتسام.

واستمر فولوديا في حديثه وهو يهز كتفيه استهجانًا، وهي عادة أخذها عن أبي: «آه. إنها قد لا تعني شيئًا بالنسبة لك، ولكنها تعني عندي الشيء الكثير... أنت تروح فتكسر أشيائي، ثم تضحك أيها الولد البذيء!».

«إنني ولد صغير. ولكنك غبي بقدر ما إنت كبير».

وقال فولوديا وهو يدفعني دفعةً خفيفةً: «إنني لا أنوي التشاحن معك. ابتعد من هنا!».

«لا تدفعني!».

«ابتعد!».

«قلت لا تدفعني!».

وأمسكني فولوديا من يدي وحاول أن يجرني بعيدًا عن المنضدة. ولكني كنت أتميز غضبًا، فأمسكت برجل المنضدة، وأخذت التحف المصنوعة من الخزف والزجاج الصخري وحطمتها على الأرض قائلًا: «ها هي!».

وصرخ فولوديا وهو يحاول إنقاذ بعض كنوزه المتساقطة: «يا لك من طفل صغير كريه!».

وقلت لنفسي وأنا أبارح الحجرة: «لقد انتهى الآن كل شيء بيننا، واختصمنا إلى الأبد».

لم يتحدث أحدنا إلى الآخر حتى المساء. وشعرت أنني مخطئ، وخفت أن أنظر إليه. ولم أستطع أن أشغل نفسي بأي شيء طوال اليوم. ولكن فولوديا كان على العكس، فقد أنجز دروسه على خير وجه، وثرثر وضحك مع الفتيات بعد الغداء كعادته.

وحالما انتهى الدرس، غادرت الحجرة. كنت في حالة من الخوف والارتباك وتأنيب الضمير لا تسمح ببقائي منفردًا مع أخي. وبعد درس المساء في مادة التاريخ تناولت كراسة مذكراتي واتجهت إلى الباب. وعندما مررت بفولوديا، عبست وحاولت اصطناع الغضب بالرغم من رغبتي في الذهاب إليه ومصالحته، ورفع فولوديا رأسه في نفس تلك اللحظة، ونظر إليَّ بجسارة نظرةً تكاد أن تكون ملموسةً، فيها رقة وسخرية. وتلاقت عينانا، وعرفت أنه يفهمني، بل تحققت أيضًا أنه

يفهمني. ومع ذلك فإن شعورًا أقوى مني جعلني أعرض عنه.

وقال بصوت ذي نغمة بسيطة للغاية ودون أقل انفعال: «نيكولنكا! لقد غضبت مدةً كافيةً، فاغفر لي إن كنت قد أسأت إليك».

ومد لي يده.

وخُيِّلَ إليَّ أن شيئًا يرتفع في صدري، ويعلو شيئًا فشيئًا، حتى كاد ضغطه يخنقني، ولم يستمر ذلك غير لحظة. ثم طفرت الدموع من عيني، وشعرت بتحسن حالتي. وقلت وأنا أضم على يده: «إنني آسف يا فولوديا».

ولكن فولوديا نظر إليَّ كأنه لم يستطع أن يفهم لماذا طفرت الدموع من عيني.

❊ ❊ ❊

(٣٤)

ماشا

ومع ذلك لم يكن هناك تغير في آرائي عن الأشياء أدعى إلى دهشتي من ذلك الذي أدي بي إلى الإقلاع عن النظر إلى إحدى فتياتنا كمجرد خادمة من الجنس الآخر، والنظر إليها كامرأة قد يُعتمد عليها في سلامي وسعادتي إلى درجة ما.

وبقدر ما أستطيع تذكر أي شيء مما مضى، فإنني لأتذكر «ماشا» في بيتنا تلك التي لم أعرها أقل اهتمام إلى أن كانت المناسبة التي غيرت نظرتي إليها تغييرًا تامًّا. وهي التي سأذكرها الآن.

كانت ماشا في الخامسة والعشرين عندما كنت في الرابعة عشرة، وكانت رائعة الجمال، ولكني أخشى أن أصفها، أخشى أن يستحضر خيالي مرةً أخرى الصورة الفاتنة الخادعة التي كانت عليها في عهد ولعي بها. ولكي لا أدع مجالًا لأي خطأ، فحسبي أن أقول إن بشرتها كانت بيضاء بدرجة غير عادية وكانت مفرطة النضارة -كانت امرأةً. وكنت في الرابعة عشرة.

في إحدى تلك اللحظات، حين يكون كتاب الدرس في يدك

وتنهمك في المشي ذهابًا وإيابًا في الحجرة محاولًا أن تخطو مترسمًا شقوق الأرض، أو في الترنم بنغمات متقطعة، أو في تلطيخ حافة المائدة بالحبر، أو في إعادة جملة ما بطريقة آلية -وقصارى القول في إحدى تلك اللحظات التي يرفض فيها العقل أن يعمل، ويسود فيها الخيال باحثًا عن الانطباعات -خرجت من حجرة الدراسة وهبطت إلى بسطة السلم دون هدف ما.

كان شخص ما ينتعل خفًّا. يصعد القلبة التالية من الدرج. وأردت.. بطبيعة الحال معرفة من هو؟ ولكن صوت وقع الأقدام توقف فجأةً وسمعت صوت ماشا تقول: «إليك عني! ماذا تظن ماريا إيفانوفنا لو حضرت؟».

وقال فولوديا هامسًا: «ولكنها لن تحضر»، ثم سمعت حركةً. كما لو كان فولوديا يحاول أن يمسك بظهرها.

«عجبًا، عجبًا، ارفع يديك يا نذل!» وجرت ماشا مارةً بي. وكان منديلها كله في جانب واحد. يظهر من تحته عنقها الأبيض الممتلئ.

لا أستطيع أن أشرح كيف دهشت لهذا الاكتشاف، ولكن دهشتي سرعان ما أفسحت الطريق للعطف على طفرة فولوديا. لم يكن ما فعله هو الذي دهشت له، ولكن الذي أدهشني هو كيف خطر له أن يكون هذا العمل سارًّا. وأخذت أشعر دون قصد بالرغبة في تقليده.

كنت أقضي ساعات في بعض الأحيان على تلك «البسطة» دون أن أفكر في أي شيء، أصغي بانتباه مرهف لأقل حركة تأتي من أعلى.

ولكنني لم أستطع حمل نفسي على تقليد فولوديا. بالرغم من أنني كنت أرغب قبل كل شيء في الدنيا أن أفعل مثله. وكنت أختبئ أحيانًا خلف الباب، وأتسمع بشعور آثم من الحقد والغيرة، إلى اللغط الذي يجري في حجرة الخادمات. وساورني التفكير فيما يكون عليه موقفي إن صعدت إلى الطابق العلوي وحاولت تقبيل ماشا كما فعل فولوديا؟ وماذا أقول بأنفي المفرطح وشعري المتمرد إذا سألتني عما أريد؟ كنت أسمع ماشا أحيانًا تقول لفولوديا: «يا لك من طاعون! لماذا تصر على مضايقتي؟ اذهب عني أيها المحتال! لماذا لا يأتي نيكولاي بتروفتش إلى هنا مطلقًا ويمزح هذا المزاح السخيف؟»، وهي لم تكن تعلم أن نيكولاي بتروفتش كان في تلك الآونة جالسًا على السلم، ويود أن يعطي أي شيء في الدنيا مقابل أن يكون في مكان ذلك الفولوديا المحتال.

لقد كنت خجولًا بطبيعتي ولكن خجلي ازداد كثيرًا لاقتناعي بقبح شكلي، وإنني لأعتقد إنه لا يوجد شيء له هذا الأثر الحاسم على مسلك الإنسان مثل مظهره الشخصي. ولا يبلغ مظهره مبلغ اعتقاده في جاذبية هذا المظهر أو عدم جاذبيته.

كانت كبريائي الذاتية أقوى من أن أعتاد وضعي. فكنت أواسي نفسي لثقتي أن الوقت لم يحن بعد. أي إنني حاولت ازدراء جميع الملذات المستمدة من الظاهر السار الذي كان يتمتع به فولوديا في نظري، والذي كنت أحسده عليه من كل قلبي. وأجهدت خيالي للوصول إلى السلوان في عزلتي الأبية.

(٣٥)

طلقة

صاحت وهي تلهث خائفة: «يا إلهي، بارود!! ماذا تفعل؟ أتريد أن تحرق البيت فينهار ونموت جميعًا؟».

وأمرت ميمي أن يبتعد الجميع، وقد بدت عليها سمات من التصميم يعجز عنها الوصف. وسارت بخطوات واثقة إلى الطلقة المتناثرة مزدريةً بالخطر الذي يمكن أن ينجم عن انفجار لم يحن وقته بعد، وأخذت تطأه بقدميها. وعندما ابتعد الخطر كما حسبت، نادت ميمي وأمرته بإلقاء «البارود» في أقصى مكان يستطيع، أو الأفضل أن يلقيه في الماء. وسوت قبعتها في كبرياء، وقصدت إلى قاعة الاستقبال، وتمتمت قائلةً: «إن العناية بهم تامة. هذا شيء غير منكور».

وعندما جاء والدي من الجناح وصحبناه إلى حجرة جدتي، كانت ميمي جالسةً هناك قرب النافذة وهي تنظر نحو الباب متوعدةً، وعليها سمات معينة من التكلف الغامض، وكان في يدها شيء ملفوف في ورقة، خمنت أنه الطلقة، وأن جدتي قد عرفت كل شيء.

وفي حجرة جدتي، كانت تجلس بجوار ميمي، الخادمة جاشا التي

كان يبدو من وجهها الأحمر الغاضب أنها متكدرة إلى حد كبير جدًّا. وكان الطبيب بلومنتال، وهو رجل صغير به آثار من الجدري، يحاول عبثًا تهدئة جاشا بإيماءات مبهمة بواسطة عينيه ورأسه.

وكانت جدتي تجلس مجانبةً إلى حد ما وقد نفد صبرها، مرتديةً ثوبًا بسيطًا. وهذه كانت دائمًا دلالةً على حالة نفسية مشؤومة.

وسألها بابا وهو يقبل يدها باحترام: «كيف حالك اليوم يا أماه؟ هل نمتِ نومًا مريحًا؟».

وأجابت جدتي في لهجة يدل ظاهرها على أن سؤال بابا لم يكن مناسبًا، بل كان مهينًا إلى أبعد حد: «على ما يرام يا عزيزي، وأعتقد أنك تعرف أنني دائمًا بصحة جيدة»، ثم تابعت حديثها ملتفتةً إلى جاشا: «حسن. أستحضرين لي منديلًا نظيفًا؟».

وأجابت جاشا مشيرةً إلى منديل من التيل الرفيع في بياض الثلج موضوعًا على مسند المقعد: «لقد أعطيتكِ إياه».

«أبعدي هذا المنديل القذر يا عزيزتي، وأعطني آخر نظيفًا».

وذهبت جاشا إلى صوان الملابس، وفتحت الدرج، ثم صفقته ثانيةً صفقةً شديدةً، اهتز لها جميع زجاج الحجرة. فنظرت جدتي إلينا جميعًا نظرة تهديد، واستمرت في مراقبة حركات الخادمة بانتباه. وعندما ناولتها الأخيرة واحدًا هو نفس المنديل فيما يبدو، قالت جدتي: «متى تسحقين سعوطي يا عزيزتي؟».

«سأسحقه عندما يتسع لي الوقت».

«ماذا قلتِ؟».

«سأسحقه اليوم».

«إذا كنتِ يا عزيزتي غير راغبة في البقاء في خدمتي، وكان يجب أن تقولي ذلك، لأعفيتكِ منها منذ زمن طويل».

وغمغمت الخادمة في صوت خفيض قائلةً: «لن أبكي إن أعفيتني من الخدمة».

وفي تلك اللحظة حاول الطبيب أن يغمز لها بعينه، ولكنها نظرت إليه نظرةً فيها من الغضب والتصميم ما جعله يرخي عينيه على الفور، ويتشاغل بمفتاح ساعته.

وبينما كانت جاشا لا تزال تغمغم بعد مبارحتها الحجرة التفتت جدتي إلى أبي قائلةً: «أترى يا عزيزي كيف يتحدث الناس إليَّ في قلب بيتي؟!».

وقال بابا الذي كان من الواضح أنه تضايق كثيرًا لهذا التصرف غير المنتظر: «إذا كنتِ تسمحين لي يا أمي، فسأطحن لكِ سعوطكِ».

«لا. أشكرك. إنها وقحة؛ لأنها تعرف أن أحدًا غيرها لا يعرف كيف يسحق سعوطي مثلها». وأضافت جدتي بعد برهة قليلة من الصمت: «أتعرف يا عزيزي أن أطفالك كانوا على وشك أن يحرقوا البيت اليوم؟».

ونظر بابا إلى جدتي مستفسرًا نظرةً ملؤها الاحترام.

والتفتت جدتي إلى ميمي قائلةً: «نعم. أريه؟ إليك ما كانوا يلعبون به».

وتناول بابا الطلقة في يده، ولم يستطع أن يمسك عن الابتسام وقال: «إنها طلقة يا أمي. وهي ليست خطيرةً بالمرة».

«إنني شاكرة جدًّا لك يا عزيزي لتعليمك إياي، غير أنني تجاوزت كثيرًا سن التعليم».

وهمس الطبيب: «الهدوء، الهدوء».

والتفت أبي إلينا مباشرةً:

«من أين حصلتم على تلك الطلقة؟ وكيف تجاسرتم على اللهو بمثل هذه الأشياء؟».

وقالت جدتي: «ليسوا هم الذين ينبغي أن تسألهم، سل خادمهم ديالكا».

ونطقت جدتي كلمة ديالكا بنوع معين من الاحتقار، وأضافت: «ما الذي يهتم به؟».

وقالت ميمي: «لقد قال فولديمار إن كارل نفسه هو الذي أعطاه البارود».

وتابعت جدتي حديثها قائلة: «انظر، ما أطيبه! وأين هو ذلك الديالكا، وما اسمه؟ أرسله إلى هنا».

وقال بابا: «لقد منحته إجازةً؛ لكي يقوم بزيارة».

«إن ذلك لا يفي بالغرض ألبتة، بل ينبغي أن يكون هنا كل الوقت، والأطفال أطفالك وليسوا أطفالي، وليس لي الحق في نصحك لأنك أحكم مني عقلًا»، ثم تابعت حديثها قائلةً: «ويبدو أن الوقت قد أزف

لتعيين مدرس خاص لهم لا خادمًا، فلاحًا ألمانيًّا -نعم فلاحًا غبيًّا، لا يستطيع تعليمهم شيئًا إلا العادات السيئة وأغاني التيرول. وإنني لأسألك هل الأطفال حقيقةً بحاجة إلى إنشاد الأغاني التيرولية؟ ومع ذلك فإن أحدًا لا يفكر في هذا الآن. فأنت تستطيع أن تفعل ما تشاء».

وكانت كلمة «الآن» تعني أنهم محرومون من الأم، مما أيقظ في قلب جدتي ذكريات محزنةً، فأسدلت عينيها على علبة السعوط والصورة التي عليها، وراحت في تفكير عميق.

وأسرع أبي يقول: «لقد كنت أفكر في ذلك منذ مدة طويلة، وأردت أن أسألك النصيحة يا أمي. هل نسأل سان جيروم الذي يعطيهم الآن دروس الصباح؟».

وقالت جدتي، ولم يكن قولها بلهجة الساخط التي تحدثت بها من قبل: «إن سان جيروم مدرس خاص على الأقل، ويعرف كيف ينبغي أن يتصرف أبناء البيوتات الطيبة، وليس خادمًا تافهًا لا يصلح لشيء إلا أن يأخذهم للنزهة».

وقال أبي: «سأتحدث معه غدًا».

والواقع أن كارل إيفانتش سلم مكانه بعد يومين من هذه المناقشة إلى الشاب الفرنسي الأنيق.

* * *

(٣٦)

قصة حياة كارل إيفانتش

في ساعة متأخرة من الليلة السابقة على رحيل كارل إيفانتش عنا إلى الأبد، وقف بجوار الفراش في عباءته الفضفاضة وغطاء رأسه الأحمر، منحنيًا على حقيبته يحزم أمتعته بعناية.

كان موقف كارل إيفانتش إزاءنا في المدة الأخيرة بنوع خاص جافًّا: كان يبدو عليه أنه يتحاشى كل اتصال بنا. وحين دلفت آنئذٍ إلى حجرته رمقني كذلك بنظرة كئيبة واستمر في عمله. واضجعت على فراشي، ولكن كارل إيفانتش الذي كان يحرم هذا في المرات السابقة تحريمًا قاطعًا، لم يقل لي شيئًا قط، وكان تفكيرنا في أنه لن يمنعنا بعد الآن أو يزجرنا ولا يهتم بنا الآن في شيء تذكرةً قويةً بقرب الانفصال. كنت آسفًا لانتهاء حبه لنا، فأردت أن أعبر له عن شعوري فقلت وأنا مقبل عليه: «اسمح لي بمساعدتك يا كارل إيفانتش»، فنظر إليَّ كارل إيفانتش ثم تحول عني ثانية، ولكني لم أقرأ في نظرته العابرة التي ألقاها عليَّ عدم المبالاة الذي كنت أفسر به فتوره، بل كان حزنًا حقيقيًّا.

وقال وهو يشد قامته ويقف منتصبًا كل الانتصاب، ويتنهد بحزن:

«إن الله يرى كل شيء، ويعلم كل شيء، فلتكن مشيئته الصالحة في كل شيء»، ثم راح يقول حين لاحظ تعبير العطف الخالص الذي انطوت عليه نظرتي إليه: «نعم، يا نيكولنكا، إن نصيبي هو أن أكون تعيسًا من طفولتي إلى قبري، لقد كنت أُجازى دائمًا بالشر لقاء ما أفعله من خير للناس»، ثم قال وهو يشير إلى السماء: «إن ثوابي ليس هنا، ولكنه سيكون هنالك».. وختم حديثه بقوله: «لو أنك عرفت تاريخي فقط، وكل ما صادفته في هذه الحياة!! لقد كنت إسكافًا، وكنت جنديًّا، وكنت هاربًا من الخدمة العسكرية، وكنت عاملًا في مصنع، وكنت مدرسًا، أما الآن فأنا لا شيء، مثل ابن الإنسان، لا أجد مكانًا أضع فيه رأسي»، ثم أغمض عينيه، وغاص في مقعده.

وعندما رأيت حالة كارل إيفانتش العقلية المؤثرة التي صرح فيها بأعز أفكاره ليفرج عن نفسه دون اكتراث بالسامع، جلست على الفراش في صمت، دون أن أحول عيني عن وجهه الحنون.

«إنك لست طفلًا، وتستطيع أن تدرك، وسأقص عليك قصتي وكل ما احتملته في هذه الحياة. وستذكر يومًا ما، الصديق القديم الذي أحبكم حبًّا جمًّا أيها الأطفال».

وأسند كارل إيفانتش كوعه على المنضدة القريبة منه، وتناول قبضةً من السعوط، وأدار عينيه إلى السماء، وبدأ يحكي قصته بذلك الصوت المعتدل الخاص الذي اعتاد أن يملي به علينا.

وقال في تأثر عميق: «لقد كنت تعيسًا حتى قبل أن أولد».

ولما كان كارل إيفانتش قد روى لي قصة حياته أكثر من مرة بنفس العبارات، ودائمًا بنفس النغمات، فإنني آمل أن أستطيع إعادة روايتها كلمةً بكلمة، فيما عدا أخطاءه في اللغة الروسية بطبيعة الحال. وسواء أكانت هذه قصة حياته حقيقية، أم من تصوير خياله الذي توهمه أثناء حياته المنعزلة في بيتنا، أم أنه اقتصر على تلوين الوقائع الحقيقية، بالحوادث المتخيلة، فليس في استطاعتي حتى اليوم القطع بشيء. فهو أولًا روى قصته بشعور قوي، وتتابع منتظم مما يكون الأدلة الأساسية للصدق ولا يسمح للمرء بالشك فيها، ومن ناحية أخرى، فإن نفس الإسراف في التفاصيل الشاعرية عن تاريخه تميل إلى زيادة الشكوك.

«تجري في عروقي دماء كونت سومر بلات النبيلة، وكان زوج أمي (وكنت أدعوه بابا) مزارعًا في أرض الكونت سومر بلات، ولم يستطع أن ينسى مطلقًا عار أمي، ولم يحبني. وكان لي أخ صغير يُدعى جوهان، وأختان، ولكنني كنت غريبًا في وسط أسرتي. واعتاد «بابا» حين كان جوهان يقترف حماقةً أن يقول: «لا أجد مطلقًا لحظة هدوء مع ذلك الطفل، كارل!»، وكنت أُعنف وأُعاقب. وعندما كانت أختاي تغضبان، الواحدة من الأخرى، كان بابا يقول: «لن يصبح كارل ولدًا مطيعًا ألبتة» ثم أُعنف وأُعاقب.

«ولم يحبني أحد غير أمي الطيبة دون غيرها. وكثيرًا ما كانت تقول لي: «تعال هنا يا كارل إلى حجرتي، ثم تقبلني خلسة»، وتقول: «مسكين كارل، لا يحبك أحد، ولكني لا أعدل بك واحدًا، كائنًا من كان، إن شيئًا واحدًا فقط تطلبه منك أمك، هو أن تكون دائمًا رجلًا شريفًا، فلا يتخلى

الله عنك!» وحاولت أن أكون كذلك.

«وعندما بلغت الرابعة عشرة، واستطعت أن أنتقل بالمواصلات وحدي، قالت أمي «لبابا» إن كارل أصبح ولدًا كبيرًا الآن يا جوستاف فماذا أنت فاعل؟»، وقال بابا: «لا أدري»، وقالت أمي: «فلنرسله إلى المدينة، إلى هر شولتز، ليصبح إسكافًا»، فقال بابا: «حسن جدًّا». وعشت في المدينة ست سنوات وسبعة أشهر، مع معلمي الإسكاف، وأحبني معلمي، وقال مرةً: «إن كارل صانع ماهر، وسيكون قريبًا بأجر يومي»، ولكن الإنسان يفكر والله يدبر، وفي سنة ١٨٩٦ صدر الأمر بالتجنيد لكل من يصلح للخدمة العسكرية، وبأن يذهب إلى المدينة كل من كانوا في الثامنة عشرة إلى الواحدة والعشرين.

وقدم بابا وأخي جوهان إلى المدينة، وذهبا معًا لسحب النصيب «القرعة» لمعرفة من سيكون جنديًّا ومن لا يكون. وسحب جوهان رقمًا منحوسًا: فكان عليه أن يصبح جنديًّا، وسحبت أنا رقمًا موفقًا، فلم أكن مضطرًّا أن أصبح جنديًّا. وقال بابا: «إن لي ولدًا واحدًا، ولا بد لي أن أفارقه!!».

تناولت يده وقلت: «لماذا قلت ذلك يا بابا؟ تعال معي لأقول لك شيئًا»، وجاء بابا وجلسنا معًا إلى مائدة صغيرة في الحانة. وقلت: «أحضر لنا كأسين من الجعة»، فقدمتا لنا، وشربنا معًا، وكذلك شرب جوهان.

وقلت: «لا تقل يا بابا أن لك ولدًا واحدًا، وأنك لا بد أن تفترق عنه، إن قلبي يريد أن يقفز خارج صدري عندما أسمع ذلك .. إن أخي جوهان

سوف لا يذهب إلى الجيش، أنا الذي سأصبح جنديًّا، فلا يحتاج هنا أحد إلى كارل، فكارل هو الذي سيصبح جنديًّا».

وقال لي بابا: «إنك رجل شريف النفس يا كارل»، ثم قبلني. وأصبحت جنديًّا.

* * *

(٣٧)

متابعة ما تقدم

تابع كارل إيفانتش حديثه قائلًا: «كان ذلك الوقت عصيبًا يا نيكولنكا، إذ كان نابليون يعيش في ذلك العهد، وأراد أن يقهر ألمانيا فدافعنا عن بلادنا لآخر قطرة من دمائنا!

«وكنت في «أولم»، وفي «أوسترلتز»، وكنت في «واجرام».

وسألته وأنا أتأمله في دهشة: «وهل قاتلت أنت أيضًا؟ وهل قتلت رجالًا كذلك؟».

وللحال هدأ كارل إيفانتش فكري من تلك الناحية.

«حدث مرةً أن سقط جندي فرنسي من رماة القنابل وراء زملائه، وانقض على الطريق، فأسرعت إليه ببندقيتي، وكنت على وشك قتله، ولكن الرجل الفرنسي رمى بندقيته وصاح طالبًا الرحمة، فأخليت سبيله[١].

«وفي واجرام طاردنا نابليون إلى الجزيرة، وطوقنا بحيث لم نستطع الفرار من أي مكان، وظللنا ثلاثة أيام دون مؤن، واقفين في الماء حتى ركبنا.

---

(١) قالها بالفرنسية.

فلم يأخذنا الوغد كأسرى حرب، ولم يتركنا نهرب!

«وفي اليوم الرابع، اقتادونا إلى قلعة، فحمدًا لله على ذلك. وكنت أرتدي سروالًا أزرق، وحلةً عسكريةً من قماش جيد، وكان معي خمسة عشر ريالًا وساعة فضية، وهدية من «بابا» فأخذها مني جميعًا جندي فرنسي. وبقي معي لحسن الحظ ثلاث قطع ذهبية من البندقي، كانت أمي قد خاطتها بداخل صدريتي، فلم يعثر عليها أحد.

«ولم أرغب في البقاء طويلًا بالقلعة، وصممت على الفرار. وفي أحد الأعياد الكبرى قلت للجاويش الذي يقوم على حراستي: «سيدي الجاويش، إنه احتفال مهيب، وأود مشاهدته، فأرجو أن تحضر زجاجتين من نبيذ ماديرا لنشربهما معًا، فقال الجاويش: «حسن جدًّا، سأفعل»، وعندما أحضر الجاويش الماديرا وشرب كل منا كأسًا، أمسكت يده وقلت له: أليس لك يا سيدي الجاويش أب وأم؟» فأجاب: «نعم، يا سيد موير» فقلت: «آه يا سيدي الجاويش، إن أبي وأمي لم يرياني منذ ثماني سنوات، ولا يعرفان إذا كنت حيًّا أو أن عظامي راقدة في الأرض الرطبة! إن لديَّ قطعتين من البندقي كانا في صدريتي، خذهما ودعني أذهب، قدم لي مكرمةً، وستصلي أمي لله القدير من أجلك طوال حياتها».

«فأجاب الجاويش: «إنك رجل فقير وسوف لا آخذ نقودك، ولكني سأساعدك فعندما أذهب لأنام، اشتر دلوًا من «البراندي» للجنود فينامون، وسوف لا أراقبك».

كان رجلًا طيبًا. واشتريت دلوًا من البراندي. فلما ثمل الجنود، لبست حذائي ومعطفي العسكري القديم، وخرجت من الباب، وقصدت

إلى الحائط، على أمل القفز من فوقه، ولكن كان هناك ماء، ولا أريد إتلاف آخر ما بقي لي من الملابس، فذهبت إلى البوابة.

«وشرب الجاويش كأسًا من الماديرا وقال: «إنني يا سيد موير أحبك وأعطف عليك إلى أقصى حد، ولكنك سجين، وأنا جندي»، ثم ضغطت على يده وقلت «يا سيدي الجاويش!».

كان الديدبان يسير جيئةً وذهابًا ببندقيته، ونظر إليَّ وسأل فجأةً: «من يسير هناك؟ ولكني لم أجب. وسأل للمرة الثانية: «من هناك؟، فلم أحر جوابًا. وسأل للمرة الثالثة: «من هناك؟»، فأطلقت ساقي للريح! واندفعت إلى الماء، وخرجت من الجانب الآخر، وانطلقت أجري.

«ظللت أجري طوال الليل في الطريق، ولكني عندما أخذ يتبلج الفجر خفت أن يعرفوني، فاختبأت وراء نبات الجودار المرتفع، ثم ركعت على الأرض وشبكت يدي وشكرت أبانا السماوي لإنقاذه إياي، ثم رحت في النوم بنفس هادئة.

«وصحوت في المساء، فتابعت سيري، وباغتتني عربة نقل ألمانية ضخمة ذات حصانين أسودين. كان يجلس في العربة رجل حسن الملبس يدخن غليونًا ونظر إليَّ، فسرت متباطئًا لكي تسبقني العربة، ولكني عندما أبطأت السير، تباطأت العربة أيضًا، وتفرس في الرجل، فأسرعت السير، ففعلت العربة كذلك. وأخذ الرجل يتفرس في وجهي طوال الوقت، وجلست على جانب الطريق فأوقف الرجل جواده وأخذ يتطلع إليَّ. وقال: «أنت أيها الشاب. إلى أين تذهب في هذه الساعة المتأخرة؟» فقلت: «إنني ذاهب إلى فرانكفورت». فقال: «اركب في عربتي، لديَّ

متسع، وسآخذك إلى هناك، وسألني عندما جلست بجانبه «لماذا لا تحمل معك شيئًا؟» ولماذا لم تحلق ذقنك؟ ولماذا تلوثت ملابسك بالطين؟ فقلت: «إنني رجل فقير، وأريد أن أشتغل بالأجر كعامل، أما ملابسي فقد تلوثت بالطين لأنني سقطت في الطريق. فقال الرجل: «إنك لا تصدقني القول، أيها الشاب، فالطريق الآن جاف». ولذت بالصمت.

«وقال الرجل الطيب: «اذكر لي كل الحقيقة.. من أنت، ومن أين أتيت؟ إن شكلك يعجبني، فإن كنت أميًّا فسأساعدك».

«وذكرت له كل شيء، فقال: «حسن جدًّا أيها الشاب، تعال معي إلى مصنع الحبال، فأعطيك عملًا وملابس ونقودًا، وتعيش معي».

«فقلت: «حسن جدًّا».

«وذهبنا إلى مصنع الحبال، فقال الرجل لزوجته: «ها هو ذا شاب حارب في سبيل بلاده، وهرب من الأسر، وهو لا يملك بيتًا ولا ملابس ولا خبزًا وسيعيش معي، فأعطه ملابس بيضاء من الكتان وأطعميه.

«وعشت في مصنع الحبال عامًا ونصف عام، وأولع بي رئيسي ولعًا شديدًا حتى إنه لم يدعني أتركه. وكنت آنئذ رجلًا وسيمًا، صغير السن، طويل القامة، لي عينان زرقاوان وأنف روماني، وكانت السيدة (ل) زوجة رئيسي (ولا أستطيع ذكر اسمها) امرأة صغيرةً جميلةً، ووقعت في حبي.

«وعندما رأتني قالت: «بماذا تدعوك أمك يا سيد موير؟»، فأجبتها: «كارلتشن»، فقالت: «اجلس هنا بجانبي يا كارلتشن».

وجلست بجانبها فقالت: «قبلني يا كارلتشن!».

«وقبلتها، فقالت: «إنني أحبك يا كارلتشن كثيرًا جدًّا، حتى إنني لا أقوى على احتمال هذا الحب طويلًا»، ثم ارتجفت من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.

«وهنا توقف كارل إيفانتش طويلًا، وأدار عينيه الزرقاوين الحانيتين إلى أعلى، وهز رأسه، وأخذ يبتسم كما يفعل الناس حين يقعون تحت تأثير ذكريات سارة.

«ثم بدأ حديثه ثانيةً وهو يجلس على كرسيه ذي المسندين، ويشد رداءه البيتي حول جسمه، ويشير إلى صورة المخلص، المطرزة على الخيش المعلقة فوق فراشه قائلًا: «لقد لقيت في حياتي الشيء الكثير من الخير والشر، ولكنه سبحانه وتعالى يشهد أن أحدًا لا يستطيع القول بأن كارل إيفانتش كان رجلًا غير أمين، فلم أقابل عطف السيد (ل) الذي شملني به، بالنكران الأسود للجميل، فصممت على الهرب. وفي المساء، عندما أوى الجميع إلى فراشهم، كتبت لرئيسي خطابًا وضعته بحجرتي على المائدة، وأخذت ملابسي، وثلاثة ريالات، ومشيت دون ضجة إلى الشارع، ولم يرني أحد، وسرت قدمًا في الطريق».

* * *

(٣٨)

تتمة القصة

«لم أكن قد رأيت أمي منذ تسع سنوات، ولم أعرف ما إذا كانت حية أو أن عظامها راقدة في الأرض الرطبة، وعدت إلى مسقط رأسي، وعندما بلغت المدينة سألت عن مكان جوستاف موير الذي كان يعمل مزارعًا عند الكونت سومر بلات، فقالوا لي إن الكونت سومر بلات قد توفي، وأن جوستاف موير يسكن في الشارع الرئيس ويقتني حانوتًا للمشروبات الروحية، فارتديت صدريتي الجديدة، ومعطفًا جميلًا (كان هديةً من صاحب المصنع)، وفرشت شعري جيدًا، وذهبت إلى حانوت بابا للمشروبات الروحية، وكانت أختى ماريتشن جالسةً في الحانوت، فسألتني عما أريد فقلت: أيمكنني الحصول على كأس من الخمر؟ فقالت: «أبي، إن شخصًا يطلب كأسًا»، وقال بابا: «قدمي للشاب كأسًا منها»، وجلست إلى المائدة وشربت كأسي، ودخنت غليوني، وأخذت أتطلع إلى بابا وماريتشن، وجوهان الذي دخل أيضًا الحانوت. وقال لي بابا أثناء الحديث: «لعلك تعرف أيها الشاب مكان جيشنا الآن؟»، فقلت: «إنني قادم أنا نفسي من الجيش وهو بالقرب من فينا»، فقال أبي: «إن ابننا كان جنديًّا، وقد مضت تسع سنوات منذ أن كتب لنا، ولا نعرف إذا كان

حيًّا أو ميتًا... إن زوجتي دائمة البكاء عليه». ونفخت الدخان من غليوني وقلت: «ما اسم ابنكم، وفي أي فرقة كان يعمل؟ فلعلني أعرفه، فقال أبي: «إن اسمه كارل موير، وكان يعمل بفرقة القناصة النمسوية». وقالت أختي ماريتشن: «كان طويلًا وسيمًا مثلك».

«فقلت: «إنني أعرف ابنكم كارل»، فقال والدي فجأةً: «أماليا! تعالي إلى هنا، يوجد شاب يعرف ابننا كارل. وتأتي أمي العزيز من الباب الخلفي، وعرفتها لتوي، وقالت وهي تنظر إليَّ وقد استحالت إلى شحوب شديد وأخذت ترتجف فقالت: «أتعرف ابننا كارل؟» فقلت: «نعم، لقد رأيته». ولم أجرؤ على رفع عيني إليها، كان قلبي يريد أن يقفز، وقالت أمي: «ابني كارل على قيد الحياة؟ شكرًا لله... أين هو حبيبي كارل؟ سأموت في سلام لو رأيته مرةً أخرى، ولدي المحبوب، ولكنها ليست مشيئة الله»، ثم أخذت تنتحب، ولم أقو على تحمل هذا فقلت: «أمي، أنا ابنك كارل، فارتمت بين ذراعي».

«وأغمض كارل إيفانتش عينيه، وارتعشت شفتاه، وكرر عبارته، وهدأ نوعًا ما ومسح الدموع الكبيرة التي هطلت على وجنتيه.

«ولكن لم يرض الله أن أقضي آخر أيامي في بلادي، كان مصيري أن أكون تعيسًا وطاردني سوء الطالع في كل مكان، فلم أقض في وطني غير ثلاثة أشهر، وفي أحد أيام الآحاد كنت في مقهى وابتعت إبريقًا من الجعة وأخذت أدخن غليوني وأتكلم في السياسة مع أصدقائي، عن الإمبراطور فرانز، وعن نابليون والحرب وكان يدلي كل واحد برأيه. وكان يجلس بالقرب منا سيد يرتدي معطفًا رماديًّا، ويشرب القهوة، ويدخن غليونًا ولا

ينطق بكلمة. وعندما أعلن الحارس الليلي عن الساعة العاشرة تناولت قبعتي وعدت إلى المنزل. وفي نحو منتصف الليل طرق الباب شخص ما، فاستيقظت وسألت: «من هناك؟» فأجاب: «افتح الباب». فقلت: «أخبرني من أنت فأفتح لك»، فقال: «افتح باسم القانون»، وفتحت الباب، وكان هناك جنديان يحملان بندقيتين يقفان بالباب، ودخل الغرفة ذلك الرجل الغريب ذو المعطف الرمادي، الذي كان يجلس بجوارنا في المقهى.. لقد كان جاسوسًا. وقال الجاسوس «تعال معي» قلت: «حسن جدًّا، فلبست حذائي وسروالي، وحمالتي وأخذت أتجول، في الغرفة، وكنت حانقًا في صميم قلبي، وقلت لنفسي: «إنه وغد». وعندما وصلت إلى الجدار حيث كان السيف معلقًا، قبضت على السيف فجأةً وقلت: «إنك جاسوس، دافع عن نفسك!»، وناولته ضربةً من يمين وضربةً من شمال، وواحدةً على الرأس، وسقط الجاسوس، وتناولت حقيبتي وكيسي وقفزت من النافذة، وذهبت إلى «إيمز» وهناك تعرفت بالجنرال سازين، فمال إليَّ، واستخرج لي من السفير جواز مرور، وصحبني معه إلى روسيا لتعليم أطفاله. وعندما توفي الجنرال سازين، استدعتني والدتك إليها وقالت لي: «إنني أعهد إليك يا كارل إيفانتش بأطفالي، فلتحبهم، وسوف لا أعزلك، وسأهيئ لك شيخوخةً ميسرةً! ولقد ماتت الآن، وأصبح كل شيء منسيًّا. وبعد عشرين عامًا من الخدمة، يجب أن أخرج إلى الشارع في سني المتقدمة للبحث عن كسرة من خبز جاف؛ إن الله يرى ويعلم، ولتكن إرادته الصالحة، غير إنني آسف لأجلكم يا أطفالي». وختم كارل إيفانتش قصته بأن جذبني إليه من يدي، ثم قبلني على رأسي.

(٣٩)

درجات سيئة

انتهى عام الحداد، وتخلصت جدتي من حزنها نوعًا ما، وأخذت تستقبل الضيوف بين وقت وآخر، وبخاصة من الأطفال والأولاد والفتيات ممن في مثل أعمارنا.

وفي اليوم الثالث عشر من ديسمبر، وهو عيد ميلاد ليوبوتشكا، وصلت قبل الغداء، الأميرة كوناكوفا وبناتها فلاخينا وسونتشكا وألنكا جراب، وأخوان صغيران من آل إيفن.

ومع أننا كنا نسمع الحديث والضحك والجري في قاعة الاستقبال من تحتنا، فإنا لم نستطع الاشتراك معهم حتى تنتهي دروسنا الصباحية. وكان جدول المواعيد بحجرة الدراسة ينص على أن الاثنين من الثانية إلى الثالثة، مدرس التاريخ والجغرافيا، وكان مدرس التاريخ هو الذي نضطر إلى انتظاره والاستماع إليه، وتحيته تحية الانصراف قبل أن نصبح أحرارًا. وكانت الساعة الثانية وعشرين دقيقة، ولكن لم تكن هناك أي إشارة تدل على حضوره، حتى في الشارع الذي كنت أراقبه برغبة قوية في ألا أراه ألبتة.

وقال فولوديا وهو يرفع عينيه لحظةً من كتاب سماراجدوف الذي

يعد منه دروسه: «أظن أن لبيدوف سوف لا يأتي اليوم».

وأضفت قائلًا في لهجة اليائس: «أرجو من الله ألا يأتي، لأنني لا أعرف شيئًا.. ولكن ها هو ذا».

ونهض فولوديا وتقدم من النافذة.

وقال: «لا، ليس هو، إنه سيد آخر»، ثم أضاف وهو يتمدد على الأرض ويحك رأسه، على عادته حين يستريح دقيقةً من العمل: «إذا لم يحضر حتى الساعة الثانية والنصف، فيمكننا أن نسأل سان جيروم أن يحفظ كراساتنا».

وقلت وأنا أتمدد أيضًا وأهز كتاب كايدانوف فوق رأسي بكلتا يدي: «ولماذا يأتي إطلاقًا؟».

ولحاجتي إلى أي شيء أعمله، فتحت الكتاب في موضع الدرس وبدأت أقرأه، وكان الدرس طويلًا صعبًا، ولم أفهم منه شيئًا، وتحققت من أنني سوف لا أنجح في حفظ أي شيء ما دمت في تلك الحالة من الانفعال التي يرفض فيها العقل التركيز على أي موضوع.

وبعد آخر درس لنا في التاريخ (وكان يبدو لي أنه أبعد الموضوعات عن الفهم، وأدعاها إلى الضجر) شكا مني لبيدوف إلى سان جيروم، وأثبت درجتين في تقريري، وكان ذلك يعتبر تقديرًا سيئًا جدًّا، وأخبرني سان جيروم آنئذٍ أنني لو حصلت على أقل من ثلاث درجات فسيكون عقابي صارمًا، والآن وقد أصبح الدرس الثاني قريبًا، فإنني أعترف أنني كنت أشعر بخوف شديد.

وجرفتني قراءة الدرس الذي لم أحفظه بحيث سبب لي صوت انتقال النعال بحجرة الاستقبال فزعًا مفاجئًا، ولم يكد يتسع وقتي لرؤية ما حولي قبل أن يظهر عند باب المدخل ذلك الوجه المشوه بالجدري، الذي أبغضه كل البغض، وجه ذلك المدرس الثقيل ذي الهيئة المألوفة، والمعطف الأزرق الذي تضمه بإحكام الأزرار التقليدية.

وضع قبعته على عتبة النافذة ببطء، ومذكراته على المنضدة، ونحى ذيل معطفه جانبًا (كأن هذه العملية ضرورية جدًّا)، ثم جلس في مكانه وهو يلهث وقال وهو يدعك إحدى يديه التي تنضح عرقًا باليد الأخرى: «والآن يا سادة فلنستعرض أولًا ما رأيناه في الدرس السابق، وحينئذ أحاول إطلاعكم على الحوادث اللاحقة في العصور الوسطى.

وكان معنى ذلك: «أسمعني درسك».

وبينما كان فولوديا يجيبه بسهولة وثقة نتيجةً لمعرفته بموضوعه معرفة تامة، خرجت على غير هدى مصعدًا على السلم، ولما لم يكن من المسموح لي بالهبوط، فقد كان من الطبيعي جدًّا أن أجد نفسي على «بسطة السلم»، دون أن أنتبه إليها، واحتل موقفي المعتاد الملائم خلف الباب، جرت ميمي إليَّ فجأةً، وهي التي كانت دائمًا سبب نحسي، وقالت وهي تتفرس فيَّ متوعدةً، ثم في باب حجرة الخادمات، ثم تتفرس فيَّ مرةً أخرى: «أنت هنا؟».

وشعرت شعورًا قويًّا بذنبي، لأنني لم أكن بحجرة الدراسة، ولأنني

كنت في مكان ليس فيه أي عمل. ولذلك أمسكت لساني، واستعرضت في شخصي أقوى طابع مؤثر للصبر. وقالت ميمي: «هذا عمل سيئ للغاية! ماذا تفعل هنا؟» وبقيت صامتًا... وتابعت حديثها وهي تضرب بقبضتها على سياج السلم قائلةً: «لا يمكن السكوت على ذلك، سأخبر الكونتيسة عن كل هذا».

كانت الساعة الثالثة إلا خمس دقائق حين عدت إلى حجرة الدراسة، وكان المدرس يشرح الدرس التالي لفولوديا كأنه نسي حضوري. وعندما انتهى من عرضه أخذ يجمع مذكراته، ودخل فولوديا الحجرة الأخرى لإحضار بطاقة الدروس وساورتني فكرة هدأت من انفعالي وهي أن كل شيء قد انتهى، وأنني أصبحت منسيًّا.

ولكن المدرس التفت نحوي فجأةً وعلى شفتيه شبه ابتسامة ماكرة:

وقال وهو يفرك يديه: «أرجو يا سيدي أن تكون قد ألممت بدروسك».

فأجبت: «نعم يا سيدي».

فقال وهو يعتدل على مقعده ويتأمل قدميه باهتمام: «تستطيع إذَنْ أن تذكر لي شيئًا عن حملة سان لويس الصليبية». ثم قال وهو يرفع حاجبيه ويشير بأصبعه إلى قارورة الحبر: «أخبرني أولًا عن الأسباب التي حملت الملك الفرنسي على أخذ الصليب»، ثم أضاف وهو يقوم بحركة برسغه كمن يحاول أن يمسك بشيء ما: «ثم يمكنك توضيح الخصائص العامة لتلك الحملة». ثم قال وهو يضرب بمذكراته على الجانب الأيسر للمنضدة: «وأخيرًا أثر هذه الحملة الصليبية على دول أوروبا عامة،

وعلى مملكة فرنسا خاصةً»، ثم ختم أسئلته بضرب الجانب الأيمن من المنضدة، وإمالة رأسه إلى اليمين.

وبلعت لعابي مرات قليلةً وسعلت، وأحنيت رأسي إلى جانب، وظللت صامتًا، ثم أخذت أنقر على ريشة موضوعة على المنضدة وأنتفها قطعًا، عاكفًا على صمتي.

وقال المدرس وهو يمد يده: «أعطني هذه الريشة من فضلك، إنها تصلح لشيء ما...».

«حسن يا سيدي».

«الملك -لو- كان -سان لويس- كان -قيصرًا طيبًا وحكيمًا».

«ماذا يا سيدي؟».

«قيصر... فكر في الذهاب إلى أورشليم، ونقل مقاليد الحكم إلى أمه».

«ماذا كان اسمها؟».

«ب -ب- لانكا».

«ماذا يا سيدي؟ بولانكا»[1].

وضحكت ضحكةً ملتويةً مغتصبةً.

وسألني: «أتعرف شيئًا غير ذلك؟».

لم يبق لي الآن شيء أفقده، ولذلك سعلت، وأخذت أقول أي لغو من الكلام يطرأ على عقلي، وأخذ المدرس الذي جلس صامتًا

---

(١) اسم لنوع معين من الجياد لونها أصفر باهت.

ينفض التراب من على المنضدة بالريشة التي أخذها مني، ويتفرس فيما وراء أذني مباشرةً، ويقول مرددًا: «حسن، حسن جدًّا يا سيدي» وكنت مدركًا أنني لا أعرف شيئًا، وأنني لا أعبر عن نفسي ألبتة كما ينبغي، وقد أزعجني بدرجة فظيعة أن أجد المدرس لا يستوقفني أو يصحح لي.

وكرر كلماتي متسائلًا: «لماذا فكر في الذهاب إلى أورشليم؟».

وقلت: «لأنه -لكي- بقصد أن -لأنه»- ثم أخذت أتخبط يائسًا، ولم أستطع قول كلمة أخرى. وشعرت أن هذا المدرس المؤذي، لو أنه أمسك عن الكلام عامًا كاملًا وتفرس في وجهي متسائلًا، لبقيت عاجزًا عن التفوه بكلمة أخرى، وحدجني المدرس بنظرة دامت ثلاث دقائق، ثم ظهر على وجهه تعبير عن الأسف العميق، ثم قال لفولوديا الذي دخل الغرفة لتوه، في نغمة جادة:

«ناولني كراسة السجل من فضلك».

وناوله فولوديا الدفتر، ووضع البطاقة بعناية بجانبه.

وفتح المدرس الكراسة، وغمس ريشته بحرص وكتب بخطه الجميل خمس درجات لفولوديا تحت عنوان المحفوظات والسلوك، ثم ترددت ريشته فوق العمود الذي سجلت فيه درجاتي، ونظر إليَّ، ثم نفض الحبر واستغرق في التفكير.

وللحال تحركت يده حركة غير ملحوظة وظهر هناك رقم واحد رسم بخط جميل، ونقطة وقف، ثم حركة أخرى في عمود السلوك ظهر رقم

واحد ونقطة وقف.

ونهض المدرس بعد أن أقفل كراسة السجل، واتجه إلى الباب، كأنه لم يلاحظ نظرتي المعبرة عن اليأس والتوسل والعتاب.

وقلت: «ميخائيل اللاريونوفتش».

ولما كان قد عرف لساعته ماذا أردت أن أقول، أجابني: «لا، ليست هذه هي طريقة الدراسة، إنني لا أتقاضي أجري دون مقابل».

وانتعل المدرس خفيه، وارتدي معطفه الصوفي، وعقد ربطة رقبته بعناية كبرى، كأن أي شخص يستطيع أن يُعنى بأي شيء بعد الذي حدث لي! إنها حركة من الريشة بالنسبة إليه، ولكنها أسوأ كارثة بالنسبة لي.

واستفسر سان جيروم وهو يدخل الحجرة: «هل انتهى الدرس؟».

«نعم».

«هل مدرسكما راض عنكما؟».

وقال فولوديا «نعم».

«ما الدرجة التي حصلت عليها؟».

«خمس درجات».

«ونيكولاس؟».

ولم أحر جوابًا.

وقال فولوديا «أظنه حصل على أربع درجات».

كان يعرف ضرورة إنقاذي ولو لذلك اليوم فقط، فإن كان لا بد أن

أعاقب، فلا يكون في ذلك اليوم حيث يوجد بالمنزل ضيوف.

اعتاد سان جيروم طريقةً خاصةً، فهو يصدر كل ما يقوله بكلمة «هيا» فقال:

«هيا يا سادة، أصلحوا من هندامكم لكي نهبط إلى الطابق السفلي».

* * *

(٤٠)

المفتاح الصغير

ما كدنا نهبط إلى الطابق السفلي ونحيي ضيوفنا، حتى أُعلن عن الغداء. وكان بابا في حالة معنوية عالية، (كان حظه مواتيًا في لعب الورق آنئذ) وأهدى ليوبتشكا طاقمًا فضيًّا، وتذكر بعد الغداء أن بمسكنه أيضًا علبة «ملبس» كان يريد إهداءها لها.

وقال لي بابا: «لماذا أرسل خادمًا؟ من الخير أن تذهب أنت يا كوكو، والمفاتيح على المكتب الكبير في المحارة كما تعرف، فخذها وافتح الدرج الثاني إلى اليمين بأكبر مفتاح فيها. وستجد هناك العلبة وبعض الفاكهة المسكرة ملفوفة في ورقة، فأحضرها جميعًا إلى هنا» وسألته: «هل أحضر لك سيجارك!» وذلك لأنني أعرف أنه يرسل في طلبها بعد الغداء.

ثم صاح بي قائلًا: «أحضرها، ولكن إياك أن تلمس أي شيء غيرها».

ووجدت المفاتيح حيث قال لي، وكنت على شك أن أفتح الدرج حين توقفت تدفعني الرغبة في معرفة ماذا يتصل بالمفتاح الدقيق المعلق في نفس الحزمة.

كان موضوعًا على المكتب بين عدد من مختلف الأشياء، وبالقرب من الحاجز، محفظة مطرزة ذات قفل، وطرأ على ذهني أن أحاول تجربة المفتاح الصغير لعله يفتحها، وتكللت المحاولة بنجاح تام، وفتحت المحفظة فوجدت بداخلها كومة كاملة من الأوراق، وكان فضولي من القوة بحيث دفعني إلى البحث عن كنه هذه الأوراق وأخمد صوت ضميري، وبدأت عملية الفحص فيما تحتويه المحفظة.

إن شعور الطفل بالاحترام الذي لا يناقش، وبخاصة نحو بابا كان من العمق في دخيلة نفسي بحيث رفض عقلي بطبيعته الوصول إلى أي نتائج مما رأيت، وشعرت أنه يجب أن يعيش أبي في جو خاص، جو جميل، حريز غير مفهوم بالنسبة إليَّ، وأن أي محاولة للتغلغل في أسرار حياته تكون بمثابة انتهاك للمقدسات من جانبي.

ولذلك فإن الكشف الذي توصلت إليه من غير قصد تقريبًا في محفظة أبي، لم يترك في نفسي أثرًا واضحًا فقط، بل إدراكًا لتصرفي الخاطئ، وشعرت بالخجل والقلق.

وأدى بي شعوري هذا إلى الرغبة في إغلاق المحفظة بأسرع ما أستطيع، ولكن قدر لي على ما يظهر أن أتحمل كل نوع ممكن من سوء الطالع في ذلك اليوم المشهود وأدخلت المفتاح في ثقب القفل وأدرته بطريقة خاطئة ظنًّا مني بأن القفل مغلق، ثم جذبت المفتاح، ولكن، آه، يا للهول! خرج رأس المفتاح في يدي، وكان من العبث محاولة وصله بالنصف الباقي في القفل وتخليصه بنوع من السحر. واضطررت أخيرًا إلى الاستسلام إلى فكرة مرعبة، وهي أنني ارتكبت جريمةً جديدةً لا بد أن

تكشف في نفس اليوم عندما يعود بابا إلى مكتبه.

شكوى ميمي، والدرجة السيئة، والمفتاح الصغير!! لا يمكن أن يحدث لي ما هو أسوأ من ذلك، فجدتي بالنسبة لشكوى ميمي، وسان جيروم بالنسبة للدرجة السيئة، وبابا بالنسبة لذلك المفتاح -كل أولئك سينقضون عليَّ، ولن يتأخر هذا عن تلك الليلة بالذات.

وقلت بصوت مرتفع وأنا أخطو على سجادة المكتب الناعمة: «ماذا سيحدث لي؟!»، ثم أسرعت بدخول البيت.

إن المثل القدري الذي سمعته في طفولتي من نيكولاي كان يحدث أثرًا نافعًا ومهدئًا وقتيًّا في جميع لحظات الشدة التي لقيتها في حياتي. وعندما دخلت القاعة كنت مضطربًا وغير طبيعي إلى حد ما، ومع ذلك كنت في أقصى حالات الابتهاج.

❊ ❊ ❊

(٤١)

الغادرة

بدأت الألعاب الصغيرة بعد الغداء، وأخذت بأنشط دور فيها. وبينما كنا نلعب «القط في الركن»، ارتطمت بقهرمانة كورناكوفا التي كانت تلعب معنا، فدست على ثوبها مصادفةً ومزقته، وعندما لاحظت أن الفتيات جميعًا قد سررن سرورًا عظيمًا، وبخاصة سونتشكا، لرؤية القهرمانة تنسحب مقطبة الوجه إلى حجرة الخدم لرتق ثوبها، صممت على توفير ذلك السرور لهن مرةً أخرى، وكان من نتيجة هذا القصد الظريف أن أخذت أقفز حولها حالما عادت القهرمانة من الحجرة، وداومت على هذه المناورة حتى وجدت فرصةً مواتيةً ليمسك كعبي مرةً أخرى بذيل ثوبها ويمزقه. ولم تقوَ سونتشكا والأميرة على حبس ضحكهما الذي تملق شعوري إلى حد بعيد جدًّا، ولكن سان جيروم الذي لا بد كان يلاحظ تهوري، جاءني وقال لي بوجه عابس (الأمر الذي لم أستطع تحمله) أنه يظهر أن مزاحي نذير سوء، وإنني إذا لم أتصرف بكياسة فسوف يجعلني أندم على ذلك حتى لو كان في يوم الاحتفال.

ولكني كنت في حالة رجل مهتاج قامر بأكثر مما في جيبه، ويخشى أن يحصي حساباته، فيستمر مغامرًا في مراهنة يائسة، لا يؤمل من ورائها

استرداد خسارته، ولكن لمجرد إبعاد عقله عن الحقيقة. وضحكت بوقاحة وانصرفت بعيدًا عنه.

وبعد لعبة «القط في الركن»، بدأ شخص ما لعبةً كنا نطلق عليها «الأنف الطيول»، وكانت الكراسي في هذه اللعبة توضع في صفين متقابلين، وينقسم السيدات والرجال إلى فريقين، ويختار كل واحد زميله بالتناوب.

كان أصغر الأميرات تختار في كل مرة أصغر إخوة إيفن، وكانت كاتنكا تختار إما فولوديا وإما ألنكا، وتختار سونتشكا في كل مرة سريوزا. ولشد ما كان يدهشني أنها لم يكن يعتريها أقل خجل حين كان سريوزا يذهب إليها ويجلس أمامها مباشرةً، كانت تضحك ضحكتها الحلوة الرنانة، وتؤمئ إليه لتريه أنه أحسن التخمين، ولم تخترني أي واحدة. ومما جرح كبريائي جرحًا عميقًا، أن أدركت أنني زائد عن الحاجة، «طيشة»؛ حتى إنهم كانوا يقولون في كل مرة: «من المتبقي؟ نعم؛ نيكولنكا؛ حسن فلنأخذه».

ولذلك، فعندما جاء دوري لأخمن، من التي اختارتني، كنت أذهب إما إلى أختي وإما إلى إحدى الأميرات القبيحات، ولسوء الطالع أنني لم أخطئ التقدير مرةً. ويبدو أن سونتشكا اندمجت مع سريوزا إيفن اندماجًا كبيرًا، حتى أصبحت ولا وجود لي في نظرها. ولست أعرف سببًا لتسميتها «بالغادرة» ما دامت لم تعدني مطلقًا بأن تختارني دون سريوزا، ولكني كنت مقتنعًا كل الاقتناع أنها سلكت سلوكًا متمردًا إلى أبعد حد.

ولاحظت بعد اللعب أن «الغادرة» التي ازدريتها –وإن لم أحول عيني

عنها- كانت قد انسحبت إلى ركن مع سريوزا وكاتنكا حيث اشتركوا في مناقشة سرية، فتسللت خلف «البيانو» لأكشف عن سرهم، وكان هذا ما رأيت: كانت كاتنكا ممسكةً بمنديل من زاويتيه، ومن ثمَّ جعلت منه ستارًا بين رأس سونتشكا ورأس سريوزا، وقال سريوزا: «لا، لقد خسرت، والآن يجب أن تدفعي الجزاء!» ووقفت سونتشكا أمامه كالمذنبة، وقد تدلى ذراعاها إلى جانبيها، وقالت في خفر: «لا إنني لم أخسر، هل خسرت يا آنسة كاترين؟» وأجابت كاتنكا: «أحب أن يكون اللعب عادلًا، لقد خسرت رهانك يا عزيزتي».

ولم تكد تنطق كاتنكا بهذه الكلمات حتى مال سريوزا على سونتشكا وقبلها، قبلها قبلةً طويلةً على شفتيها الورديتين، وضحكت سونتشكا كأن شيئًا لم يحدث، وكأن ذلك ليس إلا لهوًا. يا للفظاعة! آه، تبًّا للغادرة المحتالة!

❋ ❋ ❋

(٤٢)

غموض

شعرت باحتقار مفاجئ للجنس اللطيف بوجه عام، ولسونتشكا خاصة، وأخذت أؤكد لنفسي أن ليس في هذه الألعاب ما يدعوه بالمرة إلى المرح، وأنها تليق بالبنات، ورغبت في خلق جلبة لعمل شيء فيه من الجسارة ما يدهش له الجميع، ولم يطل الوقت على ظهور الظرف الملائم.

بعد أن تحدث سان جيروم عن شيء ما، غادر الحجرة، وسمعت صوت وقع أقدامه وهو يصعد السلم، ثم وهو يسير فوقنا في اتجاه حجرة المكتب. وخطر لي أن ميمي أخبرته عن المكان الذي رآني فيه أثناء ساعات الدرس، وأنه ذهب لكي يفحص السجل.

في ذلك الوقت لم أكن أصدق أن «سان جيروم» له أي هدف آخر في حياته غير رغبته في عقابي، وكنت قد قرأت في مكان ما إن الأطفال فيما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة من عمرهم، أو بمعنى آخر أولئك الذين في مرحلة الانتقال من الصبا يميلون بنوع خاص إلى جريمة الحرق العمد، بل إلى القتل. وعندما أستعيد ذكريات طفولتي وبخاصة الحالة

العقلية التي كنت عليها في ذلك اليوم المشئوم، أقدر في وضوح تام أن أبشع جريمة يمكن أن تُرتكب دون غاية أو بقصد الإضرار، ولكن لمجرد حب الاستطلاع، أو بسبب الحاجة الغريزية لبذل النشاط. وهناك أوقات يتمثل فيها المستقبل لشخص بألوان شديدة القتامة، حتى ليخاف أن يركز فيها نظرته العقلية، فيتوقف عندها عقله عن التفكير، ويحاول أن يقنع نفسه بأن المستقبل لن يكون، وأن الماضي لم يوجد ألبتة، ففي مثل هذه اللحظات، حين لا يستطيع العقل أن يقدر سلفًا كل قرار للإرادة، وتبقى الغرائز البدنية المصدر الوحيدة للحياة. أستطيع أن أفهم كيف أن الطفل نتيجة لعدم خبرته، يميل بنوع خاص إلى مثل هذه الحالة العقلية، ولذلك فربما أشعل النار في بيته نفسه حيث ينام إخوته ووالده وأمه الذين يحبهم بسخاء، دون أدنى خوف أو تردد وبابتسامة فضول وذلك بتأثير عدم وجود التأمل نفسه -شرود العقل تقريبًا-، يفكر صبي فلاح في السابعة عشرة من عمره في حافى فأس مشحوذة حديثًا بجوار الأريكة التي ينام عليها والده العجوز ووجهه إلى تحت، وفجأةً يدبر أمر استخدام الفأس ويتفرس بفضول أحمق في الدم المنبثق من الجرح في عنق النائم، وبتأثير انعدام نفس التأمل والفضول الفطري، يزاول رجل متعةً معينةً، إذ يقف على شفا هاوية ويقول لنفسه: «ماذا يحدث لو أنني ألقيت بنفسي إلى أسفل؟» أو يضع غدارةً مشحونةً على جبهته ويتساءل: «ماذا يحدث لو أنني ضغطت على زناد الغدارة؟» أو أن يقول لنفسه وهو يتطلع إلى شخص ما يضمر له المجتمع كافةً احترامًا خاصًا: «ماذا يحدث لو ذهبت إليه، وأمسكته من أنفه وقلت له: «تعال يا صاحبي العزيز، فلنذهب»؟

وتحت تأثير هذا النوع من الهياج وانعدام التأمل، هبط سان جيروم السلم، وأخبرني أن ليس لي الحق في البقاء هناك في ذلك المساء؛ لأنني أسأت التصرف، وأسأت المذاكرة، وأن عليَّ أن أصعد إلى الطابق العلوي فورًا، تحت هذا التأثير أخرجت له لساني وأخبرته أنني لن أتحرك من مكاني.

ومنعت الدهشة والغضب سان جيروم لحظةً من النطق بكلمة واحدة.

وقال متحاملًا عليَّ: «لقد وعدت بمعاقبتك مرات عدةً، إلا أن رغبة جدتك أنقذتك، ولكني أرى الآن أن العصا ستجعلك مطيعًا، وأنك تستحقها اليوم كل الاستحقاق».

وكان صوته مرتفعًا جدًّا، حتى لقد سمع الجميع ما قاله. وشعرت بالدم يندفع إلى قلبي بقوة غير عادية جعلته ينبض بعنف حتى هرب اللون من وجهي، وارتعشت شفتاي رعشة لا إرادية، ولا بد أن كانت هيئتي في تلك اللحظة مخيفة؛ لأن سان جيروم تجاهل نظرتي، وتقدم مني بسرعة وأمسكني من يدي، ولكن ما كدت أشعر بلمسة يده، حتى استشطت غضبًا، وجذبت يدي منه وضربته بكل قوة الطفولة.

وقال فولوديا وهو يقترب مني متحيرًا مفزعًا لتصرفي: «ماذا دهاك؟».

وصرخت والدموع تسقط مدرارًا: «دعوني وشأني! ليس بينكم من يحبني، ولا من يدرك مدى تعاستي»، ثم أضفت وأنا التفت إلى المجموعة كلها في نوبة غضبية: «إنكم جميعًا خبثاء تعافكم النفس».

وجاءني في أثناء ذلك سان جيروم بوجه شاحب فيه تصميم، وقبل

أن أتخذ موقفًا للدفاع، أمسك بكلتا يدي كأنهما في منجلة وبحركة قوية، ثم جرني... كانت رأسي تزوم من الغضب، ولا أذكر غير العراك اليائس برأسي وركبتي بقدر ما بقي لي من قوة، وأذكر أن أنفي قد احتك بفخذ شخص ما، وأن معطف شخص ما كاد يدخل في فمي، وأذكر أنني كنت أشعر بوجود أشخاص من حولي، وبرائحة تراب، ورائحة البنفسج التي كان سان جيروم يتعطر بها.

وبعد خمس دقائق أغلق من دوني باب غرفة السطح.

وقال «هو» في صوت الثائر الظافر: «فاسيلي، أحضر العصا»...

❊ ❊ ❊

(٤٣)

هواجس

هل كان يمكن أن أتخيل في ذلك الوقت أنني سأبقى حيًّا بعد النوائب التي حلت بي، وأن يأتي اليوم الذي أتذكرها فيه برباطة جأش؟

حين تذكرت ما فعلت لم أستطع أن أتصور ما إذا كان سينالني، ولكن كان يخالجني شعور بأنني هلكت إلى الأبد.

وأن سكونًا مطلقًا على الطابق الأرضي، ومن حولي، أو هكذا خيل لي على الأقل بسبب انزعاجي الداخلي الذي تسلط عليَّ، ولكني بدأت أميز شيئًا فشيئًا بين الأصوات. لقد صعد فاسيلي، وألقى بشيء يشبه المكنسة على إفريز النافذة، ثم رقد يتثاءب. وكان يسمع في الطابق السفلي صوت سان جيروم المرتفع (لا بد أنه كان يتحدث عني)، ثم أصوات الأطفال، ثم ضحك وجرى. وبعد دقائق قليلة جرى كل شيء في المنزل مجراه السابق، كأن أحدًا لا يعرف أو يفكر في أنني جالس في غرفة السطح المظلمة.

لم أبك، ولكن شيئًا ثقيلًا كان يجثم على قلبي كالحجر، ومضت الأفكار والرؤى أمام خيالي المشوش، ومع ذلك فإن ذكرى المصيبة التي

حلت بي كانت تقطع سلسلتها الوهمية دون توقف، وتغرقني مرةً أخرى في متاهة لا حد لها من الحيرة إزاء المصير الذي ينتظرني بما فيه من الفزع واليأس.

وخطر لي آنئذ أنه لا بد من وجود سبب ما للنفور العام مني، بل لبغضي (كنت أعتقد في ذلك الوقت اعتقادًا جازمًا أن الجميع، من جدتي حتى فيليب الحوذي كانوا يبغضونني ويجدون في شقائي لذةً). وقلت لنفسي لعلني لست ابن أبي وأمي، ولست أخًا لفولوديا، بل مجرد يتيم تعيس، لقيط قاموا على تربيته بدافع الشفقة. ولم تقدم لي هذه الفكرة السخيفة نوعًا من الراحة الكئيبة وحسب، بل إنها كانت تبدو لي قوية الاحتمال. وفرحت لفكرة أنني تعيس، لا لسبب أُلام عليه أنا نفسي، ولكن لأن مصيري هو هذا منذ ولادتي نفسها، وأن نصيبي من الحياة شبيه بنصيب كارل إيفانتش التعيس.

وقلت لنفسي: «ولكن لماذا أخفي هذا السر بعد الآن، ما دمت قد كشفت عنه الستار؟ سأذهب غدًا إلى بابا وأقول له: «من العبث يا بابا أن تخفي عني سر مولدي فأنا أعرفه»، وسيقول لي: «حسن –ما دمت تعرفه– فعاجلًا أو آجلًا، كان لا بد لك أن تعرف،... إنك لست ابني، ولكني ربيتك، فإن برهنت على أنك جدير بحبي، فلن أتخلى عنك مطلقًا»، وسأقول له: «يا بابا، وإن كنت لا أملك الحق في مناداتك بهذا الاسم، فأنا أفعل ذلك الآن لآخر مرة –لقد أحببتك دائمًا، وسأحبك دائمًا، ولن أنسى أبدًا أنك كنت ولي نعمتي، ولكني لا أستطيع البقاء في بيتك، فليس هنا أحد يحبني، وسان جيروم أقسم على تدميري، فلا بد لأحدنا من ترك

هذا البيت؛ لأنني لا أستطيع أن أكون مسئولًا عن نفسي.. إنني أكره هذا الرجل إلى حد أتأهب فيه لعمل أي شيء -سأقتله- هذا ما سأقوله له -بابا إني سأقتله، ويبدأ أبي في استعطافي ولكني سأنحيه جانبًا، وأقول لا يا صديقي «أبي لا يا ولي نعمتي، إننا لا نستطيع العيش معًا، دعني أذهب»، ثم أعانقه وأقول له بالفرنسية: «يا بابا يا ولي نعمتي!! باركني للمرة الأخيرة، ولتكن إرادة الله!». وبينما كنت جالسًا على الصندوق في حجرة المخزن المظلمة، بكيت بكاءً مرًّا عندما ساورتني هذه الفكرة، ثم سرعان ما تذكرت العقوبة المهينة المبيتة لي، وتمثلت أمامي الحقيقة في ضوئها، فسرعان ما تبخرت أحلامي.

ثم تخيلت نفسي حرًّا، بعيدًا عن المنزل، ألتحق بفرقة الهوسار[١]، وأذهب إلى الحرب، ويحمل الأعداء عليَّ من كل جانب، وأستل سيفي وأقتل واحدًا وثانيًا، ثم ثالثًا، وأخيرًا، تخور قواي نتيجةً للجراح والتعب، وأسقط على الأرض وأصيح: «النصر!»، ويقترب القائد ويسأل: «أين منقذنا؟» فيدلونه عليَّ، ويرتمي على عنقي ويصيح بدموع الفرح: «النصر!»، وأستعيد قواي، وأتجول في تفيرسكوي بوليفار بذراعي معلقة في حمالة سوداء. أنا قائد!! وأقابل الإمبراطور، ويسأل: «من هذا الشاب الجريح؟»، ويقولون له إنه نيكولاي، البطل المشهور. ويتقدم مني الإمبراطور ويقول: «أشكرك، إنني سأفعل أي شيء تسألني إياه»، فأنحني له باحترام وأتوكأ على سيفي وأقول: «إنني سعيد أيها الإمبراطور العظيم إذا استطعت أن أريق دمي، فما دمت في سبيل وطني، ويسرني أن أموت في

(١) فرقة السواري الخفية.

الذود عنه، ومع ذلك فما دمت سمحًا إلى هذا الحد، فاسمح لي أن أطلب منك شيئًا واحدًا -دعني أقضي على عدوي الأجنبي سان جيروم»، وأقف أمام سان جيروم متوعدًا، فأقول له: «لقد تسببت في تعاستي... اركع!» ولكن تخطر لي فكرة على حين فجأة، وهي أن سان جيروم الحقيقي قد يدخل بالعصا في أي لحظة، فأرى نفسي مرةً أخرى، لا قائدًا ينقذ وطنه، ولكن مخلوقًا ضئيلًا باكيًا.

وتخطر لي فكرة الله، فأسأله تعالي في وقاحة عن سب عقابه لي: «إنني لم أهمل صلواتي مطلقًا، صباح مساء، فلماذا إذَنْ أتألم؟» أستطيع أن أؤكد دون أي شك أن أول خطوة نحو الشكوك الدينية التي أقلقتني أبان مرحلة صباي قد بدأت في ذلك الوقت؛ لا لأن التعاسة أغرتني بالتذمر والكفر، ولكن لأن فكرة عدم عدالة العناية الإلهية التي هيمنت على عقلي في ذلك الوقت المليء بالبلبلة الروحية وعزلتني في ذلك اليوم برمته، سرعان ما نمت وأخرجت جذورًا كالبذرة الضارة سقطت على أرض لينة بعد المطر، ثم تخيلت أنني سأموت، ورسمت في خيالي صورةً حيةً عن حيرة سان جيروم عندما يجد بدلًا مني جثةً لا حياة فيها بحجرة السطح، وتذكرت حكايات ناتاليا سافيشنا عن أن روح الشخص الميت لا تترك المنزل لمدة أربعين يومًا، وتخيلت نفسي أطير غير مرئي في حجرات بيت جدتي جميعًا، وأشاهد دموع ليوبتشكا المخلصة، وحزن جدتي، وحديث أبي مع سان جيروم. وقول بابا والدموع في عينيه: «لقد كان ولدًا لطيفًا» وإجابة سان جيروم: «نعم، ولكنه كان متهورًا» وقول بابا: «ينبغي أن تحترم الموتى»، فقد كنت سبب موته، لقد أفزعته، ولم يستطع احتمال

الإذلال الذي كنت تعد له.. إليك عني أيها النذل!».

ولا بد أن يجثو سان جيروم على ركبتيه، ويبكي ويلتمس المغفرة. وبعد نهاية الأربعين يومًا ستطير روحي إلى السماء، وهناك سأرى شيئًا رائع الجمال، أبيض شفافًا، وطويلًا، وأشعر أنه أمي. وهذا الشيء الأبيض سيضمني ويدللني، ولكني أشعر بالضيق كما لو كنت أعرفها. وأقول لها: «إن كنتِ أنتِ حقيقةً، فدعيني أتطلع إليك في صورة أكثر وضوحًا»، ويجيبني صوتها «نحن جميعًا هكذا هنا، فلا أستطيع أن أعانقك خيرًا من هذا، ألا تشعر بالسعادة على هذا الوجه؟».

«آه، نعم أشعر بالسعادة! ولكنك لا تستطيعين مداعبتي، ولا أستطيع تقبيل يديكِ» وتقول: «لا حاجة إلى ذلك، إن الحياة هنا جميلة كما هي». وأشعر أنها جميلة حقيقة، وأننا سنحلق معًا ونرتفع، ونرتفع إلى ما لا نهاية. ثم يبدو لي فجأة أنني مستيقظ، وأجدني جالسًا على الصندوق بحجرة السطح المظلمة، وقد بللت وجنتي الدموع، وعقلي صفحة خاوية وأنا أكرر عبارة: «سنحلق ونرتفع، ونرتفع إلى ما لا نهاية». لقد ركزت كل قوتي، وقتًا طويلًا، في محاولة تفسير موقفي، ولكن كل ما استطاع عقلي أن يتخيله في تلك اللحظة كان مدى غير محدود، لا يمكن اختراقه، مخيف في كآبته. وحاولت استرجاع الأحلام البهيجة الهانئة التي وضع الشعور بالحقيقة لها حدًّا، ولكن لشد ما كانت دهشتي، أنني سرعان ما وطئت دروب هواجسي الأولى، حتى رأيت أن استمرار السير فيها أمر مستحيل، بل إن ما هو أدعى إلى الدهشة، إنها لم تعد تبعث في نفسي سرورًا.

(٤٤)

لا دقيق بلا طحن

قضيت ليلتي بحجرة السطح، ولم يقترب مني أحد. ولم يحدث شيء حتى اليوم التالي، أي يوم الأحد حين نقلوني إلى حجرة صغيرة ملحقة بحجرة الدراسة، وحُبست فيها مرةً أخرى. وبدأت أؤمل في أن عقوبتي ستقتصر على حبسي، وأخذت أفكاري تطمئن تحت تأثير النعاس اللذيذ المنعش، وضوء الشمس الساطع يخادع نماذج الجليد فوق النوافذ، والضوضاء المألوفة نهارًا في الشوارع.

ومع ذلك فإن عزلتي كانت عسيرة الاحتمال. أردت أن أتنقل، وأن أقص على شخص ما كل ما يتأجج في روحي، ولم يكن هناك أي كائن بشري بالقرب مني، وكان موقفي مكدرًا إلى أقصى حد، وبالرغم من أنه كان ثقيلًا عليَّ، فإنني لم أستطع تحاشي سماع سان جيروم وهو يصفر نغمات مرحة في هدوء تام ويدور في حجرته. وكنت مقتنعًا تمامًا أنه لم يكن يرغب في الصفير ألبتة، بل كان يصفر لكي يعذبني وحسب.

في الساعة الثانية هبط سان جيروم وفولوديا إلى الطابق السفلي، وأحضر لي نيكولاي غدائي. وعندما تحدثت معه عما فعلته وعما ينتظرني، قال:

«لا عليك يا سيدي! لا تحزن لأنك لا تستطيع الحصول على دقيق بلا طحن».

إن هذا القول المأثور الذي ساعد على صلابة روحي فيما بعد أكثر من مرة، قد أراحني إلى حد ما، ولكن حقيقة الواقع، وهي أنهم لم يرسلوا لي مجرد خبز وماء، بل غداء كاملًا يشمل الكعك المزخرف، أفسحت التفكير في الشيء الكثير. فلو كانوا لم يرسلوا إليَّ الكعك، فإن معنى هذا أنني سأعاقب بالحبس، أما الآن فإن عقابي لابد آت، وإنني عزلت عن الآخرين لأنني كنت ذا تأثير سيئ. وبينما كنت مشغولًا في حل هذه المشكلة دار المفتاح في قفل سجني، ودخل سان جيروم بملامحه الجامدة الرسمية.

وقال دون أن ينظر إلي: «انزل، وقابل جدتك».

وأردت تنظيف كمي سترتي الملطخين بالطباشير قبل مغادرتي الحجرة، ولكن سان جيروم قال لي أن ذلك لا ضرورة له ألبتة، كأنني في مثل هذه الحالة المعنوية الهابطة لا أستحق الاهتمام بمظهري الخارجي.

وتفرست في كاتنكا وليوبتشكا وفولوديا عندما كان سان جيروم يقودني ممسكًا بيدي ونحن نجتاز القاعة، تمامًا كما كان نتطلع إلى المسجونين الذين يقادون من أمام نوافذنا كل يوم اثنين. وعندما اقتربت من مقعد جدتي بقصد تقبيل يدها، أشاحت عني وأخفت يدها تحت وشاحها.

وبعد صمت طويل نوعًا ما، تفحصتني خلاله من قمة رأسي إلى قدمي في أسلوب من التعبير لم أعرف معه إلى أين أنظر، أو ماذا أفعل بيدي، ثم قالت: «حسن يا عزيزي، يجب أن أقول إنك تقدر حبي، وإنك

عزائي الحقيقي»، ثم أضافت وهي تتأنى عند كل كلمة: «وأن السيد سان جيروم الذي أخذ على عاتقه أمر تعليمك استجابة لرجائي، لا يريد البقاء في منزلي بعد الآن. ولماذا؟ بسببك يا عزيزي، وكنت آمل أن تحمد له عنايته وتعبه»، ثم تابعت حديثها بعد فترة صمت قصيرة وفي نغمة كشفت عن أن حديثها كان معدًّا من قبل: «وأن تفهم قيمة خدماته، ولكنك، وأنت صبي صغير تجاسرت على رفع يدك ضده، حسن جدًّا! حسن جدًّا في الحقيقة! لقد بدأت.. أفكر في أنك لا تقدر المعاملة الكريمة، وأن وسائل أخرى أكثر فظاظة هي التي تلزمك»، ثم قالت بلهجة أمر جافة وهي تسير إلى سان جيروم «التمس صفحه حالًا، ألا تسمع؟».

ونظرت إلى الناحية التي فيها يد جدتي ووقع نظري على سترة سان جيروم، فأشحت عنه ولم أتحول عن موقفي، وللمرة الثانية بدأت أشعر بقلبي يتجمد.

«حسن، ألا تسمع ما أقوله لك؟».

وارتعد كل جسمي، ولكني لم أتحرك.

وقالت جدتي، التي لا بد قد أدركت عذابي الداخلي الذي كنت أقاسيه: «كوكو!»، ثم قالت في صوت أقرب إلى الحنان منه إلى الأمر: «كوكو! أهذا أنت؟».

فقلت: «لن ألتمس صفحه يا جدتي عن أي شيء»، ثم انفجرت بالبكاء فجأةً، إذ شعرت أن الدموع التي كانت تغصني ستنهمر من عيني لو نطقت بكلمة أخرى.

«إنني آمرك، أطلب منك... الآن حالًا».

وقلت لاهثًا: «أنا -أنا- لا أريد -لا أستطيع»، ثم انفجر فجأةً البكاء الذي حبسته طويلًا في فيض من اليأس.

وقال سان جيروم بصوت مؤثر: «أهذه هي الطريقة التي تطيع بها أمك الثانية؟ أهذه هي الطريقة التي تقابل بها حنانها؟.. اركع!».

وقالت جدتي وهي تتحول عني، وتكفكف دموعها: «يا إلهي، لو رأته الآن على هذا الحال! لو رأته -إن كل هذا بقصد الخير. لا، لم تكن لتتحمل هذا الحزن، أبدًا».

وظلت جدتي تبكي بكاءً مفرطًا، وبكيت أنا أيضًا، ولكن لم يكون في قصدي طلب الصفح. وقال سان جيروم: «هدئي من ثائرتك بحق السماء يا سيدتي الكونتيسة».

ولكن جدتي لم تلتفت إليه، وغطت وجهها بيديها، وسرعان ما تحول بكاؤها إلى قواق ونوبات هستيرية. واندفعت ميمي وجاشا إلى الغرفة بوجوه مفزعة، وسرعان ما سمع الهمس في جميع أرجاء البيت.

وقال سان جيروم وهو يقتادني إلى الطابق العلوي: «هناك شيء ما يمكنك أن تفخر به».

«يا إلهي، ماذا اقترفت؟ يا لي من ولد شرير!».

وما كاد سان جيروم يأمرني بدخول حجرتي ويعود أدراجه إلى جدتي، حتى أطلقت ساقي إلى السلم الكبير المؤدي إلى الشارع دون أن أعرف ماذا كنت أفعل.

لا أذكر ما إذا كنت أقصد: الهرب أم إغراق نفسي، وكل ما أعرفه

أنني كنت أخفي وجهي بيدي لكي لا أرى أحدًا، واندفعت اندفاعًا أعمى أهبط السلم.

وسألني صوت مألوف لدي: «إلى أين تذهب؟ أنت هو الشخص الذي أريده بعينه يا بني».

وحاولت المضي مسرعًا، ولكن بابا أمسكني من يدي وقال في حزم:

«تفضل بالحضور معي، كيف تجاسرت على لمس المحفظة التي في مكتبي؟ وصحبني وراءه إلى غرفة الجلوس الصغيرة، وأضاف وهو يشد أذني «حسن! لماذا لا تجيب؟»».

فقلت: «إنني آسف، لا أدرى ماذا دهاني؟»».

«آه، لا تعرف ماذا دهاك! إذَنْ أنت لا تعرف، ألا تعرف؟ لا تعرف، آه حقًّا إنك لا تعرف!» وأخذ يكرر هذه العبارة ويشد على أذني عند كل كلمة.

«هل ستدس أنفك حيث لا يعنيك الأمر في المستقبل؟ هل تفعل؟ هل تفعل؟» وآلمتني أذني كثيرًا، ولكني لم أبك، وكان الشعور الذي خبرته لذيذًا، فسرعان ما أطلق بابا أذني، حتى أمسكت بيده، وأخذت أغمرها بدموي وقبلاتي.

وقلت له من خلال دموعي: «اضربني ثانية، اضربني بشدة حتى تؤلمني، إنني ولد شرير، ولد شقي بائس».

وقال لي وهو يدفعني دفعة خفيفة: «ما قصتك؟»».

فقلت وأنا أتشبث بسترته: «لا، لا أريد الذهاب، إن الجميع

يكرهونني، وأنا أعرف ذلك، ولكن بحق الله، أصغ إليَّ، احمني، أو اطردني من البيت، لا أستطيع الحياة معه، إنه «يفعل» كل ما يستطيع لإذلالي، ويجعلني أركع أمامه، ويريد أن يضربني، وأنا لا أحب ذلك فلست صبيًّا صغيرًا، لا أستطيع تحمل هذا، إنني سأموت سأقتل نفسي. لقد قال لجدتي إنني شرير، وهي الآن مريضة، وستموت بسببي –أنت، أستحلفك بالله، اجلدني! لماذا يعذبونني جميعًا؟».

وكنت أغص بالبكاء، فجلست على الأريكة، وألقيت برأسي على ركبتيه، وأخذت أنشج حتى خيل إليَّ أنني سأموت للتو والساعة.

وسألني بابا في تأثير وهو ينحني فوقي: «ما سبب بكائك، أيها الطفل؟».

«إنه ظالمي –ومعذبي.. إنني سأموت، لا يحبني أحد!» واستطعت بشق النفس التفوه بهذه الكلمات، ثم رحت في رجفة تشنجية.

وأخذني بابا بين يديه إلى حجرة النوم، ورحت في نعاس. وعندما استيقظت كان الوقت متأخرًا جدًّا، كان هناك قنديل مشتعل بالقرب من فراشي، ويجلس بالحجرة طبيب الأسرة وميمي وليوبتشكا. وكان واضحًا على وجوههم أنهم يخشون على صحتي، ولكني كنت أشعر أنني على خير حال من الصحة والنشاط بعد نوم استغرق اثنتي عشرة ساعة، حتى لقد كنت أستطيع القفز من فراشي، لولا نفوري من زعزعة اعتقادهم في أنني مريض جدًّا.

(٤٥)

كراهية

حقًّا، لقد كان شعورًا بالكراهية، ليست الكراهية التي يكتب عنها في القصص، والتي لا أعتقد فيها -وهي الكراهية التي تنشرح لعمل السوء، ولكنها الكراهية التي توحي إليك باشمئزاز لا يقاوم من شخص ما، على الرغم من أنه يستحق احترامك، بل الكراهية التي تجعل شعره وعنقه، وصدى صوته، وكل عضو فيه، وكل حركة بغيضة لديك، وفي نفس الوقت تجذبك إليه قوة غامضة، وتضطرك إلى مراقبة أتفه عمل من أعماله باشتياق. ولقد خبرت هذا الشعور نحو سان جيروم.

لقد بقي معنا سان جيروم عامًا ونصف عام، ولو حكمت على الرجل الآن دون تأثر فإنني أجده شابًّا فرنسيًّا لطيفًا، ولكني روسي لحمًا ودمًا، ولم يكن غبيًّا، بل كان متعلمًا تعليمًا بين بين، وكان يؤدي واجباته نحونا بضمير حي، ولكن كانت فيه الخصائص المميزة لبني وطنه والتي تخالف الخلق الروسي، التردد والأنانية والخيلاء والوقاحة، والثقة العمياء بالنفس، كل هذه كانت تثير استيائي كثيرًا.

لقد أوضحت له جدتي بطبيعة الحال وجهة نظرها في مسألة العقوبة

البدنية، فلم يجرؤ على ضربنا بالسوط، ولكنه برغم هذا كثيرًا ما كان يهددنا بالعصا، وبخاصة أنا، ويتفوه بكلمة «الجلد»[1] (كما لو كنت آثمًا) وبصورة كريهة جدًّا، وبنغمة يبدو منها أن الجلد يبعث في نفسه أعظم الرضا.

لم أكن أخشى ألم العقاب مطلقًا، ولم أجربه ألبتة، ولكن مجرد التفكير في أن سان جيروم قد يضربني كان يجرني إلى حالة من الغضب واليأس المكبوتين.

كان كارل إيفانتش أحيانًا، في لحظة ضيقه ينفس عن سخطه بضربنا بالمسطرة أو بحزامه، ولكني أتذكر هذا دون أقل غضب. وحتى لو كان كارل إيفانتش قد ضربني في الوقت الذي أتحدث عنه (أي حين كنت في الرابعة عشرة) لاحتملت ذلك بغاية الهدوء. كنت أحب كارل إيفانتش، وأستطيع أن أتذكره كما أتذكر نفسي، واعتدت أن أعتبره كشخص من أفراد أسرتي، ولكن سان جيروم، كان رجلًا متعجرفًا متعاليًا، لم أشعر نحوه بميل، ولكن بالاحترام المغتصب الذي كان يوحي به إلى جميع الكبار. كان كارل إيفانتش رجلًا يثير السخرية، من نوع من الخدم الذين أحببتهم من كل قلبي، ولكني كنت أضعه في مرتبة اجتماعية أقل مني في تصوري الطفولي.

أما سان جيروم فقد كان على العكس، شابًّا صغيرًا جميلًا متعلمًا حاول أن يقف على قدم المساواة مع كل شخص. وكان إيفانتش ينتهرنا ويعاقبنا دائمًا بهدوء، ومن الواضح أنه كان يعتبر ذلك واجبًا ضروريًّا وإن كان مؤلمًا، بينما كان سان جيروم من ناحية أخرى يحب التفاخر

---

(١) نطق هذه الكلمة الفرنسية نطقًا خاطئًا. فبدلاً من كلمة **fouatter** نطقها كأنها **fouetter**.

بدوره كمعلم، وكان واضحًا حين كان يعاقبنا إنه إنما يفعل ذلك إرضاء لذاته أكثر منه لصالحنا. وكانت أوداجه المنتفخة بعظمته، وتحذلقه في تعبيراته الفرنسية التي كان ينطق بها مشددًا على المقطع الأخير بنبرات ممدودة، تنفرني منه نفورًا يجل عن الوصف. كان كارل إيفانتش يقول حين يغضب: «مهزلة صبيانية، ولد خبيث، أو ذبابة هندية!». وكان سان جيروم يطلق علينا أسماء مثل «وغد، ونصاب خبيث» وما إلى ذلك مما كان يجرح كبريائي.

وكان كارل إيفانتش يجعلنا نركع ووجوهنا في الركن، وكانت عقوبتنا تقتصر على الوضع البدني غير المريح، أما سان جيروم فكان ينفخ صدره ويصيح ملوحًا بيده في تعاظم ويقول بصوت مفزع: «اركع أيها الوغد»، ويجعلنا نركع أمامه ونلتمس منه المغفرة، فكانت العقوبة تنطوي على إذلالنا.

إنني لم أعاقب. ولم يذكر لي أحد شيئًا مما حدث، ومع ذلك لم أنس كل ما قاسيته من اليأس، والعار، والفزع والكراهية في هذين اليومين. وبالرغم من أن سان جيروم لم يقطع كل أمل في منذ ذلك الوقت، وقلما كان يضايقني، فإنني لم أستطع أن أحمل نفسي على معاملته دون اكتراث، وكنت أشعر في كل مرة تتقابل فيها عينانا، أن نظرتي كانت صريحة العداء له، وأسرع باتخاذ مظهر عدم الاهتمام، ولكن كان يخيل لي آنئذٍ أنه يفهم ريائي، فأخجل وأنصرف عنه كليةً.

وقصارى القول، لا أستطيع أن أصف إلى أي حد كانت تشمئز نفسي من أي شيء يتصل به.

(٤٦)

حجرة الخادمات

شعرت بتزايد الوحدة شيئًا فشيئًا، وتكونت مسراتي الأساسية من تأملاتي وملاحظاتي في عزلتي، وسأتحدث عن موضوع تأملاتي في فصل لاحق، والمسرح الهام لملاحظاتي كان حجرة الخادمات، حيث تجري القصة التي كانت تهمني وتثيرني من الأعماق، وبطلة هذه القصة كانت ماشا بطبيعة الحال. كانت تحب فاسيلي الذي عرفها مذ كانت تعيش من الخدمة، ووعدها بالزواج في ذلك الحين، ومع ذلك فإن القدر الذي فرق بينهما منذ خمس سنوات، ثم جمع بينهما في بيت جدتي، وضع بينهما حاجزًا في شخص نيكولاي (عم ماشا) الذي لا يحب أن يسمع عن زواج ابنة أخيه عن فاسيلي الذي كان يطلق عليه (الرجل الغبي الداعر).

وكان من تأثير هذه العقبة أن وقع فاسيلي الهادئ الطبع الذي لا يهتم لشيء، في حب ماشا حبًّا جارفًا، بقدر ما يستطيع أن يحب رقيق خياط يرتدي قميصًا وردي اللون مصقول الشعر بالدهان.

وبالرغم من أن دلائل حبه كانت غريبةً وسيئة الاختيار إلى حد بعيد، (فمثلًا كان حين يقابل ماشا، يحاول دائمًا أن يسبب لها ألمًا، إما يقرصها

أو يصفعها أو يحتضنها بعنف بحيث لا تستطيع أن تتنفس إلا بشق النفس) وكان حبه حقيقيًّا، والدليل على ذلك أنه منذ أن أنكر نيكولاي على فاسيلي يد ابنة أخيه، انكب على الشراب لشدة حزنه، وأخذ يغشى حانات الشرب ويخلق الاضطرابات. وقصارى القول، أخذ يسلك سلوكًا غير حميد، حتى إنه تصرف تصرفًا مشينًا عاقبة عليه رجال الشرطة. غير أن سلوكه هذا ونتائجه جعلته أكثر استحقاقًا في نظر ماشا فازداد حبها له، وفي أثناء حبس فاسيلي كانت ماشا تبكي أيامًا برمتها دون أن تجف لها عين، وتشكو مصيرها المؤلم إلى جاشا (التي كانت تروقها كثيرًا شئون المحبين التعساء)، وتنسل خلسةً إلى مركز الشرطة، مستهينةً بتحقير عمها وتعنيفه لها، لزيارة صديقها والترفيه عنه.

لا تحقر من شأن المجتمع الذي أقدمه لك أيها القارئ، فإن لم تكن أوتار الحب والعطف قد ضعفت في روحك، فإنك لواجد الأصوات التي تتجاوب معها في حجرة الخادمات. وسواء أكان يروقك أم لا يروقك أن تتبعني، فإنني سأعمد إلى «بسطة» السلم التي أستطيع أن أرى منها كل ما يجري في حجرة الخادمات: هناك أريكة عليها مكواة الثياب، والعروسة المصنوعة من الورق المقوى ذات الأنف المكسور، وقصعة الاغتسال الصغيرة، ومغسل اليد، وهناك عتبة النافذة التي يتكوم عليها خليط يتكون من كتلة شمعية سوداء، وحزمة خيط من الحرير، وخيارة خضراء مقضومة، وعلبة للملبس، ويوجد كذلك المائدة الكبيرة الحمراء، عليها قطعة قرميد ملفوفة بقماش من «البفتة» موضوعة على رفعة من شبكة متقاطعة، ومن خلفها تجلس «هي» في ثوبها الكتاني الوردي المفضل

عندي ومنديلها الأزرق الذي يجتذب انتباهي بنوع خاص، وهي تطرز وتتوقف بين وقت وآخر؛ لكي تحك رأسها بإبرتها، أو لتقص فتيل شمعة وأنا أتطلع وأفكر: لماذا لم تولد سيدة بهاتين العينين الزروقاين اللامعتين، وتلك الجديلة الذهبية الضخمة، وذلك الصدر الناهد؟ كيف كانت تصبح حالتها لو جلست في حجرة الجلوس وعلى رأسها غطاء ذو أشرطة وردية في ثوب أحمر قاتم، لا كثوب ميمي، ولكن كالثوب الذي رأيته في تفرسكوي بوليفار!... لكانت تطرز على إطار وأرقبها في المرآة، ولكنت أفعل أي شيء تطلبه. كنت أناولها وشاحها، وأقدم لها طعامها بنفسي.

وبأي وجه مخمور وخلقة تشمئز منها النفس، يبدو فاسيلي في سترته المحبوكة، وقميصه الوردي القذر الذي يكشف عما تحته!! إن في كل حركة من جسمه، وفي كل انحناءة من ظهره، أرى فيما يبدو علامات لا نزاع في إنها عقوبات العصيان التي لحقت به.

قالت ماشا متعجبةً وهي تغرز إبرتها في الوسادة دون أن ترفع رأسها لتحية فاسيلي عند دخوله: «آه، فاسيا، مرةً أخرى».

وأجاب فاسيلي: «نعم، وما في ذلك؟ وأي خير كنت تتوقعين منه؟ فلو أنه يستطيع لدبر الأمر بصورة ما! ولكن هذه جهودي كلها تضيع سدى، وكل ذلك».

وسألته نادزدا، وهي خادمة أخرى: «أتريد بعض الشاي؟».

وقال فاسيلي: «أشكرك بكل تواضع»، ثم أتم حديثه وهو يلوح بيده: «ولماذا يكرهني عمك اللص؟ لأن لديَّ ملابس خاصة بي، بسبب

كبريائي، بسبب هيئتي. آه، اللعنة على كل هذا!!».

وقالت ماشا هي تقضم الخيط: «يجب أن يكون المرء مطيعًا، وأنت... إنني لا أستطيع احتمال هذا بعد الآن، وذلك الآن!».

وفي تلك اللحظة صفق باب حجرة جدتي بشدة، وسمع صوت جاشا وهي تصعد السلم تقول: «وإذَنْ!! أحاول أن أرضيها حين لا تعرف هي نفسها ماذا تريد. يا لها من حياة لعينة -إنها مجرد أشغال شاقة!»، ثم همست وهي تلوح بيديها: «آه أرجو -الله أن يغفر لي».

وقال فاسيلي وهو ينهض لتحيتها: «أقدم تحياتي إلى أجافيا ميخايلوفنا».

فأجابته عابسة وهي تحدجه بنظراتها: «آه، فلتنصرف! إنني لا أريد تحياتك... لماذا تأتي إليَّ هنا؟ هل حجرة الخادمات مكان يأتي إليه الرجال؟».

وقال فاسيلي في خجل: «أردت السؤال عن صحتك».

وصاحت أجافيا ميخايلوفنا بأعلى صوتها وهي لا تزال غاضبةً: «سألفظ آخر أنفاسي وشيكًا، هذا هو حالي».

وضحك فاسيلي.

«ليس هناك ما يدعو إلى الضحك، وإذا قلت لك اخرج من هنا فيجب أن تخرج! حسبكم أن تنظروا إليه! هل يتزوجها؟ الوغد القذر! هيا اخرج من هنا!».

وخرجت أجافيا ميخايلوفنا من الحجرة وهي تضرب الأرض

بقدميها، وقصفت الباب بعنف قصفةً هزت النوافذ.

وظلت برهةً تشتم كل شيء وكل شخص بصوت مسموع من وراء الحاجز، وتلعن حياتها وتلقي بأمتعتها، وتشد أذني قطتها الصغيرة، وأخيرًا فُتح الباب بالقدر الذي يسمح فقط بمرور القطة مرورًا خاطفًا، معلقةً من ذيلها وهي تصرخ صراخًا محزنًا.

وقال فاسيلي هامسًا: «ويظهر أن من الأفضل أن أحضر مرةً أخرى لشرب الشاي.. إلى اللقاء في مناسبة أفضل».

وقالت نادزدا وهي تغمز بعينها: «لا ضير، سأذهب لألقي نظرةً على الغلاية».

وتابع فاسيلي حديثه وهو يجلس بالقرب من ماشا حالما غادرت نادزدا الحجرة: «إنني أقصد أن أضع حدًّا لهذا مرةً واحدةً فقط. فإما أن أذهب إلى الكونتيسة مباشرةً، وأشرح لها كيف تجري الأمور، وإما أن أترك كل شيء وأهرب إلى آخر الدنيا، وسأفعل والله! وكيف أعيش هنا وحدي؟».

إنك الشخص الوحيد الذي آسف له، فلو لم يكن من أجلك، لهربت منذ زمن ط –طو –يل وأقسم بالله».

وقالت ماشا بعد قليل من الصمت: «لماذا لا تحضر لي ملابسك لكي أغسلها يا فاسيا؟»، ثم أضافت وهي تمسك بنيقة القميص: «انظر مقدار سواد هذه».

وفي تلك اللحظة سمع جرس جدتي يصلصل من تحت، وخرجت

جاشا من حجرة نومها، وقالت وهي تدفع فاسيلي نحو الباب وهو ينهض مسرعًا عند رؤيتها: «أنت السبب فيما صار إليه أمرها، ولا تفتأ تضايقها، وأظنك تريد أن تراها باكيةً أيها الوحش السليط الوجه! انصرف! اغرب عن نظري! ثم مضت تقول ملتفتة إلى ماشا: «ماذا وجدت فيه؟ ألم يضربك عمك بسببه اليوم؟ ولكن لك طريقتك الخاصة: «أنا لا أتزوج أحدًا غير فاسيلي جروسكوف! يا لك من غبية!».

وصاحت ماشا، وانفجرت بالبكاء فجأةً: «ولا أنا أريد أن أحب أي شخص آخر، ولو ضربت حتى الموت بسببه».

وتفرست طويلًا في ماشا التي اضطجعت على الصندوق، وكفكفت دموعها بمنديلها وقد بذلت أقصى ما أستطيع لأغير رأيي في فاسيلي، وحاولت الوقوف على وجهة النظر التي استطاع من خلالها أن يجتذبها. ولكن بالرغم من عطفي الخالص على حزنها، فقلما استطعت أن أفهم كيف أن فتاةً تبدو لي فاتنةً مثل ماشا يمكن أن تحب فاسيلي.

وقلت في نفسي وأنا أصعد إلى مسكني الخاص: «إن بتروفسكي عندما أكبر ستكون ملكي، وماشا وفاسيلي سيكونان رقيقين في أرضي. سأجلس في مكتبي أدخن غليوني، وتذهب ماشا إلى المطبخ بمكواتها. وسأقول له: «أرسل إليَّ ماشا»، ثم تأتي حيث لا يكون أحد بالحجرة، ويأتي فاسيلي فجأة، وعندما يري ماشا سيقول: «لقد ضعت الآن». وتبكي ماشا، وسأقول: «أنا أعرف يا فاسيلي أنك تحبها وهي تحبك، هذه مائة روبل لك تزوجها، والله يمنحك السعادة»، واذهب عندئذ إلى حجرة الجلوس، ومن بين الأفكار التي لا حصر لها والتي تومض في العقل

والخيال فلا تترك أثرًا، توجد أخرى تترك ثلمةً عميقةً حساسةً، حتى إنك، ودون أن تسترجع الشيء الذي فكرت فيه تتذكر أنه كأن شيئًا سارًّا، وتشعر بأثر الفكرة، وتحاول بعثها مرةً أخرى. ومثل هذا الأثر العميق هو ما تركه في نفسي التفكير في تضحية شعوري الخاص في سبيل السعادة التي قد تجدها ماشا في زواجها من فاسيلي.

* * *

(٤٧)

الصبا

ربما لا يصدقني الناس حين أذكر لهم ماذا كانت أعز تأملاتي وأكثرها ثباتًا إبان مرحلة صباي -وهي أبعد ما تكون ملائمةً لسني ومركزي-، ولكن التفاوت بين مركز الإنسان ونشاطه الخلقي لهو في رأيي أضمن دليل على سلامة طويته.

في خلال العام الذي عشته في حياة أخلاقية انفرادية محصورًا في داخل نفسي، كانت تواجهني كل المسائل العويصة المتعلقة بمصير الإنسان وحياته المستقبلة وخلود الروح، فيحاول عقلي الصبياني الضعيف بكل ما فيه من قوة تنقصها الخبرة، حل هذه المسائل التي يشكل تفسيرها أعلى مرتبة يمكن للعقل البشري أن يبلغها، ولكن حلها لا يوهب له هبة.

ويخيل إليَّ، أن العقل عند كل فرد، يتبع في نموه نفس الطريق الذي تتبعه الأجناس جميعًا، وأن الأفكار التي تستخدم كأساس للنظريات الفلسفية المختلفة تشكل الملكات الموقوفة على العقل، ولكن كل إنسان كان يدركها بوضوح كبير أو صغير حتى قبل أن يعرف شيئًا من النظريات الفلسفية.

طرأت هذه الأفكار على ذهني في ضوء بلغ من الوضوح ومن القوة حدًّا حاولت معه تطبيقها على الحياة، متصورًا أنني كنت «أول» من كشف عن مثل هذه الحقائق العظمى النافعة.

وحدث أن خالجتني فكرة أن السعادة لا تعتمد على الظروف الخارجية، بل على موقفنا منها، وأن الإنسان الذي اعتاد تحمل الألم لا يكون غير سعيد، ولكي أعود نفسي على الكدح؛ كنت أحمل معجم تاتتشيف بين يدي ممدودتين لمدة خمس دقائق بالرغم من الألم الفظيع، أو أدخل إلى غرفة السطح وأجلد ظهري العريان بحبل جلدًا شديدًا حتى تفيض عيني بالدموع رغمًا عني.

وخطر لي فجأة في إحدى المرات، أن الموت ينتظرني في أي ساعة وأي لحظة، وأخذت أفكر دون أن أفهم كيف أخفق الناس حتى الآن في إدراك ذلك، وأن الإنسان يمكن أن يكون سعيدًا إذا ما استفاد وحسب من حاضره دون أن يفكر في المستقبل. وقضيت ثلاثة أيام مذعنًا لتأثير هذه الفكرة، فأهملت دروسي ولم أفعل شيئًا غير الرقاد في فراشي والاستمتاع بقراءة قصة، وأكل كعك الزنجبيل الذي كنت قد اشتريته بآخر ما كان معي من نقود.

وفي مناسبة أخرى، حين وقفت أمام السبورة أرسم عليها أشكالًا مختلفةً بالطباشير، خطرت ببالي فكرة وهي: لماذا يروق التناسق للعين؟ وما هو التناسق؟

وكانت إجابتي أنه شعور فطري. ولكن ما أساسه؟ هل هناك تناسق في كل شيء في الحياة؟ على العكس فها هنا الحياة، ورسمت شكلًا

بيضاويًّا، فالروح بعد الحياة تمضي إلى الأبدية. ورسمت من أحد جانبي الشكل البيضاوي خطًّا يمتد إلى حافة السبورة نفسها. ولماذا لا يكون هناك خط على الجانب الآخر؟ الواقع أنني عدت إلى التفكير فيها، فما نوع هذه الأبدية ذات الجانب الواحد فقط؟ لأننا وجدنا بالتأكيد قبل هذه الحياة، بالرغم من أننا نسينا هذا الوجود السابق.

وقد سرني هذا التعليل العقلي الذي بدا لي جديدًا متألقًا إلى أقصى حد، والذي أستطيع الآن أن أمسك فقط بخيطه في صعوبة وتناولت صحيفة من الورق بقصد الكتابة عليها، ولكن مثل هذه المجموعة من الأفكار ازدحمت في ذهني أثناء العملية ازدحامًا اضطرني إلى النهوض والمشي في الحجرة، وعندما اقتربت من النافذة، تحول انتباهي إلى الحصان الذي كان الحوذي يشد عدته في تلك اللحظة، وتركزت كل أفكاري حول هذه مسألة هي: -إلى جسم أي حصان أو إنسان ستنتقل روح هذا الحصان عندما تتحرر من الجسد؟ وفي هذه اللحظة مر فولوديا بالحجرة، فابتسم عندما لاحظ إنني أحاول حل مشكلة ما، فكانت هذه الابتسامة كافيةً؛ لأن توضح لي أن ما كنت أفكر فيه ليس إلا محض هراء.

ولقد رويت هذا -وهو في نظري مناسبة تستحق الذكر- لمجرد إعطاء القارئ الفرصة لفهم طبيعة تأملاتي.

ولكن لم أكن مفتونًا بأي نوع من أنواع الاتجاهات الفلسفية جميعًا بقدر ما كنت مفتونًا بالتشكك الذي جعلني في وقت ما أقف على حافة الجنون. وتخيلت أنه لا يوجد شيء أو إنسان في العالم برمته عدا نفسي، وأن الأشياء لم تكن أشياء، بل هي مجرد صور تتراءى لي إذا ما وجهت

إليها انتباهي، وأن هذه الصور ستختفي حالما أكف عن التفكير فيها.

وقصارى القول أنني أتفق مع تشلنج في فكرة أن الموجود ليس الأشياء وإنما هو علاقتي بها. وهناك لحظات كنت أصل فيها حين أكون واقعًا تحت تأثير هذه «الفكرة الثابتة»، إلى مرحلة من الخبل بحيث كنت أحيانًا ألتفت بسرعة إلى الاتجاه المضاد على أمل أن أفاجئ العدم (اللا شيء) حيث لم أكن.

يا للعقل البشري من مصدر ضئيل تافه بالنسبة للعمل الأخلاقي!

لم يستطع عقلي الضعيف التغلغل في هذا العمل العويص، ولكني في هذا العمل الذي يفوق قدرته فقدت معتقداتي التي لم يكن ينبغي أن أتجاسر مطلقًا على أن أمسها حرصًا على سعادة حياتي الخاصة، معتقدًا بعد معتقد.

ولم أحصل على شيء من كل هذا العناء الأخلاقي الشاق إلا دهاء العقل الذي قلل من قوة إراداتي، وإلا عادة التحليل الأخلاقي الدائم الذي حطم جدة الشعورة ووضوح الحكم.

إن الأفكار المجردة، كنتيجة للطاقة العقلية عند الإنسان، تتشكل بحيث تفهم حالة روحه في أي لحظة معينة وتنقلها إلى ذاكرته. ولقد قوي ميلي إلى التعليل المجرد من قدرتي على الإدراك الحسي إلى درجة غير طبيعية، حتى إنني عندما كنت أبدأ في التفكير في أبسط وجه للأشياء، كثيرًا ما كنت أقع في تحليل لأفكاري لا ينتهي عند حد، فلا أعود أعير المسألة التي كانت تشغلني من قبل اهتمامًا، بل أفكر فيما أفكر فيه. وحين

كنت أسأل نفسي: فيمَ أفكر؟ كنت أجيب: إنني أفكر فيما أفكر فيه. وفيمَ أفكر الآن؟ أظنني أفكر فيه وهكذا. ولا أستطيع أن أجد سببًا لتعليلي العقلي.

ومع ذلك فإن كشوفي الفلسفية التي وصلت إليها كانت تتملق غروري الذاتي إلى أقصى حد. وكثيرًا ما كنت أتخيل نفسي رجلًا عظيمًا يكشف عن حقائق جديدة لنفع الجنس البشري، وأنظر إلى المخلوقات الأخرى شاعرًا بقيمتي، ومن العجيب أن أقول إنني عندما اتصلت بتلك المخلوقات كنت أشعر بالخجل في حضرة كل واحد منهم، وكلما ازداد تقديري الشخصي لذاتي عجزت عن إظهار الشعور بجدارتي أمام الآخرين، بل لم أستطع حتى تعويد نفسي على عدم الشعور بالخجل من كل كلمة وكل حركة مهما كانت بسيطة.

* * *

(٤٨)

فولوديا

نعم، كلما تقدمت في وصف هذه المرحلة من حياتي، أصبحت أكثر إيلامًا وعنفًا عليَّ، فقلما أجد بين ذكرياتي عن هذه المرحلة، لحظات من الشعور بالدفء الحقيقي شديدة التألق، والنورانية الدائمة كما كان الحال في مستهل حياتي. وبقدر ما يفرحني المضي بأسرع ما أستطيع مجتازًا صحراء صباي، يسعدني بلوغ هذه الفترة السعيدة التي تضيئها الصداقة بحنانها الحقيقي وشعورها النبيل في أخريات هذا العهد وتفتح عهدًا جديدًا مليئًا بالسحر والشعر -الشباب.

ولن أتتبع ذكرياتي ساعةً بساعة، بل ألقي نظرةً سريعةً على الذكريات الأساسية منذ ذلك الحين، إلى أن اتصلت برجل بارز أثر تأثيرًا راسخًا ومفيدًا في خلقي وتقدمي.

سيلتحق فولوديا بالجامعة بعد أيام قلائل، ويأتي إليه معلمون خصوصيون، وأصغي بحسد واحترام غير إرادي وهو ينقر على السبورة بالطباشير بجسارة، ويتحدث عن الوظائف والتجاويف والأبعاد والأحداثية وما إلى ذلك، مما يبدو أنه تعبير عن حكمة منيعة المنال. وأخيرًا، في يوم

أحد بعد الغداء اجتمع مدرسان وأستاذان بحجرة جدتي، في حضرة بابا وعدة ضيوف، فوضعوا فولوديا موضع اختبار تجريبي لامتحان الجامعة. ولشد ما كان سرور جدتي عندما أظهر فولوديا أثناء ذلك تفهمًا واضحًا. كما وجهت إليَّ أيضًا أسئلة في مختلف الموضوعات، ولكني قدمت عرضًا متواضعًا جدًّا، وواضح أن الأساتذة حاولوا إخفاء جهلي أمام جدتي الأمر الذي زاد من ارتباكي. ومع ذلك فإن الالتفات الذي وجه إليَّ كان ضئيلًا جدًّا، فقد كنت في الخامسة عشرة فقط، وإذَنْ، لا يزال أمامي عام أستعد فيه لامتحاني، ويهبط فولوديا إلى الطابق السفلي للغداء فقط، ويقضي كل النهار بل والأمسيات مكبًّا على دراساته بالطابق العلوي لا لضرورة ذلك، ولكن لرغبته الخاصة؛ فهو شديد الغرور لا يرضيه مجرد النجاح في الامتحان، بل يرضيه الامتياز.

وأخيرًا يحل يوم الامتحان الأول. ويرتدي فولوديا سترته الزرقاء ذات الأزرار النحاسية ويضع ساعته الذهبية، وينتعل حذاءه الجلدي الحديث الطراز. وتحضر مركبة بابا المكشوفة إلى الباب، ويزيح نيكولاي الغطاء جانبًا، ويركب فولوديا وسان جيروم إلى الجامعة. وتطل الفتيات وبخاصة كاتنكا من النافذة على منظر فولوديا اللطيف وهو يركب العربة، بوجوه مبتهجة يستخفها الطرب، ويقول أبي: «بمشيئة الله! بمشيئة الله!»، وكذلك جدتي التي جرت نفسها إلى النافذة تبارك فولوديا والدموع في عينيها إلى أن تتوارى المركبة عند منحنى الشارع وتقول شيئًا ما هامسة.

ويعود فولوديا ويحيط به الجميع في لهفة: «حسن؟ جيد؟ ما هي الدرجة؟»، ولكن وجهه المشرق كان إجابةً في ذاته. لقد حصل فولوديا

على الدرجات النهائية. وفي اليوم التالي أسرع فولوديا في طريقه مودعًا بنفس الاهتمام والتمنيات بالنجاح،.. واستقبل بنفس اللهفة والفرح. ومضت تسعة أيام، وكان في اليوم العاشر آخر وأشق امتحان ينتظره، وهو امتحان المعلومات الدينية. ونقف جميعًا عند النافذة وننتظره بصبر نافد أكثر من ذي قبل. ولم يحضر فولوديا حتى الساعة الثانية.

وتصيح ليوبتشكا وقد ألصقت وجهها في لوح الزجاج: «يا ألله! يا أعزائي! إنهم قادمون! إنهم قادمون!».

حقيقةً كان فولوديا يجلس بجانب سان جيروم بالمركبة المكشوفة، ولم يعد يرتدي سترته الزرقاء والقبعة الرمادية، ولكنه كان يرتدي حلة الطلبة الرسمية ذات البنيقة الزرقاء المطرزة، والقبعة المثلثة الزوايا، والخنجر المذهب على جنبه.

وتبكي جدتي عندما تشاهد فولوديا في حلته الرسمية قائلةً: «آه، لو كانت الآن على قيد الحياة!»، ثم تروح في إغماءة.

ويجري فولوديا في صحن الدار بوجه مشرق فيقبلني، أنا وليوبتشكا وميمي وكاتنكا التي يعتريها حمرة الخجل حتى أذنيها. ويكاد فولوديا يطير من الفرح.. كم كان مليحًا في حلته الرسمية، وكم تلائم بنيقته الزرقاء شاربه النامي الأسود! يا لخصره الطويل النحيل، ومشيته اللطيفة! وفي ذلك اليوم المشهود يتناول الجميع الغداء بحجرة جدتي، ويشع الفرح من جميع الوجوه. وبعد الغداء، في وقت تناول الحلوى، يقدم رئيس الخدم زجاجة من الشمبانيا ملفوفةً بمشوش، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مهيبة ولكنها ضاحكة. وتشرب جدتي الشمبانيا لأول مرة

منذ وفاة أمي، فتشرب زجاجةً كاملةً لتهنئة فولوديا، ثم تعود فتبكي ثانيةً وهي تتأمله. وينصرف فولوديا ويخرج الآن من الغناء مع بطانته، ويستقبل معارفه في مسكنه الخاص. يدخن ويغشى المراقص... بل لقد رأيته في مناسبة ما يشارك في شرب زجاجتين من الشمبانيا مع اثنين مع الضيوف في حجرته، وكانت الجماعة كلها تشرب مع كل زجاجة نخب بعض الشخصيات الغامضة، ثم يتناقشون فيمن يتناول آخر جرعة من الزجاجة.. ولكنه يتناول غداءه بانتظام في البيت، ويقضي فترة ما بعد الظهر بحجرة الجلوس كعادته من قبل، ينشغل دائمًا في مناقشات غامضة مع كاتنكا، ولكن بقدر ما أستطيع أن أسمع لأنني لا أشترك في محادثتهما -يدور الحديث عن أبطال وبطلات القصص التي يقرآنها، وعن الحب والغيرة. ولا أستطيع استنباط مدى التسلية التي يجدانها في مثل هذه المناقشات، أو لماذا يبتسمان بهذه الرقة ويتباحثان بهذه الرغبة.

إنني ألاحظ بوجه عام أنه بالإضافة إلى الصداقة الطبيعية، توجد بين كاتنكا وفولوديا بعض العلاقات الغريبة التي تعزلهما عنا وتربط أحدهما بالآخر بطريقة غامضة.

* * *

(٤٩)

كاتنكا وليوبتشكا

كاتنكا الآن في السادسة عشرة، فهي ناضجة، وقد أفسح الخجل وارتباك الحركة الخاصان بالفتيات في مرحلة انتقالهن من الصبا إلى العذرة، الطريق للنضارة المنسقة، ورشاقة الزهرة الحديثة المولد. ولكنها لم تتغير: نفس العينين الزرقاوين اللامعتين، والنظرة الباسمة، ونفس الأنف الصغير المستقيم الذي يكون مع جبينها بمنخريه القويين خطًّا واحدًا تقريبًا، والفم الدقيق بابتسامته المشرقة، و«الغمازتين» على وجنتيها الورديتين الشفافتين، ونفس اليدين الصغيرتين البيضاوين. ولسبب ما، لا تزال عبارة «فتاة متكلفة» تلائمها بنوع خاص كل الملاءمة. والأشياء الجديدة الوحيدة فيها هي طريقة تصفيف شعرها الأشقر الغزير الذي تجعل منه ضفيرةً على غرار ما تفعل المرأة الكبيرة، وصدرها الصغير الذي لا يخفي ابتهاجها به وإن كان يخجلها.

وبالرغم من أن ليوبتشكا قد نشأت وتربت معها، فهي فتاة تختلف عنها كل الاختلاف، وليوبتشكا أقصر منها نوعًا ما. ونتيجة لكساح الأطفال لا تزال ساقاها معوجتين، ووجهها قبيحًا جدًّا، والشيء الوحيد الجميل في وجهها هو عيناها، فهما جميلتان جدًّا في الواقع - كبيرتان

داكنتان فيهما تعبير جذاب عن الكرامة والبساطة، يجل عن التعريف حتى إنهما ملفتتان للانتباه.

إن ليوبتشكا طبيعةً بسيطةً في كل شيء، في حين يبدو على كاتنكا أنها تريد تشكيل نفسها على نمط شخص آخر.

ونظرة ليوبتشكا مستقيمة دائمًا، وهي تثبت عينيها الداكنتين الواسعتين أحيانًا على شخص ولا تحولهما عنه لمدة طويلة، حتى لقد يعاب عليها ذلك ويقال لها أنه مجاف للأدب.

وكاتنكا من ناحية أخرى تسدل جفنيها، وتدير عينيها، وتقول إن نظرها قصير، في حين أنني أعرف جد المعرفة أن نظرها على أحسن ما يكون، ولوبتشكا لا تحب التودد إلى الغرباء، وإذا ما بدأ أي شخص في تقبيلها وهي بين جماعة فإنها تتجهم وتقول إنها لا تحمل «العواطف» وكاتنكا على العكس تتودد بنوع خاص إلى ميمي في حضرة الضيوف، وتحب أن تسير متشابكة الذراعين مع فتاة ما بالقاعة. ويسهل استثارة الضحك عند ليوبتشكا، وعندما يستخفها الطرب أحيانًا تلوح بيديها وتجري في الحجرة، أما كاتنكا فعلى العكس، تغطي فمها بيديها أو بمنديلها عندما تأخذ في الضحك، وتجلس ليوبتشكا دائمًا معتدلة، وعندما تسير ترفع يديها إلى جنبها، أما كاتنكا فتميل برأسها جانبًا وتسير مشبكة اليدين، وتفرح كاتنكا أشد الفرح عندما تقتنص فرصةً للتحدث إلى رجل من الكبار، وتعلن أنها ستتزوج بالتأكيد من أحد رجال السواري، ولكن كاتنكا تقول إن جميع الرجال مزعجون، وإنها لن تتزوج أبدًا، وتصبح فتاةً مختلفةً كل الاختلاف عندما يتحدث إليها رجل كما لو كانت تخاف شيئًا ما. وليوبتشكا مغتاظة

على الدوام من ميمي؛ لأنها تحزمها بإحكام شديد بالمشدات، حتى إنها تقول: «لا أستطيع أن أتنفس»، ثم إنها مغرمة بالأكل، ولكن كاتنكا من ناحية أخرى كثيرًا ما تدفع بإصبعها تحت صدريتها لترينا مدى اتساعها، وهي تأكل قليلًا جدًّا. وليوبتشكا تحب اجتذاب العقول، ولكن كاتنكا تجتذب الأزهار والفراشات فقط، وتعزف ليوبتشكا «كونسرتو فيلد» بإتقان، وبعضًا من سوناتا بتهوفن، وتعزف كاتنكا منوعات ومقطوعات من موسيقى الفالس، وتستمسك بنغماتها مدة أطول مما يجب، وتدق على المفاتيح بقوة شديدة، وتستعمل «الدواسة» دون انقطاع. وقبل أن تعزف أي شيء تدق ثلاثة أصوات سريعة التتابع.

وكنت أرى كاتنكا آنئذ أقرب ما تكون إلى الراشدات، ولذلك كانت تروقني كثيرًا.

* * *

(٥٠)

أبي

كان بابا مرحًا بنوع خاص منذ أن التحق فولوديا بالجامعة، فهو يأتي لتناول الغداء مع جدتي أكثر من المعتاد، ومع ذلك فإن سبب ابتهاجه كما سمعت من نيكولاي يرجع إلى أنه كسب أخيرً قدرًا كبيرًا من المال. وكان يأتي أحيانًا لرؤيتنا في المساء قبل ذهابه إلى النادي، ويجلس إلى البيانو ونحن مجتمعون حوله، ويغني أغانيَ غجريةً، ويدق بحذائه الرقيق للتوقيت الموسيقى (لا يتحمل الحذاء ذا الكعب، ولا يلبسه مطلقًا). وينبغي أن ترى فرحة محبوبته ليوبتشكا العارمة التي تهيم به. وهو يأتي أحيانًا إلى حجرة الدراسة ويستمع إليَّ عند إلقاء دروسي بملامح عابسة، ولكني أدرك من كلماته العرضية حين يحاول توجيهي إلى الصواب أنه لا يعرف الكثير مما أتعلم. وأحيانًا يغمز لنا بعينيه غمزةً ماكرةً، ويومئ إلينا بإشارات عندما تبدأ جدتي في التذمر وتغضب مع الجميع دون سبب، ثم يقول بعد ذلك «حسن، لقد عرفنا هذا يا أطفال»، وقصارى القول، إن منزلته هبطت قليلًا في نظري من قمتها التي لا تُدانى والتي كان خيالي الصبياني قد وضعها فيها، فألثم يده الكبيرة البيضاء بنفس شعور الحب الحقيقي والاحترام، ولكني أسمح لنفسي الآن بالتفكير فيه، وإصدار

حكم على أعماله، وتخطر على ذهني أفكار تفزعني، ولا أنسى ألبتة حدثًا واحدًا أثار في نفسي أفكارًا كثيرةً سببت لي ألمًا معنويًّا شديدًا.

في ساعة متأخرة من إحدى الأمسيات دخل حجرة الاستقبال بسترته السوداء وصديرته البيضاء؛ لكي يصحب فولوديا إلى قاعة الرقص، وكان الأخير يرتدي ملابسه في حجرته، وكانت جدتي في حجرة نومها تنتظر مثول فولوديا أمامها قبل ذهابه إلى المرقص، (كانت عادتها أن يمثل أمامها قبل كل حفلة راقصة؛ لتفحصه وتمنحه بركتها وتزوده بتوجيهاتها) وكانت ميمي وكاتنكا تروحان وتجيئان في القاعة التي كانت مضاءةً بشمعة واحدة فقط، بينما كانت ليوبتشكا تجلس إلى «البيانو» تتعلم كونسرتو فيلد الثانية، وهي قطعة أمي المفضلة.

لم يقابلني ألبتة تشابه بين أي شخصين مثل هذا التشابه، بين أختي وأمي، ولم يكن التشابه في الوجه ولا في القوام، ولكن في صفة دقيقة –في اليدين وطريقة المشي، وخصائص الصوت وبعض العبارات، فحين كانت ليوبتشكا تغضب فتقول: «لن يسمح بهذا لطول العمر، وكانت تنطق كلمتي «طول العمر» اللتين جرت عادة أمي أيضًا على استعمالهما، حتى ليبدو لك أنك تسمع طولهما في صوتها، ولكن التشابه يكون أكثر وضوحًا عندما تعزف على البيانو جميع أنواع العزف، فهي تعدل وضع ثوبها عندما تجلس بنفس الطريقة تمامًا، وتقلب صفحاتها من أعلى يدها اليسري، وتدق المفاتيح بقبضتها وهي عابسة، وذلك إذا لم تستطع أداء مقطوعةً صعبةً كما يجب، وتقول: «آه، يا إلهي!» وكانت تمتاز بتلك النعومة التي تجل عن الوصف، ودقة التنفيذ، وطريقة فيلد الجميلة التي

تسمى بجدارة «المعزوفة النفيسة»، التي لا يستطيع واحد بين جميع عازفي البيانو المحدثين الأدعياء أن ينسى سحرها.

ودخل بابا الحجرة في خطوات سريعة قصيرة، وقصد إلى ليوبتشكا، التي توقفت عن العزف عندما رأته. وقال بابا وهو يعيدها إلى جلستها ثانيًا: «لا، استمري في العزف، فأنت تعلمين كم أحب سماعك»، واستمرت ليوبتشكا في العزف، وجلس بابا مواجهًا لها وقتًا طويلًا مسندًا رأسه بيده، ثم هز كتفيه هزةً خاطفةً على حين فجأة، ونهض وأخذ يسير ذهابًا وإيابًا، ثم جلس. وكان في كل مرة يقترب من البيانو يتوقف ويتأمل بإمعان في ليوبتشكا. وقد تبينت من حركاته وطريقة مشيته أنه كان شديد الاضطراب. وبعد سيره حول الحجرة عدة مرات، وقف وراء مقعد ليوبتشكا وقبل شعرها الأسود ثم عاد أدراجه واستأنف سيره. وعندما أتمت ليوبتشكا عزف مقطوعتها وأقبلت عليه تسأله «هل تحبها؟»، تناول رأسها بين يديه، صامتًا دون أن ينطق بكلمة واحدة، وأخذ يقبل حاجبيها وعينيها في حنان لم أره يظهر مثله تمامًا.

وقالت ليوبتشكا فجأةً وهي تدلي سلسلة ساعتها وتثبت على وجهه عينيها الشديدتي الدهشة: «لماذا تبكي! اغفر لي يا بابا العزيز، لقد نسيت تمامًا أن هذه كانت مقطوعة ماما».

وقال في صوت يتهدج بالانفعال: «لا يا عزيزتي، اعزفيها كثيرًا، إنك ستفعلين إذا ما عرفتِ فقط كم يريحني أن أبكي معكِ».

وقبلها مرةً أخرى محاولًا التغلب على انفعاله، وهز كتفيه وخرج من الباب المؤدي إلى الدهليز وحجرة فولوديا. وصاح وهو يقف في منتصف

الدهليز: «والديمار! أيمكن أن تستعد بسرعة؟» وفي تلك اللحظة مرت الخادمة ماشا، فغضت من بصرها حين رأت سيدها وحاولت أن تتحاشاه. فاستوقفها وقال لها وهو ينحني عليها: «إن جمالك ليتزايد كل يوم».

وخجلت ماشا وأحنت رأسها أكثر من ذي قبل، وقالت هامسة «اسمح لي».

وقال بابا مرةً أخرى وهو يهز كتفيه ويسعل عندما مضت ماشا، ووقع نظره على والديمار: «هل أوشكت على التأهب يا والديمار؟».

لقد أحببت بابا، ولكن عقل الإنسان لا يستشير قلبه، وكثيرًا ما يخفي الأفكار التي تهين مشاعره، فهو لا يدركها كما يجب، ويتجهم لها. ورغمًا عن ذلك فقد جاهدت لكي أطرد مثل هذه الأفكار بعيدًا عني، ولكنها ظلت تساور عقلي.

* * *

(٥١)

جدتي

ازدادت جدتي ضعفًا يومًا بعد يوم، وكثيرًا ما كان يسمع في حجرتها صوت جرسها وصوت جاشا المتذمر ـ وصفق الأبواب. ولم تعد تستقبلنا في المكتبة وهي في مقعدها الكبير المريح، ولكن في حجرة نومها، في سريرها المرتفع بوسائده المزركشة الطرفين بالمخرم «الدانتلا». وعندما كانت تحيينا كنا نلاحظ انتفاخًا باهتًا ضاربًا إلى الصفرة بارزًا على يدها، ونشم تلك الرائحة الخانقة في حجرتها التي لاحظتها منذ خمس سنوات في حجرة أمي. وكان يحضر الطبيب ثلاث مرات في اليوم، ويتشاور مع زملائه عدة مرات، ولكن خلقها وعاداتها الرفيعة المتكلفة مع جميع أفراد البيت وبخاصة مع أبي لم تتبدل أقل تبدل، فهي لا تزال تمد كلماتها وترفع حاجبيها وتقول «يا عزيزي» بنفس طريقتها السابقة تمامًا.

ثم لم يسمح لنا بزيارتها لأيام قليلة. واقترح سان جيروم في صباح أحد الأيام أن أخرج للتنزه مع ليوبتشكا وكاتنكا راكبين، وكان ذلك في ساعات الدراسة. وبالرغم من أنني لاحظت أثناء ركوبي مركبة الجليد أن الشارع المقابل لنوافذ حجرة جدتي كان مفروشًا بالقش وأن أناسًا كثيرين يرتدون معاطف زرقاء يقفون على مقربة من بابنا، إلا أنني لم أفهم لماذا

أرسلوني في نزهة راكبة في مثل هذه الساعة غير العادية. كنا ليوبتشكا وأنا طوال نزهتنا، ولسبب ما، على تلك الحالة النفسية المرحة الغريبة، حتى إنه كان يثير ضحك الواحد منا كل مصادفة، وكل كلمة وكل حركة.

لقد أثار ضحكنا بائع متجول عبر الطريق بصندوقه ركضًا. وجعلنا نضحك بصوت صاخب حوذي لحق بمزلقتنا رامحًا وهو يلوح بأعنته، واشتبك سوط فيليب في زلاقتي مركبة الجليد، فالتفت خلفه، وقال: «شيء يضايق!»، فكدنا نموت من فرط الضحك، ورمقتنا ميمي بنظرة امتعاض، وقالت إن «البلهاء» من الناس فقط هم الذين يضحكون بلا سبب على الإطلاق، أما ليوبتشكا فقد احتقن وجهها بالضحك المكبوت وألقت عليَّ نظرةً جانبيةً طويلةً. وتقابلت عينانا، ثم انفجرنا في ضحك طائش حتى طفرت الدموع من أعيننا، ولم نستطع ضبط انفجارات المرح التي كانت تخنقنا. وما كدنا نهدأ حتى رمقت ليوبتشكا بنظرة ونطقت بكلمة غامضة كانت في وقت ما دارجة بيننا، وتحرضنا دائمًا على الضحك، حتى انفجرنا بالضحك مرةً أخرى.

وعندما وقفنا عند بابنا، كنت على وشك افتعال حركات بوجهي لليوبتشكا بصورة مضحكة جدًّا حين أفزعني منظر غطاء أسود لتابوت مسند إلى الباب، فتجمدت الحركة على وجهي.

وخرج إلينا سان جيروم بوجه شاحب وقال لنا: «لقد ماتت جدتكم!».

لقد كنت طوال الوقت الذي بقت فيه جثة جدتي بالمنزل أعاني خوفًا لا يحتمل من الموت كما لو كان الجسم الميت حيًّا، وذكرني ذلك بصورة كريهة، وهي أنني لا بد أن أموت في يوم ما -وهو شعور جرت العادة

لسبب ما، أن يختلط بالحزن. لم أشعر بالحزن على جدتي. وبالرغم من أن البيت كان في الواقع مليئًا بالزائرين المحزونين فلا يكاد يكون هناك شخص بينهم شعر بحزن خالص عليها سوى شخص واحد حيرني حزنه الشديد أعظم حيرة، وكانت الخادمة جاشا هي ذلك الشخص، إذ حبست، نفسها في حجرة السطح على الدوام، وسبت نفسها، وقطعت شعرها، ورفضت تقبل أي عزاء، وقالت إن سيدتها الآن قد ماتت، وإنها لا تريد إلا أن تموت هي نفسها.

وأكرر مرةً أخرى إن عدم اليقينية في مسائل الشعور هو دلالة الصدق التي يعول عليها أكبر تعويل.

وبالرغم من أن جدتنا لم تعد معنا، فإن الذكريات والإشارات الخاصة بها ظلت في البيت كما هي، وكانوا قلقين بنوع خاص على الوصية التي كتبتها قبل وفاتها، والتي لا يعرف أحد شيئًا من محتوياتها باستثناء منفذها، الأمير إيفان إيفانتش. وقد لاحظت بعض الهياج بين أهل جدتي، وكثيرًا ما ترامت إلى سمعي ملاحظات عمن ستؤول إليه ممتلكاتها، ويجب أن أعترف أنني سررت رغمًا عني لفكرة أننا سنرث شيئًا ما.

وفي نهاية ستة أسابيع أخبرني نيكولاي الذي كان يقوم بوظيفة الصحيفة اليومية في مسكننا، أن جدتي تركت جميع ممتلكاتها لليوبتشكا، وأن الذي يقوم بالوصاية عليها لحين زواجها ليس بابا، بل هو الأمير إيفان إيفانتش.

(٥٢)

أنا

لم يبق غير شهور قليلة على التحاقي بالجامعة، أجيد الدرس، ولا أنتظر معلمي دون وجل وحسب، بل أجد لذةً محققةً في دراستي.

وأستمتع بإلقاء الدرس الذي تعلمته بوضوح ودقة، وأستعد لكلية الرياضيات، وأقرر الحقيقة أنني اخترتها لمجرد حبي غير العادي للكلمات، مثل الجيوب، والمستقيمات المماسة، والتفاضل والتكامل وما إلى ذلك.

إنني أقصر قامةً من فولوديا، عريض الكتفين وأكثر امتلاء، بسيط دائمًا، أهتم بالبساطة كالمعتاد، وأحاول أن يبدو مظهري مبتكرًا، ويغريني شيء واحد: هو أن بابا قال لي مرةً إن لي «وجهًا حساسًا»، وإنني لأصدقه كل التصديق.

وسان جيروم راض عني، ولا أحمل له كراهيةً بعد، والواقع أنه حين يوجه إليَّ ملاحظته أحيانًا بأنه من العار «مع مواهبي وذكائي» أن أفعل هذا أو ذاك، يبدو لي أنني أحبه.

وتوقفت مراقبتي لحجرة الخادمات منذ أمد بعيد، وأشعر بالخجل

من الاختفاء وراء الباب، ويجب أن أعترف فوق ذلك أن اقتناعي بأن ماشا تحب فاسيلي قد هدأ بعض الشيء من ثائرتي، وزواج فاسيلي الذي استخلصت الموافقة عليه من أبي، نتيجة لرجائه، قد شفاني نهائيًّا من غرامي التعيس.

وعندما يأتي العروسان، ومعهما صحفة عليها الحلوى المسكرة لتقديم الشكر إلى بابا.. وتلبس ماشا قبعةً ذات أشرطة زرقاء، وتقبل كل واحد منا على كتفه، ثم تعود فتشكرنا جميعًا على شيء أو آخر، لا أعي من ذلك شيئًا غير الدهان الوردي على شعرها، ولكن دون أقل عاطفة.

وقصارى القول، آخذ في سبيلي إلى الشفاء تدريجيًّا من قصوري الصبياني، ولكن مع استثناء القصور الأساسي الذي لا يزال يسبب لي كثيرًا من الأذى في حياتي –ميلي إلى التفلسف.

* * *

(٥٣)

أصدقاء فولوديا

بالرغم من أنني كنت أقوم بدور في جماعة فولوديا يجرح كبريائي، فقد كنت أحب الجلوس في حجرته عندما يكون لديه ضيوف، فأراقب في صمت كل ما يجري هناك.

وكان أكثر ضيوف فولوديا ترددًا عليه ضابط اتصال يُسمَّى دوبكوف، وتلميذ هو الأمير نخيلودوف. وكان دوبكوف صغيرًا قوي العضلات أسمر الوجه، ولم يعد في مستهل شبابه، تميل ساقاه إلى القصر، ولكنه ليس سيئ المنظر، وهو مرح على الدوام، من أولئك الأشخاص المحدودي التفكير الذين يلقون قبولًا بنوع خاص، بسبب هذا التحديد نفسه، ولا يقدرون على تأمل الأشياء من مختلف الجوانب، ويسمحون لأنفسهم على الدوام بالانسياق مع شيء ما. وحكم أناس كهؤلاء يكون من جانب واحد ويتسم بالخطأ، ومع ذلك فقلوبهم خالصة ويخلبون اللب دائمًا. ولسبب ما تبدو حتى إنانيتهم الضيقة مغتفرةً، وجذابةً. وبالإضافة إلى هذا، فإن لدوبكوف سحرًا مزدوجًا إزاء فولوديا وإزائي –هو مظهر البسالة، وأكثر من هذا كله السن التي يميل فيها الصغار من الناس إلى الأخذ بالوقار– وهو ما كان يطلق عليه، «كما ينبغي» –الشيء الذي يقدره

الناس ممن في مثل عمرنا أسمى تقدير- يضاف إلى ذلك أن دوبكوف كان حقيقًا بأن يطلق عليه «كما ينبغي». والشيء الوحيد الذي لم أكن أحبه هو أن فولوديا في بعض الأحيان كان يبدي خجله في أثناء وجوده من أعمالي البالغة السذاجة، ومن حداثة سني فوق كل شيء.

لم يكن نخيلودوف وسيمًا: عينان صغيرتان رماديتان، وجبهة منخفضة غير مستوية، ذراعان وساقان طويلة غير متناسقة، وتقاسيم لا يمكن وصفها بالجمال. والشيء الجميل الوحيد فيه هو قامته الطويلة بصورة غير عادية، ولون وجهه الرقيق وأسنانه الفائقة الجمال. ولكن تقاسيم وجهه اكتسبت طابع الجدة والحيوية، من عينيه الضيقتين اللامعتين، وتعبير ابتسامته الذي كان يتغير من التجهم إلى غموض صبياني لا يسعك إلا أن تلتفت إليه.

كان يبدو عليه الخجل الشديد من كل تافهة حتى ليتورد وجهه إلى أذنيه، ولكن خجله لم يكن كخجلي، فكلما ازداد وجهه احمرارًا ازداد تعبيره قوة إصرار، وكان يبدو حانقًا على نفسه بسبب ضعفه.

وبالرغم مما كان يبديه من شدة الود لدوبكوف وفولوديا، فمن الواضح أن المصادفة كانت قد وجدت بينهم؛ لأنهم كانوا مختلفين كل الاختلاف... كان يبدو على فولوديا ودوبكوف الخوف من كل شيء، حتى ما يشبه النقاش الجاد والشعور. وكان نخيلودوف على العكس، حاد الطباع إلى أقصى حد، وكثيرًا ما ينغمس في مناقشة مسائل فلسفية ومشاعر، مهملًا الأمور الهازلة. وكان فولوديا ودوبكوف مغرمين بالتحدث عن موضوعات حبهما (وكانا يقعان في الحب فجأةً مع الكثيرات، وكل منهما مع نفس الأشخاص)، أما نخيلودوف فكان على

العكس، يسخط دائمًا على نفسه سخطًا حقيقيًّا عندما يشيران إلى حبه لفتاة معينة «فتاة حمراء الشعر».

كان فولوديا ودوبكوف كثيرًا ما يسمحان لنفسيهما بالسخرية من أقاربهما، بينما كان نخيلودوف على العكس، كان ينساق رغم أنفه إلى تلميحات خالية من المجاملة إلى عمته التي يضمر لها نوعًا من الاحترام المذهل. واعتاد فولوديا ودوبكوف الذهاب إلى مكان ما بعد العشاء من دون نخيلودوف، وكانا يطلقان عليه «الفتاة الظريفة».

وقد أثر الأمير نخيلودوف في نفسي منذ الوهلة الأولى بحديثه وكذلك بمظهره. وبالرغم من أنني وجدت كثيرًا من طباعه مشتركًا معي -ولعل ذلك كان هو السبب- فإن الشعور الذي أوحى به إليَّ عندما رأيته لأول مرة، لم يكن غير شعور الاستحسان.

كنت أكره لفتته المتعجلة وصوته الحاسم، وهيئته المتعالية، وفوق ذلك كله، عدم الاهتمام الكلي الذي كان يبديه نحوي. وكثيرًا ما كنت أتحرق شوقًا في أثناء الحديث، إلى معارضته والتغلب عليه؛ كي أعاقبه بالرغم من إهماله لي، ولكن خجلي كان يمنعني.

* * *

(٥٤)

المناقشات

عندما ذهبت إلى حجرة فولوديا كالمعتاد بعد دروس المساء، كان مضطجعًا وقد أسند قدميه على الأريكة، معتمدًا كوعه، يقرأ قصةً فرنسيةً، وتطلع إليَّ لمدة ثانية ثم استأنف القراءة، وهو أمر بسيط وطبيعي إلى أقصى حد، ومع ذلك تسبب في صعود الدم إلى وجهي، وكان يبدو أنه نظرته تتساءل عن سبب مجيئي، والسرعة التي طأطأ بها رأسه كأنها كانت تفسر الرغبة في إخفاء معنى هذه النظرة عني (إن هذا الميل إلى إيجاد معنى لأبسط حركة كان خاصية بارزة عندي في تلك السن)، وسرت إلى المائدة وتناولت كتابًا، ولكني قبل أن أبدأ القراءة خطر لي مدى السخرية التي ينطوي عليها عدم تحدث أحدنا إلى الآخر في أي شيء، في حين أن أحدنا لم يكن قد رأى الآخر طوال اليوم.

«هل ستكون بالبيت هذا المساء؟».

«لا أدري، ولماذا؟».

قلت: «إنني أتساءل وحسب»، وإذ رأيت أنني لا أستطيع بدء مناقشة ما، تناولت كتابي وأخذت أقرأ.

ومن العجيب حقًّا أن فولوديا وأنا كنا نستطيع قضاء ساعات برمتها صامتين وحيدين. ولكن مجرد وجود شخص ثالث معنا، حتى إذا لم يتكلم، كان كافيًا لبدء أكثر الأحاديث تنوعًا وأدعاها إلى الاستغراق. وشعرنا كأن أحدنا عرف الآخر جد المعرفة، فزيادة المعرفة بشخص ما تمنع الألفة الحقيقية بقدر ما تمنعها قلة المعرفة به.

وسمع صوت في الدهليز يقول: «هل فولوديا بالبيت؟».

فأجاب فولوديا وهو ينزل قدميه ويضع كتابه على المائدة: «نعم».

ودخل دوبكوف ونخيلودوف الغرفة في سترتيهما وقبعتيهما.

«هل ستأتي إلى المسرح؟».

وأجاب فولوديا وقد احمر وجهه: «لا، ليس لديَّ متسع من الوقت».

«يا لها من فكرة! أرجو أن تحضر».

«وفوق ذلك فإنني لم أشتر تذكرةً».

«يمكنك شراء أي عدد من التذاكر عند الدخول».

وقال فولوديا مراوغًا: «انتظر، سأحضر على التو»، ثم غادر الحجرة وهو يهز كتفيه.

كنت أعرف أن فولوديا شديد الرغبة في الذهاب إلى المسرح، ولكنه رفض لعدم وجود نقود معه، وذهب ليقترض خمسة روبلات من الساقي لحين تسلمه راتبه التالي.

وقال دوبكوف وهو يناولني يده: «كيف حالك أيها الدبلوماسي؟».

وكان أصدقاء فولوديا يطلقون عليَّ السياسيَّ؛ لأن جدتي تحدثت مرةً بعد الغداء عن مستقبلنا، وإنها تتمنى أن تراني دبلوماسيًّا في حلتي ذات السترة السوداء، وشعري المصفف على طراز «عرف الديك»، وكانت تعد ذلك أمرًا ضروريًّا في وظيفة السلك السياسي.

وسأل نخيلودوف: «إلى أين ذهب فولوديا؟».

فأجبته: «لا أدري» واعتراني الخجل حين فكرت في أنهم قد يخمنون سبب مغادرة فولوديا للحجرة.

وأضاف: «ليس لديه نقود فيما أظن، أليس كذلك؟»، ثم أضاف بالإيجاب مفسرًا ابتسامتي: «وليس لديَّ أنا أيضًا –ألديك نقود يا دوبكوف؟».

وأجاب دوبكوف على نفسه وهو يخرج كيس نقوده ويتحسس بعناية قطعًا صغيرةً قليلةً بأصابعه القصيرة: «سوف نرى». وقال وهو يشير بيده إشارات مضحكةً: «هذه قطعة من ذات الخمسة كوبكات، وهذه قطعة ذات عشرين كوبك –أف».

ودخل فولوديا في تلك اللحظة:

«حسن، أسنذهب؟».

«لا».

وقال نخيلودوف: «يا لك من أضحوكة! لماذا لا تقول أن ليس لديك نقود؟ خذ تذكرتي إن شئت».

«ولكن ماذا يكون من أمرك؟».

فقال دوبكوف: «سنذهب إلى مقصورة ابن عمه».

«لا، سوف لا أذهب ألبتة».

«لماذا؟».

«لأنني لا أحب أن أجلس في مقصورة كما تعلم».

«لا أحب ذلك؛ لأنها تجعلني أشعر بالحرج».

«نفس الفكرة القديمة تعود مرةً أخرى!!» إنني لا أفهم كيف تشعر بالحرج في حين أن كل شخص يسره أن تكون معه، إنه شيء غير معقول يا عزيزي».

قال: «وماذا أفعل إذا كنت خجولًا؟ إنني متأكد من أنك لم تخجل في حياتك ألبتة، ولكنني لا أزال أخجل من أقل التوافه»، وقد احمر وجهه خجلًا في الواقع وهو يتكلم.

وقال دوبكوف بلهجة مشجعة: «أتعرف مصدر خجلك؟... إنه من المبالغة في الاعتزاز بالنفس يا عزيزي».

وقال نخيلودوف وقد تأثر في الصميم: «حقًّا، المبالغة في الاعتزاز بالنفس! على العكس، لست أحمل غير قليل جدًّا من الكبرياء، وأشعر دائمًا كأنني غير مقبول، وأبعث على الملل».

وقال دوبكوف وهو يمسك فولوديا من كتفيه ويسحب سترته: ارتد ملابسك يا فولوديا، وأنا يا إجنات، دع سيدك يستعد».

وراح نخيلودوف يقول: «وهكذا يحدث لي كثيرًا جدًّا».

ولكن دوبكوف لم يعد يصغي إليه وأخذ يترنم متمتمًا: «ترا -لا- لا -لا».

وقال نخيلودوف: «آه، إنك لا تستطيع المضي طويلًا على هذا المنوال، وسأبرهن لك أن الخجل لا ينجم مطلقًا عن حب الذات».

«إنك ستبرهن عليه إن أتيت معنا».

«لقد قلت إنني لست بذاهب».

«حسن، ابق إذَنْ وبرهن عليه للدبلوماسي؛ وسيخبرنا بكل ذلك عند عودتنا».

وجاوب نخيلودوف في عناد صبياني: «وأنا كذلك؛ فهيا أسرعوا بالعودة».

وقال وهو يجلس بجانبي «وماذا تظن؟ هل أنا متكبر؟».

ومع أنه كان لي رأي في تلك النقطة، فقد أذهلني هذا السؤال غير المتوقع، حتى لقد انقضت فترة دون أن أتمكن من إجابته.

وقلت وأنا أشعر بصوتي يتهدج ووجهي يحمر؛ عندما ساورتني فكرة أن الوقت قد حان لأريه أنني ذكي-: «أظن أن كل إنسان متكبر؛ وأن كل شيء يفعله الإنسان إنما يفعله بدافع الكبرياء».

وقال نخيلودوف وهو يبتسم ابتسامة أظن فيها شيئًا من الاستخفاف: «وما الكبرياء في رأيك؟»، قلت: «الكبرياء -هو اعتقاد الشخص بأنه أفضل وأعقل من أي شخص سواه».

«ولكن كيف يستطيع كل شخص قبول ذلك الاعتقاد؟».

«لست أعرف ما إذا كان محقًّا أم لا، ولكن لا يعترف بذلك أحد، وأنا مقتنع الآن أنني أعقل من أي شخص آخر في العالم، وواثق من أنك مقتنع بنفس الشيء».

وقال نخيلودوف: «لا؛ أستطيع على الأقل أن أقول لنفسي؛ إنني قابلت أناسًا أعترف أنهم أعقل مني».

وأجبت في اقتناع: «هذا مستحيل».

وقال نخيلودوف وهو يمعن في النظر: «هل تظن ذلك حقًّا؟».

ومن ثمَّ خطرت لي فكرة صرحت بها على التو.

وأضفت قائلًا بابتسامة لا إرادية مهذبة: «سأثبت لك هذا. لماذا نحب أنفسنا أكثر من الآخرين؟ ذلك لأننا نعتبر أنفسنا أفضل من الآخرين، وأجدر منهم بالحب، فإذا اعتبرنا الآخرين أفضل منا، فينبغي إذَنْ أن نحبهم أكثر من أنفسنا، وهذا ما لا يحدث مطلقًا، وحتى إذا كان يحدث فأنا على حق أيضًا».

وظل نخيلودوف صامتًا برهةً.

وقال في ابتسامة فيها من العذوبة والرقة ما جعلني أشعر فجأةً بالسرور التام: «إنني لم أشك مطلقًا في أنك ذكي جدًّا».

إن المديح يؤثر تأثيرًا قويًّا جدًّا، لا في شعور الإنسان وحسب، بل في عقله، الذي يبدو لي أنني أصبحت أكثر ذكاءً تحت تأثيره السار، وأن الأفكار تخطر على ذهني الواحدة بعد الأخرى بسرعة غير عادية. ومن الكبرياء انتقلنا إلى الحب دون أن نلاحظ، وتناقشنا في هذا الموضوع

الذي لا ينضب له معين فيما أظن. وبالرغم من أن أحكامنا ربما بدت محض هراء للسامع الذي لا يهمه الأمر -وبالرغم من غموضها وإنها ذات جانب واحد-، إلا إنها كانت ذات دلالة سامية بالنسبة لنا. وكانت أرواحنا متوافقةً في انسجام كبير، حتى لقد كانت أقل لمسة على أي وتر في واحد منا تجد لها صدى عند الآخر. واستمتعنا بهذا الصدى المتبادل في مختلف الأوتار التي لمسناها في نقاشنا.

وخُيِّلَ إلينا أن الوقت والكلمات كانت بحاجة إلى أن تفسر بها لبعضنا البعض الأفكار التي ننشد النطق بها.

* * *

(٥٥)

بداية الصداقة

منذ ذلك الوقت نشأت بيني وبين ديمتري نخيلودوف علاقات غريبة نوعًا ما، ولكنها مرضية جدًّا. وقلما كان يوجه إليَّ اهتمامًا في حضرة الغرباء، ولكن حالما يتصادف وجودنا وحيدين، كنا نجلس في ركن هادئ، ونأخذ في المناقشة ساهين عن الوقت وعن كل شيء حولنا.

كنا نتحدث عن حياتنا المستقبلة، وعن الفنون، وعن خدمة الحكومة، والزواج وتعليم الأطفال، ولم يخطر لأذهاننا أن كل ما قلناه كان هراءً فظيعًا، ولم يخطر لنا هذا ألبتة؛ لأن اللغو الذي كنت نتحدث فيه كان حكمةً وهراءً لطيفًا، إذ يظل المرء في شبابه يرفع من قدر الحكمة ويعتقد فيها. وفي الشباب تتجه كل قدرات الروح نحو المستقبل، ويتخذ ذلك المستقبل لنفسه مثل هذه الأشكال الزاهية الفاتنة تحت تأثير الأمل -لا الأمل المؤسس على تجربة الماضي، ولكن على الاحتمالات المتخيلة لسعادة مقبلة- حتى لتشكل مجرد أحلام المستقبل سعادةً حقيقيةً في تلك المرحلة من العمر عندما نشترك فيها. وفي المناقشات التي كانت تدور حول ما وراء الطبيعة، والتي تكون واحدًا من أهم موضوعات مناقشاتنا، كنت أحب اللحظة التي تتوالى فيها الأفكار في تعاقب سريع بعضها في

إثر بعض، ويزداد غموضها على الدوام، ثم تبلغ درجةً من الإبهام بحيث لا تجد وسيلةً للتعبير عنها، وبالرغم من ظنك أنك تقول ما تعنيه، فإنك تقول شيئًا مختلفًا كل الاختلاف. كنت أحب التحليق إلى أعلى فأعلى في عوالم الفكر إلى حيث تدرك فجأةً لا نهائيتها كلها، وتعترف بتعذر التقدم إلى أبعد من ذلك.

حدث أن كان نخيلودوف أثناء الكرنفال مستغرقًا في أنواع اللهو، وبالرغم من حضوره إلى المنزل عدة مرات كل يوم، لم يتحدث إليَّ مرةً واحدةً، وقد ضايقني هذا منه كثيرًا، حتى لقد خيل إليَّ مرةً أخرى أنه متعال بغيض، غير أنني كنت أنتظر الفرصة لأريه على الأقل أنني لم أكن أقيم لعشرته وزنًا، وأنني لا أحتفظ له بود خاص.

وفي أول مناسبة بعد الكرنفال أراد أن يتحدث إليَّ، قلت له: إن لديَّ دروسًا يجب أداؤها، ثم صعدت إلى الطابق العلوي، ولكن شخصًا ما فتح باب حجرة الدراسة، ودخل نخيلودوف.

وسألني: «هل أزعجتك؟».

فأجبت: «لا»، وإن كنت أريد أن أقول له إنني مشغول في الحقيقة.

«وإذَنْ لماذا غادرت حجرة فولوديا؟ إننا لم نتحدث منذ وقت طويل، ولقد تعودت ذلك إلى الحد الذي أتخيل معه أنني افتقدت شيئًا».

واختفى كدري في لحظة، وبدا ديمتري في عيني نفس طراز الرجل الساحر كما كان من قبل.

قلت: «لعلك تعرف سبب ابتعادي».

فأجاب وهو يجلس بجانبي: «ربما يكون ذلك، ولكن حتى لو كنت أخمن فلا أستطيع أن أقول لماذا ولكنك تستطيع أنت ذلك».

«سأخبرك! لقد ابتعدت لأنني كنت حانقًا عليك -لست حانقًا، ولكن متكدر. وأصارحك القول أنني أخشى على الدوام أن تستهين بي لأنني لا أزال صغير جدًّا».

وقال مجيبًا على اعترافي بمزاج باش وابتسامة صريحة: «هل تعرف لماذا أصبحت مخلصًا لك إلى هذا الحد؟ ولماذا كان حبي لك يفوق حبي للناس الذين عرفتهم وألفتهم أكثر منك؟ لقد اكتشفت السبب.. لأنك تمتاز بصفة نادرة جدًّا -الصراحة».

فقلت مؤمنًا على قوله: «نعم، إنني أقول دائمًا نفس الأشياء التي أخجل من الاعتراف بها، ولكني أعترف بها لأولئك الذين أثق بهم».

«نعم، ولكن لكي يثق المرء بشخص ما، يجب أن يخلص له حقيقةً، ونحن لسنا أصدقاء بعد يا نيكولاي، وأنت تذكر أننا بحثنا في الصداقة، فلكي نكون صديقين مخلصين يجب أن يثق أحدنا بالآخر».

فقلت: «ولكي آمن على ما أقوله لك، يجب ألا تذكره لأي شخص آخر، ولكن أهم الأفكار وأكثرها فائدةً هي تلك الأفكار التي لا يخبر بها أحدنا الآخر لأي سبب!».

فقال: «ويا لها من أفكار تعافها النفس! إن أفكارًا كتلك، لو عرفنا أننا يجب أن نرغم على الاعتراف بها، كان يجب ألا نتجاسر مطلقًا على التفكير فيها».

وأضاف قائلًا وهو ينهض من على مقعده ويفرك يديه مبتسمًا: «أتعرف ماذا حدث لي يا نيكولاي؟ دعنا «نعمله» وسترى كم هو مفيد لكلينا. فلنتعاهد على أن يعترف كل لصاحبه بكل شيء: سيعرف كل منا الآخر، ولن نخجل، ولكن لكي لا نخشى الغرباء، فلنتعاهد «ألا» نقول «أي شيء» عن بعضنا البعض «لأي شخص»، وذلك ما سنفعله».

ولقد فعلنا ذلك حقيقة، أما ما نتج عن هذا، فهو ما سأوريه لك فيما يلي:

قال كارل: إن لكل اتصال وجهين: واحد يحب، في حين يسمح الآخر لنفسه بأن يحب، وواحد يقبل، والآخر يقدم الوجنة، وهذا صحيح تمامًا. وفي صداقتنا، أنا الذي قبلت وديمتري قدم وجنته، ولكنه كان مستعدًّا أيضًا لتقبيلي، حتى لقد أحببنا أحدنا الآخر على قدم المساواة؛ لأن كلينا عرف الآخر وقدره، ولكن هذا لم يمنعه من فرض تأثيره عليَّ وخضوعي له.

وتحت تأثير نخيلودوف تبينت رأيه دون وعي مني بطبيعة الحال، وجوهر هذا الرأي هو العبادة الحارة للفضيلة المثالية والاعتقاد في أن الإنسان يهدف على الدوام إلى تكميل نفسه، ثم يبدو إصلاح النوع البشري كله، والقضاء على رذائل الإنسان، وتعاسته، شيئًا سهلًا؛ فإصلاح المرء لنفسه، والحصول على كل الفضائل، والتمتع بالسعادة، كل ذلك كان يبدو أمرًا يسيرًا.

ولكن الله وحده يعلم ما إذا كانت آمال الشباب السامية هذه هزلًا، ومن هو الملوم على عدم تحقيقها.

الشباب

(٥٦)

الوقت الذي أعتبره بداية لشبابي

قلت إن صداقتي مع ديمتري كشفت لي صورةً جديدةً من الحياة.. أهدافها واتجاهاتها. وتتكون هذه الصورة في جوهرها من الاعتقاد بأن مصير الإنسان هو الكفاح في سبيل الكمال الخلقي، وأن هذا الكمال سهل وممكن ودائم. ولكني كنت أستمتع قبل الآن بكشف الأفكار الجديدة التي تنبثق من هذا الاعتقاد، ومن تكوين خطط رائعة لمستقبل أخلاقي نشيط، بينما كانت حياتي تسير على أسلوبها المشوش العقيم -وكانت الأفكار المختلفة التي بحثتها في أحاديثي مع صديقي المحبوب ديمتري- (أومتيا المدهش) كما كنت أدعوه أحيانًا فيما بيني وبين نفسي -لا تزال ترضي عقلي فقط، لا مشاعري. ومع ذلك فإن الوقت قد حان لظهور أفكار أخلاقية كهذه في عقلي، فيها من العذوبة والجدة ما جعلني أنزعج حين تأملت مدى الوقت الذي ضيعته؛ وأردت أن أطبق هذه الأفكار مباشرةً، وفي نفس اللحظة، على الحياة، بقصد راسخ وألا أتنكر لها.

ذلك هو الوقت الذي أؤرخ به بداية «شبابي». كنت آنئذ أناهز السادسة عشرة، واستمر المدرسون في تلقيني الدروس، وكان سان جيروم لا يزال مشرفًا على دراساتي، وكنت مضطرًّا إلى الإعداد للجامعة على غير رغبة

مني، وكانت مشاغلي خارج الدراسات تتضمن العزلة، والهواجس والتأملات المتقطعة، وتدريبات الألعاب الرياضية، لكي أجعل من نفسي أقوى رجل في العالم؛ وفي التجول على غير هدى بجميع حجرات المنزل، وبخاصة في دهليز حجرة الخادمات، والتفرس في وجهي عرضًا في المرآة. وكنت أنصرف عن هذا الانشغال دائمًا بشعور من القنوط لا يحتمل، بل بشعور الامتعاض. ولم يقتصر الأمر على سذاجة مظهري، كما كنت أعتقد، بل كنت عاجزًا عن التسرية عن نفسي بضروب التسلية المعتادة في مثل هذه الأحوال، فلم أستطع القول بأن وجهي معبر أو مفكر أو نبيل؛ لم يكن فيه شيء ينطوي على تعبير، فالتقاسيم من الطراز البسيط المعتاد، وعيناي الصغيرتان الرماديتان أقرب إلى الغباء منهما إلى الذكاء، وبخاصة حين كنت أتفرس في المرآة، كان شكلي لا يزال ينقصه شيء من سمات الرجولة؛ وبالرغم من أنني لم أكن صغير القامة، وكنت قويًّا جدًّا بالنسبة إلى سني، فإن جميع تقاسيم وجهي كانت رخوة مترهلة، سيئة لتحديد، بل لم يكن فيها شيء نبيل، على العكس، كان وجهي أشبه بوجه الفلاح الروسي، وكانت يداي وقدماي كبيرتين مثله، وخيل إليَّ في ذلك الوقت أنه شيء مهين.

* * *

(٥٧)

الربيع

في السنة التي التحقت فيها بالجامعة، وقع عيد القيامة في تاريخ متأخر جدًّا من شهر أبريل حتى إن الامتحانات عقدت في أسبوع كواسيمودو[١]، وكان عليَّ أن أتناول القربان المقدس أثناء أسبوع الآلام وبذلك يتم إعدادي.

كان الطقس رخوًا، حارًّا صافيًا لثلاثة أيام بعد الجليد الرطب الذي كان يسميه كارل إيفانتش عادة «الابن أعقب الأب». ولم تعد ترى في الشوارع كتلة واحدة من الثلج، وكان الوحل القذر قد أفسح الطريق للبلل، والأرصفة اللامعة والجداول السريعة. كانت القطرات الأخيرة من ذوب الجليد تتساقط من الأسطح تحت الشمس، والبراعم تزدهر على الأشجار في الحديقة الأمامية؛ وكان الممر في الفناء جافًّا. وبدأت الحشائش الشبيهة بالطحلب بالقرب من مرابط الماشية، وفيما وراء أكوام السماد المتجمدة، وبين الأحجار عند السقيفة تتحول إلى الخضرة. إن هذه لفترة

---

(١) هو الأسبوع التالي لعيد القيامة عند الكنيسة الغربية، ويعرف الأحد التالي لعيد الفصح «بأحد توما» في الكنيسة الشرقية. ولا يقدم القربان المقدس في أسبوع القيامة عادةً إلا للضرورة القصوى. (المترجم).

الخاصة من الربيع هي التي تؤثر تأثيرًا قويًا في نفس الإنسان -الشمس صافية، مكتملة، لامعة، ولكنها ليست حارةً. والجداول ومساحات الجليد المكشوفة تهمس للهواء بالنضارة، والسماء ذات الزرقة الرقيقة المعرفة بالسحب الطويلة الشفافة... لست أعرف السبب، ولكن يخيل إليَّ أن تأثير هذه الفترة الأولى من مولد الربيع تكون أشد قوةً وأدعى إلى الشعور بها في مدينة كبرى- إن المرء ليرى القليل ولكنه يدرك الكثير.

كنت واقفًا أمام النافذة التي تنسكب أشعة الشمس المرقطة من إطاراتها المزدوجة على أرض حجرة الدراسة التي ضقت بها ضيقًا لا يحتمل، وأنا أحل على السبورة معادلة طويلة في الجبر. كنت ممسكًا بإحدى يديَّ نسخةً باليةً ضعيفةً من كتاب فرانكر في علم الجبر، وبالأخرى قطعة صغيرة من الطباشير كنت قد لوثت بها يدي الاثنتين ووجهي وكتفي سترتي. وكان نيكولاي يرتدي ميدعةً ويكشط المعجون ويخلع المسامير من النافذة المطلة على الحديقة الأمامية، فأدى عمله هذا، والضجة التي أحدثها إلى تشتيت انتباهي، بالإضافة إلى حالتي العقلية السيئة الساخطة. لم تجر الأمور معي على وجه مُرْضٍ، فقد ارتكب غلطةً في أول عملية الجمع، ولذا كان لا بد لي أن أبدأها من جديد. وأسقطت قطعة الطباشير مرتين، وكنت عارفًا بتلوث يدي ووجهي، واختفت الإسفنجة في مكان أو آخر، وكانت الضجة التي يحدثها نيكولاي قد أتت على أعصابي، وشعرت كأنني أثور غضبًا وأتذمر من شخص ما؛ فألقيت بالطباشير والجير جانبًا وأخذت أذرع الحجرة. وتذكرت حينئذ أنني يجب أن أذهب اليوم للاعتراف، وأنني يجب أن أكف عن ارتكاب أي خطأ؛ ثم انتهيت فجأةً إلى مزاج لطيف، واقتربت من نيكولاي.

وقلت محاولًا أن أضفي على صوتي أرق تنغيم: «دعني أساعدنا يا نيكولاي، ولاعتقادي أنني أتصرف تصرفًا سليمًا، وأنني كظمت غيظي وأخذت في مساعدته، فقد رفعت هذه النزعة اللطيفة من حالتي العقلية أكثر من ذي قبل.

ونزع المعجون، وأزيلت المسامير، وبالرغم من أن نيكولاي قد شد على الإطار المعاكس بكل قوته فإنه لم يذعن له.

وقلت في نفسي: «إذا انخلع الإطار الآن مباشرةً عندما نشده معًا، فمعنى هذا أنني أرتكب إثمًا لو ذاكرت اليوم أكثر من ذلك، ولذا فلن أذاكر». ومال الإطار على أحد الجانبين ثم انفصل.

وقلت: «إلى أين سيحمل؟».

وأجاب نيكولاي وقد ظهرت عليه الدهشة، وامتعض فيما يبدو لحماستي هذه: «اسمح لي أن أدبر هذا بنفسي، سأحتفظ بها جميعًا مرقمةً في حجرة السطح».

وقلت وأنا أرفع الإطار: «سأرقمه».

يخيل إليَّ أنه لو كانت حجرة السطح على مسافة فرسخين، وإطار النافذة ضعف وزنه، لسرني هذا كثيرًا جدًّا. ولأردت أن أتعب نفسي في أداء هذه الخدمة لنيكولاي. وعندما عدت إلى الحجرة كانت القراميد وأقماع الملح[1] قد أعيد رصها على عتبات النوافذ، وكنس نيكولاي

(١) أقماع الملح الصغيرة توضع في النوافذ لامتصاص الرطوبة، أما القراميد أو قوالب الطوب الصغيرة فإنها تضاف غالبًا للزينة.

الرمل والذباب المستكين وقذف به من النافذة المفتوحة. وملأ الحجرة هواء جديد لذيذ، ونفذ منها أيضًا طنين المدينة وزقزقة العصافير.

كان كل شيء يسبح في الضوء، وأصبحت الحجرة مبهجةً، ونسيم الربيع الهادئ يهز أوراق كتاب الجبر وشعر نيكولاي، وسرت إلى النافذة، وجلست على الإفريز، وانحنيت مطلًا على الحديقة وأخذت أفكر.

وللحال تغلغل في روحي شعور جديد سار بالغ القوة: الأرض الرطبة التي تتدافع فوقها النصال الخضراء اللامعة من الحشائش ذات السيقان الصفراء وتشق طريقها، والجداول تتلألأ تحت أشعة الشمس، وتدوم بالمدر الترابي الصغير وشرائح الخشب، وتحمل معها عساليج الزنبق الآخذة في الاحمرار ببراعمها المنتفخة التي كانت تتمايل تحت النافذة مباشرة؛ والزقزقة القلقة التي تصدر عن الطيور المزدحمة في هذه الحرجة، والسياج الضارب إلى السواد المبلل يذوب الجليد، بل الهواء الندى المعطر والشمس الضاحكة بنوع خاص -كانت تتحدث إليَّ في صراحة وصفاء عن شيء جديد بالغ الجمال، إن كنت لا أستطيع تصويره كما حدثني عن نفسه؛ فإنني سأحاول أن أعيده كما تلقيته. كل شيء تحدث إليَّ عن الجمال والسعادة والفضيلة، وقال كل منها إنها ميسرة لي وممكنة، حتى إن الواحدة لا يمكن أن توجد من دون الأخرى، بل إن الجمال والسعادة والفضيلة كل واحد ونفس الشيء. وقلت في نفسي: «كيف أخفقت في فهم هذا؟ وكم كنت شريرًا قبل الآن! وكم كان يمكن أن أكون سعيدًا، وكم ستكون سعادتي في المستقبل!» يجب أن أصبح بسرعة رجلًا آخر، بأسرع ما يمكن، وفي نفس هذه اللحظة؛ وأبدأ حياةً

مختلفةً». ولكني برغم ذلك ظللت جالسًا وقتًا طويلًا عند النافذة أحلم ولا أفعل شيئًا. ألم يحدث لك مطلقًا أن اضطجعت في الصيف لكي تنام إبان النهار في جو مقبض مطير، ثم تستيقظ عند غروب الشمس، لتفتح عينيك، فترى من خلال النافذة المربعة الواسعة، ومن تحت الستار الكتاني الذي ينتفخ بالهواء، ويضرب بعوده عتبة النافذة من الجانب الظليل الأرجواني لممشى الزيزفون المبلل بالمطر، وممرات الحديقة المنداة التي تضيئها أشعة الشمس اللامعة المائلة، ولتسمع على حين فجأة صوت الحياة المرحة بين العصافير في الحديقة، ولترى الحشرات تدوم عند فتحة النافذة في الشمس الشفافة؛ ثم تتنبه إلى رائحة الهواء العطرة بعد المطر وتقول في نفسك: «يا له من عار أن أنام في أمسية كهذه!» وحينئذ تقفز متعجلًا لكي تذهب إلى الحديقة وتبتهج بالحياة. إذا كان هذا قد حدث لك، فلا بد أن هناك نوعًا من الشِّعر القوي الذي خبرته آنئذٍ.

* * *

(٥٨)

هواجس

قلت لنفسي: «سأذهب اليوم إلى الاعتراف، ولن أقترف خطيئةً مرةً أخرى (وهنا تذكرت جميع ذنوبي التي كانت تؤلمني إلى أقصى حد)؛ وسوف أذهب إلى الكنيسة دون انقطاع كل يوم أحد، ثم سأقرأ في الإنجيل فيما بعد ساعةً كاملةً. ومن الورقة ذات الخمسة والعشرين روبل التي سأتناولها كل شهر عندما ألتحق بالجامعة سأعطى بكل تأكيد روبلين ونصف روبل (وهو عشر المبلغ) للفقراء، وبوسيلة يعرفها أحد قط – وليست للمتسولين، بل سأبحث عن أناس فقراء، يتيم أو امرأة عجوز لا يعرف أحد عنهما شيئًا.

«وستكون لي حجرة خاصة بي (يحتمل أن تكون حجرة سان جيروم)، وسأعنى بها بنفسي، وسأحافظ على نظافتها بصورة مدهشة، ولن أترك للخادم شيئًا يفعله، لأنه كائن بشري مثلي. ثم سأمشى إلى الجامعة (وإذا أعطوني دروشكا (عربة صغيرة)، فسأبيعها وأعطي هذا المال أيضًا للفقراء)، وسأفعل كل شيء بأعظم قدر من التدقيق (أما هذا «الكل شيء» فلم يكن لديَّ فكرة عنه آنئذٍ)، ولكنني كنت مدركًا وشاعرًا بهذا «الكل شيء» في الحياة الحسية والعقلية المستقيمة، وسأعد

محاضراتي، بل سأقرأ الموضوعات مقدمًا لكي أكون على رأس المرحلة الدراسية الأولى.

وأكتب بحثًا؛ وسأعرف كل شيء مقدمًا في المرحلة الثانية، ولربما أنقل مباشرةً إلى المرحلة الدراسية الثالثة، وبذلك أتخرج في الثامنة عشرة بوصفي الطالب الأول مع وسامين من الذهب، وحينئذ أستعد لامتحان درجة أستاذ، ثم لدرجة دكتور، وأصبح المتعلم الرائد في روسيا، ولربما أصبح أعظم عالم في أوروبا، وتساءلت: «ثم ماذا بعد ذلك؟»، ولكني تذكرت هنا أن هذه أحلام -كبرياء، إثم، يجب أن أعترف بها للكاهن في ذلك المساء، وعدت إلى أول تأملاتي: «ولإعداد محاضراتي سأسير إلى تلال سبارو، وهناك سأتخير بقعةً تحت شجرة حيث أقرأ الدرس. وسآخذ شيئًا أطعم به في بعض الأحيان مثل الجبن أو فطائر اللحم من محل «بيدوتي» أو شيئًا آخر. وأستريح، ثم أقرأ كتابًا ممتعًا، أو أرسم منظرًا طبيعيًّا أو أعزف على آلة موسيقية (يجب أن أتعلم بلا شك العزف على الناي)، ثم تذهب «هي» أيضًا للنزهة إلى تلال سبارو سيرًا على الأقدام، وستقبل عليَّ يومًا وتسألني عمن أكون وسأتفرس فيها..آه، في أسى، وأقول لها إنني ابن كاهن، وأنني أشعر بالسعادة هنا فقط حين أكون وحدي، وحيدًا تمامًا. ثم تناولني يدها وتقول شيئًا ما، ثم تجلس إلى جانبي، ومن ثمَّ نذهب إلى هنالك كل يوم ونصبح أصدقاء، وسأقبلها. لا، ليس هذا صوابًا، بل على العكس، فلن أتطلع ألبتة إلى امرأة من هذا اليوم فصاعدًا. ولن أدخل أبدًا حجرة الخادمات، بل سأحاول ألا أمر بها. وبعد ثلاث سنوات سأتحرر من الوصاية وأتزوج دون إبطاء. وسأقوم

بالتدريبات الرياضية كل يوم قدر ما أستطيع، وبذلك عندما أبلغ العشرين سأكون أقوى من «رابو»؛ سأرفع في أول يوم نصف بود بيدي ممدودة لمدة خمس دقائق، وفي اليوم التالي واحدًا وعشرين رطلًا، وفي اليوم الثالث اثنين وعشرين رطلًا، وهكذا بحيث أستطيع رفع أربعة أبواد في كل يد، وأصبح أقوى من أي رجل عرفته، فإذا ما تجاسر أي شخص على إهانتي، أو تحدث «عنها» بلا تبجيل، فإنني أمسكه من صدره وأرفعه ذراعًا أو ذراعين عن الأرض بيد واحدة، وأمسك به فقط مدةً كافيةً لأجعله يشعر بمدى قوتي، ثم أُخلي سبيله. ولكن هذا ليس صوابًا أيضًا، آه، لا أهمية لذلك، فلن أصيبه بأي أذى؛ إنما سأريه فقط».

لا يعيرني أحد لأن أحلام شبابي كانت طفوليةً كأحلام طفولتي وصباي، وأعتقد أنني لو عشت إلى أرذل العمر، لأواصل قصة حياتي على الأيام، الرجل العجوز ذو السبعين عامًا، لوجدتني أرى أحلامًا طفوليةً متعذرة الحدوث كتلك التي أحلم بها الآن، سأحلم بفاتنة ما اسمها ماريا، تحبني، أنا العجوز العاطل من الأسنان كما أحبت ماريا[1]، وأحلم بابني الضعيف العقل كيف سيصبح وزيرًا على حين فجأة في ظرف غير عادي، أو أحلم كيف سيهبط على كنز من الملايين فجأةً، واعتقادي أنه لا يوجد كائن بشري، أو عمر من الأعمار محروم من هذه القدرة الخيرة المعزية، وهي القدرة على الحلم. ومع ذلك، ففيما عدا ما يميز الأحلام من طابع الاستحالة بوجه عام -أي طبيعتها السحرية- فإن أحلام كل إنسان في كل أعمار الحياة لها معالمها الخاصة المميزة. وفي خلال تلك الفترة الزمنية

(١) إشارة إلى قصيدة بوشكين المسماة «بولتافا».

التي اعتبرها ختامًا لصباي وبداية لشبابي، تكونت أربع عواطف هي أساس أحلامي: عاطفة حب موجه «إليها»، إلى امرأة وهمية كنت أفكر فيها دائمًا بنفس الانفعال، وأتوقع مقابلتها في مكان ما، في أي لحظة. وهذه هي الـ «هي» كانت تشبه سونتشكا قليلًا، وتشبه ماشا زوجة فاسيلي قليلًا، عندما كانت تقف تغسل منحنيةً فوق القصعة، وتشبه قليلًا تلك المرأة ذات اللآلئ حول عنقها الأبيض، التي رأيتها بالمسرح منذ أمد طويل، في المقصورة الملاصقة لمقصورتنا. والعاطفة الثانية كانت الحب للحب. كنت أريد أن يعرفني كل شخص ويحبني. كنت أريد أن أكون قادرًا على النطق باسمي، نيكولاي أرتنييف، وأن يأتي الجميع وقد أفزعهم هذا النبأ، فيحتشدون حولي ويشكرونني على شيء ما. والشعور الثالث كان الأمل في سعادة ما بارزة باهرة –سعادة فيها من العظمة والثبات، ما يجعلها تشرف على حافة الجنون. كنت واثقًا تمامًا أنني سأصبح وشيكًا جدًّا أبرز رجل في العالم نتيجةً لظرف أو لآخر غير عادي، حتى إنني كنت أعيش في توقع مهزوز دائم لغبطة ساحرة في صورة ما. كنت دائم التوقع أنها «على وشك البداية»، وأنني سأحصل على كل ما يتمناه إنسان، وكنت أتعجل دومًا في كافة الاتجاهات مفترضًا أنها «بدأت» فعلًا في مكان تصادف أنني لم أكن فيه. والشعور الرابع والأساسي كان تقززي من نفسي وندمي، ولكنه ندم يمتزج بالأمل في النعيم امتزاجًا كبيرًا، بحيث لم يكن يعتوره أي شيء يدعو إلى الأسى. كان يبدو لي من اليسير والطبيعي جدًّا، انتزاع نفسي من الماضي برمته ونسيان كل شيء كان في الماضي، وأن أفعل كل شيء من جديد، وأنسى كل ما كان، وأبدأ حياتي

مرةً أخرى بكل علاقاتها، وأن الماضي لا يثقل عليَّ ولا يقيدني. بل إنني وجدت لذةً في نبذ الماضي، ورأيته ذا ألوان أشد كآبة مما كانت. وكلما يشتد سواد ذكريات الماضي، كلما تزداد نقطة الحاضر النقية اللامعة، نقاءً ولمعانًا، وتبرز ألوان قوس قزح المستقبل على نقيضها. إن صوت تأنيب الضمير، والرغبة المتحمسة التي تطلب الكمال، كانت هي العاطفة الأساسية الجديدة في تلك المرحلة من مراحل النمو، وكان هذا الصوت هو الذي هيأ مبادئ جديدةً لآرائي عن نفسي وعن الناس وعن دنيا الله. آه، أيها الصوت الحنون المعزي -في الأيام الحزينة التي تنوء فيها الروح مذعنةً لثقل بطلان الحياة ورذيلتها- الذي كثيرًا ما ارتفع فجأةً بالاحتجاج على كل شيء كاذب، كاشفًا عن الماضي، مشيرًا إلى النقطة اللامعة في الحاضر، دافعًا للمرء على حبها، واعدًا بالخير والسعادة في المستقبل - آه، يا لك من صوت مبارك مُغرٍ! أستصمت في يوم من الأيام؟

* * *

(٥٩)
دائرة أسرتنا

قلما كان يأتي والدي إلى البيت في هذا الربيع، ولكنه كلما أتى كان يمرح إلى أبعد حد، ويعزف قطعه المفضلة على البيانو، وينظر إلينا متخابثًا، ويمازح ميمي ويمازحنا جميعًا، فيقول إن ابن قيصر جورجيا رأى ميمي تجيد الركوب فوقع في حبها، حتى إنه أرسل التماسًا إلى مجمع رؤساء الطائفة يطلب الطلاق، أو أنني عينت سكرتيرًا مساعدًا للسفير في فينا –وكان يذيع هذه الأخبار بوجه جاد تمامًا، وبعد ذلك يخيف كاتنكا بالعناكب، التي كانت تفزع منها. كان ودودًا جيدًا لصديقينا دوبكوف ونخيلودوف، ويخبرنا على الدوام مع زائرينا بمشروعاته عن السنة المقبلة. وبالرغم من أن هذه المشروعات كانت تتغير كل يوم تقريبًا، ويناقض بعضها البعض، إلا أنها كانت جذابةً جدًّا، حتى لقد كنا نصغي إليها باشتياق، وتتفرس ليوبتشكا في فم أبي دون أن تطرف لها عين خشية أن تفوتها كلمة. ومشروعه الآن هو أن يتركنا في موسكو بالجامعة، ويذهب مع ليوبتشكا لمدة عامين، ثم يشترى ضيعةً بالقرم على الشاطئ الجنوبي، ويذهب إلى هناك كل صيف. ومرةً أخرى أيضًا، ينتقل إلى سان بترسبورج مع كل الأسرة، وهكذا. ومع ذلك، فبالإضافة إلى مرح والدي

الملحوظ، فقد حدث فيه تغير آخر سبب لي أعظم الحيرة، ذلك أنه أحضر لنفسه بعض الملابس على أحدث طراز -سترةً زيتونية اللون، وسروالًا من الطراز الحديث ذا أحزمة للقدمين، ومعطفًا طويلًا ملائمًا له إلى أقصى حد- وكثيرًا ما كان يتعطر بأذكى العطور عندما يذهب إلى مكان ما، وبخاصة إلى السيدة التي لم تتحدث عنها ميمي قط إلا وهي تتنهد، ويتسم وجهها بلمحة كأن لسان حالها يقول: «أيها الأيتام المساكين! إنه لحب تعيس، ومن الخير أنها «ليست على قيد الحياة» وهكذا. وقد علمت من نيكولاي (لأن أبي لم يقل لنا شيئًا قط عن مغامراته) أنه كان موفقًا جدًّا في لعب الورق إبان ذلك الشتاء، فقد ربح مبلغًا هائلًا جدًّا وضعه كله في المصرف، ولم يرغب في اللعب مرةً أخرى في ذلك الربيع؛ ومن المحتمل أن يكون هذا هو سبب اهتمامه بالذهاب إلى الريف بأسرع ما يستطيع؛ خشية ألا يستطيع كبح جماح نفسه، بل إنه صمم على ألا ينتظر دخولي الجامعة، وعلى أن يذهب مع الفتيات إلى بتروفسكوي بعد عيد القيامة مباشرةً، حيث نلحق به، فولوديا وأنا هناك فيما بعد.

لم يفترق فولوديا عن دوبكوف طوال الشتاء، بل إلى الربيع (ولكن علاقته فترت كثيرًا مع ديمتري) وكانت متعهما الأساسية، بقدر ما أستطيع الحكم من خلال الأحاديث التي سمعتها، تتضمن شرب الشمبانيا دون انقطاع، والسير بمركبة جليد تمر من تحت نوافذ السيدات الصغيرات اللائي وقع كلاهما في حبهن، والرقص وجهًا لوجه -لا في حفلات الرقص الخاصة بالطفال، ولكن في مراقص حقيقية.

إن هذه الحالة الأخيرة سببت نفورًا بين فولوديا وبيني، بالرغم من

ودنا المتبادل؛ وكنا ندرك أن هناك بونًا كبيرًا جدًّا بين صبي لا يزال تحت إشراف معلمين خصوصيين، ورجل يرقص في حفلات الرقص الكبرى، بحيث يتعذر ربط أفكار أحدنا بالآخر. كانت كاتنكا قد نضجت تمامًا، وقرأت طائفةً كبيرةً جدًّا من الروايات، ولم تعد فكرة زواجها وشيكًا مجرد مزاح في نظري بعد الآن. ومع ذلك، فبالرغم من أن فولوديا قد اكتمل نموه أيضًا، فإنهما لم يكونا متلازمين، لا بل كان يستخف أحدهما بالآخر فيما يظهر. ولم يكن لدى كاتنكا وهي في البيت ما يشغلها غير الروايات، وكانت تضيق بالوقت كل الضيق، ولكن حين كان يزورنا الرجال تصبح في غاية النشاط والفتنة، وترمقهم بنظرات الغرام، ولم أستطع فهم أقل شيء مما تعنيه هذه النظرات. وأخيرًا فقط، حين عرفت من حديثها أن الغزل الوحيد المباح لفتاة، هو غزل الأعين، استطعت أن أفسر لنفسي حركات العين الغريبة المصطنعة التي لم تبد غريبة ألبتة في أعين الآخرين. وأخذت ليوبتشكا ترتدي ملابس معظمها طويل؛ لكي تخفي ساقيها السيئي التكوين فلا يكاد يظهر منهما شيء ألبتة، ولكنها ظلت كثيرة البكاء، كما كانت دائمًا ولم يعد حلمها الآن الزواج من أحد رجال السواري، بل من مغن أو موسيقي، وبناءً على ذلك عكفت على موسيقاها بنشاط أوفر من ذي قبل. أما سان جيروم، الذي كان يعلم أنه سيبقى بالمنزل فقط حتى تنتهي امتحاناتي، فقد وجد وظيفةً عند «كونت» فكان منذ ذلك الوقت ينظر إلى بيتنا في شيء من الازدراء. وقلما كان يبقى في البيت، وعكف على تدخين السجائر التي كانت تمثل قمة الأناقة، ويصفر أنغامًا مرحةً دون انقطاع. وأخذت ميمي تزيد صرامة يومًا بعد يوم. والآن، وقد بدأنا نكبر، لم يعد

ينتظر، فيما يبدو، من أحدنا أي خير.

عندما نزلت لتناول لغداء، وجدت ميمي وكاتنكا وليوبتشكا وسان جيروم وحدهم في حجرة الطعام، ولم يكن أبي بالمنزل، وكان فولوديا يستعد لامتحانه مع زملائه بحجرته، وأمر بتقديم الطعام لهم هناك. وأخيرًا جاءت ميمي التي لم يكن بيننا من يحمل لها احترامًا، فجلست على رأس المائدة، وبذلك فقد الغداء كثيرًا من جماله. لم يعد الغداء كما كان على أيام أمي وجدتي، نوعًا من الاحتفال يوحد الأسرة كلها في ساعة معينة، ويقسم اليوم إلى نصفين؛ وكنا نسمح لأنفسنا بالتأخر، والحضور في شطره الثاني، وبشرب النبيذ من أكواب غير الأكواب العادية (وضع سان جيروم بنفسه مثالًا في هذه النقطة)، وبأن نسترخي على مقاعدنا، ونترك المائدة قبل أن ينتهي الطعام، وما إلى ذلك من الحريات. ومنذ تلك الآونة لم يعد للغداء كما كان من قبل، مرحه ووقاره العائلي اليومي.

تعودنا في أيامنا السالفة في بتروفسكي، أن يأتي كل منا إلى الطعام وقد استحم وارتدى ملابسه من جديد، وأن يذهب إلى حجرة المائدة في الساعة الثانية، ويجلس هناك يثرثر مغتبطًا في انتظار الساعة المعينة. وفي الوقت الذي تبدأ فيه ساعة مخزن رئيس الخدم في الطنين التمهيدي لتعلن عن الساعة الثانية، كان يدخل فوكا دون جلبة والفوطة على ذراعه بوجه مهيب عابس نوعًا ما، ويعلن في صوت مرتفع وقور أن «الغداء جاهز!». ويذهب الجميع إلى حجرة الطعام، الكبار في المقدمة والصغار من ورائهم بوجوه مرحة راضية، قمصانهم المنشاة تخشخش، وأحذيتهم تحدث صريرًا، فيجلسون في أماكنهم المألوفة يتحدث في أصوات خفيضة.

وكنا في موسكو أيضًا نقف أمام المائدة نتحدث في هدوء في انتظار جدتي؛ ويكون جافريلو قد ذهب ليبلغها أن الغداء معد، فيفتح الباب في الحال، وهنا يسمع حفيف ثوب خافت، وصوت أقدام. وتخرج جدتي من حجرة نومها وعلى رأسها غطاء مزركش بأنشوطة قديمة بنفسجية، باسمةً أو متجهمةً (حسبما يتفق مع حالتها الصحية) -ويندفع جافريلو إلى مقعدها، وتصرف المقاعد الأخرى، فتشعر بقشعريرة تجري في عمودك الفقري -تبشر بشهية للأكل -وتناول «فوطتك» الرطبة المنشأة نوعًا ما، وتطعم قضمةً أو قضمتين من الخبز، وتفرك يديك تحت المائدة بشراهة متعجلة هانئة. وتتأمل جفنة الحساء التي يتصاعد منها البخار، التي يوزعها رئيس الخدم وفقًا للمركز والسن والحظوة عند جدتي.

ولكني لم أعد أتذوق مثل هذا الابتهاج أو الإثارة التي تجري بين ميمي وسان جيروم والفتيات حول الحذاء الفظيع الذي ينتعله المدرس الروسي وملابس الأميرة كورناكوفا ذات الأذيال وهكذا -هذه الثرثرة التي كانت توحي إليَّ من قبل بالاحتقار الحقيقي الذي لم أكن حتى أحاول إخفاءه بقدر ما يتصل الأمر بلوبتشكا وكاتنكا- أخفقت في إزعاج حالتي العقلية الجديدة الخيرة، وكنت لطيفًا على غير العادة، وأصغيت إليهم بابتسامة مجاملة خاصة، وطلبت بأدب أن يناولوني «الكفاش»[١]. ووافقت سان جيروم حين أصلح لي العبارة التي كنت قد استعملتها قبل الغداء وأخبرني أن قولي «أستطيع» خير من قولي: «يمكنني»[٢]. ومع

(١) نوع من الجعة الروسية، وتُصنع عادةً من الجاودار.

(٢) قبلت هذه العبارة باللغة الفرنسية، وهي في الأصل **Je puis** بدلاً من **Je Peu**.

ذلك فيجب أن أعترف أنه ساءني نوعًا ما إن أحدًا لم يلاحظ أي ملاحظة خاصة على كياستي وظرفي. وأرتني ليوبتشكا بعد الغداء ورقةً كانت قد كتبت عليها ذنوبها؛ فقلت لها كل شيء على خير ما يكون، ولكن الأفضل أن يكتب المرء ذنوبه في روحه، أما الذي فعلته فإنه «لم يكن المطلوب».

وسألتني ليوبتشكا: «ولِمَ لا؟».

«ولا ضير –وذلك أيضًا حسن جدًّا، إنك لا تستطيعين فهمي»، ثم صعدت إلى حجرتي بالطابق العلوي، وأخبرت سان جيروم أنني ذاهب للمذاكرة، ولكنني في الحقيقة أردت قضاء الوقت الباقي على الاعتراف الذي كان سيتم في مدى ساعة ونصف، وكتبت قائمةً بواجباتي ومشاغل حياتي كلها، وعرضت على ورقة هدف حياتي والقواعد التي ينبغي العمل بمقتضاها دون أي انحراف.

* * *

(٦٠)

قواعد

أخذت رقعةً من الورق، وحاولت قبل كل شيء كتابة قائمة بواجباتي وفروضي في السنة القادمة، ولما كان يجب أن تسطر هذه الورقة، في حين أنني لم أجد مسطرةً، فقد استخدمت قاموس اللغة اللاتينية. وعندما أجريت الريشة على طول القاموس، ثم رجعت بها ثانيةً، ظهر لي أنني تركت على الورقة بقعةً طويلةً من الحبر بدلًا من السطر. هذا بالإضافة إلى أن القاموس كان أقصر من الورقة، فدارت الريشة حول زاويته اللينة. وتناولت قطعةً أخرى من الورق، وبتحريك القاموس تمكنت إلى حد ما إن أرسم خطًّا معينًا. وبعد أن قسمت واجباتي إلى ثلاثة أقسام –نحو نفسي، ونحو جاري ونحو الله– بدأت أكتب واجبات القسم الأول، ولكنها أصبحت كثيرةً جدًّا، وتعددت أنواعها وأقسامها الفرعية حتى أصبح من الضروري أن أكتب أولًا «قواعد الحياة»، ثم أشرع عندئذ في عمل بيان بها. فتناولت ست قطع من الورق، خططتها في شكل كراسة وكتبت في أعلاها «قواعد الحياة» وظهرت هاتان الكلمتان في شكل متعرج مشوش، حتى إنني فكرت برهةً طويلةً فيما إذا كان ينبغي أن أكتبها، وانزعجت طويلًا وأنا أتأمل هذا البيان المهلهل وهذا العنوان الذي لا شكل له...

لماذا يتحول كل شيء كان جميلًا ونظيفًا جدًّا في روحي إلى شيء كريه على الورقة، وفي الحياة بوجه عام حين أرغب في التطبيق العملي لأي شيء من الأشياء التي أفكر فيها؟

وجاء نيكولاي ينبئني قائلًا: «لقد حضر الكاهن، فتفضل بالهبوط إلى الطابق السفلي لسماع توجيهاته».

خبأت كراستي في المائدة، ونظرت في المرآة، وفرشت شعري الذي أكسبني في رأيي مظهر المفكر، وذهبت إلى حجرة الجلوس حيث جهزت منضدةً بالصور المقدسة والشموع الموقدة. ودخل أبي من باب آخر في نفس الوقت الذي دخلت فيه، منح الكاهن بركته لأبي، وهو راهب رمادي الشعر، متقدم السن، عابس الوجه؛ ولثم أبي يده القصيرة العريضة اليابسة، وفعلت مثله.

وقال أبي: «نادوا فالديمار، أين هو؟ آه، حقًّا إنه يتناول القربان في الجامعة».

وقالت كاتنكا ونظرت إلى ليوبتشكا: «إنه يدرس مع الأمير». واحمر وجه ليوبتشكا لسبب ما، وفزعت متظاهرةً بأن شيئًا ما آلمها، وغادرت الحجرة فتبعتها، وتوقفت في حجرة الاستقبال، وكتبت شيئًا آخر في ورقتها.

وسألتها: «ماذا، هل ارتكبت خطيئةً جديدةً؟».

فأجابت وقد احمر لونها: «لا، لا شيء من هذا».

وفي هذه اللحظة سمعنا صوت ديمتري في حجرة الانتظار وهو

يودع فولوديا.

وقالت كاتنكا مخاطبةً ليوبتشكا وهي تدخل الحجرة: «إن كل شيء يوسوس لك».

لم أعرف ماذا حدث لأختي؛ لقد كانت بالغة الارتباك، حتى إن الدموع طفرت من عينيها، وتزايدت حيرتها حتى صارت غضبًا، من نفسها، ومن كاتنكا، التي كان من الواضح أنها تغيظها.

إنه ليسهل على المرء أن يرى أنك «أجنبية» (لم يكن هناك شيء أكثر إهانة لكاتنكا من أن يقال لها «أجنبية»، وكان هذا هو السبب فيما فعلته ليوبتشكا) ثم مضت تقول في صوت فيه تعال: «إنك قبل تناول سر مقدس كهذا تروحين فتزعجينني؛ ينبغي أن تفهمي أن هذا ليس مزاحًا قط».

وسألت كاتنكا وقد ساءتها كلمة أجنبية: «أتعرف ماذا كتبت يا نيكولاي؟ لقد كتبت...».

وقالت ليوبتشكا متلعثمةً وهي تبتعد عنا: «لم أتوقع أن تكوني حقودةً إلى هذا الحد... إنها تدفعني إلى الخطيئة عامدةً في مثل هذه الآونة. إنني لا أثير مشاعرك وآلامك، هل فعلت هذا؟».

❊ ❊ ❊

(٦١)

اعتراف

بهذه الأفكار وما شابهها من الأفكار الأخرى المحيرة، رجعت إلى حجرة الجلوس، وكان الكل قد اجتمعوا هناك، ونهض الكاهن ليتلو الصلاة قبل الاعتراف؛ ولكن ما إن جلجل صوت الراهب الوقور المعبر بين الصمت الشامل، وبخاصة عندما وجه إلينا الكلمات التالية: «اعترفوا بكل ذنوبكم دون خجل، أو إخفاء أو تخفيف، فتصفو روحكم أمام الله، ولكن إن أخفيتم أي شيء فإنكم تقترفون إثمًا أعظم»، حتى عاودني القلق الورع الذي كنت قد شعرت به صباح اليوم السابق عند تفكيري في العشاء الرباني القادم. بل لقد وجدت لذةً في فهم حالتي وحاولت المحافظة إليها، ووضعت حدًّا لجميع الأفكار التي ساورتني محاولًا أن أخاف شيئًا ما.

كان أبي أول من ذهب للاعتراف، ومكث وقتًا طويلًا جدًّا في حجرة جدتي، وبقينا نحن جميعًا في نفس الوقت بحجرة الجلوس صامتين، أو أخذنا نتناقش هامسين في من ينبغي أن يذهب أولًا -وأخيرًا سمع صوت الكاهن مرةً أخرى من وراء الباب وهو يقرأ صلاة، ثم سمع وقع أقدام أبي. وصرف الباب، وخرج وهو يسعل، رافعًا أحد كتفيه أعلى من الآخر كما كانت عادته، دون أن ينظر إلى أحد منا.

وقال أبي في ابتهاج وهو يقرص وجنة ليوبتشكا: «اذهبي أنتِ الآن يا لوبا، واعلمي أنكِ ستقولين كل شيء. إنكِ مذنبتي الكبرى كما تعلمين».

وأحمر وجه ليوبتشكا ثم شحب على التوالي، وأخرجت قائمتها من مئزرتها ثم أخفتها مرةً أخرى، وغاص رأسها بين كتفيها كمن تتوقع ضربةً من فوق، ومرت من الباب. ولم تمكث طويلًا، ولكنها عندما خرجت كان كتفاها يهتزان بالنشيج.

وأخيرًا جاء دوري بعد كاتنكا الجميلة التي خرجت مبتسمةً. دخلت الحجرة نصف المضيئة بنفس الخوف الكئيب، والرغبة المقصودة في مضاعفة الخوف. ووقف الكاهن أمام المنبر، وأدار وجهه نحوي في بطء.

لم أمكث أكثر من خمس دقائق في حجرة جدتي، ولكني حين خرجت، كنت سعيدًا؛ ووفقًا لمعتقداتي في ذلك الوقت، كامل النقاء، وتغيرت إلى أقصى حد، وأصبحت رجلًا جديدًا. وبالرغم من أن كل ملابسات الحياة القديمة كانت تصدمني بصورة كريهة.. نفس الحجرات، ونفس الأثاث، ونفس وجهي أنا، (لا بد أنني قد رغبت في تغيير مظهري، تمامًا كما فكرت من قبل في أن كل ما في طويتي قد تغير) -ومع ذلك، فقد بقيت على هذه الحالة العقلية المنعشة إلى أن ذهبت للنوم.

كنت من قبل وسنانًا أستعرض في خيالي جميع الآثام التي تطهرت منها، عندما تذكرت على حين فجأة خطيئةً مخجلةً احتفظت بها ولم أذكرها في اعترافي؛ وعادت إلى ذهني كلمات الصلاة التي تليت قبل الاعتراف وتردد صداها في أذني دون انقطاع، واختفت كل رصانتي في لحظة واحدة، وظللت أسمع دون توقف: «ولكن إن أخفيتم أي شيء،

فإنكم تقترفون إثمًا أعظم». ورأيت أنني أثيم فظيع بحيث لا توجد عقوبة تلائمني. وظللت أتخبط من جنب إلى جنب بينما كنت أتأمل موقفي وأتوقع عقاب الله، بل الموت من لحظة إلى لحظة، وهي الفكرة التي قذفت بي إلى فزع يجل عن الوصف. ولكن ساورتني على حين فجأة الفكرة الموفقة، وذلك أن أذهب ماشيًا أو في عربة إلى الكاهن في الدير حالما يبزغ الضوء، وأعترف إليه مرةً أخرى، وأستعيد هدوئي.

* * *

(٦٢)

الرحلة إلى الدير

استيقظت عدة مرات في تلك الليلة؛ خشية أن أتأخر في النوم: وفي الساعة السادسة كنت واقفًا على أهبة الاستعداد. ولم يكد الضوء يظهر في النوافذ بعد؛ حتى ارتديت ملابسي وانتعلت حذائي، الذي كان مكومًا بالقرب من فراشي غير ممسوح؛ لأن الوقت لم يتسع لنيكولاي لنقله بعيدًا عن الفراش، وخرجت إلى الشارع وحدي لأول مرة في حياتي دون أن أغتسل أو أتلو صلواتي.

ومن وراء المنزل الكبير ذي السقف الأخضر، على الجانب الآخر من الشارع بزغ الفجر البارد الكئيب ذو اللون الأحمر الوردي، وكان جليد الصباح الربيعي القارس يحتجز الوحل والجداول ويتهشم تحت الأقدام ويلفح وجهي ويدي.

لم يكن هناك حوذي واحد في شارعنا حتى ذلك الوقت، وإن كنت قد عولت على واحد ينقلني في الذهاب والعودة في وقت أسرع... لم يكن هناك غير عربات قليلة تسير متثاقلة عل امتداد الـ «أربات» واثنين من بنائي الأحجار يمران على الرصيف يتحادثان. وبعد أن قطعت نحو ألف

خطوة بدأت أقابل رجالًا ونساء يحملون سلالًا في طريقهم إلى السوق، أو براميل في طريقهم إلى الماء؛ وظهر بائع «بقلاوة» عند ناصية الشارع، وكان دكان واحد لبائع خبز الكلاتش[1] مفتوحًا، ومررت عند «أرباتسكي جيت» بحوذي عجوز نائم على مركبته (دروشكي) الممزقة المرقعة. ويحتمل أنه كان لا يزال نائمًا حين طلب مني عشرين كوبك ليحملني إلى الدير ويعود بي ثانيةً، وكاد يسير مبتعدًا، وقال مزمجرًا: «إن حصاني بحاجة إلى طعام، ولا أستطيع أن أحملك يا سيدي».

وكان أن أغريته بصعوبة على الوقوف بمنحه أربعين كوبك، فجذب حصانه وتأملني باهتمام وقال: «ادخل يا سيدي» وأعترف أنني خفت، إلى حد ما، أن يحملني إلى طريق منعزل ويسلبني ما معي. وأمسكت ببنيقته البالية بقوة، وكان عنقه المجعد نحيلًا فوق ظهره المقوس، وصعدت إلى المقعد الأزرق المائل المتأرجح، وسار يقعقع إلى فوزدفيزنكا. ولاحظت أثناء الطريق أن ظهر الدروشكي مبطنًا من القماش الأخضر، الذي صنعت منه سترة الحوذي، وطمأنتني هذه الحقيقة لسبب ما، ولم أعد خائفًا من أن يحملني إلى طريق مظلم ويسلبني.

كانت الشمس قد ارتفعت تمامًا، وكست قباب الكنائس بلونها الذهبي اللامع حين وصلنا إلى الدير. وكان الصقيع لا يزال باقيًا في الظل، ولكن الطريق كان يفيض بمجاري المياه العكرة، وكان الحصان يرشش وهو يجتاز ذوب الجليد الموحل. ولدى دخولي سياج الدير، استفسرت من أول شخص رأيته مارًّا عن المكان الذي أجد فيه الكاهن.

(١) الكلاتشي نوع معين من الخبز الأسطواني الشكل أو الرغيف الصغير.

وقال الراهب المار بعد أن توقف هنيهةً، وهو يشير إلى مسكن صغير ذي رواق صغير: «هنالك توجد صومعته».

قلت: «إنني شاكر لك كل الشكر».

وهنا رحت أتساءل عما يظنه بي الرهبان (الذين كانوا في تلك اللحظة يخرجون من الكنيسة) ويتطلعون جميعًا ناحيتي. لم أكن كبيرًا ولا طفلًا، كان وجهي غير مغسول وشعري غير ممشط وملابسي غير مهندمة، وحذائي غير مصبوغ وملوث بالطين... لا بد أنهم كانوا يحاولون تعيين الطبقة من الناس التي أنتسب إليها -لأنهم تفرسوا فيَّ تفرسًا شديدًا جدًّا. ومع ذلك فقد سرت إلى الناحية التي عينها لي الكاهن الشاب.

قابلني رجل عجوز في ثوب أسود، ذو لحية رمادية غزيرة، في الممر الضيق المؤدي إلى الصومعة وسألني عما أريد.

وبقيت لحظة أريد أن أقول «لا أريد شيئًا» وأعود مسرعًا إلى العربة، وأركب إلى البيت، ولكن وجه الرجل العجوز أوحى إليَّ بالثقة بالرغم من حاجبيه المعقودين، فقلت لا بد لي من مقابلة الكاهن، وذكرت له اسمه.

فقال وهو يتلفت وراءه: «تعال يا سيدي الشاب، فأرشدك إلى الطريق». ومن الواضح أنه تكهن لساعته عن سبب زيارتي فقال: «إن الأب يؤدي صلاة الصباح وسيكون هنا حالًا».

وفتح الباب، وتقدمني عبر دهليز وحجرة استقبال كليهما نظيف، أرضهما مغطاة بفرش من الكتان النقي، ثم إلى الصومعة.

كانت الغرفة التي وجدت نفسي فيها صغيرة إلى أبعد حد، ومنظمة

بدقة كبرى، يتكون أثاثها فقط من منضدة صغيرة مغطاة بمشمع، موضوعة بين نافذتين مزدوجتي المصاريع، عليها آنيتان من أزهار الخبيزي الإفرنجية (الجيرانيوم)، وقاعدة تحمل الصور، يتدلى أمامها مصباح. بها مقعد واحد ذو مسندين ومقعدان عاديان. وفي الركن ساعة معلقة رسمت على مزولتها أزهار، مع أثقالها النحاسية، ذات السلاسل التي تلف نصف دورة، وهناك ثوبان للكاهن معلقان بمسمارين على الحاجز الذي يغلب عليَّ الظن أن الفراش من ورائه والذي يتصل بالسقف بألواح خشبية مطلية باللون الأبيض.

كانت النوافذ تطل على جدار أبيض على مسافة (أرشين) تقريبًا بينها وبين الجدار تنمو حرجة صغيرة من شجيرات السوسن، ولا يصل إلى الغرفة أي صوت من الخارج، ولذلك كانت تسمع دقات خطّار الساعة الرتيبة عاليةً في هذا الصمت، وحالما أصبحت وحيدًا في ركني الهادئ هجرتني تمامًا أفكاري وذكرياتي السابقة على حين فجأة كأنها لم تكن، واستغرقت تمامًا في هواجس لذيذة يتعذر التعبير عنها: ذلك الثوب الكهنوتي القطني الحائل، وأغلفة الكتب الجلدية السوداء الممزقة، ومشابكها النحاسية، وخضرة النباتات القاتمة، والأرض التي رويت بعناية والأوراق التي أحسن غسلها، وبنوع خاص، صوت خطّار الساعة الرتيب المتناوب، كلها كانت تتحدث إليَّ بجلاء عن حياة جديدة كانت مجهولة عندي حتى آنئذ –حياة عزلة وصلاة، وسعادة ساكنة هادئة.

وقلت في نفسي: «تمضي الشهور، وتمضي السنون، وهو وحيد دائمًا، هادئ دائمًا، وهو يشعر دائمًا أن ضميره نقي أمام الله، وأن صلواته

مسموعة عنده تعالى». وجلست على ذلك المقعد نصف ساعة، أحاول ألا أتحرك، وألا أتنفس بصوت مرتفع حتى لا أشوش ذلك التناسق في الأصوات التي كانت تتحدث إليَّ بالشيء الكثير. وكان الخطّار يدق كما كان من قبل،.. دقة عالية إلى اليمين، وأخرى أكثر رقةً إلى اليسار.

❊ ❊ ❊

(٦٣)

اعتراف ثان

ونبهني وقع أقدام الكاهن من هواجسي.

وقال لي وهو يصلح شعره الرمادي بيده: «مرحبًا، ماذا أستطيع أن أفعل لك؟».

فطلبت منه أن يباركني، ولثمت يده القصيرة الصفراء برضاء غريب.

وعندما شرحت له التماسي، لم يجب، بل ذهب إلى الأيقونة وبدأ في سماع اعترافي.

وحين تغلبت على خجلي ورويت له كل شيء في نفسي وانتهى الاعتراف، وضع يديه على رأسي، وقال بصوته الهادي العذب: «لتباركك يا بني نعمة أبينا السماوي، وليحفظ عليك إيمانك وسلامك ووداعتك إلى الأبد، آمين».

كنت سعيدًا تمامًا، وارتفعت دموع الغبطة في حلقي، وقبلت ثنايا ثوبه الكهنوتي ذا القماش الرقيق، ورفعت رأسي، وكان وجه الراهب هادئًا تمامًا.

شعرت أنني أستمتع بغبطة في إحساسي بالانفعال؛ ولخوفي من

طردها من ذهني لسبب ما، سارعت بوداع الكاهن، وغادرت السياج دون أن أتطلع يمينًا أو شمالًا حتى لا ألفت الانتباه، وجلست ثانيةً في الدروشكي المبرقشة المتأرجحة، ولكن اهتزاز المهمات، وتباين الأشياء التي كانت تتراءى أمام عيني، سرعان ما قشعت ذلك الإحساس، وبدأت لساعتي أفكر في أن الكاهن كان في أغلب الظن، يفكر في نفس الوقت في أنه لم يقابل ألبتة روحًا لطيفة كروح شاب مثلي، بل لن يقابلها من بعد.. طوال حياته، وأنه لا يوجد آخرون على شاكلتي. كنت مقتنعًا بذلك، وبعث في هذا الاقتناع شعور الابتهاج بمثل هذه الطبيعة، حتى إنني احتجت إلى الاتصال بشخص ما.

كنت بحاجة ملحة إلى التحدث إلى شخص ما، ولما لم يكن في متناولي أحد غير الحوذي فقد التفت إليه.

سألته: «هل تركتك مدةً طويلةً جدًّا؟».

فأجابني، وكان يبدو عليه الآن الابتهاج أكثر من ذي قبل؛ لأن الشمس كانت قد ارتفعت في السماء: «لقد حان وقت لإطعام حصاني منذ وقت طويل، وأنا كما ترى حوذي ليلي».

قلت: «يُخيل إليَّ أنني لم أتغيب أكثر من دقيقة»، ثم أضفت وأنا أغير مقعدي، وأنتقل إلى المكان الخالي بجانب الحوذي: «وهل تعرف لماذا ذهبت إلى الدير؟».

فأجاب: «حسن، ليس هذا من شأني، أليس كذلك؟ إنني أحمل ركابي إلى حيث يأمرونني».

وقلت في إصرار: «ولكن، ماذا تظن؟».

فقال: «حسن، ربما هناك من هو بحاجة إلى الدفن، فذهبت تشتري له مكانًا».

«لا صديقي، هل تعرف سبب ذهابي؟».

فأجاب: «لا يا سيدي، لا أستطيع أن أعرف».

وخيل إليَّ أن صوته بالغ الرقة، حتى إنني صممت على أن أقص عليه سبب رحلتي، بل والشعور الذي كابدته، وذلك بقصد تهذيبه.

«سأقص عليك إن شئت. أنت تعرف...».

ورويت له كل شيء، ووصفت له كل عواطفي الجميلة، حتى إني لأخجل الآن عندما أتذكر هذا.

وقال بارتياب: «نعم يا سيدي».

وظل صامتًا بعد ذلك وقتًا طويلًا دون أن يتحرك، غير أنه كان بين حين وآخر يصلح من ذيل سترته، فقد ظل يجنبه قدمه المبرقشة التي تهتز صاعدةً هابطةً في حذائها الكبير على سلم العربة. وظننت أن رأيه في كرأي الكاهن تمامًا -أي أنه لا يوجد شاب لطيف مثلي في العالم. ولكنه التفت ناحيتي فجأةً، وقال لي:

«حسن يا سيدي، ذلك هو شأنكم يا معشر الأعيان».

فقلت مستفسرًا: «ماذا؟».

«إنه تمامًا شأن الأعيان».

وقلت في نفسي: «لا، إنه لم يفهمني»، ولكني لم أقل شيئًا أكثر من ذلك حتى وصلنا المنزل.

ومع أن شعور الحماسة والورع لم يبق طوال الطريق، فقد بقي الرضاء الذاتي عن التجربة التي خبرتها بالرغم من الناس الذين رقطوا الشوارع المشمسة بالألوان في كل مكان. وكان حالما وصلت إلى المنزل اختفى هذا الشعور تمامًا. لم يكن لديَّ القطعتين من فئة العشرين كوبك لأدفع للحوذي، ولم يقرضني جافريلو رئيس الخدم مرةً أخرى؛ لأنه أقرضني من قبل، ولا بد أن يكون الحوذي الذي رآني أجري مرتين مجتازًا الفناء للحصول على نقود، قد خمن السبب؛ لأنه هبط من الدروشكي، وبالرغم من أنه كان قد أظهر نحوي رقةً بالغةً، فقد بدأ يتكلم بصوت مرتفع وعداء واضح نحوي، عن النصابين الذين لا يدفعون أجر ركوبهم.

كان الجميع نائمين في المنزل، ولذلك لم يكن هناك أحد أستطيع أن أقترض منه أربعين كوبك، فيما عدا الخدم. وأخيرًا، دفع فاسيلي أجره نيابةً عني بناءً على كلمة الشرف المقدسة، بل المقدسة إلى أبعد حد من التقديس، والتي لم يثق فيها أقل ثقة (بقدر ما تبينت من وجهه)، ولكنه فعل ذلك لأنه كان يحبني، ولأنه تذكر الخدمة التي قدمتها له. وعندما ذهبت لأرتدي لباس الكنيسة لأتناول القربان المقدس مع الباقين، ولما وجدت أن ملابسي الجديدة لم تصل بعد، أثارني ذلك كثيرًا. وارتديت حلةً أخرى، وذهبت لتناول القربان في حالة غريبة من التشوش العقلي، مليئًا بالتشكك في كل دوافعي السامية.

(٦٤)

أعددت نفسي للامتحان

في يوم الجمعة التالي لعيد الفصح، ذهب أبي وأختي وميمي وكاتنكا إلى الريف، وبذلك بقي في بيت جدتي الكبير، فولوديا وأنا وسان جيروم وحسب.. واختفت حالتي العقلية التي كنت عليها في يوم الاعتراف، حينما ذهبت إلى الدير اختفاءً تامًّا، وتركت مجرد ذكرى معتمة وإن كانت سارةً، أغرقتها شيئًا فشيئًا الانطباعات الجديدة التي تتسم بها الحياة الحرة.

وكذلك اندست الكراسة المعنونة «قواعد الحياة» في كومة المذكرات ذات الخط المهوش. وبالرغم من سروري لفكرة إمكان وضع قواعد لجميع أحداث الحياة والاسترشاد بها دائمًا، وما بدا لي من أنها فكرة بسيطة جدًّا، وعظيمة جدًّا في نفس الوقت، عمدت إلى تطبيقها على الحياة، إلا أنني نسيت أيضًا فيما يظهر ضرورة تطبيقها فورًا، وظللت أؤجلها إلى وقت غير محدد، ولكني اغتبطت لحقيقة واحدة هي أن كل فكرة طرأت على ذهني آنئذ، كان تندرج مباشرةً تحت قسم من أقسام قواعدي وواجباتي –تحت عنوان الواجب، إما نحو جاري أو نحو شخصي أو نحو الله. وكنت أقول لنفسي:

«سأصفها كغيرها من الأفكار الكثيرة التي ستطرأ على ذهني في هذا الموضوع فيما بعد»، وكثيرًا ما أسأل نفسي الآن: متى كنت أحسن حالًا وأكثر صوابًا؟ أعندما كنت أعتقد في قدرة العقل البشري، أم الآن بعد أن فقدت القدرة على النمو. وتشككت في قوة العقل البشري ودلالته؟ لا أستطيع أن أجيب على نفسي بأي إجابة مؤكدة.

إن الشعور بالجريمة، وذلك الشعور الربيعي بحدوث شيء منتظر، الشيء الذي وصفته فورًا، أثارني إلى الحد الذي لم أستطع معه السيطرة على نفسي سيطرةً إيجابيةً، إذ كان استعدادي للامتحان سيئًا. فلتفرض أنك مشغول في حجرة الدراسة وقت الصباح، وأنت تعرف أنك يجب أن تعمل، لأنه سيعقد في اليوم التالي امتحان في موضوع معين لم تقرأ منه مسألتين كاملتين. وتهب عليك فجأةً من النافذة هبات نسيم معطرة، ويخيل إليك أنك لا بد أن تتذكر شيئًا ما، وتسقط يداك تلقائيًّا، وتأخذ ساقاك في الاهتزاز بمحض رغبتهما الخاصة، وتخطو إلى خلف وإلى أمام، ويخيل إليك أن «يايًا» مضغوطًا مثبتًا في رأسك، وتشعر بالخفة والمرح وتبدأ الهواجس المتألقة تسري في عقلك بسرعة فائقة، ومن ثَمَّ تمضي ساعة وساعتان دون أن تنتبه لذلك، أو إلى أنك جالس إلى كتابك تركز انتباهك إلى حد ما على ما تقرأ، ثم تسمع على حين فجأة صوت وقع أقدام سيدة وحفيف ثوبها في الدهليز، فيهرب كل شيء من عقلك، ولا تستطيع الجلوس ساكنًا بالرغم من أنك تعرف جد المعرفة أن أحدًا لا يمكن أن يمر في ذلك الدهليز إلا جاشا، خادمة جدتي القديمة، وتقول لنفسك: «ومع ذلك أفترض أنها لا بد أن تكون «هي»». وهب أنها يجب

أن تبدأ الآن، وأنني أضيعها.. وتندفع إلى الدهليز، فتجد أنها جاشا فعلًا، ومع ذلك لا تستطيع السيطرة على عقلك وقتًا طويلًا -ويضغط «الياي» مرةً أخرى، ويبدأ الاضطراب المخيف مرةً أخرى. أو أنك تجلس في غرفتك في المساء وحيدًا ومعك شمعة من الشحم، فتنصرف عن كتابك برهة لكي تقرض ذبالة الشمعة، أو لتستقر في مقعدك في وضع أبعث إلى الراحة -إن الظلام يسود كل مكان... الأبواب والأركان؛ والهدوء يشمل كل شيء في البيت، فكذلك من المحال ألا تقف وتصغى إلى ذلك الصمت، وألا تتفرس في حلكة الباب المفتوح، وألا تمكث هناك وقتًا طويلًا جدًّا دون حركة وفي نفس الوضع، أو لا تهبط إلى الطابق السفلي، أو لا تسير في الحجرات الخاوية. وكثيرًا أيضًا ما كنت أجلس لا يدري بي أحد، أصغي في القاعة إلى صوت معزوفة «العندليب» التي كانت تعزفها جاشا على البيانو بأصبع واحدة، وهي جالسة وحدها على ضوء شمعة من الشحم في المسكن الفسيح. وعندما كان يضيء القمر لم يكن باستطاعتي أن أقاوم النهوض من فراشي، والوقوف إلى النافذة المشرفة على الحديقة والنظر إلى سقف بيت شابوسنيكوف المضيء، وبرج كنيسة الأبرشية الرشيق، وفي الليل إلى ظلال السياج والحرجات مبسوطة على ممرات الحديقة. كنت أجلس هناك وقتًا طويلًا، حتى لقد تحل الساعة العاشرة صباحًا قبل أن أستطيع فتح عيني.

ولذلك؛ فلو لم يكن بسبب المدرسين الذين استمروا في الحضور إليَّ، وبسبب سان جيروم الذي أصبح بين حين وآخر يستنهض خيلائي كارهًا، ولرغبتي في أن أبدو قبل كل شيء في عيني صديقي نخيلودوف

ذلك الشاب الكفء، أي بالحصول على امتياز في الامتحان، وهذا شيء يعتبر في رأيه على جانب عظيم من الأهمية: لو لم يكن بسبب هذا كله، لكان للربيع والحرية وتأثير على نسيان كل شيء عرفته من قبل، ولما استطعت بحال من الأحوال اجتياز الامتحان.

❊ ❊ ❊

(٦٥)

امتحان التاريخ

في السادس عشر من إبريل دخلت القاعة الكبرى بالجامعة لأول مرة في حياتي برعاية سان جيروم. ووصلنا إلى هناك في مركبتنا المكشوفة الأنيقة إلى حد ما؛ وكنت أرتدي سترة السهرة الطويلة. وكانت جميع ملابسي حتى الداخلية البيضاء منها والجوارب، جديدة تمامًا ومن أجود نوع. وعندما ساعدني «الحاجب» على خلع معطفي ووقفت أمامه بكل جمال زيىي، شعرت بالخجل إلى حد ما لكوني أبهر البصر إلى حد كبير، ولكن ما إن دخلت القاعة المتألفة بأرضها المصقولة التي كانت ملأى بالناس، ورأيت مئات من الشبان في زي الجمنازيوم[(١)] وسترة السهرة، وتطلع إليَّ عدد قليل منهم في غير اهتمام، وكان الأساتذة الأجلاء في الطرف البعيد من القاعة يمشون في حرية بين المكاتب، أو يجلسون في مقاعد ضخمة ذات مساند. وما إن رأيت هذا، حتى زال أملي الواهم

(١) مدارس ثانوية راقية تهيئ الطلبة للدراسات الجامعية، وتعرف في أوربا وبخاصة في ألمانيا بالجمنازيوم، ورأينا الاحتفاظ بالاسم في الترجمة العربية؛ لأنه ذو مفهوم معين. (المترجم).

في جذب الانتباه العام إلى شخصي؛ وإن تعبير وجهي الذي كان يدل في البيت، بل وفي حجرة الانتظار على أني ذو مظهر نبيل ممتاز رغمًا عني، قد تحول إلى تعبير عن أقصى حد للخجل، وإلى كآبة إلى حد ما، بل انتهى الأمر إلى النقيض، وفرحت كثيرًا حين رأيت سيدًا بالغ القبح مهمل الثياب، لم يكن كبير السن، ولكنه أشيب الشعر تقريبًا، يجلس على الأريكة الأخيرة على مبعدة من الباقين جميعًا، فجلست إلى جواره مباشرةً، وأخذت أراقب المرشحين للامتحان وأصور استنتاجاتي عنهم -هناك وجوه كثيرة ومتباينة، ولكنها جميعًا، وبناءً على رأيي في ذلك الحين، كان يمكن أن تقسم بسهولة إلى ثلاث فئات:

أولًا، كان هناك من هم على غراري، قد حضروا إلى الامتحان بصحبة مدرسيهم الخصوصيين أو مع آبائهم، وقد رأيت من بين هؤلاء إيفن الصغير مع فروست المعهود، وألنكا جراب مع والده العجوز، وكانت ذقونهم جميعًا زغباء، يزدهون في ملابسهم الكتانية المنتفخة، يجلسون في هدوء دون أن يفتحوا الكتب أو الكراسات التي أحضروها معهم، ويتطلعون في تهيب واضح إلى الأساتذة ومناضد الممتحنين. والفئة الثانية من المرشحين هم الشبان في ملابس الجمنازيوم الرسمية، وكثيرون منهم حديثو الحلاقة، ومعظم هؤلاء يعرف بعضهم البعض، ويتحدثون بصوت مرتفع، ويذكرون الأساتذة بأسمائهم وأسماء عائلاتهم ومعظم هؤلاء يعرف بعضهم بعضًا، الكراسات، ويصعدون فوق الأدراج، ويحضرون بأنفسهم الفطائر والشطائر، ويلتهمونها في التو واللحظة، ولا يفعلون أكثر من طأطأة رؤوسهم بمحاذاة الأدراج. وأخيرًا، الفئة الأخيرة من

المرشحين، ومع أن المتقدمين منهم في السن تمامًا قليلون، إلا أن بعضهم يرتدون معاطف السهرة، ولكن الأغلبية يرتدون أعطفةً، ولم يتظاهروا بأي ملابس كتانية، وهؤلاء حافظوا على التصرف الجاد، وجلسوا وحدهم، وكان يبدو عليهم الاكتئاب الشديد. أما الشخص الذي بعث في نفسي العزاء لكون ملابسه كانت بالتأكيد أسوأ من ملابسي، فينتسب إلى هذه الفئة، وبينما كان متكئًا على مرفقيه، يجري أصابعه بين شعره الأشعث ويقرأ كتابًا، ألقى عليَّ نظرةً عابرةً من عينيه المتألقتين –ولم تكن نظرةً وديةً– وتجهم تجهمًا مبهمًا، ومد مرفقه ناحيتي حتى لا أقترب منه بحال. وكان طلبة الجمنازيوم من ناحية أخرى ودودين جدًّا، وكنت أخشاهم قليلًا. قال أحدهم وهو يدفع بكتاب إلى يدي: «أعط هذا إلى ذلك الزميل الذي هناك»، وقال آخر وهو يمر بي: «معذرةً أيها الفتى العجوز»، واتكأ ثالث وهو يصعد فوق الدرج على كتفي كأنه المقعد. كل ذلك كان مشينًا وكريهًا بالنسبة إليَّ؛ وكنت أعتبر نفسي أفضل من طلبة الجمنازيوم هؤلاء، ورأيت أن ليس من شأنهم أن يسمحوا لأنفسهم بمثل هذه الحريات معي. وأخيرًا بدأوا في نداء الأسماء، وتقدم تلاميذ الجمنازيوم بشجاعة وكانت إجابة معظمهم حسنةً وعادوا مبتهجين. وظهر أن مجموعتنا أكثر حياءً وأسوأ إجابةً. وأجاب بعض الرجال المتقدمين في السن إجابات ممتازة، وأجاب بعضهم إجابات سيئةً حقيقيةً. وعندما نودي اسم سيمينوف نهض جاري ذو الشعر الأشيب والعينين البراقتين، ووخزني بكوعه بشدة، وعبر من على ساقي، وقصد إلى إحدى مناضد الممتحنين. واتضح من وجوه الأساتذة أنه أجاب على وجه حسن وفي ثقة. ولدى رجوعه إلى مكانه

تناول كراساته، ومضى بهدوء دون أن يعرف الدرجة التي حصل عليها. وكنت قد ارتعدت عدة مرات لدى سماعي نداء الأسماء، ولكن دوري لم يكن قد حل بعد، فقد كانت القائمة مرتبةً بحسب الحروف الأبجدية، مع أن بعض الأسماء التي تبدأ بحرف (ك) كانت قد نوديت بالفعل. ونادى واحد من ركن الأساتذة على حين فجأةً «أكونين بارتنييف»، وسرت في ظهري وشعري قشعريرة.

وأخذوا يقولون فيما حولي: «من الذين ينادونهم؟ من هو بارتنييف؟».

وقال جمنازي طويل ذو وجه أحمر كان يقف ورائي: «اذهب يا أكونين، إنهم ينادونك؛ ولكن من هو هذا البارتنييف أو المردينييف؟».

وقال سان جيروم: «لا بد أن تكون أنت».

وقلت للجمنازي ذي الوجه الأحمر: «هل ينادون بارتنييف؟».

فقال: «نعم، لماذا بالله لا تذهب؟» ثم أضاف بصوت غير مرتفع، ولكني سمعت كلماته وأنا أغادر مقعدي: «يا له من متحذلق، يا إلهي!».

كان أيكونين يسير أمامي، وهو شاب طويل يناهز الخامسة والعشرين، يتبع أولئك الذين أدرجتهم بين فئة كبار السن من المتنافسين. وكان يرتدي سترةً محكمةً زيتونية اللون، ورباط رقبة أزرق من الأطلس، يتدلى من ورائها شعره الطويل الخفيف المقصوص على طريقة الفلاح الروسي[1]. وقد اجتذب مظهره نظري عندما كنا جالسين إلى أدراجنا، فقد كان حسن المنظر كثير الكلام، وأخص ما لفت نظري إليه شعره

(١) مقصوص على شكل مربع من كل جهة.

الأحمر الغريب الذي تركه يستطيل على عنقه، وأغرب من هذا عادة فك أزرار صدريته باستمرار، وحك صدره من تحت قميصه.

كان يجلس ثلاثة أساتذة إلى المنضدة التي ذهبنا إليها، أكونين وأنا، ولم يرد أحد منهم تحيتنا. كان أصغرهم يخلط بطاقات شبيهةً بحزمة ورق اللعب، والثاني الذي يضع نجمة على سترته، كان يتفرس في الجمنازي الذي كان يثرثر بشيء عن شارلمان، ويضيف إلى كل كلمة «وأخيرًا». والثالث رجل عجوز نظر إلينا من خلال نظارته، وأشار إلى البطاقات. وشعرت أن نظرته كانت موجهةً إلى أيكونين وإليَّ معًا، وأن في مظهرنا شيئًا لا يعجبه (ربما يكون لحية أيكونين الحمراء)، لأنه بينما كان يعيد النظر إلينا بنفس الطريقة أشار إلينا بحركة من رأسه تدل على نفاد صبره؛ لكي نسرع بسحب بطاقتينا. وشعرت قبل كل شيء بالغيظ والإهانة لأن أحدًا لم يرد تحيتنا، وثانيًا لأنه من الواضح أنهم كانوا يضعون أيكونين وأنا في نفس الفئة من المرشحين للامتحان، وكانوا مجحفين لي بسبب لحية أيكونين الحمراء. وتناولت بطاقتي دون تهيب، وتأهبت للإجابة، ولكن الأستاذ وجه نظرته إلى أيكونين، وقرأت بطاقتي، وعرفت فحواها. وفي أثناء انتظار دوري في هدوء كنت أراقب ما يدور أمامي، ولم يرتبك أيكونين أقل ارتباك، بل كان شديد الجرأة لأنه حالما حصل على بطاقته، مال جانبًا على المنضدة، وأزاح شعره إلى الخلف، وقرأ المطبوع عليها بسرعة، وأظنه كان على وشك أن يفتح فمه بالإجابة حين صرفه الأستاذ صاحب النجمة ممتدحًا وهو يرمقه بنظرة، ويبدو أن أيكونين تذكر شيئًا وتوقف، وساد صمت شامل لمدة دقيقتين.

وقال الأستاذ ذو النظارة: «حسن؟».

وفتح أيكونين فمه مرةً أخرى، ولكنه ظل صامتًا.

وسأله الأستاذ الشاب: «هيا، إنك لست الوحيد، هل تريد الإجابة أم لا؟»، ولكن أيكونين لم ينظر إليه مجرد النظر، وتفرس في البطاقة ولم ينطق بكلمة. ونظر إليه الأستاذ ذو النظارة من خلال نظارته، ومن فوق النظارة، ومن دون نظارة، إذ كان الوقت يتسع لخلعها، وتنظيفها بعناية، ثم إعادتها مرةً أخرى... ولم ينطق أيكونين بكلمة، وشملت وجهه ابتسامة مفاجئة، وأزاح شعره إلى الخلف، ثم استدار تمامًا نحو المنضدة، وتفرس في جميع الأساتذة كل بدوره، ثم تفرس فيَّ، واستدار، وسار في مرح إلى مقعده وهو يلوح بيديه، وتبادل الأساتذة النظرات.

وقال الأستاذ الشاب: «أنعم به من فتى! إنه يرغب في الدراسة على نفقته الخاصة».

واقتربت من المنضدة، ولكن الأساتذة ظلوا يتحدثون بأصوات خافتة فيما بينهم، كأن أحدًا منهم لم يتنبه حتى لوجودي. وقد اقتنعت اقتناعًا جازمًا بأن الأساتذة الثلاثة كانوا آنئذ مشغولين غاية الانشغال بمسألة اجتيازي الامتحان وخروجي منه بسلام؛ ولكنهم كانوا يتظاهرون بذلك حفظًا لكرامتهم، وأن الأمر لم يكن يهمهم في شيء مطلقًا وأنهم حتى لم يلاحظوا وجودي.

وعندما التفت إلى الأستاذ صاحب النظارة دون اهتمام، ودعاني إلى الإجابة عن الأسئلة نظرت إلى عينيه مباشرةً، وكنت خجلًا له إلى حد ما؛

إذ كان يتصنع كثيرًا أمامي، وترددت بعض الشيء في بدء إجابتي، ولكن الأمر أصبح أكثر سهولةً فأكثر. ولما كان السؤال من التاريخ الروسي الذي كنت أعرفه كل المعرفة، فقد أجبت بأسلوب رائع، بل بلغت بي الثقة في نفسي حدًّا جعلني أقترِح سحب بطاقة أخرى، وذلك لرغبتي في أن يشعر الأساتذة أنني لست من طراز أيكونين، وأن من المستحيل الخلط بيني وبينه، ولكن الأستاذ هز رأسه وقال: «هذا يكفي يا سيدي» وأثبت شيئًا ما في سجله. وعندما رجعت إلى المقاعد، علمت على التو من الجمنازيين الذين كانوا يعرفون كل شيء، -ولسبب يعرفه الله- أنني حصلت على الدرجة النهائية.

* * *

(٦٦)

امتحان العلوم الرياضية

كونت كثيرًا من المعارف الجدد في الامتحانات التالية بالإضافة إلى جراب الذي كنت أعتبره غير جديد بمعرفتي، وإيفن الذي كان يتجنبني لسبب ما، وتبادل معي التحيات كثيرون، حتى أيكونين ابتهج عندما رآني، وأسر إلى أنه سيعيد امتحانه في التاريخ، وأن أستاذ التاريخ حاقد عليَّ منذ الامتحان الأخير الذي أوقعه أثناءه أيضًا في ارتباك. أما سيمينوف الذي كان سيدخل كلية الرياضيات مثلي، فقد كان يخجل من كل شخص، وظل حتى نهاية الامتحانات يجلس صامتًا وحيدًا، متكأ دائمًا على مرفقيه، يجري يديه في شعره الأشيب، وأنجز امتحاناته بأسلوب ممتاز وكان ترتيبه الثاني، وكان الأول طالب من مدرسة الجمنيزيوم الأولى، وكان الأخير شابًّا طويلًا نحيلًا شاحب اللون إلى أقصى حد، أسمر الوجه، ذا عنق من حوله رباط رقبة أسود وجبين تغطيه البثور. كانت يداه نحيلتين حمراوين، أصابعهما طويلة ملفتة للنظر، وفي أظافره كدمات كثيرة حتى لتبدو أطراف أصابعه كأنها ملفوفة بخيط. كان يبدو يبدو لي كل هذا رائعًا، وكما ينبغي تمامًا أن يكون عليه الفتى الأول بالجمنازيوم. كان يتحدث إلى كل إنسان كأي شخص سواه حتى إنني تعرفت به، ولكن

كان يبدو لي أن هناك شيئًا شاذًّا غير عادي وجذابًا في هيئته وحركات شفتيه وعينيه السوداوين.

نودي عليَّ في امتحان الرياضيات مبكرًا عن المعتاد، وكنت ملمًّا بالموضوع بدرجة ملائمة، ولكن كانت هناك مسألتان في الجبر دبرت أمر إخفائهما عن مدرسي بطريقة ما، ولم أكن أعرف عنهما شيئًا ألبتة، وهما فيما أتذكر الآن، نظرية التبادل والنظرية ذات الحدين لنيوتن. جلست على مقعد في المؤخرة، وتأملت المسألتين المجهولتين، ولكن لما كنت لم أتعود العمل في حجرة صاخبة، وشعرت أن وقتي أضيق مما ينبغي، فقد رأيت من العسير أن أفهم ما كنت أقرأه.

وسمعت صوت فولوديا المألوف من ورائي يقول: «من هذا الطريق يا نخيلودوف».

والتفت، فرأيت أخي وديمتري –سترتاهما مفكوكتان وأيديهم تلوحان لي بالتحية– وهما يشقان طريقهما نحوي من بين المقاعد، وكان من الواضح لأول وهلة أنهما من طلبة السنة الثانية، وأنهما يرفعان الكلفة في الجامعة كأنهما في بيتهما الخاص، وكان منظر سترتيهما المفكوكتين وحده يدل على ازدراء لنا نحن الجدد ويوحي إلينا بالحسد والاحترام. وزهوت كثيرًا جدًّا حين فكرت في أن جميع من سيرون أنني أعرف طالبين من السنة الثانية، ونهضت مسرعًا للقائهما، ولم يستطع فولوديا إلا أن يتفاخر قليلًا بسبقه.

فقال: «آه، أيها الشقي المسكين، ألم تمتحن بعد؟».

- لا.

- ماذا تقرأ؟ ألم تستعد؟

- نعم، ولكني لم أستعد تمامًا في مسألتين لم أفهمهما.

وقال فولوديا: «ماذا!! هذه واحدة»، ثم أخذ يشرح لي نظرية «ذي الحدين» لنيوتن، ولكن بسرعة كبيرة وبطريقة مهوشة، حتى لقد قرأ في عيني تشككي في معلوماته فنظر إليَّ ديمتري، ويرجح أنه قرأ في عينيه هو الآخر نفس التشكك، فاحمر وجهه، ولكنه مع ذلك راح يقول شيئًا لم أفهمه.

وقال ديمتري وهو ينظر إلى ركن الأساتذة: «لا يا فولوديا» انتظر، دعني أراجعها معه، فقد يكون لدينا الوقت الكافي، ثم جلس بجانبي.

وعرفت مباشرةً أن صديقي كان في تلك الحالة من الانبساط الهادئ التي يكون عليها دائمًا حين يصل إلى درجة الوثوق من نفسه، والتي أحبها فيه بنوع خاص. ولما كان يجيد معرفة الرياضيات، ويتحدث بوضوح فقد شرح لي المسألة شرحًا دقيقًا، حتى إنني لا أزال أتذكرها حتى اليوم. ولم يكد ينتهي حتى همس لي سان جيروم بصوت مرتفع قائلًا: «جاء دورك يا نيكولاس»، فنهضت وتبعت أيكونين دون أن تتسع لي الفرصة لمراجعة المسألة الأخرى التي لم أفهمها. واقتربت من المنضدة التي يجلس إليها الأستاذان، وأحد الجنمازيين واقفًا أمام السبورة يوضح معادلةً، وكان قد كسر هذا الجنمازي قطعة طباشيره بنقرة خفيفة على السبورة واستمر في الكتابة بالرغم من قول الأستاذ له: «هذا كاف!!»، وأمره لنا بأخذ بطاقتينا.

وقلت في نفسي: «والآن، ماذا يحدث لو حصلت على نظرية التوافيق وسحبت بطاقتي بأصابع مرتعشة من الورق الناعم المقطع. وأخذ أيكونين البطاقة العلوية دون أي انتقاء وبنفس الحركة الجريئة والاندفاع جانبًا بكل جسمه كما حدث في الامتحان السابق.

وزمجر قائلًا: «أيلازمني دائمًا هذا الحظ السيئ!».

ونظرت إلى بطاقتي.

آه، يا للفزع، إنها نظرية التوافيق.

وسألني أيكونين: «ماذا أخذت؟».

وأريته إياها.

فقال: «إنني أعرفها».

«هل تبادلني؟».

واختلق أيكونين حيلة بسيطة عندما استدعانا الأستاذ إلى السبورة فقال: «لا، أشعر أنني كفء لها».

وقلت لنفسي: «حسن، لقد فقدت كل شيء! فبدلًا من الامتحان الباهر الذي كنت أحلم باجتيازه، تكسوني مهانةً أبديةً بأسوأ مما حدث لأيكونين. ولكن أيكونين التفت نحوي فجأةً وتحت أنظار الأساتذة، وخطف البطاقة من يدي وأعطاني بطاقته. وألقيت نظرةً على بطاقته، فإذا بها نظرية ذي الحدين لنيوتن».

لم يكن الأستاذ رجلًا عجوزًا، وكان تعبيره لطيفًا صريحًا، وساعد على ذلك بنوع خاص بروز الجزء السفلي من جبهته بروزًا كبيرًا للغاية.

- ما هذا يا سادة؟ هل تتبادلان البطاقات؟

وقال أيكونين اختلاقًا: «لا، إنه أعطاني بطاقته لأراها وحسب، يا أستاذ» -وكانت أيضًا كلمة أستاذ هي آخر ما نطق به في ذلك المكان، ومرة أخرى بينما كان يتراجع مارًّا بي، ونظر إلى الأساتذة وإليَّ، وابتسم وهز كتفيه بطريقة خاصة كأنه يقول: «ماذا يهم!».

وعرفت فيما بعد أن هذه كانت ثالث مرة يدخل فيها أيكونين الامتحان.

وأجبت عن المسألة التي كنت قد راجعتها مراجعةً جيدةً -بل خيرًا من المطلوب- كما قال لي الأستاذ -وحصلت على الدرجات النهائية.

* * *

(٦٧)

امتحان اللاتينية

جرى كل شيء على ما يرام حتى امتحان اللغة اللاتينية، وإلى هنا كان فتى الجمنازيوم بعنقه الأفطس هو الأول، وسيمنوف الثاني، وأنا الثالث، بل بدأت أشعر بالزهو، وفكرت في أنني برغم صغر سني أصبحت رجلًا له وزن.

كان الجميع يتحدثون برعب منذ اليوم الأول للامتحان عن أستاذ اللاتينية، الذي ظهر أنه شرس، يجد اللذة في إخفاق الشباب، وبخاصة أولئك الذين يتعلمون على نفقتهم الخاصة، ولا يتكلم أي لغة سوى اللاتينية أو اليونانية. وشجعني سان جيروم الذي كان معلمي الخاص في اللاتينية. وقد بدا لي في الحقيقة أنني ما دمت أستطيع الترجمة عن شيشرون وعن عدة قصائد من هوراس من دون قاموس، وما دمت أعرف (زومب) معرفةً جيدةً، فإنني لم أكن أسوأ استعدادًا من الباقين. ولكن الذي حدث أثبت غير هذا؛ ولم يكن يسمع شيء طوال الصباح غير قصص الرسوب من أولئك الذين سبقوني: فأحدهم نال صفرًا، وآخر حصل على درجة واحدة، وآخر أيضًا زجر بعنف، وكان على وشك أن يطرد، وهكذا، وهكذا. وذهب سيمنوف والطالب الجمنازي

الأول وحدهما وعادا كالمعتاد في حالة طيبة، إذ حصل كل منهما على الدرجة النهائية. وكان يساورني شعور سابق بالخيبة عندما استدعيت مع أيكونين إلى المنضدة الصغيرة حيث نواجه الأستاذ جالسًا وحده تمامًا. كان رجلًا صغيرًا نحيلًا أصفر البشرة ذا شعر زيتي اللون وتقاسيم تدل على شدة التفكير.

وناول أيكونين مجلدًا يضم خطب شيشرون، وجعله يترجم.

والشيء الذي أدهشني أن أيكونين لم يكن يقرأ وحسب، بل ترجم عدة سطور بمعاونة الأستاذ. ولشعوري بتفوقي على مثل هذا المنافس الضعيف لم أستطع مقاومة الضحك بازدراء إلى ما حد ما عندما جاء سؤال الإعراب وغرق أيكونين كما حدث من قبل في صمت عنيد. وأردت إرضاء الأستاذ بتلك الابتسامة الذكية ذات التهكم الطفيف، ولكنها أحدثت عكس التأثير.

وقال لي الأستاذ بلغة روسية رديئة: «يبدو أنك تعرف خيرًا منه ما دمت تبتسم... حسن، سنرى. اذكر لي الإجابة إذَنْ».

وعرفت بعدئذ أن أستاذ اللاتيني كان معاونًا لأيكونين، بل إن أيكونين كان يعيش في بيته؛ ولم أضيع وقتًا في الإجابة عن سؤال الإعراب الذي وجه لأيكونين، ولكن الأستاذ تظاهر بالكدر وأشاح بوجهه عني.

وقال دون أن ينظر إليَّ: «حسن جدًّا يا سيدي، سيأتي دورك، وسنعرف مدى علمك»، ثم أخذ يشرح لأيكونين موضوع سؤاله.

وقال له: «يمكنك أن تنصرف». ورأيته يضع في سجله أربع درجات

لأيكونين، وقلت في نفسي: «حسن، إنه ليس بالدقة التي تحدثوا عنها». وبعد مغادرة أيكونين، بما لا يقل عن خمس دقائق -خلتها خمس ساعات- رتب كتبه وبطاقاته، واعتدل في مقعده ذي المساند، واضطجع فيه، وتطلع فيما حوله بالحجرة وفي كل ناحية إلا ناحيتي، ولكن كل هذا التصنع لم يكن كافيًا في نظره، ففتح كتابًا وتظاهر بقراءته كأنني غير موجود، فاقتربت منه وسعلت.

فقال وهو يناولني كتابًا: «آه، حقًّا! وأنت أيضًا بالطبع.. ترجم شيئًا من هذا»، ثم قلب صفحات من نسخة لهوراس وفتحه عند قطعة، خُيِّل إليَّ أن أحدًا لم يستطع ترجمتها وقال: «لا، الأفضل أن تأخذ هذا».

فقلت له: «إنني لم أستعد لهذا».

«وأنت تريد أن تلقي ما حفظته عن ظهر قلب، أليس كذلك؟ حسن جدًّا! لا، ترجم هذا».

حاولت أن أصل إلى المعنى بصورة ما، ولكن الأستاذ كان يهز رأسه وحسب عند كل نظرة استفسار، ويكتفي بكلمة «لا» مع التأوه. وأخيرًا أقفل كتابه بسرعة عصبية بالغة، حتى لقد ضغط على أصابعه بين الأوراق وجذبها غاضبًا، ووجه إليَّ سؤالًا في قواعد اللغة واضطجع في مقعده، واستمر في صمته المتعمد. وكنت على وشك الإجابة، ولكن تعبير وجهه ألجم لساني، وخُيِّل لي أن كل شيء قلته كان خاطئًا.

وانفجر فجأةً يقول بطريقة نطقه الفظيعة وهو يغير من وضعه بخفة، ويتكئ بمرفقيه على المنضدة، ويلعب بالخاتم الذهبي الواسع المعلق

بأصبع نحيلة بيده اليسري: «ليس كذلك!! ليس كذلك مطلقًا... ليست هذه طريقة الاستعداد لمؤسسة تعليم عال يا سيدي.. إن كل ما تطلبونه هو ارتداء الزي الرسمي ببنيقته الزرقاء، والحصول على خليط من المعرفة، وتظنون أنكم تسمون طلبةً... لا يا سادة، يجب أن تثبتوا من موضوعكم، وهكذا وهكذا».

وإبان هذا الحديث كله الذي كان يقوله بلغة مهلهلة، كنت أتفرس بانتباه متبلد في عينيه المثبتتين على الأرض. كان انقشاع الوهم في حصولي على المركز الثالث يعذبني في أول الأمر، ثم أصبح الخوف من عدم نجاحي ألبتة في الامتحان، وأخيرًا أضيف شعوري بالظلم، وبكبريائي المجروحة وبالإذلال دون مبرر؛ يضاف إلى ذلك، احتقاري للأستاذ لأنه في رأيي لم يكن رجلًا «كما ينبغي أن يكون»، وهو الشيء الذي فطنت له عند رؤيتي أظافره القصيرة القوية المستديرة -كل ذلك أثر في نفسي كثيرًا حتى الآن، وأفسد كل هذه المشاعر، ورمقني بنظرة، وعندما شاهد شفتي المختلجتين، وعيني تفيضان بالدموع، لا بد أنه فسر انفعالي إلى التماس لرفع درجتي، قال كأنه يرأف بحالي (قبل أن يحضر أيضًا أستاذ آخر، كان مقبلًا علينا):

«حسن جدًّا يا سيدي، بالرغم من أنك لا تستحق فسأمنحك درجة النجاح، تقديرًا لحداثة سنك، وعلى أمل ألا تكون متهورًا إلى هذا الحد في الجامعة».

وهذه العبارة الأخيرة التي قيلت في حضور الأستاذ الأجنبي الذي نظر إليَّ كأنه يقول: «أترى أيها الشاب!» أكملت ارتباكي، وأسدلت على

عيني غشاءً من الضباب لحظةً واحدةً، فخيل إليَّ أن الأستاذ المخيف بمنضدته، كان جالسًا على مسافة بعيدة، وساورتني فكرة طارئة وضحت من جانب واحد وضوحًا شديدًا: «ماذا لو –ماذا يحدث لو؟»، ولكني لم أفعل شيئًا لسبب ما؛ بل على العكس، انحنيت للأستاذين بطريقة آلية ومجاملة خاصة. وغادرت المنضدة وأنا أبتسم ابتسامةً خفيفةً، هي نفس الابتسامة التي كان أيكونين قد أبداها.

لقد أثر في هذا الظلم تأثيرًا قويًّا في ذلك الوقت، حتى إنني لو كنت سيد نفسي، لما اشتركت في امتحانات بعد ذلك. وفقدت وهمي (ما دمت لم أستطع أن أكون الثالث) وتركت الامتحانات الباقية تمر دون أي إجهاد، بل دون قلق من جانبي، ومع ذلك فقد كان مستواي بعد الرابع بقليل، ولكنني لم أهتم بذلك على الأقل. وفكرت، وأثبت لنفسي في وضوح تام، أن من خطل الرأي أن يحاول الإنسان أن يكون الأول، وأنه ينبغي ألا يكون حسنًا جدًّا ولا رديئًا جدًّا، مثل فولوديا. وقصدت أن أحافظ على ذلك في الجامعة، وإن كنت قد اختلفت في هذه النقطة لأول مرة عن صديقي ديمتري.

إن كل ما كنت أفكر فيه هو حلتي الرسمية، وقبعتي المثلثة الزوايا، وعربتي الخاصة، وحجرتي الخاصة، وفوق هذا كله استقلالي.

* * *

(٦٨)

مرحلة الرشد

وحتى هذه الأفكار كان لها سحرها.

عند عودتي من آخر امتحان في المعلومات الدينية، في الثامن من مايو، وجدت بالمنزل صبي خياط من محل «رزانوفا»، الذي عرفت أنه استُدعي لإعداد حلتي الرسمية وسترتي ذات القماش الأسود اللامع المفتوحة عند العنق، وكان قد وضع علامات على الثنيات بالطباشير، وقد أحضر الآن الحلة كاملةً بأزرارها المذهبة اللامعة ملفوفةً بالورق.

وارتديت الحلة، وأظنها كانت أنيقةً جدًّا، (وإن كان سان جيروم قد قرر أنها واسعة من الخلف). وهبطت إلى الطابق السفلي بابتسامة الرضاء عن نفسي التي شملت كل وجهي دون أي رغبة مني، حيث وجدت فولوديا. كنت شاعرًا بالنظرات المتحمسة التي كان يصوبها إلى الخدم من حجرة الانتظار والدهليز، ومع ذلك تظاهرت بعدم الانتباه إليها. ولحق بي رئيس الخدم جافريلو في القاعة، فهنأني على دخولي الجامعة، وناولني -بأمر أبي- أربع ورقات من فئة الخمسة والعشرين روبل، وكذلك بناءً على توجيه أبي، أخبرني أن الحوذي كوزما، والدروشكي، والحصان

البني «بيوتي» تحت تصرفي التام منذ اليوم. وقد ابتهجت أيما ابتهاج لهذه السعادة التي لم تكن متوقعةً تقريبًا، حتى إنني لم أستطع تجاهلها أمام جافريلو، فقلت في شيء من الارتباك واللهفة أول شيء خطر على ذهني، وهو أن «بيوتي» بديع جدًّا في الركض. ولدى رؤيتي الرءوس المطلة من الأبواب المؤدية إلى حجرة الانتظار والدهليز لم أستطع ضبط نفسي، واندفعت مجتازًا القاعة في سترتي ذات الأزرار النحاسية اللامعة. وبينما كنت أدخل حجرة فولوديا سمعت أصوات دوبكوف ونخيلودوف اللذين قدما لتهنئتي، وليقترحا أن نذهب إلى مكان ما لتناول الغداء وشرب الشمبانيا تكريمًا لمناسبة دخولي الجامعة. وأخبرني ديمتري أنه بالرغم من عدم اهتمامه بشرب الشمبانيا، فإنه سيذهب معنا في ذلك اليوم؛ لكي يشرب معي تذكارًا لبداية صداقتنا. وقرر دوبكوف أنني أشبه عقيدًا (أميرالاي) بوجه ما. ولم يهنئني فولوديا بل قال لي فقط، وفي كثير من الخشونة إننا الآن نستطيع الذهاب إلى الريف بعد غد، ويخيل إليَّ أنه في الوقت الذي فرح فيه لدخولي الجامعة، لم يسره كثيرًا أنني أصبحت الآن راشدًا مثله تمامًا.

وقال سان جيروم الذي كان قد وصل كذلك إلى البيت لساعته، في لهجة متعالية أن واجباته قد انتهت الآن، ولا يعرف إن كان قد أداها على وجه حسن أم سيئ، ولكنه قد فعل كل ما يستطيع، ويجب أن يذهب إلى صاحبه الكونت في اليوم التالي. وردًّا على كل ما قيل لي، شعرت بابتسامة معسولة سعيدة، بل ابتسامة رضاء ذاتي حمقاء تداعب وجهي رغمًا عني، وأدركت أن هذه الابتسامة كانت تنتقل إلى جميع من تحدثوا معي.

هأنذا أصبحت من دون مدرس خاص، ولدي دروشكي خاصة بي، وأدرج اسمي في سجل الطلبة، وعندي خنجر في حزامي؛ وقد يحييني الحارس أحيانًا، لقد أصبحت راشدًا وسعيدًا فيما كنت أظن.

قررنا تناول الغداء بمطعم «يار» في الساعة الخامسة، ولكن بينما انصرف فولوديا مع دوبكوف، واختفى ديمتري أيضًا في مكان ما كعادته قائلًا إن لديه عمل سيعنى به قبل الغداء، كان في استطاعتي التصرف في ساعتين كما يحلو لي، وتجولت في جميع الحجرات فترةً طويلةً، أشاهد نفسي في جميع المرايا، مرةً بسترتي مزررة ومرةً مفكوكة الأزرار، ومرةً مشبوكة بالزر العلوي فقط، وكانت تبدو رائعةً في نظري في جميع الأحوال، وحينئذ اعتراني الخجل لفرط ما أظهرت من مرح، ولم أستطع الامتناع عن الذهاب إلى الإسطبل، وحظيرة العربة لأعاين «بيوتي» وكوزما والدروشكي، ثم رجعت وأخذت أطوف بالحجرات مرةً أخرى أتطلع إلى المرايا، وأعد النقود التي في جيبي، وأبتسم بنفس المزاج المنبسط طوال الوقت. ولكن قبل أن تمضي ساعة شعرت بالضيق نوعًا ما، أو بالأسف لعدم وجود أحد يراني في هذه الحالة التي تبهر الأعين، واشتقت إلى الحركة والنشاط. وأمرت نتيجة لذلك بإحضار الدورشكي، وقررت أن أفضل ما أفعله هو الذهاب إلى «كوزنتسكي موست» لشراء بعض الأشياء.

تذكرت أن فولوديا عندما دخل الجامعة اشترى لنفسه صورة «جياد فيكتور آدم» مطبوعةً بالحجر وبعض التبغ، وغليونًا؛ وخُيِّل إليَّ أنه لا مفر من أن أفعل مثله.

ركبت إلى كوزنتسكي موست، وتلفتت إليَّ الأنظار من جميع الجهات، وضوء الشمس يلمع على أزراري وعلى الشارة، في قبعتي وعلى خنجري، ووقفت بالقرب من متجر صور داتسيارو، وتلفت حولي، ودخلت. لم أرغب في شراء صورة جياد فيكتور آدم خشية أن أتهم بتقليد فولوديا. ولشدة رغبتي في الإسراع بالاختيار قدر ما أستطيع؛ وبسبب خجلي مما سببته من عناء للبائع، اشتريت صورةً بالألوان المائية لرأس امرأة تطل من النافذة، ودفعت عشرين روبل ثمنًا لها. ولكني بعد أن صرفت عشرين روبل شعرت بتعذيب الضمير لما سببته لبائعين حسني الهندام من متاعب لأجل شراء أشياء تافهة كهذه، ومع ذلك خُيِّل إليَّ أنهما ينظران إليَّ عفوًا وبمحض المصادفة، ولكني أريهما أي نوع من الرجال أنا، وجهت انتباهي إلى قطعة فضية صغيرة موضوعة تحت زجاجة، وعرفت أنها يد قلم ثمنها ثمانية عشر روبل فأمرت بلفها، ودفعت ثمنها. وعرفت أيضًا أن الغلايين الجيدة والتبغ الفاخر توجد بمتجر التبغ المجاور، فانحنيت بأدب للبائعين وسرت في الشارع بصورتي تحت ذراعي. وفي المتجر المجاور الذي توجد على لافتته صورة زنجي يدخن سيجارًا، اشتريت التبغ السلطاني لا تبغ روكوف؛ وذلك أيضًا لعدم رغبتي في تقليد أي شخص، وغليونًا تركيًّا وقصبتين للتدخين، إحداهما من خشب الزيزفون والأخرى من خشب الورد، وعند مغادرتي المتجر في طريقي إلى الدروشكي، رأيت سيمنوف يسير بخطوات واسعة في الطريق الجانبية مرتديًا ملابس مدنيةً، مطأطأ الرأس، وقد تكدرت لأنه لم يعرفني. فقلت في صوت مرتفع تمامًا «هيا أسرع بالمسير!» وجلست في

الدورشكي ولحقت بسيمنوف.

قلت له: «كيف حالك؟».

فأجاب وهو يتابع سيره: «أقدم احترامي».

وسألته: «لماذا لا ترتدي حلتك الرسمية؟».

وتوقف سيمنوف، وزر عينيه وكشف عن أسنانه كأن رؤية الشمس تؤذيه، ولكنه كان في الواقع يعبر عن عدم اهتمامه بالدروشكي وبحلتي الرسمية. وتفرس في وجهي، وتابع سيره.

ومن كوزنتسكي موست، سرت إلى محل للحلوى عند تفرسكايا، ومع أنني حاولت التظاهر بأن الصحف التي في المحل هي التي تهمني قبل كل شيء، فإنني لم أستطع كبح جماح نفسي، وأخذت في التهام الكعك، الواحدة بعد الأخرى. وبالرغم من الخجل الذي شعرت به أمام بعض السادة الذين كانوا ينظرون إليَّ في دهشة من وراء صحفهم، فقد أكلت ثمانيَ كعكات من جميع الأصناف الموجودة بالمحل، وبسرعة كبيرة جدًّا.

وعند وصولي إلى المنزل شعرت بقليل من عسر الهضم، ولكني لم أعر ذلك التفاتًا، وشغلت نفسي بفحص مشترياتي. أما الصورة، فلم يقتصر الأمر على أنها لم ترقني بحيث أصنع لها إطارًا وأعلقها في حجرتي كما فعل فولوديا، بل أخفيتها في درج حيث لا يراها أحد؛ ولم ترقني كذلك يد القلم في المنزل، فوضعتها على المنضدة معزيًا نفسي بأنها مصنوعة من الفضة، فهي ذات قيمة وذات فائدة قصوى للطالب.

أما عن الأشياء الخاصة بالتدخين، فقد صممت على استعمالها مباشرةً وتجربتها.

وما إن فضضت حزمةً تزن نصف رطل، وملأت غليوني التركي بعناية بشرائح التبغ السلطاني الأصفر الضارب إلى الحمرة، ووضعت عليها قطعةً مشتعلةً من الفحم، حتى تناولت واحدةً من قصبتي غليوني بين أصبعي الثالث والرابع (الوضع الذي يروقني إلى أبعد حد)، ثم بدأت في التدخين.

كانت رائحة التبغ مقبولةً جدًّا، ولكن طعمه كان لاذعًا، وقطع التدخين أنفاسي، ومع ذلك عكفت عليه مدةً طويلةً، أشهق الدخان، وأحاول أن أنفثه في دوائر، وسرعان ما امتلأت الحجرة بأكملها بسحب من الدخان الأزرق. ثم أخذ الغليون يبقبق، والدخان الساخن يتطاير، وشعرت بمرارة في فمي ودوار خفيف في رأسي... حاولت النهوض والتطلع إلى وجهي في المرآة مع غليوني؛ وقد أدهشني أنني أخذت أترنح، وتدور بي الحجرة، وبينما كنت أتطلع إلى المرآة التي وصلت إليها بصعوبة، رأيت وجهي أبيض كصحيفة الورق، وما كدت أنجح في الارتماء على الأريكة، حتى شعرت بمرض وهزال جعلاني أتخيل أن الغليون كان شؤمًا عليَّ، وظننت أنني موشك على الموت. لقد خفت حقيقةً، ورغبت في طلب المعونة واستدعاء الطبيب.

ولكن هذا الفزع لم يدم طويلًا، فقد عرفت بسرعة موضع التعب، ورقدت وقتًا طويلًا على الأريكة، هزيلًا أشعر بألم فظيع في رأسي، وأتطلع بغباء إلى شعار بوستانزوجولو الدال على النبالة المرسوم على

حزمة ربع الرطل، وإلى الغليون، وبقايا كعك بائع الحلوى التي تتدحرج على الأرض، وقلت في نفسي وأنا أفكر باكتئاب: «إنني لم أنضج بالتأكيد حتى الآن، ما دمت لم أستطع أن أدخن كالآخرين، وواضح أنه ليس من المقدر لي أن أمسك بغليوني بين أصبعي الوسطى والثالث، وأن أبتلع الدخان وأنفثه من تحت شاربي الأشقر».

وعندما سأل عني ديمتري في الساعة الخامسة، وجدني على هذه الحالة المؤسفة، ولكني بعد أن شربت كوبًا من الماء أصبحت بحالة طيبة تقريبًا، مستعدًّا للذهاب معه.

وقال وهو يتفرس في بقايا تدخيني: «من أغراك بالتدخين، إنه عبث في عبث، ومضيعة للمال دون فائدة، لقد عاهدت نفسي ألا أدخن أبدًا. ولكن هيا، أسرع -علينا أن نستدعي دوبكوف».

* * *

(٦٩)

كيف كان فولوديا ودوبكوف يشغلان نفسيهما؟

حالما دخل ديمتري الحجرة عرفت من وجهه ومن مشيته، ومن حركة خاصة به عندما يكون منحرف المزاج -وهي غمزة بعينيه وطريقة مضحكة يهز بها رأسه إلى أحد الجانبين- أنه في الحالة النفسية المستعصية الفاترة التي كانت تتسلط عليه عندما يكون غير راض عن نفسه، وهي الحالة التي كانت ترطب شعوري نحوه على الدوام. وكنت قد بدأت ألاحظ أخيرًا وأحكم على أخلاق صديقي، ولكن صداقتنا لم يعتورها أي تغير نتيجة لذلك، بل كانت لا تزال من الشباب والقوة، بحيث كنت من أي جانب أنظر إلى ديمتري، لا أرى فيه إلا الكمال. لقد كان ينطوي على رجلين، كل منهما في نظري بالغ الرقة، أحدهما الذي أحببته أشد الحب، كريم طيب، رقيق مرح، شاعر بهذه الصفات الحميدة. فهو إذا ما كان معتدل المزاج يبدو كل مظهره، وجرس صوته، وكل حركة فيه كأنها تقول: «إنني لطيف وصالح، وإنني لأتمتع بلطفي وصلاحي كما ترون جميعًا». أما الرجل الآخر -فقد بدأت الآن فقط في إدراكه، وفي الانحناء أما عظمته- فكان فاترًا جافًّا نحو نفسه ونحو الآخرين، متدينًا إلى حد التعصب، متحذلقًا

في الأخلاقيات. وفي هذه الآونة الحاضرة، كان الرجل الثاني.

ومع الصراحة التي نظمت حالة علاقاتنا الضرورية قلت له حين كنا في الدروشكي، إنني تألمت وحزنت لرؤيتي إياه في مثل هذه الحالة النفسية الكئيبة الكريهة في يوم سعيد كهذا بالنسبة إليَّ.

وسألته: «لا بد أن شيئًا ما قد أزعجك، لماذا لم تخبرني؟».

فأجاب بترو وقد أدار رأسه في توتر إلى جهة واحدة وارتعشت وجنتاه: «ما دمت قد عاهدتك يا نيكولالنكا ألا أخفي عنك أي شيء، فليس هناك مبرر لكي تشك في كتماني، ومن المحال أن كون دائمًا في نفس الحالة النفسية، ولو كان هناك ما أزعجني، فإنني لا أستطيع حتى إن أعلله لنفسي».

وقلت في نفسي: «يا له من خلق صريح نبيل يدعو إلى الدهشة!»، ولم أقل له شيئًا أكثر من ذلك.

وقطعنا بقية الطريق إلى بين دوبكوف صامتين. كان مسكن دوبكوف لطيفًا بدرجة ملحوظة، أو خيل إليَّ أنه كذلك حينئذ. كانت هناك سجاجيد وصور وأستار، ومعلقات ملونة وصور، ومقاعد ذات مساند مقوسة في كل مكان، معلقة على الجدران، بنادق وغدارات، وأكياس تبغ؛ وفي خزانة بعض رءوس حيوانات متوحشة. وقد نبهني منظر هذا المكتب إلى الشخص الذي كان فولوديا يقلده في تزيين حجرته الخاصة. ووجدنا فولوديا ودوبكوف يلعبان الورق. وكان يجلس إلى المائدة يشاهد اللعب بانتباه كبير، سيد لم أعرفه من قبل (وهو لا بد أن يكون قليل الأهمية إذا

حكمنا عليه من هيئته المتواضعة). وكان دوبكوف يرتدي عباءةً حريريةً وخفًّا رقيقًا. وكان فولوديا يجلس أمامه على الأريكة خالعًا سترته؛ وقد حكمت على استغراقه في اللعب إلى أقصى حد، من تورد وجهه ونظرته المتبرمة الخاطفة التي ألقاها علينا من فوق الأوراق. وعندما رآني ازداد وجهه احمرارًا.

وقال لدوبكوف: «تعال، لقد جاء دورك في التوزيع»، ورأيت أنه امتعض لأنني عرفت أنه يلعب الورق، ولكنه لم يكن في نظرته ارتباك ملموس حتى لكأنه يقول لي: «نعم، إنني ألعب وإن الذي يدهشك فقط هو أنك لا تزال صغيرًا، وليس في هذا خطأ -بل إنه ضروري في سننا».

لقد شعرت بهذا مباشرةً، وفهمته.

ومع ذلك، فإن دوبكوف نهض بدلًا من التوزيع، فسلم علينا، وأجلسنا على المقاعد، وقدم لنا الغلايين التي انصرفنا عنها.

وقال دوبكوف: «ها هو ذا صاحبنا الدبلوماسي إِذَنْ -بطل اليوم؛ إنك لتبدو بحق السماء مثل العقيد».

وغمغمت، عندما شعرت بتلك الابتسامة الخرقاء، ابتسامة الرضا عن النفس تنتشر على وجهي.

وتهيب دوبكوف ذلك التهيب الذي لا يشعر به غير صبي لم يتجاوز السادسة عشرة نحو ضابط اتصال في السابعة والعشرين يقول عنه كل من يكبرونه سنًّا أنه شاب لطيف جدًّا، يرقص ويتكلم الفرنسية؛ وإن كان يستخف بحداثتي سرًّا، فمن الواضح أنه يكافح في سبيل إخفاء الحقيقة.

ولكن بالرغم من كل احترامي له، فيعلم الله أنني كنت إبان فترة تعارفنا كلها، أجد دائمًا أن التحديق في وجهه صعبًا ومدعاةً للحرج. وقد لاحظت منذ ذلك الحين أن هناك ثلاث فئات من الناس يصعب عليَّ النظر إليهم وجهًا لوجه –أولئك الذين هم أسوأ مني حالًا، وأولئك الذين يفضلونني قدرًا، وأولئك الذين لا أستطيع أن أفكر حين أكون معهم أن أذكر أشياء نعرفها على السواء ولا يذكرونها لي هم. ولا أعرف ما إذا كان دوبكوف أحسن أو أسوأ مني، ولكني كنت متأكدًا من شيء واحد، هو أنه كان يكذب في كثير من الأحيان دون أن يعرف بذلك؛ ولاحظت فيه هذا الضعف بطبيعة الحال، ولكني لم أتحدث عنه مطلقًا.

وقال فولوديا وهو يهز أحد كتفيه مثل أبي ويخلط الورق: «فلنلعب دورًا آخر».

وقال دوبكوف: «لا نستطيع أن نفلت منه! سننتهي منها بعد قليل، آه، حسن، دورة واحدة، عليك توزيع الورق».

وبينما كانوا يلعبون كنت أراقب أيديهم، كانت يد فولوديا ضخمةً جميلةً، يرفع إبهامه وحده ويثني الأصابع الأخرى عندما يمسك أوراقه بطريقة كثيرة الشبه جدًّا بطريقة أبي، حتى لقد خُيِّل إليَّ مرةً أن فولوديا رفع يديه بهذه الطريقة؛ لكي يبدو أكثر شبهًا بالكبار، ولكنه في اللحظة التالية، حين تفرست في وجهه رأيت أنه لم يفكر في شيء قط إلا اللعب. وكانت يدا دوبكوف على العكس صغيرتين ممتلئتين، مطبقتين، أصابعهما بالغة النعومة والمهارة، تمامًا كالأيدي التي تلائم الخواتم، والتي يمتاز بها الناس الذين يميلون إلى الأشغال اليدوية، ويغرمون باقتناء الأشياء

الجميلة.

لا بد أن يكون فولوديا قد خسر؛ لأن السيد الذي كان ينظر من فوق أوراقه لاحظ أن فلادمير بتروفتش كان حظه سيئًا للغاية؛ وأخرج دوبكوف دفتر الجيب، وسجل فيه شيئًا ما وقال وهو يطلع فولوديا على ما كتبه، «أحقيقة؟».

وقال فولوديا وهو يتفرس في دفتر الجيب في شرود ذهن مصطنع: «نعم، ولنذهب الآن».

وحث فولوديا، دوبكوف على المسير، وأخذني ديمتري في مركبته المكشوفة.

واستفسرت من ديمتري قائلًا: «ماذا كانوا يلعبون؟».

«لعبة الاثنتين وثلاثين ورقةً، وهي لعبة سخيفة، ولعب القمار شيء سخيف على أي حال».

«هل يلعبون بمبالغ كبيرة؟».

«ليست كبيرةً جدًّا، ولكنه خطأ على السواء».

«وهل لا تلعب أنت؟».

«لا، لقد تعهدت ألا ألعب، ولكن دوبكوف لا يمكنه تجنب اللعب مع أي شخص يستطيع أن يتشبث به، وهو يكسب في غالب الأحيان».

وقلت: «ولكن هذا ليس صوابًا من جانبه، فمن المحتمل أن فولوديا لا يجيد اللعب مثله».

«إنه ليس صوابًا بطبيعة الحال، ولكن ليس هناك ما يشينه خاصةً؛ ودوبكوف يحب الورق، ويجيد اللعب، ولكنه مع ذلك شخص ممتاز».

قلت: «حسن، إنني خالي الذهن».

«يجب ألا تظن به السوء، لأنه في الواقع رجل لطيف جدًّا، وأنا أحبه كثيرًا جدًّا، وسأحبه دائمًا بالرغم من سخافاته».

وخُيِّل إليَّ بسبب دفاع ديمتري عن دوبكوف بهذه الحماسة الشديدة، لغرض ما، أنه لم يعد يحبه أو يحترمه، ولكنه لا يعترف بذلك، بسبب عناده، ولكي لا يعيب عليه أحد تقلب رأيه، فقد كان من أولئك الذين يحبون أصدقاءهم مدى الحياة، لا لأن هؤلاء لا يزالون أعزاء عندهم وحسب، ولكن لأنهم إذا ما أحبوا شخصًا مرةً ولو عن طريق الخطأ، فإنهم يعتبرون إنهاء حبهم له مجافيًا للشرف.

* * *

(٧٠)

الاحتفال بالنجاح

كان دوبكوف وفولوديا يعرفان جميع الناس الذين في مطعم «يار» بأسمائهم، ويبدي لهما كل شخص -من البواب إلى المالك- أعظم احترام. وقادونا مباشرةً إلى حجرة خاصة، وقدموا لنا غداءً فاخرًا اختاره دوبكوف من ألوان الأطعمة الفرنسية؛ أعدت زجاجة من الشمبانيا الباردة التي حاولت قدر طاقتي النظر إليها بأقل اهتمام، وانقضت فترة الغداء في سرور ومرح، بالرغم من أن دوبكوف كان يروي أغرب الأحداث المشكوك في صحتها -بين الآخرين- وكيف أن جدته ألقت النار من بندقية قصيرة على ثلاثة لصوص هاجموها (وعند ذلك أرخيت عيني، وحولت عنه وجهي)- وبالرغم من أن فولوديا كان يبدو عليه خوف واضح كلما فتحت فمي (ولم يكن لهذا أي ضرورة لأنني لم أقل أي شيء بسبب الخجل خاصةً، على قدر ما أتذكر). وعندما قدمت الشمبانيا هنأني الجميع وشربت «والأيدي متصالبة» مع دوبكوف وديمتري، وتبادلت معهم القبلات التي استطعنا بعدها مخاطبة أحدنا للآخر بالضمير «أنت». ولما كنت لا أعرف من هو صاحب زجاجة الشمبانيا (فقد كانت مشاعًا بين الجميع كما قالوا لي فيما بعد)، وأردت الاحتفاء بأصدقائي من مالي

الخاص الذي ظللت أتحسسه بأصابعي في جيبي، وأخرجت خلسةً ورقةً من ذات العشرة روبلات، وناديت النادل، وأعطيتها له، وقلت له هامسًا، ولكن بصوت سمح للجميع بسماعه، بأن يتفضل بإحضار نصف زجاجة أخرى من الشمبانيا. واحمر وجه فولوديا، وأخذ يهز كتفه بشدة، وينظر إليَّ وإلى الآخرين في رعب، شعرت معه أنني لا بد أن أكون قد ارتكبت خطأً؛ بالرغم من أن الزجاجة أُحضرت وشربناها في انبساط عظيم. وخُيِّل إليَّ أن الأمور ستسير في مرح. كان دوبكوف يكذب دون انقطاع، وكان فولوديا أيضًا يروي حكايات مضحكةً جدًّا بطريقة لم أكن أعتقد أنه يتقنها، ضحكنا كثيرًا جدًّا. إن طبيعة مُلَحِهما -أي ملحة دوبكوف وفولوديا- تتكون من التقليد والمبالغة لقصة مشهورة جدًّا؛ يقول واحد: «حسن، هل كنت بالخارج؟»، ويجيب الآخر: «ولكن أخي يعزف على الكمنجة»، وكانا يتقنان مثل هذا النوع من اللغو المضحك واستطاعا أن يقصا هذه الحكاية الآتية: «إن أخي لم يعزف على الكمنجة كذلك هو الآخر»، وكان كل منهم يجيب على أسئلة الآخر على هذا النحو. وكانا يحاولان أحيانًا دون أسئلة ربط شيئين متنافرين- وكانا يقولان هذا اللغو بوجوه جادة -وثبت أنها مضحكة إلى أبعد حد. وبدأت أفهم الفكرة، وحاولت كذلك قول شيء مضحك، ولكن بدا عليهم جميعًا الخوف، أو حاولوا عدم النظر إليَّ أثناء كلامي، ولم تكن قصتي ناجحةً. وقال دوبكوف: «إنها غليظة أكثر من اللازم أيها الدبلوماسي العزيز»، ولكني شعرت أنني على خير حال لما شربته من الشمبانيا، وفي صحبة هؤلاء الكبار، حتى إن هذه الملاحظة لم تجرح شعوري ألبتة. ومع أن ديمتري

وحده هو الذي شرب معنا بالتساوي، فقد استمر على حالته الهادئة الجادة مما أدى إلى شيء من كبح المرح العام.

وقال دوبكوف: «والآن، أصغوا أيها السادة، يجب أن نتكفل بالدبلوماسي بعد الغداء، فلنفرض أننا ذاهبون إلى منزل عمتنا؟ فسيهيئ له الراحة بسرعة هناك».

وقال فولوديا: «لن يذهب نخيلودوف».

وقال دوبكوف وهو يلتفت إليه: «الساذج الذي لا يحتمل! إنك ساذج غير محتمل! تعال معنا، وسترى أي سيدة ساحرة هذه العمة».

وأجاب ديمتري وقد احمر وجهه خجلًا: «إنني لن أذهب بالتأكيد، وأكثر من هذا لن أسمح له أيضًا».

«من؟ الدبلوماسي؟ أتريد الذهاب أيها الدبلوماسي؟ لماذا، انظروا لقد تألق كله حالما ذكرنا العمة».

وتابع ديمتري حديثه وهو ينهض من مقعده ويأخذ في ذرع الحجرة دون أن ينظر إليَّ: «لست أقصد أنني لن أدعه يذهب، إنه لم يعد طفلًا، فإذا كان يريد، فإنه يستطيع الذهاب وحده. إن ما تفعله يا دوبكوف ليس صوابًا، وتريد الآخرين أن يفعلوه».

وسأله دوبكوف وهو يغمز فولوديا: «وما الضرر إذا دعوتكم جميعًا إلى منزل عمتي لتناول فنجان من الشاي؟ حسن، إذا كان لا يلائمكما أن تذهبا معنا، فسنذهب، فولوديا وأنا، هل ستأتي يا فولوديا؟؟».

وأجاب فولوديا بالإيجاب: «سنذهب إلى هناك، ثم تأتي إلى مسكني،

ونستمر في لعبة الاثنتين والثلاثين ورقةً».

وقال ديمتري وهو مقبل عليَّ: «حسن، هل تريد الذهاب معهم أم لا؟».

وأجبت وأنا أتحرك لأفسح له مكانًا بجانبي على الأريكة: «لا، لا أريد الذهاب بحال من الحوال، ولو لم تنصحني بعدم الذهاب لما ذهبت لأي داع».

وأضفت بعد ذلك: «لا، لا أستطيع أن أقول صادقًا أنني لا أحب الذهاب معهم، ولكني سعيد لأنني سوف لا أذهب».

فأجاب: «هذا صواب، يجب أن تعيش بطريقتك الخاصة، ولا ترقص لأي زمار، هذه أمثل الطرق».

ولم تفشل هذه المناقشة في تعكير سرورنا وحسب، بل زادته قوةً. وراح ديمتري لتوه في حالته المعنوية التي أحببتها فيه أكثر من كل شيء – فلقد كان لشعوره بالعمل الطيب تأثير عظيم عليه (وهذا ما لاحظته أكثر من مرة فيما بعد). كان راضيًا عن نفسه آنئذٍ؛ لأنه صدني عن الذهاب، وشمله فرح غير عادي، وطلب زجاجةً أخرى من الشمبانيا (وكان ذلك يخالف قواعده)، ودعا شخصًا غريبًا إلى الحجرة، وزوده بكثير من الخمر، وغنى أغنية «جودياموس أيجتور»، وطلب منا جميعًا الاشتراك فيها، واقترح أن نركب إلى سوكولنيكي التي قال عنها دوبكوف إنها شاعرية جدًّا.

وقال ديمتري مبتسمًا: «فلنمرح في هذا اليوم؛ وتكريمًا لدخوله الجامعة سأشرب لأول مرة، هل أستطيع أن أمتنع، أيمكن هذا؟»، ومن

العجيب أن يصبح ديمتري في هذه الحالة من الابتهاج. كان يشبه المعلم الخاص أو الأب الحنون القانع بأطفاله الراغب في إسعادهم، والذي يستطيع في نفس الوقت أن يبتهج بطريقة شريفة محترمة؛ ومع ذلك يظهر أن هذا الفرح غير المنتظر انتقل إلينا بالعدوى، وبالتالي شرب كل منا نحو نصف زجاجة شمبانيا.

وبهذه الحالة النفسية خرجت إلى الحجرة العامة؛ لأدخن السيجارة التي أعطاني إياها دوبكوف.

وعندما نهضت من مقعدي، لاحظت أن رأسي يدور قليلًا، وأن قدمي ويدي كانت في حالة طبيعية، وذلك حين كنت أركز انتباهي عليها بقوة. أما فيما عدا ذلك، فإن قدمي كانتا تزحفان إلى جانب واحد، وتشير يداي إشارات مختلفةً، وركزت كل انتباهي على أطرافي، فأمرت يدي أن ترتفعا وتزررا سترتي، وتصففا شعري (وفي خلال ذلك كان مرفقاي يهتزان إلى أعلى بصورة مخيفة) وإلى ساقي لكي تحملاني إلى الباب، وقد امتثلتا لهذا الأمر ولكنهما ظلتا مقيدتين، إما بمشقة كبرى وإما في يسر شديد، وكانت القدم اليسري بخاصة تقف على أطراف أصابعها. وناداني شخص ما يسألني: «إلى أين تذهب؟ إنهم سيحضرون مصباحًا على التو» وخمنت أنه صوت فولوديا، وأمدني تفكيري في صواب تخميني بالرضا، فكانت إجابتي مجرد ابتسامة، ثم مضيت في طريقي.

(٧١)

المشاحنة

كان يجلس إلى مائدة صغيرة بالحجرة العامة سيد قصير قوي البنية في ملابس مدنية، ذو شارب أحمر يتناول طعامه. وجلس بجانبه رجل طويل أسمر الوجه حليق الشارب، وكانا يتحدثان بالفرنسية، وأربكتني نظراتهما، ومع ذلك صممت من أجل ذلك أن أشعل سيجارتي من الشمعة القائمة أمامهما، ونظرت جانبًا لأتحاشى نظرتهما، وقصدت إلى المائدة، ووضعت سيجارتي في اللهب، وعندما اشتعلت تقريبًا لم أستطع أن أتحاشى التفرس في السيد الذي كان يتناول الطعام، فوجدت عينيه الرماديتين مثبتتين عليَّ بإمعان واستنكار. وبينما كنت على وشك الانصراف تحرك شاربه الأحمر وقال بالفرنسية: «لا أحب أن يدخن الناس أثناء طعامي يا سيدي العزيز».

وتمتمت بإجابة غير صريحة.

ومضى صاحب الشارب يقول في إصرار: «لا يا سيدي، لا أحب هذا»، ورمق السيد الحليق الشارب بنظرة سريعة كأنه يدعوه إلى

استصواب الطريقة التي كان يوشك أن يفصل بها الخلاف معي. وراح يقول: «ولا أحب يا سيدي العزيز الناس الوقحاء، الذين يأتون لينفخوا دخانهم في أنف الآخرين، لا أحبهم ألبتة». وفهمت على التو أن السيد كان ينتهرني، وخيل إليَّ في بادئ الأمر أنني أخطأت خطأً جسيمًا جدًّا.

وقلت: «لم أفكر في أن ذلك يقلقك».

وصاح السيد: «حسن، ولم تفكر في أنك كنت قليل التربية، لم تفكر أنت ولكنني فكرت!».

وقلت متسائلًا، وقد شعرت أنه يهينني وبدأ يساورني الغضب: «بأي حق تصرخ في بهذا الشكل؟».

«لي كل الحق، فأنا لا أسمح مطلقًا لأي شخص أن يكون وقحًا نحوي، ولسوف ألقن هؤلاء الشبان من أمثالك طريقة سلوكهم. ما اسمك يا سيدي، وأين تقيم؟».

بلغ بي الغضب أقصاه وارتعشت شفتاي، وأصبح تنفسي لهاثًا، ومع ذلك شعرت بنوع من الذنب، ربما يكون السبب هو الكمية الكبيرة التي شربتها من الشمبانيا، لم أقل شيئًا مهينًا للسيد، بل على العكس نطقت شفتاي باسمي وعنواني بطريقة بالغة الاستسلام.

وختم حديثه كله الذي جرى بالفرنسية بقوله: «اسمي كوليبكوف، يا سيدي العزيز، وسوف أضايقك لكي تكون في المستقبل أكثر مجاملةً.. وسوف تسمع عن أخباري».

واقتصرت على قولي: «يسعدني ذلك» محاولًا أن أجعل صوتي

حازمًا قدر المستطاع، ثم قفلت راجعًا إلى حجرتنا بسيجارتي التي كانت السبب في خروجي.

لم أذكر ما حدث، لا لأخي أو لصديقي (وبخاصة أنهما كانا مشتركين في نقاش حام)، ولكني جلست وحدي في ركن لأتأمل هذا الحادث الغريب. وكانت الكلمات «سيئ التربية يا سيدي»، ترن في أذني وتثير غضبي أكثر وأكثر. وأفقت آنئذٍ من ثملي تمامًا، وفي أثناء تأمل سلوكي في الموضوع، صدمت بفكرة فظيعة هي أنني تصرفت كجبان: «بأي حق يهاجمني؟ ولماذا لم يقل إنني أزعجته وحسب؟ لا بد أنه كان مخطئًا... ولماذا إذَنْ لم أقل له إنك أنت السيئ التربية يا سيدي حين قال لي أنني سيئ التربية، ومن ذا الذي يسمح لنفسه بالوقاحة: أو لماذا لم أصرخ في وجهه وحسب: (أمسك لسانك!) لا بد أن ذلك خطأ فظيع. لماذا لم أدعه للمبارزة؟ لا، لم أفعل شيئًا من هذه الأشياء، بل ابتلعت الإهانة كجبان دنيء. ورنت في أذني دون انقطاع وفي صورة غاضبة عبارة: «إنك سيئ التربية، يا سيدي» فقلت في نفسي: «لا، لا أستطيع أن أقف عند هذا الحد»، فنهضت في ثبات مصممًا على العودة إلى السيد، لأقول له شيئًا يفزعه، ولربما ضربته على أم رأسه بالشمعدان إذا كان هذا ملائمًا. فكرت في هذا التصميم الأخير بأشد سرور، ولكن دخولي الحجرة العامة مرةً أخرى لم يكن يخلو من خوف عظيم. ومن حسن الحظ أن كوليبكوف لم يكن هناك، ولكني وجدت نادلًا فقط ينظف المائدة. وأردت أن أخبر النادل بما حدث وأشرح له أنني لم أكن ملومًا ألبتة، ولكني غيرت رأيي وعدت ثانيةً إلى حجرتنا في أسوأ حال من الكآبة.

وقال دوبكوف: «ماذا يضايقك أيها الدبلوماسي؟ لعله يقرر الآن مصير أوروبا».

وقلت متهجمًا وأنا أشيح بوجهي: «آه، دعني وحدي».

وبينما كنت أتجول في الحجرة، بدأت أفكر، لسبب ما، أن دوبكوف ليس شخصًا لطيفًا بالمرة، وأقول في نفسي: «أما عن حركاته الدائمة، وتلك التسمية «دبلوماسي» فليس فيها ما يستحب، وكل ما يصلح له هو كسب المال من فولوديا، والذهاب إلى عمة ما من عماته، وليس في كل هذا ما يسر. كان كل شيء يقوله، إما كذبًا، وإما تهكمًا، وكان يضحك دائمًا على حساب غيره. وقصارى القول كان أحمق، وخبيثًا فوق ذلك». وقضيت خمس دقائق في هذه التأملات، وتزايد شعوري العدائي شيئًا فشيئًا نحو دوبكوف. أما من جانب دوبكوف، فإنه لم يعرني أي اهتمام، وقد أغضبني هذا كثيرًا، بل غضبت من فولوديا وديمتري؛ لأنهما كانا يتحدثان إليه.

وقال دوبكوف على حين فجأة وهو يرمقني بنظر خيل إليَّ أنها مقرونة بالسخرية، بل وبابتسامة خبيثة: «أتعرفون ماذا يا سادة؟ يجب أن نسكب بعض الماء على الدبلوماسي، إنه في حالة سيئة، وأقسم بالسماء إنه في حالة سيئة!».

فأجبت بابتسامة شريرة: «إنك بحاجة إلى إغراقك؛ لأنك أنت نفسك في حالة سيئة».

ورددت الإهانة بابتسامة متخابثة، بل متناسيًا أنني خاطبته بضمير

المفرد، وقلت: «إنك بحاجة إلى أن تغرق في الماء، فأنت نفسك في حالة سيئة».

ولا بد أن تكون هذه الإجابة قد أذهلت دوبكوف، ولكنه تحول عني دون اهتمام، وتابع حديثه مع فولوديا وديمتري.

كان يمكن أن أحاول الاشتراك مع فولوديا وديمتري، ولكن شعرت بأنني غير قادر على التظاهر، فانسحبت إلى ركني حيث مكثت إلى أن غادرنا المكان.

وبعد أن دفعنا قائمة الحساب، وارتدينا معاطفنا قال دوبكوف لديمتري: «حسن إلى أين سيذهب أورستس وبلايدس؟ ربما إلى البيت للتحدث عن «الحب». والآن من الأفضل أن نذهب لزيارة عمتنا العزيزة، فهي أكثر تسليةً من صداقتكم المشاكسة».

وانفجرت قائلًا وأنا أتقدم نحوه مشيرًا بيدي: «كيف تجرؤ على توجيه مثل هذا الحديث إلينا وتضحك منا؟ وكيف تجرؤ على الضحك من مشاعر لا تفهمها؟ إنني لا أسمح بذلك. أمسك لسانك!». قلت ذلك بصوت مرتفع ثم رحت في صمت، لا أعرف ماذا أقول بعد ذلك وأخذت ألهث من فرط الانفعال. وتراجع دوبكوف إلى الوراء في بادئ الأمر، ثم حاول أن يبتسم، ويحمل الأمر محمل المزاح، ولكنه ارتعد خوفًا في النهاية وغض من بصره، مما دهشت له أشد الدهشة.

وقال مراوغًا: «إنني لا أسخر منكم ولا من مشاعركم أقل سخرية، إنها طريقتي في الحديث وحسب».

فصحت قائلًا: «يحسن ألا تفعل»، ولكني كنت خجلًا في نفس الوقت من نفسي وآسفًا لدوبكوف الذي كشف وجهه الجميل المتعب عن حزن حقيقي.

وسألني فولوديا وديمتري معًا: «ماذا دهاك؟ لم يقصد أحد إهانتك».

«نعم، إنه قصد إهانتي».

وقال دوبكوف وهو ينصرف حتى لا يسمع ما عساي أقول له: «إن أخاكم سيد متهور».

كان يمكن أن أندفع وراءه وأقول له أشياء وقحةً، ولكن في تلك اللحظة بالضبط، ناولني معطفي ذلك النادل الذي كان موجودًا أثناء مشكلتي مع كولبيكوف. وهدأت ثائرتي على التو، وتظاهرت فقط بالغضب الشديد في حضور ديمتري إذ كان لا مفر من ذلك حتى لا يبدو هدوئي المفاجئ غريبًا. وتقابلنا في اليوم التالي، دوبكوف وأنا في حجرة فولوديا، ولم نشر إلى هذا الموضوع، ومع ذلك ظل كل منا يخاطب الآخر بضمير المفرد «أنت»، وكان من العسير علينا أكثر من أي وقت مضى أن يحدق أحدنا في وجه الآخر.

إن ذكرى مشاحنتي مع كولبيكوف، الذي لم يدعني «أسمع منه» في ذلك اليوم ولا فيما بعد، ظلت صعبة الاحتمال شديدة الوضوح لسنوات عدة؛ بقيت خمس سنوات كاملةً أتلوى وأصرخ كل مرة أتذكر فيها، تلك الإهانة التي لا تغتفر، وواسيت نفسي بأن تذكرت وأنا راض عن نفسي كيف كنت شهمًا في معاملتي مع دوبكوف فيما بعد. ولم أبدأ التفكير في

الأمر في ضوء مختلف كل الاختلاف إلا أخيرًا جدًّا، فأتذكر مشاحنتي مع كولبيكوف باقتناع ماجن، وأندم على الجرح الذي أحدثته بغير حق في ذلك الشخص الطروب الطيب دوبكوف.

عندما رويت لديمتري في نفس ذلك اليوم قصة مقابلتي مع كولبيكوف الذي وصفت له شكله بالدقة، دهش كثيرًا جدًّا.

وقال: «نعم، إنه هو نفس الشخص، تخيل! إن ذلك الكولبيكوف وغد معروف جدًّا، ومحتال في لعب الورق، ولكن أهم من ذلك كله أنه جبان فُصِل من فرقته العسكرية بواسطة زملائه؛ لأن شخصًا ما لطمه على وجهه فلم يقاتله، فمن أين يستمد جسارته؟ ثم أضاف بابتسامة رقيقة وهو يتفرس في: «ولذلك لم يقل أي شيء أكثر من «سيئ التربية؟»».

فأجبت: وقد احمر وجهي: «لا».

وقال ديمتري مواسيًا: «هذا شيء سيئ، ولكن لم يسبب ضررًا بليغًا».

وبعد ذلك بمدة طويلة فكرت في هذا الأمر في هدوء، وانتهيت إلى أنه من الممكن جدًّا أن يكون كولبيكوف اقتنص الفرصة في حضور ذلك الرجل الحليق الشارب ذي الوجه الأسمر، فأخذ بثأره للصفعة التي تلقها على وجهه منذ سنوات عدة، تمامًا كما ثأرت أنا لنفسي عن عبارة «سيئ التربية» التي قالها دوبكوف البريء.

* * *

(٧٢)

كانت أول فكرة طرأت على ذهني بعد يقظتي في اليوم التالي هي مغامرتي مع كولبيكوف، وزمجرت في سري مرةً أخرى، واندفعت نحو الحجرة، ولكني لم أستطع عمل شيء إزاءها، هذا بالإضافة إلى أنه كان اليوم الأخير الذي سأقضيه في موسكو، وكان عليَّ، تنفيذًا لأوامر أبي، أن أقوم ببعض الزيارات التي اختارها لي هو بنفسه، لم يكن اهتمام والدي كبيرًا بنا في الناحية الأخلاقية والتعليمية بقدر ما كان من ناحية علاقاتنا الدنيوية، فكتب على الورقة بخطه السريع المدبب: «(١) زيارة للأمير إيفان إيفانتش، لابد منها، (٢) زيارة آل إيفن، (لابد منها) (٣) زيارة للأمير ميخائيلو (٤) زيارة للأميرة نخيلودوفا ومدام فالاخينا (إذا أمكن)، وبالطبع لولي الأمر، والعميد، والأساتذة».

لقد ردني ديمتري عن هذه الزيارات الأخيرة قائلًا إنها ليست غير ضرورية وحسب، ولكنها قد تكون غير لائقة، ولكن جميع الزيارات الباقية يجب أن تتم في ذلك اليوم. وكنت أخشى من القيام بالزيارتين الأوليين الموضحتين بعبارة «لابد منها» بنوع خاص. كان الأمير إيفان إيفانتش قائدًا عامًّا، رجلًا عجوزًا غنيًّا يعيش وحيدًا؛ ثم أنا، وكنت طالبًا في السادسة عشرة، مضطرًّا إلى التحدث معه حديثًا مباشرًا، وكنت أحس

إحساسًا باطنًا بأن هذا الحديث ليس فيه ما يرضيني. وآل إيفنز كانوا أغنياء كذلك، وكان والدهم قائدًا ذا أهمية لم يزر بيتنا غير مرة واحدة يوم عيد جدتي. وقد لاحظت بعد موت جدتي أن إيفان الصغير كان يتجنبنا، ويظهر تعاليًا. أما الأكبر فقد سمعت أنه أتم دراسة القانون وعين في سان بترسبورج؛ أما الثاني (سيرجي) الذي كنت أهيم به في وقت ما، فكان أيضًا في سان بترسبورج -تلميذًا، كبيرًا سمينًا بالمدرسة الحربية في «سلاح صغار الفرسان».

لم أكن في شبابي أبغض الاختلاط إلا بالناس الذين يعتبرون أنفسهم أسمى مني مكانةً؛ لأن هذا الاتصال كان يسبب لي ألمًا لا يحتمل، لخوفي الدائم من الإهانة، ولتوتر جميع وظائفي العقلية لأبرهن لأمثال هؤلاء الناس على استقلالي. ولكن لما كنت سأعصى أوامر والدي الأخيرة، فقد شعرت أنني يجب أن أيسر الأمور بإطاعة أوامره الأولى. وأخذت أذرع حجرتي وأتأمل ملابسي المنشورة على المقاعد، وخنجري وقبعتي. وكنت على أهبة الاستعداد حين جاء جراب العجوز لتهنئتي مصطحبًا ألنكا معه. والأب جراب ألماني المولد روسي الجنسية زلق اللسان متملق، ويغلب كثيرًا أن تسوي حالته بالإدمان. وكان يأتي إلينا عادةً بقصد طلب شيء وحسب، ومع أن والدي كان يستقبله أحيانًا في مكتبه إلا أنه لم يدعه مرةً لتناول الطعام معنا. وكان من شأن ضعته وإلحافه في التسول وامتزاج هاتين الصفتين بنوع معين من دماثة الخلق الشكلية، ودالته على منزلنا أن ظن الجميع أن هذا يجعله جديرًا بالاتصال بنا جميعًا، ولكن لسبب ما لم أحمل له حبًّا مطلقًا، وحين كان يتكلم كنت أشعر بالخجل من أجله.

امتعضت كثيرًا جدًّا لوصول هذين الضيفين، ولم أبذل أي جهد لإخفاء امتعاضي. لقد تعودت أن أنظر باحتقار إلى ألنكا، وتعودت اعتبار عملنا هذا سليمًا جدًّا، حتى إنه كان من غير المقبول عندي أن يكون طالبًا مثلي تمامًا، وكان يؤلمني كذلك خجله بنوع ما من هذه المساواة أثناء وجودي، حييتهما بفتور، ولم أدعهما للجلوس، لأنني خجلت أن أفعل ظنًّا مني أنهما يستطيعان أن يفعلا ذلك دون دعوة مني، وأمرت بإعداد عربتي -كان ألنكا شابًّا رقيقًا شريفًا جدًّا، وماهرًا للغاية، ومع ذلك كان من النوع الذي يطلق عليه رجلًا متقلب الأهواء، وكانت تتسلط عليه دائمًا نزعة متطرفة، دون أي سبب ظاهر مهما كان: فالآن حالة بكاء، ثم ميل إلى الضحك، وثالثة شعور بالامتعاض لكل شيء تافه. ويبدو أنه كان آنئذ في هذه الحالة العقلية الأخيرة. لم يقل شيئًا، وينظر إليَّ وإلى والده بغضب؛ ولا يبتسم إلا حين يوجه إليه الكلام، ابتسامة خضوع مغتصبة اعتاد أن يخفي وراءها مشاعره، وبخاصة شعوره بالخجل لوالده الذي يحسه رغمًا عنه في حضورنا.

وقال الرجل العجوز وهي يتبعني في الحجرة أثناء ارتداء ملابسي، ويقلب صندوق السعوط الصغير الذي أعطته إياه جدتي، في بطء ووقار بين أصابعه الغليظة: «ما إن علمت من ابني بنجاحك في الامتحان نجاحًا ممتازًا -وإن كانت مهارتك معروفة بطبيعة الحال عند الجميع-، حتى سارعت بالحضور لكي أهنئك يا بني العزيز... لقد حملتك على كتفي، ويعلم الله أنني أحب أهلك كأقاربي، وقد ألح ابني ألنكا عليَّ يطلب باستمرار أن أحضر لرؤيتك، فقد أصبح هو أيضًا يألفك كثيرًا».

وفي نفس الوقت جلس ألنكا صامتًا بالقرب من النافذة، وكان من الواضح أنه غارق في تأمل قبعتي المثلثة الأركان يغمغم بشيء في صوت خفيض غاضب.

وتابع الرجل العجوز حديثه قائلًا: «والآن أردت أن أسألك يا نيكولاي بتروفتش، هل اجتاز ولدي ألنكا الامتحان بنجاح؟ يقول إنه سيلتحق بنفس القسم -مثلك-، ولذلك أرجو أن تتكرم بمراقبته، ونصحه إذا لزم الأمر».

فأجبت وأنا أنظر إلى ألنكا الذي احمر وجهه حين شعر بنظرتي، وأوقف تحريك شفتيه: «لقد أحسن الإجابة».

وسألني الرجل العجوز بابتسامة هيابة كما لو كان يخافني كثيرًا: «وهل يستطيع قضاء اليوم معك؟». ومع ذلك فقد كان شديد القرب مني يلازمني أينما انتقلت حتى إن رائحة الخمر والتبغ التي كان غارقًا فيها، لم ينقطع شعوري برائحتها ثانيةً واحدةً، وشعرت بامتعاض نحوه؛ إذ وضعني في مثل هذا الموقف إزاء ابنه، كما أنه صرف انتباهي عن عمل كان بالنسبة إليَّ ذا أهمية كبرى، وهو ارتداء ملابسي، ولكن أهم من كل شيء رائحة «البراندي» القوية الدائمة التي أزعجتني حتى قلت بفتور شديد: «إنني لن أحظى بصحبة ألنكا لأنني لن أكون بالمنزل طوال النهار».

وقال ألنكا وهو يبتسم ولكن دون أن ينظر إليَّ: «إنك ذاهب لزيارة أختك يا أبي، وسيكون لديَّ عمل أهتم به». كنت لا أزال متضايقًا، كما كان تأنيب الضمير يخزني، فلكي أخفف من وقع رفضي، أسرعت فقلت لهما أنني سوف لا أكون بالمنزل؛ لأنني مضطر إلى زيارة الأمير إيفان

إيفانتش والأميرة كوناكوف، ثم إيفن الذي يلي منصبًا ذا نفوذ كبير، ومن المحتمل أن أتناول الطعام مع الأميرة نخيلودوفا. وظننت أنهم حين يعلمون أي المنازل الشهير سأزورها، سوف لا يسألونني مطالب أخرى. وعندما تأهبوا للانصراف دعوت ألنكا إلى زيارتي مرةً أخرى، ولكن ألنكا غمغم فقط بعبارة ما، وابتسم ابتسامةً مغتصبةً. وكان من الواضح أن قدميه لن تعبرا مطلقًا عتبة بابي مرةً أخرى.

وبدأت بعد رحيلهما القيام بجولة زياراتي. وكان فولوديا -الذي دعوته في ذلك الصباح إلى مرافقتي؛ لكي لا أشعر بخجل شديد عندما أكون وحيدًا- قد رفض بحجة أن ركوب أخين ودودين معًا في عربة جميلة صغيرة- شيء يثير العواطف.

❊ ❊ ❊

(٧٣)

آل فالاخين

وهكذا انطلقت وحدي، وكانت أول زيارة في طريقي لدى آل فالاخين في سيفتشيف فرازك، ولم أكن قد رأيت سونتشكا منذ ثلاث سنوات، وأصبح حبي لها بطبيعة الحال منذ أمد بعيد أثرًا من الماضي، ومع ذلك كانت لا تزال تتمهل في روحي ذكرى بهيجة مؤثرة عن ذلك الحب الصبياني الماضي. وكنت أتذكرها في بعض الأحيان خلال هذه الأعوام الثلاثة بنفس القوة والوضوح حتى إن الدموع كانت تطفر من عيني، وأشعر كأنني عدت ثانيةً إلى الحب، ولكن هذا لم يكن يدوم غير دقائق قليلة، وقد مضى أمد طويل على عودتي.

عرفت أن سونتشكا كانت في الخارج مع أمها حيث قضتا عامين، وهناك فيما يُقال عرض لهما حادثة عربة، وقد أحدث الزجاج في وجه سونتشكا جرحًا بليغًا، وبذلك فقدت سونتشكا جمال طلتها إلى حد كبير. وبينما كنت راكبًا في طريقي إلى البيت، تذكرت صورةً واضحةً لسونتشكا السابقة، وتخيلت ماذا سيكون شكلها في هذه المرة. وبعد مكثها عامين في الخارج كنت أتخيلها بالغة الطول، ذات وجه جميل جدًّا، جاد جليل، ولكنه جذاب بصورة ملحوظة. ورفض خيالي أن يصورها بوجه شوهته

الندبات، بل على العكس، سمعت في مكان ما عن حبيب ملتهب العاطفة ظل مخلصًا لمعبودته بالرغم من ندباتها. والواقع أنني عندما سرت إلى بيت آل فالاخين لم أكن أحب، ولكني أثرت ذكريات قديمةً للحب، وكنت متأهبًا كل التأهب للوقوع في الحب، وكنت تواقًا جدًّا لعمل ذلك، وبخاصة لأنني أشعر بالخجل منذ وقت طويل كلما نظرت إلى أصدقائي المغرمين، وأنني متخلف عنهم بمسافة طويلة.

كان آل فالاخين يعيشون في بيت أنيق صغير من الخشب، يتصل بفناء. وفتح لي الباب عند سماع صوت الجرس صبي صغير جدًّا أنيق الملبس، وكان الجرس آنئذ نادرًا جدًّا في موسكو، وهو إما لم يفهمني، وإما أنه لم يرغب في أن ينبئني عما إذا كانت الأسرة بالمنزل، وتركني في صحن الدار المظلم، وجرى في الدهليز المظلم الصامت.

وبقيت وحدي برهةً طويلةً في تلك الحجرة المظلمة التي كان بها باب مغلق واحد، بالإضافة إلى الباب المؤدي إلى الدهليز. وقد دهشت من ناحية للطابع المظلم الذي يمتاز به البيت، وافترضت من الناحية الأخرى أنه لا بد أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لأناس كانوا في الخارج. وبعد مرور خمس دقائق فتح نفس الصبي الباب المؤدي إلى القاعة من الداخل، وقادني إلى حجرة استقبال ذات أثاث أنيق، ولكنه ليس بالثمين، وتبعتني إليها سونتشكا.

كانت في السابعة عشرة، قصيرة القامة، نحيلة الجسم جدًّا، لون وجهها الضارب إلى الصفرة، لا ينم عن صحة، وليس في وجهها ندبات ظاهرة، وكانت عيناها الساحرتان الكبيرتان، وابتسامتها المشرقة اللطيفة

المرحة، كما عهدتها وأحببتها في طفولتي. ولم أكن أتوقع أن أراها على هذه الصورة ألبتة، ولذلك لم أستطع أن أغدق عليها لساعتي المشاعر التي أعددتها في الطريق. وناولتني يدها على الطريقة الإنجليزية التي كانت آنئذ نادرةً ندرة الجرس، وهزت يدي في صراحة، وهيأت لي مكانًا بجانبها على الأريكة.

قالت وهي تتأمل وجهي بنفس التعبير الحقيقي عن الفرح الذي تضمنته كلماتها: «آه، كم أنا سعيدة لرؤيتك يا عزيزي نيكولاس»، قيلت بلهجة ودودة لا بلهجة التشجيع. وقد أدهشني أنها أكثر بساطةً وعذوبةً وأقرب إلى الطبيعة في أسلوبها بعد رحلتها إلى الخارج. ولاحظت ندبتين صغيرتين بالقرب من أنفها، وعلى جبينها، ولكن عينيها وابتسامتها الرائعة كانت مصداقًا تامًّا لذكرياتي عنها، مشرقة على عادتها القديمة.

قالت: «كم تغيرت! لقد كبرت الآن تمامًا... حسن، وأنا -ما رأيك عني؟».

فأجبت: «آه ما كنت لأميزك»، وكنت رغم ذلك أفكر في نفس الوقت في أنني كنت أميزها أينما كانت. وكنت أشعر أيضًا أنني كنت في حالة نفسية من خلو البال والبهجة قبل خمس سنوات حين رقصت معها «الجد» في حفلة جدتي الراقصة.

وسألتني وهي تهز رأسها: «ولماذا؟ أصبحت دميمة جدًّا؟».

وأسرعت بالإجابة: «لا، أبدًا، لقد كبرت قليلًا، إنك أكبر سنًّا، ولكنك على العكس -بل إنك-».

«حسن، لا أهمية لذلك. هل تذكر رقصنا وألعابنا، وسان جيروم والسيدة دورات» (ولم أتذكر أي سيدة باسم دورات، ومن الواضح أنها كانت مسوقةً بمتعة ذكريات طفولتها، فخلطت بينها)، وتابعت حديثها قائلة: «آه، كم كان وقتًا لطيفًا!» وكانت نفس الابتسامة، بل أجمل من تلك الابتسامة التي كنت أحملها في مخيلتي، ونفس العينين، المشرقتين أمامي. وفي أثناء حديثها استطعت إدراك الموقف الذي وجدت نفسي فيه، في اللحظة الراهنة، وقررت أنني كنت في اللحظة الراهنة واقعًا في الحب. وحالما فكرت في هذا اختفت لتوها حالتي النفسية السعيدة اللاهية، وخيل إليَّ أن ضبابًا يرتفع أمامي -ويحجب حتى عينيها وابتسامتها- وشعرت بالخجل من شيء ما، فانعقد لساني واحمر وجهي.

وراحت تقول وهي تتنهد وترفع حاجبيها قليلًا: «لقد تغير الزمن الآن، كل شيء يبدو أسوأ كثيرًا مما كان، ونحن أسوأ مما كنا، ألسنا كذلك يا نيكولاس؟».

لم أستطع أن أجيب، وتفرست فيها صامتًا.

وتابعت حديثها وهي تتأمل وجهي الأحمر الخائف في شيء من الفضول: «أين جميع آل إيفن وآل كورناكوف الآن؟ هل تتذكر... لقد كان وقتًا رائعًا!».

ولم أحر جوابًا كذلك.

وأنقذني من هذا الموقف الشاق وقتًا ما؛ دخول السيدة فالاخينا، فنهضت وانحنيت بالتحية، واستعدت قدرتي على الحديث؛ ومن ناحية

أخرى شمل سونتشكا تغير غريب لدى دخول أمها؛ فقد اختفى فجأةً كل مرحها وودها، واختلفت ابتسامتها، وحدث كل ذلك بسرعة، باستثناء قامتها الطويلة، وأصبحت تلك السيدة الشابة العائدة من الخارج كما تخيلتها أن تكون بالضبط. وخيل إليَّ كأن هذا التغير لم يكن له سبب ما دامت أمها قد ابتسمت بابتهاج، وكانت كل حركاتها تعبر عن الرقة كما كانت قديمًا. وجلست فالاخينا على مقعد ذي مساند وأشارت إلى مكان لي بجانبها، وتحدثت إلى ابنتها عن شيء بالإنجليزية، فغادرت سونتشكا الحجرة لتوها، فمنحني هذا شيئًا من الارتياح. وسألتني فالاخنيا عن أقاربي، أخي وأبي، ثم تحدثت إليَّ عن أحزانها الخاصة -موت زوجها-، وأخيرًا عندما شعرت أنه لم يعد هناك ما تقوله، تطلعت إليَّ في صمت كأنها تقول: «إن كنت تريد أن تنهض وتنحني بالتحية لتنصرف، فحسنًا ما تفعل يا زميلي العزيز». ولكن شيئًا غريبًا حدث لي، عادت سونتشكا ومعها شغلها، وجلست في ركن الحجرة وشعرت بنظرها مثبتًا عليَّ. وبينما كانت فالاخينا تروي لي عن موت زوجها، تذكرت مرةً أخرى أنني وقعت في الحب، وحسبت أن الأم قد تكون خمنت هذا، وعاودتني نوبة أخرى من الخجل بالغة الشدة، حتى إنني لم أستطع تحريك طرف واحد من أطرافي بحالة طبيعية. كنت أعرف أنني لكي أنهض وأستأذن في الانصراف، يلزمني أن أفكر في موضع قدمي، وفيما أفعل برأسي، وبيدي؛ وقصارى القول شعرت كما سبق أن شعرت تمامًا في الليلة السابقة بعد أن شربت نصف زجاجة من الشمبانيا، كان شعوري الداخلي يوحي إليَّ بعجزي عن السيطرة على نفسي في كل هذا، ولذلك لم أتحرك،

وفي الحقيقة، لم أستطع». ولربما اندهشت فالاخينا عندما رأت وجهي القرمزي وجمودي التام، ولكني قررت أن الجلوس في ذلك الوضع السخيف أفضل من المغامرة بالنهوض على صورة خرقاء والاستئذان في الانصراف، ومن ثمَّ بقيت جالسًا مدةً طويلةً جدًّا، على أمل أن تحدث مناسبة تنقذني من ذلك الموقف. وقد حدثت هذه المناسبة في شخص شاب لا يعتد به دخل الحجرة في هيئة من يألف المنزل وانحنى لي باحترام؛ ونهضت فالاخينا معتذرةً بحجة أنها مضطرة إلى التحدث مع «رجل أعمالها»، ونظرت إليَّ وعليها سمات الدهشة كأنها تقول: «إن كنت تقصد الجلوس هناك إلى الأبد –فسوف أطردك»، وبذلت جهدًا كبيرًا لكي أنهض، ولكن لم أعد في حالة تسمح لي بالانحناء. وبينما كنت ذاهبًا مصحوبًا بنظرات الإشفاق من الأم والابنة، اصطدمت بمقعد لم يكن يعترض طريقي ألبتة، ولكني صدمته؛ لأن كل انتباهي كان موجهًا إلى عدم التعثر في البساط تحت قدمي. ولكن ما إن خرجت إلى الهواء الطلق –بعد مضي لحظة من التبرم والزمجرة بصوت مرتفع جدًّا، حتى لقد استفسر مني كوزما عدة مرات قائلًا: «نعم، يا سيدي؟»– إلى أن اختفى هذا الشعور، وبدأت أتأمل في هدوء تام حبي لسونتشكا وموقفها من أمها، الذي صدمني صدمةً غريبةً. وعندما أطلعت أبي على ملاحظاتي فيما بعد –من أن السيدة فالاخينا وابنتها لم يكونا على وفاق– قال:

«نعم، إنها بتقتيرها تجعل ابنتها المسكينة تحيا حياةً فظيعةً، وهذا شيء مستهجن جدًّا»، ثم أضاف بانفعال أقوى من أن يحمله لشخص قريب وحسب: «لقد تعودت أن تكون المرأة الساحرة الرقيقة! ولست

أعرف سبب تغيرها إلى هذا الحد. ألم تر أي سكرتير هناك؛ أرأيته؟»، ثم قال وهو يسير مبتعدًا وقد تملكه الغضب: «من أي طراز هذه السيدة الروسية حتى يكون لديها سكرتير؟».

فقلت: «لقد رأيته بالفعل».

«حسن، وهل هو جميل المنظر على الأقل؟».

«لا، ألبتة!».

فقال أبي وهو يسعل ويهز كتفيه بحركة انفعالية: «هذا غير معقول».

وقلت في نفسي بينما كنت أسير في عربتي الدروشكي: «هل أنا واقع في الحب هنا أيضًا؟».

* * *

(٧٤)

آل كورناكوف

كانت الزيارة الثانية في طريقي آل كورناكوف، وكانوا يسكنون في الطابق الأول من منزل كبير في «أربات». وكان الدرج حسن المنظر ونظيفًا إلى حد بعيد -مفروشًا ببساط مثبت بقضبان من النحاس المصقول، ولكن لم يكن هناك أزهار ولا مرايا. وكانت القاعة التي مررت على أرضها المصقولة اللامعة لكي أصل إلى حجرة الجلوس، تتسم بالوقار، باردةً، مرتبةً بأناقة؛ كل شيء فيها لامع، ويبدو أنه متين بالرغم من أنه ليس جديدًا. ولكن لم تكن هناك صور ولا أستار، ولا أي نوع آخر من أنواع الزينة ظاهرة في أي مكان. وكانت بعض الأميرات في حجرة الاستقبال، كن جالسات في وضع بالغة الأناقة والتكاسل بحيث كان واضحًا أنهن لا يجلسن على هذه الهيئة إذا لم يتوقعن مجيء ضيوف.

وقالت لي أكبرهن سنًّا حين قدمت لتجلس بالقرب مني: «إن أمي ستأتي حالًا»، وشغلتني هذه الأميرة مدة ربع ساعة في حديث هين جدًّا، وقد أدارته بقدر كبير من المهارة حتى إن هذا الحديث لم يضعف لحظةً واحدةً، بل كان واضحًا جدًّا أنها تحتفي بي، ولذلك لم تعجبني. ومن بين الأشياء الأخرى التي حدثتني عنها، أن أخاها ستيبان الذي يطلقون عليه اتيبن، والذي كان قد ألحق بمدرسة أبناء النبلاء، قد رقي إلى رتبة

ضابط. وعندما كانت تتحدث عن أخيها، وبخاصة حين تذكر أنه دخل فرقة الخيالة ضد رغبة أمه، تتظاهر بالخوف، ويتظاهر جميع الجالسات في صمت بنفس الوجوه الخائفة، وحين كانت تتحدث عن موت جدتي تتظاهر بالحزن، وتفعل جميع الأميرات كذلك، وعندما تتذكر كيف ضربت سان جيروم، وكيف اقتادوني، كانت تضحك وتكشف عن أسنانها التالفة، وكانت جميع الأميرات يضحكن ويكشفن عن أسنانهن التالفة.

ودخلت الأميرة؛ وكانت نفس المرأة القميئة العجفاء ذات العينين القلقتين، وعادة التفرس في شخص ما وهي تتحدث إلى شخص آخر -وناولتني يدها ورفعتها إلى شفتي لكي ألثمها، وهو شيء لم يكن ينبغي أن أفعله لو لم تفعل هي ذلك، بفرض أنه شيء لا مفر منه.

«كم أنا سعيدة إذ أراك!» ثم بدأت تتحدث بذلاقة لسانها المعهودة وهي تتطلع إلى بناتها قائلةً: «آه، ما أشد شبهه بأمه! أليس كذلك يا ليزي؟».

وقالت ليزي إنني لكذلك؛ مع أنني أعرف على وجه التحقيق أنني لا أشبه أمي أقل الشبه.

«كم كبرت! وولدي اتيين، لعلك تذكره هو ابن عمك -لا ليس ابن ابن عمك، ولكن ما هي قرابته يا ليزي؟ إن أمي فارفارا دمتريفنا، ابنة ديمتري نيكولايفتش؛ وكانت جدتك هي ناتاليا نيكوليافينا».

وقالت الأميرة الكبرى: «وإذَنْ فهو ابن ابن عمنا من الدرجة الثالثة يا أمي».

وصاحت الأميرة غاضبة: «إنكن تخلطن جميع الأشياء بعضها في بعض، إنه ليس ابن عم من الدرجة الثالثة ألبتة -بل من أبناء أبناء العم، هذا هي قرابتك لصغيري العزيز اتيين.. إنه ضابط الآن، أتعرف هذا؟ ولكنك ليس كما ينبغي أن يكون من ناحية واحدة: إنه يتمتع بقسط كبير من الحرية، إنكم يا معشر الشبان يجب أن تكونوا تحت أنظارنا... نعم، لا تغضب من عمتك العجوز عندما تذكر لك الحقيقة الواضحة. لقد ربيت اتيين تربية دقيقة، وأظن أنها الطريقة الملائمة التي يجب اتباعها».

ثم راحت تقول: «نعم، تلك هي القرابة بيننا: إن الأمير إيفان إيفانتش كان عمي، وعم أمك، نعم، هو ذلك.. والآن، أخبرني، هل زرت منزل الأمير إيفان؟».

فقلت إنني لم أزره بعد، ولكن يجب أن أزوره اليوم.

وقال متعجبةً: «آه، كيف فعلت هذا! لقد كان ينبغي أن تكون أول الزيارات جميعًا، فأنت تعلم أن الأمير إيفان مثل والدك تمامًا، ولم يرزق أبناء، ولذلك فأنت وأبنائي الذين سترثونه دون غيركم، فيجب أن تبجله من أجل سنه ومركزه في العالم، ومن أجل كل شيء، إنني أعرف أنكم معشر شبان الجيل الحالي لا تفكرون في القرابة ألبتة، ولا تحبون المسنين من الناس؛ ولكن أصغِ إلى عمتك العجوز لأنني أحبك، وكنت أحب أمك وجدتك كذلك، وأحترمها إلى حد كبير جدًّا. يجب أن تذهب دون تأخير... لا بد أن تذهب».

فقلت إنني ذاهب بكل تأكيد، ولما كانت الزيارة قد استغرقت مدةً طويلةً جدًّا في رأيي، فقد نهضت، وتحركت للانصراف، ولكنها

استوقفتني.

ومضت في حديثها وهي تلتفت إليَّ قائلةً: «لا، انتظر دقيقة، أين والدك يا ليزي؟ استدعيه إلى هنا، إنه سيسر كثيرًا لرؤيتك».

ودخل الأمير ميخائيلو بعد دقيقتين في الواقع -كان رجلًا قصيرًا قوي البنية، شديد الإهمال لملابسه غير حليق، عليه سمات من عدم اللا مبالاة تقرب من البلاهة، ولم يك سعيدًا برؤيتي على كل حال، وإن لم يقل ذلك. ولكن الأميرة التي كانت من الواضح أنه يخافها إلى حد كبير جدًّا قالت له:

«فالديمار (ومن الواضح أنها نسيت اسمي) كثير الشبه بأمه، أليس كذلك؟»، وأومأت بعينيها للأمير بحيث لا بد يكون قد تكهن برغبتها؛ لأنه تقدم مني بملامح بالغة البلادة بل والتبرم، وعرض لي خده غير الحليق الذي اضطررت إلى تقبيله.

وسرعان ما قالت له الأميرة بلهجة غاضبة من الواضح أنها كانت اللهجة التي تستخدمها عادةً مع أفراد منزلها: «إنك لم ترتد ملابسك بعد، مع أنك مضطر إلى الذهاب بسرعة؛ إنك تريد أن يتحامل عليك الناس ثانيةً، وتغضب منك الناس ثانيةً!».

وقال الأمير ميخائيلو: «لحظةً واحدةً يا عزيزتي»، ثم انصرف، وانحنيت أنا، وانصرفت.

كنت قد سمعت لأول مرة أننا ورثة الأمير إيفان إيفانتش، وكان هذا الخبر مفاجأةً غير سارة لي.

(٧٥)

آل إيفن

كان تفكيري في تلك الزيارة الوشيكة التي لا مفر منها لا يزال يقلقني، ومع ذلك فإن ترتيب مسيرتي يضع زيارتي آل إيفن أولًا. كانوا يسكنون في تفرسكوي بوليفار في بيت واسع وجميل جدًّا، ولم أكن خاليًا من التوتر العصبي لدى اجتيازي المدخل الذي وقف عنده بواب يحمل هراوة.

وسألته عما إذا كانت الأسرة بالمنزل؟

وقال البواب: «من تريد مقابلته يا سيدي؟ إن ابن القائد في البيت».

«والقائد نفسه؟».

وقال البواب: «سأستفسر. وأي اسم سأذكر؟» ثم دق الجرس.

وظهرت قدما خادم على السلم، وقد شملتني إلى حد ما نوبة من التوتر، حتى إنني طلبت من الخادم ألا يذكر اسمي للقائد، وأنني سأذهب أولًا لمقابلة ابنه. وعندما صعدت الدرج على ذلك السلم الفخم، خُيِّل إليَّ أنني صغير بشكل فظيع (لا بالمعنى المجازي بل بالمعنى الحقيقي للكلمة). ولقد خبرت نفس التجربة عندما سارت الدروشكي عبر المدخل العظيم، فقد خيل إلى آنئذ أن الدروشكي والحصان والحوذي

جميعًا أصبحت أشياء صغيرةً. كان ابن القائد مستغرقًا في النوم على أريكة وكتابه مفتوح أمامه عندما دلفت إلى الحجرة. وتبعني معلمه الخاص، هر فورست الذي كان لا يزال مقيمًا بالمنزل إلى الحجرة بخطواته المرحة فأيقظ تلميذه. ولم يظهر إيفن ابتهاجًا خاصًّا لرؤيته إياي، ولاحظت أنه يتفرس في حاجبي وهو يتحدث. وبالرغم من أنه كان مؤدبًا جدًّا، خيل إليَّ أنه كان يرحب بي على غرار ما فعلت الأميرة تمامًا، وأنه لم يشعر مطلقًا بأي جاذبية نحوي، ولم يكن بحاجة إلى معرفتي، ما دامت له دائرته الخاصة من مختلف المعارف على أرجح الظن. تخيلت كل هذا، وبخاصة لأنه كان يتفرس في حاجبي. وقصارى القول كان موقفه مني مع ذلك غير ملائم، فإنني أعترف مع ذلك أنه كان مطابقًا تقريبًا لموقفي من ألنكا. وبدأت أشعر بالانفعال، وكنت ألاحق كل نظرة من نظرات إيفن الخاطفة، وعندما كانت تتقابل نظراته مع نظرات فروست كنت أترجم سؤاله: «ولماذا جاء ليزورنا؟».

وبعد أن تحدث إليَّ إيفن وقتًا قصيرًا، قال إن أباه وأمه بالمنزل، وسألني عمَّ إذا كنت أحب أن أصحبه إليهما؟

وأضاف: «سأرتدي ملابسي فورًا» ثم دخل حجرةً أخرى، بالرغم من أنه كان حسن الهندام تمامًا -كان يرتدي سترةً وصدريةً بيضاء. وعاد بعد دقائق قليلة في حلته الرسمية، مزررةً تمامًا، وهبطنا إلى الطابق السفلي معًا. كانت حجرات الاستقبال التي اجتزناها فاخرةً إلى أقصى حد، ويبدو على أثاثها الثراء العريض، ففيها الرخام والتمويه بالذهب، وشيء مغطى بالحرير الموصلي، وفيها المرايا. ودخلت إيفينا الحجرة

الصغيرة خلف حجرة الجلوس من باب آخر- في وقت دخولنا نفسه. واستقبلتني استقبالًا وديًّا جدًّا كأحد الأقارب، وقدمت لي مقعدًا بالقرب منها، واستفسرت باهتمام عن كل أفراد أسرتها. وقد أعجبتني كثيرًا السيدة إيفينا التي رأيتها مرتين عابرتين قبل هذه المرة، حتى إنني تأملتها بكل انتباه. كانت طويلةً نحيلةً، شديدة البياض، يبدو عليها الاكتئاب والوهن على الدوام. كانت ابتسامتها حزينةً، ولكنها بالغة الحنان، عيناها واسعتان جدًّا، ومتعبتان، نظراتهما غير مستقيمة تمامًا، مما كان يضفي عليها ملامح أكثر كآبةً وجاذبيةً. كانت جالسةً غير منحنية تمامًا، ولكنها كانت مائلةً بكل جسمها، وكل حركاتها مسترخية. كانت تتحدث بوهن، ونغمة صوتها، ونطقها لحرفي الراء واللام غير الواضح كان يلذ السمع كثيرًا جدًّا. لم تكن ترحب بي. وواضح أن إجاباتي عن أقاربي كانت تمدها بتسلية حزينة، كأنها وهي تنصت إليَّ كانت تتذكر في أسى أيامًا أسعد. وذهب ابنها إلى مكان ما، وتأملتني مدة دقيقتين في صمت، ثم أخذت تبكي على حين فجأة، وجلست هناك لا أستطيع أن أقول أو أفعل أي شيء، وظلت هي تبكي دون أن تنظر إليَّ ألبتة. أسفت لها في أول الأمر ثم قلت لنفسي: «ألا ينبغي لي أن أواسيها، وكيف أستطيع أن أفعل ذلك؟»، وأخيرًا غضبت منها لأنها وضعتني في هذا الموقف المحرج. وقلت: «هل يستحق شكلي الرثاء إلى هذا الحد؟ أو أنها تفعل ذلك بقصد أن ترى كيف سأتصرف إزاء هذه الظروف؟».

وتابعت تأملاتي: «ليس من اللائق أن أستأذن في الانصراف الآن – فقد يبدو هذا كأنني أهرب من دموعها»، وتحركت في مقعدي لأذكرها

بوجودي.

فقالت وهي تنظر إليَّ وتحاول الابتسام: «آه، يا لبلاهتي! توجد أيام يبكي فيها المرء لغير ما سبب».

وأخذت تبحث عن منديلها على الأريكة بجوارها، ثم انفجرت فجأةً في البكاء أكثر من ذي قبل.

«آه يا عزيزي، إنه لمن السخرية أن أبكي على هذه الصورة! لقد كنت أحب أمك كثيرًا، كنا صديقتين و___».

وعثرت على منديلها، وغطت به وجهها، وراحت تبكي. وتحرج موقفي للمرة الثانية، وظللت على هذه الحال فترةً طويلةً، وشعرت بالامتعاض، ولكن شعور الإشفاق عليها كان أقوى. كانت تبدو دموعها حقيقيةً، وظللت أفكر في أنها لم تكن تبكي بسبب أمي بقدر ما كانت تبكي لكونها كانت تعيسةً آنئذ، وقد عرفت أيامًا أسعد. ولست أعرف كيف كانت ستنتهي لو لم يدخل إيفن الصغير، ويقول إن إيفن الكبير كان يسأل عنها؛ فنهضت وتأهبت للذهاب إليه حين دخل الحجرة إيفن نفسه. كان سيدًا صغير الجسم، قوي البنية، أشيب الشعر، ذا حاجبين غزيرين أسودين، وشعر رمادي تمامًا قصته منخفضة، وفي تعبير وجهه عبوس وثبات فائقين.

نهضت وانحنيت له، ولكن إيفن، الذي يضع على سترته الخضراء ثلاثة نجوم لم يقتصر فقط على عدم الاستجابة لتحيتي، ولكنه لم يكد ينظر إليَّ، حتى لقد شعرت فجأةً أنني لست كائنًا بشريًّا، بل مجرد شيء ما

لا يستحق الملاحظة -مقعد ذي مساند، أو نافذة، أو إذا كنت كائنًا بشريًّا فإنه لا يمكن تمييزي بحال من الأحوال من المقعد ذي المساند أو النافذة.

وقال لزوجته بالفرنسية، وكان تعبير وجهه جامدًا ولكن في حزم: «إنك لم تكتبي يا عزيزتي للكونتيسة حتى الآن».

وقالت لي السيدة إيفينا: «صحبتك السلامة يا سيد أرتنييف»، وهي تميل رأسها دفعةً واحدةً في تعال نوعًا ما، وتتفرس في حاجبي كما فعل ابنها. وانحنيت لها ولزوجها مرةً أخرى، وأثرت تحيتي مرةً أخرى في إيفن الكبير كما يؤثر فيه تمامًا فتح النافذة أو غلقها، ولكن إيفن الصغير صحبني حتى الباب. (وقال لي وهو في الطريق إنه سينتقل إلى جامعة بيترسبرج، لأن والده حصل على وظيفة هناك، وذكر لي مركزًا هامًّا جدًّا).

وغمغمت أقول لنفسي وأنا أركب عربتي الدروشكي: «حسن» قد يرضى أبي عن هذا أو لا يرضى، ولكني لن أضع قدمي مطلقًا في هذا البيت مرةً أخرى. إن ذلك النشيج العاوي عندما تنظر إليَّ كما لو كنت مخلوقًا تعيسًا؛ وذلك الخنزير إيفن الذي لا ينحني لي. سأردها له» أما كيف قصدت أن أردها له، فلا أعرف في الحقيقة، ولكن هذه هي الكلمة التي طرأت على ذهني.

وكثيرًا ما كنت اضطر فيما بعد إلى تحمل تحذيرات أبي، وقال لي إنه لا مفر من «تهذيب» هذه المعرفة، وإنني لا أحتاج إلى رجل في مركز كهذا مثل إيفن ليرعي صبيًّا مثلي، ولكني احتفظت بتصميمي مدة طويلة.

(٧٦)

الأمير إيفان إيفانتش

قلت لكوزما بينما كنا نتدحرج نحو بيت الأمير إيفان إيفانتش: «والآن، إلى آخر زيارة لنا في نيكيتسكايا».

بعد أن خبرت عدة تجارب في القيام بالزيارات حصلت بالمران على الاعتماد على النفس، وكنت الآن على وشك الذهاب إلى بيت الأمير في حالة نفسية محتملة من رباطة الجأش، عندما تذكرت فجأةً كلمات الأميرة كورناكوفا من أنني وريثه، وفوق ذلك وقع نظري على عربتين تنتظران عند المدخل، فغلبني الخجل مرةً أخرى.

وخُيِّل إليَّ أن البواب العجوز الذي فتح لي الباب، والخادم الذي ساعدني على خلع معطفي، والسيدات الثلاث والسيدين اللذين وجدتهم في حجرة الاستقبال، والأمير إيفان إيفانتش نفسه بخاصة، الذي كان جالسًا على الأريكة مرتديًا سترةً بسيطةً -خُيِّل إليَّ أنهم جميعًا نظروا إليَّ بوصفي وريثًا. وإذَنْ فنظرتهم عدائية. كان الأمير ودودًا جدًّا معي: قبلني، أي أنه وضع شفتيه الناعمتين الجافتين الباردتين على خدي لحظةً، واستفسر عن مشاغلي وخططي، ومازحني، وسألني عما إذا كنت لا أزال

أكتب شِعرًا كالذي كتبته لجدتي يوم عيدها، وقال لي إنه يجب أن أحضر فأتناول معه الطعام في ذلك اليوم. ولكن بقدر ما كان مضيافًا، بقدر ما كان يخيل إليَّ أنه يريد تدليل فقط حتى لا أدرك مدى كراهيته لفكرة أنني وريثه. لقد كانت فيه عادة -نشأت من وجود الأسنان الصناعية التي كانت تملأ فمه -وهي رفع شفته نحو أنفه بعد أن يقول أي شيء، ويحدث صوتًا ضعيفًا كأنه يجر شفته إلى داخل خياشيمه، وعندما فعل هذا في المناسبة الحاضرة خيل إليَّ كأنه يقول لنفسه: «أيها الصبي، لست بحاجة إلى أن تقول لي: إنك وريثي، نعم، وريثي» وهكذا.

عندما كنا أطفالًا كنا نطلق على الأمير إيفان إيفانتش «جدنا»، ولكن الآن، بصفتي الوريث، لا أستطيع أن يرد على لساني هذا التعبير، بينما خيل إليَّ أن وصفه «بصاحب السعادة» كما فعل واحد من الزائرين الآخرين فيه تحقير، ولذلك فإنني حاولت أثناء الحديث كله ألا أطلق عليه أي صفة كليةً، ولكني كنت متضايقًا أكثر من أي شيء آخر، من الأميرة العجوز التي كانت هي الأخرى من ورثة الأمير، وكانت تعيش تحت سقف بيته. وفي وقت الغداء الذي كنت أجلس أثناءه بجانب الأميرة، تخيلت أن الأميرة لم تتحدث إليَّ؛ لأنها كانت تبغضني لأنني وريث للأمير مثلها، وأن الأمير لم يعر هذا الجانب من المائدة التفاتًا لأننا -الأميرة وأنا- وريثان بغيضان لديه على السواء.

وقلت في نفس ذلك المساء لديمتري رغبةً مني في التفاخر أمامه بنفوري من أنني وريثه: «نعم، إنك لا تستطيع أن تصدق مدى كراهيتي لهذه الفكرة» (وكان هذا الشعور يلذ لي كثيرًا) وقلت: «وكم كان منفرًا

لي قضاء ساعتين كاملتين بمنزل الأمير اليوم... إنه رجل لطيف جدًّا وكان مؤدبًا جدًّا معي»، وقلت ذلك مع أشياء أخرى لرغبتي في التأثير على صديقي بأن ما قلته لم يكن نتيجةً لشعوري بالمذلة أمام الأمير، وتابعت حديثي «ولكن، فكرة أنهم ربما ينظرون إليَّ كما ينظرون إلى الأميرة التي تعيش في بيته، وتسلك أمامه هذا المسلك الذليل لهي فكرة تبعث على الفزع. إنه رجل عجوز مدهش، شديد الحنان والرقة مع الجميع، ولكن من المؤلم أن أرى كيف يسيء معاملة تلك الأميرة. إن هذا المال الممقوت ليفسد جميع العلاقات!».

وقلت: «أتعرف، أنني أرى من الأفضل كثيرًا أن أشرح للأمير موقفي بجلاء، فأخبره أنني أحترمه كرجل ولكني لا أفكر في وراثته، وألتمس منه ألا يترك لي أي شيء، وأنني تحت هذا الشرط وحده أذهب إلى بيته».

ولم يضحك ديمتري حين ذكرت له هذا، بل على العكس، راح يمعن التفكير، وبعد صمت دام بضع دقائق قال لي:

«أتعرف ماذا؟ إنك غير محق، فإما أنك لا تفترض مطلقًا أن الناس يمكنهم أن يظنوا فيك كما يظنون في الأميرة؛ وإما، فلو افترضت هذا، فحينئذ ينبغي أن تحمل افتراضاتك إلى أبعد من ذلك: أي أنك تعرف ما قد يظنه الناس فيك، ولكن مثل هذه الأفكار بعيدة جدًّا عن نواياك، إلى حد أنك تحتقرها، ولا تفعل شيئًا يقوم عليها. والآن، افترض أنهم يفترضون أنك تفترض هذا»–ثم أضاف، وقد شعر أنه مستغرق في تأملاته «ولكن قصارى القول» من الأفضل كثيرًا ألا تفترض شيئًا على الإطلاق».

لقد كان صديقي محقًّا تمامًا، غير أن الأمر جاء متأخرًا جدًّا، وأنني

كنت مقتنعًا من تجربتي في الحياة بمدى ما في التفكير من ضرر، وما ينطوي عليه النطق من أذى أكبر، فكثير من الأشياء التي تبدو نبيلةً جدًّا، يجب أن تظل إلى الأبد خافيةً عن الجميع، مخبأةً في قلب الشخص، وما إندر ما تصحب الكلمات النبيلة الأعمال النبيلة. وإنني لمقتنع أن القصد الطيب نفسه إذا ما أُذيع، فإنه يجعل تنفيذ هذا القصد الطيب أكثر صعوبةً، بل مستحيلًا بوجه عام. ولكن كيف تكبح النطق ببواعث الشباب ذات الإشباع الذاتي النبيل؟ إن المرء يتذكرها فقط فيما بعد، ويحزن عليها كما يحزن على زهرة لم تعمر طويلًا، قطفها شخص قبل أن تتفتح، ثم يجدها مطروحةً على الأرض، محطمةً ذابلةً.

أنا، الذي قلت لصديقي ديمتري الآن فقط إن المال يفسد العلاقات، قد اقترضت منه خمسة وعشرين روبل منحني إياها في صباح اليوم التالي قبل رحيلنا الريف، حين وجدت أنني أضعت كل نقودي الخاصة في شراء الصور المختلفة وسيقان الغليون، ثم بقيت مدينًا له بعد ذلك وقتًا طويلًا حقًّا.

* * *

(٧٧)

حديث ودي مع صديقي

بدأ هذا الحديث في المركبة المكشوفة في الطريق إلى كنتسيفو. وكان ديمتري قد أقنعني، بالعدول عن زيارة أمه في الصباح، ولكنه جاءني بعد طعام الغداء ليعوضني عنها بكل فترة العصر، بل بقضاء الليلة في المنزل الريفي حيث تعيش أسرته. عندما طلعنا فقط من المدينة واستعضنا بالشوارع القذرة الكثيرة الألوان، وضجيج الأرصفة غير المحتمل الذي يصم الآذان، مناظر الأشجار الفسيحة المكشوفة في الحقول، وصلصلة العجلات الهادئة على الطريق الترابي، وهواء الربيع المعطر، والشعور بالفضاء يغلفني من جميع الجوانب -آنئذ فقد استعدت حواسي لدرجة ما، من الانفعالات الجديدة المختلفة، والإحساس بالحرية الذي أربكني طوال اليومين الماضيين. كان ديمتري لطيفًا عطوفًا، لم يكن ينسق رباط رقبته مع رأسه، ولم يكن يطرف بعينيه في توتر أو يلوي عينيه إلى أعلى. كنت راضيًا عن المشاعر السامية التي أطلعته عليها، معتقدًا أن مراعاته لها ستجعله يغتفر لي تمامًا العمل المشين الذي حدث مع كولبكوف ولا يزدريني بسببه. وتحدثنا بطريقة ودية عن أشياء كثيرة خاصة لا يتحدث دائمًا عنها حتى الأصدقاء. وحدثني ديمتري عن أسرته التي لم أكن قد

عرفتها بعد -عن أمه وعمته وأخته، ثم عن الشخص الذي اعتبره فولوديا ودوبكوف هيام صديقي وأطلقوا عليها «الصغيرة ذات الرأس الأحمر». كان يتحدث عن أمه في شيء من المديح الهادئ المزهو كما لو كان يحول دون أي اعتراض على ذلك الموضوع، ويظهر الحماس فيما يتصل بعمته، ولكن في شيء من التلطف، أما عن أخته فكان يقول الشيء القليل للغاية، ويظهر أنه كان يخجل أن يتحدث إليَّ عنها. أما عن «الصغيرة ذات الرأس الأحمر» التي كان اسمها الحقيقي ليوبوف سرجيفنا، وهي فتاة غير متزوجة متقدمة السن، وكانت تعيش في بيت آل نخيلودوف لعلاقة عائلية أو أخرى، فقد حدثني عنها بحماسة.

قال وقد احمر وجهه خجلًا، ولكنه كان في نفس الوقت ينظر إليَّ بجسارة: «نعم إنها فتاة مدهشة، وهي لم تعد فتاةً صغيرةً -بل إنها لكبيرة نوعًا، وليست جميلة بحال؛ ولكن، يا لغباء المرء وفقدان شعوره إذ يحب الجمال! إنني لا أفهم هذا، إنه لغباء مطبق (كان يتكلم كأنه كشف لساعته عن حقيقة جديدة جديرة تمامًا بالاعتبار) ولكنها تحمل روحًا وقلبًا ومبادئ لا تشبهها في ذلك أي فتاة أخرى في هذه الأيام». (ولست أعرف لماذا اكتسب ديمتري عادة التعبير عن كل شيء طيب بأنه نادر في هذه الأيام، وكان مغرمًا بتكرار هذا التعبير ويظهر أنه ملائم له).

وتابع حديثه في هدوء بعد أن تعب من إدانة الناس الذين يمتازون بغباء حب الجمال: «إنني لأخشى فقط، أخشى أن يقتضيك فهمها ومعرفتها بعض الوقت. إنها محتشمة بل كتوم، ولا تحب التظاهر بصفاتها اللطيفة المدهشة؛ فمثلًا أمي، وهي امرأة رقيقة جدًّا وذكية، كما

ستری، قد عرفت ليوبوف سرجيفنا منذ سنوات عدة، ولم تستطع، ولن تستطيع فهمها؛ بل سأقص عليك لماذا كنت منقبض النفس عندما سألتني في الليلة الماضية-. أرادت ليوبوف سرجيفنا أمس الأول أن أذهب معها إلى إيفان باكوفلفتش -وقد سمعت بالتأكيد عن إيفان إيفانتش- الذي يقال إنه مجنون، ولكنه في الحقيقة رجل شهير، ويجب أن أخبرك أن ليوبوف سرجيفنا متدينة جدًّا، وتفهم إيفان باكوفلفتش تمام الفهم، وكثيرًا ما تذهب لزيارته والتحدث إليه، وتعطيه نقودًا من كسبها الخاص لقومه من الفقراء، فهي كما ترى امرأة مدهشة، ولذلك ذهبت معها إلى إيفان باكوفلفتش وشكرتها كثيرًا؛ لأنها هيأت لي رؤية ذلك الرجل الشهير، ولكن أمي لا تريد أن تفهم هذا ألبتة وتعده خرافةً. ولقد تشاحنت في الليلة الماضية مع أمي لأول مرة في حياتي، وكانت مشاحنةً حاميةً إلى حد ما»، ثم ختم حديثه بحركة تشنجية في عنقه، كأنها تذكار للشعور الذي عاناه أثناء تلك المشاحنة.

وقلت مستفسرًا رغبةً مني في صرفه عن هذه الذكريات الكريهة: «حسن، وما رأيك؟ أي كيف تتصور نتيجة ذلك؟ أو هل تتحدث إليها عمَّ سيئول إليه الموقف؟ وكيف ينتهي حبكما وصداقتكما؟».

واستفسر مني وقد احمر وجهه مرةً أخرى، ولكنه التفت إليَّ وتفرس في وجهي بجسارة: «تقصد أن تسألني عمَّ إذا كنت أفكر في الزواج منها؟».

وقلت لنفسي مرةً أخرى في تعاظم: «حسن، إن هذا عين الصواب، إننا راشدان، نحن الصديقين الراكبين في هذه العربة الصغيرة المكشوفة

نناقش أمر حياتنا المستقبلة، وكل واحد يتمتع بالإصغاء والنظر إلينا الآن دون أن نراه».

ومضى يقول بعد أن أجبته بالإيجاب: «ولِمَ لا؟ إن هذا هو هدفي كما هو هدف كل رجل مستقيم التفكير، أن يكون سعيدًا وطيبًا بقدر ما في وسعه؛ وسأكون سعيدًا معها، إذا ما رضيت هي بذلك، وسأكون أحسن حالًا مما لو كنت مع أجمل جميلات الدنيا، حالما أصبح مستقلًّا تمام الاستقلال».

ولم نلاحظ، ونحن نتحدث على هذا الوجه أننا وصلنا إلى منزل كونتسيفو، وأن السماء تلبدت كلها بالغيوم، وأنها على وشك أن تمطر. وكانت الشمس إلى اليمين لم ترتفع كثيرًا في السماء، فوق أشجار حديقة كونتسيفو العتيقة، يغطي نصف قرصها اللامع الأحمر سحب رمادية ينبعث منها ضوء ضئيل، والأشعة النارية تفلت في انبثاقات من النصف الآخر وتحط على الأشجار العتيقة في الحديقة بلمعان أخاذ، بينما تضيء نواحيها الخضراء الكثيفة الساكنة في الشق الساطع من السماء اللازوردية، وأشعة الضوء في هذا الجانب من السماء كانت شديدة التباين إزاء السحابة الكثيفة الأرجوانية المواجهة لنا فوق أشجار البتولا التي ترى عند الأفق.

وعلى مسافة قريبة إلى اليمين، فيما وراء الغابات والأشجار كنا نرى أسقف الأكواخ الصيفية المتعددة الألوان، بعضها يعكس أشعة الشمس الساطعة، بينما البعض الآخر يشمله طابع الكآبة الذي يتسم به النصف الآخر من السماء، ومن تحت إلى اليسار، البركة الساكنة تشع زرقةً تحيط

بها أشجار الصفصاف الخضراء الباهتة تبرز معتمةً عند سطحها الكئيب الذي يبدو منتفخًا في ظاهره، وفيما وراء البركة في منتصف الطريق إلى التل يمتد حقل قاتم مشبع بالبخار، ويجري الخط المستقيم ذو اللون الأخضر الذي يقسمه في الوسط إلى مسافة بعيدة، ثم يستقر على الأفق الرصاصي اللون المنذر بالمطر. وعلى جانبي الطريق اللين الذي تتدحرج فوقه العربة الصغيرة المكشوفة في حركة رتيبة، يبدو نبات الجاودار الغزير المتشابك، أخضر براقًا، وقد بدأ يفرخ سويقات هنا وهناك. وكان الهواء ساكنًا تمامًا يتأرجح نضارةً، وكانت خضرة الأشجار والأوراق والجاودار ساكنةً، غير عادية النقاوة والصفاء. كان يخيل إليَّ أن كل ورقة وكل نصل من الحشائش يحيا حياته الخاصة الفردية الحرة السعيدة. وإلى جانب الطريق لمحت ممرًّا للمشاة ضاربًا إلى السواد يخترق الجاودار الأخضر القاتم الذي أصبح آنئذ في أكثر من ربع نموه. وذكرني هذا الممر لسبب ما، وفي وضوح خاص بقريتنا، ونتيجة لتفكيري في القرية، وبواسطة ترابط عجيب بين الأفكار، ذكرني بوضوح خاص بسونتشكا وبأنني كنت على حب معها.

بالرغم من كل صداقتي لديمتري، والسرور الذي تبعثه في صراحته، لم أرغب في معرفة أي شيء عن شعوره ونواياه إزاء ليوبوف سرجيفنا أكثر مما عرفت، لكني فكرت في أنه ينبغي أن يعرف شيئًا عن حبي لسونتشكا، الذي كان يبدو لي حبًّا من طراز أرقى بكثير. ومع ذلك فلسبب ما لم أعقد النية على أن أخبره مباشرةً بأفكاري، وكم يكون جميلًا أن أتزوج من سونتشكا، وعن معيشتي في الريف، وكيف يكون لي أطفال صغار

يتوقون إلى السير على الأرض، وينادونني «بابا» وكيف يفرحني عندما يأتي هو وزوجته ليوبوف سرجيفنا لزيارتي في ملابس السفر؛ ولكن بدلًا من هذا كله أشرت إلى الشمس الغاربة وقلت: «انظر يا ديمتري، كم هي ساحرة!».

ولم يقل ديمتري شيئًا، وواضح أنه امتعض لأنني أجبت عن اعترافه الذي كلفه مجهودًا فيما يحتمل، بتوجيه التفاته إلى الطبيعة التي كان موقفه منها جامدًا تمامًا. كانت الطبيعة تؤثر فيه تأثيرًا مختلفًا جدًّا عن تأثيرها فيَّ، لم تكن تؤثر فيه كثيرًا بجمالها كما تؤثر فيه بنفعها، فهو يحبها بعقله أكثر مما يحبها بمشاعره.

وقلت له بعد هذا دون أن أراعي أنه كان منشغلًا فيما يبدو بأفكاره الخاصة غير مهتم مطلقًا بما أقوله له: «أعتقد أنني أخبرتك عن سيدة صغيرة وقعت في حبها حين كنت طفلًا، وقد رأيتها اليوم، ثم تابعت حديثي في حماسة: «ولا بد أنني أحبها الآن».

وبالرغم من تعبير عدم الاكتراث الذي كان لا يزال يتراءى على وجهه، فقد أخبرته بحبي وبجميع خططي لهناءة زواج المستقبل. ومن العجيب أن أقول إنني حالما وصفت له بالتفصيل كل قوة شعوري، حتى أخذ شعوري هذا في النقصان.

لقد باغتنا المطر بعد أن دلفنا مباشرةً إلى طريق أشجار البتولا المؤدي إلى الطرز (الفيلا)، ولم أعرف أنها تمطر إلا بسقوط قطرات قليلة على أنفي ويدي، وبشيء ما يطقطق على الأوراق الصغيرة المتلاصقة من البتولا التي كانت أغصانها متدليةً دون حركة، وبدت كأنها تتلقى هذه

القطرات النقية الشفافة بحبور، كما يري ذلك من الأريج القوي الذي تملأ به الطريق. وهبطنا من العربة الصغيرة لكي نصل إلى البيت بسرعة أكبر، مجتازين الحديقة جريًا، ولكنا قابلنا عند مدخل البيت مباشرةً أربع سيدات، كانت اثنتان منهن يقمن بعمل ما، ومع الثالثة كتاب، والأخيرة كانت تقترب بخطى سريعة من ناحية أخرى مع كلب صغير. وقدمني ديمتري مباشرةً إلى أمه وأخته وعمته وليوبوف سرجيفنا. ووقفن برهةً، ولكن المطر بدأ يتساقط بسرعة متزايدة.

وقالت السيدة التي عرفت أنها أم ديمتري: «لنذهب إلى الشرفة، فتقدمه لنا هناك مرةً أخرى»، وصعدنا الدرج مع السيدات.

* * *

(٧٨)

آل نخيلودوف

كانت السيدة الوحيدة التي لفتت نظري لأول وهلة أكثر من كل هذه المجموعة هي ليوبوف سرجيفنا التي كانت آخر من صعد الدرج، وبين ذراعيها كلب صغير مدلل وفي قدميها حذاء سميك مربوط، وتوقفت مرتين لتتفرس فيَّ بإمعان، ثم قبلت كلبها، كانت تتصف بأي شيء آخر إلا الجمال -ذات شعر أحمر خفيف قصير على جانب واحد تقريبًا. والذي أضفى على وجهها البساطة، كل البساطة طريقة تصفيف شعرها الغريبة وجعله في جانب واحد (وهي إحدى طرق تصفيف الشعر التي تخترعها لأنفسهن النساء ذوات الشعر الخفيف)، ولقد حاولت ما استطعت مدفوعًا برغبة إدخال السرور إلى قلب صاحبي اكتشاف لمحة جميلة واحدة بين قسماتها فلم أستطع، بل إن عينيها البنيتين -برغم تعبيرهما اللطيف- كانتا بالغتي الصغر متبلدتين، فهي بالتأكيد لم تكن جميلةً؛ حتى اليدين اللتين تكشفان عادةً عن الأخلاق، وإن كانتا غير كبيرتين أو سيئتي التكوين، إلا أن لونهما كان أحمر، وملمسهما كان خشنًا.

وعندما تبعتهن إلى الشرفة، قالت كل واحدة من السيدات كلمات قليلةً قبل أن يعدن إلى مشاغلهن الكثيرة، ما عدا فارنكا أخت ديمتري التي

كانت تنظر إليَّ باهتمام من خلال عينيها الواسعتين الرماديتين القاتمتين، وأخذت فارنكا تقرأ بصوت مرتفع من الكتاب الذي وضعته على ركبتيها، مستخدمةً أصبعها كمؤشر.

كانت الأميرة ماريا إيفانوفنا امرأةً طويلةً قوية البنية تناهز الأربعين، وقد تكون أكثر من ذلك، إذا ما أدخلنا في حسابنا خصلات شعرها الضاربة إلى اللون الرمادي، والتي تظهر صراحةً من تحت غطاء رأسها. ولكن وجهها الغض الرقيق، الذي يكاد يخلو من التجاعيد تمامًا، وبخاصة لمعان عينيها الواسعتين البهيج المرح، جعلها تبدو أصغر سنًّا. كانت عيناها البنيتان مفتوحتين عن آخرهما، وشفتاها رقيقتين جدًّا، وعابستين نوعًا، وأنفها عادي منتظم انتظامًا كافيًا، مع ميل قليل إلى اليسار. ولم تكن تضع خواتم في يديها الكبيرتين الشبيهتين بأيدي الرجال، مع أصابعهما النحيلة. وترتدي ثوبًا محكمًا ذا لون أزرق داكن، يناسب قوامها الأنيق وكان لا يزال فتيًّا، وكان من الواضح أنها مزهوة به. وجلست معتدلةً اعتدالًا غريبًا تخيط ثوبًا. وعندما دخلت الشرفة، أمسكت بيدي، وجذبتني نحوها كأنها ترغب في رؤيتي من مسافة أكثر قربًا. وقالت لي وهي تنظر إليَّ بنفس النظرة الفاترة الصريحة التي يمتاز بها ابنها أيضًا، وأنها عرفتني منذ زمن طويل من أحاديث ديمتري عني، وأنها دعتني لقضاء يوم كامل معهم؛ لكي يكون تعارفها بي أوثق. ثم أضافت: «افعل ما شئت ولا تكترث لنا أقل اكتراث، ونحن كذلك لن نقيد أنفسنا من أجلك. امش أو اقرأ أو أصغ أو نم إذا كان هذا يروقك أكثر من غيره».

أما صوفيا إيفانوفنا فكانت عانسًا كبيرة السن، وهي الأخت الصغرى للأميرة، ولكن يبدو من ملامحها أنها هي الأكبر. وكانت

تمتاز بذلك الأسلوب الخاص، العامر بالأخلاق الذي يوجد فقط في الفتيات القصيرات الشديدات الامتلاء، اللائي يستعملن المشدات حول خصورهن، حتى لكأن كل عافيتها قد صعدت إلى أعلى بقوة بالغة تهددها في كل لحظة بالاختناق. ولا تستطيع يداها السمينتان أن تتقابلا تحت نقطة بروز صدريتها. وكانت الأختان تشبه إحداهما الأخرى شبهًا كبيرًا جدًّا، بالرغم من أن ماريا إيفانوفنا ذات شعر أسود وعينين داكنين، بينما كانت صوفيا إيفانوفنا شقراء ذات عينين زرقاوين واسعتين، وهادئتين في نفس الوقت. (وهذا مزيج نادر الحدوث) وكان لهما نفس الملامح، نفس الأنف ونفس الشفتين، إلا أن صوفيا وشفتيها كانت أكثر غلظةً، وتميل إلى الجانب الأيمن إذا ما ابتسمت، في حين أنها في حالة الأميرة تميل إلى الجانب الأيسر. وواضح أن صوفيا إيفانوفنا حاولت أن تحافظ على هيئتها فتيةً، إذا حكمنا بثوبها وتصفيف شعرها وإخفائها لخصلات شعرها الرمادية، إن وُجد منها شيء. وخُيِّل إليَّ أن الطريقة التي كانت تنظر بها إليَّ، وهيئتها كانتا تدلان على أقصى حدود التعالي، وقد امتعضت في بادئ الأمر، في حين أنني شعرت من ناحية أخرى مع الأميرة أنني على سجيتي تمامًا. ويحتمل أن يكون ما لفت نظري هو بدانتها، ثم تشابه معين بين وجهها وصورة كاترين العظيمة وهو الذي أضفى عليها مسحة التعاظم. ولكني خجلت تمامًا حين قالت لي وهي تفرس في بإمعان طوال الوقت: «إن أصدقاء أصدقائنا أصدقاؤنا أيضًا»، واستعدت هدوئي وغيرت رأيي فيها كليةً؛ غير أنها بعد أن نطقت بهذه الكلمات تريثت برهةً، ثم فتحت فمها وتنهدت

بعمق. ولا بد أن تكون بسبب بدانتها قد اعتادت التنهد بعمق بعد كل مرة تنطق فيها بكلمات قليلة، وأن تفتح فمها قليلًا، وتقلب عينيها الواسعتين الزرقاوين. إن جزءًا كبيرًا من دماثة الأخلاق المحببة كانت تفصح عنه هذه العادة لسبب أو لآخر، إذ كان يزول عني كل خوفي بعد ذلك التنهد، وأعجبتني إلى أقصى حد. كانت عيناها فاتنتين، وكان صوتها رخيمًا مقبولًا، بل إن خطوط تكوينها البالغة الاستدارة كانت تبدو لي في تلك المرحلة من الشباب غير عاطلة كلها من الجمال.

أما ليوبوف سرجينفنا، بوصفها صديقة صديقي، فكان لا بد أن تقول لي شيئًا وديًّا وخاصًّا للغاية، (وهذا ما كنت أظنه)، بل إنها تفرست في وجهي مدةً طويلةً في صمت، كأنها لم تجزم بأن ما قصدت أن تقوله لي كان وديًّا للغاية، ولكنها قطعت الصمت لكي تستفسر مني عن القسم الذي دخلته، ثم تفرست في وجهي لحظةً بإمعان للمرة الثانية، ومن الواضح أنها كانت مترددةً في أن تنطق بشيء خاص وودي أو لا تنطق؛ وإذ لاحظت هذا الشك، فقد رجوتها معبرًا بتقاسيم وجهي أن تخبرني عن كل شيء، ولكنها قالت: «يقولون إن العناية التي تبذل في الجامعة للعلوم الطبيعية قليلة جدًّا في هذه الأيام»، ثم نادت كلبتها الصغير سوزيت.

تحدثت ليوبوف سرجيفنا طوال المساء في هذا النوع من الكلام المتناثر غير الملائم أو غير المتصل، ولكني كنت أعتقد في ديمتري اعتقادًا راسخًا، وكان ينظر إليَّ في بادئ الأمر بقلق شديد، ثم إليها طوال المساء، وكان تعبير وجهه يتساءل: «حسن، وما رأيك؟» -وذلك هو ما يحدث في معظم الأحيان، ومع أنني كنت مقتنعًا في دخيلة نفسي بعدم

وجود شيء خاص جدًّا عن ليوبوف سرجيفنا، فقد كنت أبعد ما أكون عن التعبير عن فكري حتى لنفسي.

وأخيرًا كانت فارنكا آخر عضو في هذه الأسرة؛ فتاة سمينة نوعًا في السادسة عشرة.

كانت الأشياء الوحيدة الجميلة فيها، عيناها الرماديتان القاتمتان الواسعتان، وكانتا تتسمان بمزيج من المرح واليقظة الهادئة، وتشبهان إلى حد بعيد جدًّا عيني عمتها، وضفيرة شعرها الشقراء البالغة الضخامة، ثم يداها الجميلتان الناعمتان إلى أقصى حد.

قلت صوفيا إيفانوفنا بتنهدها الرقيق وهي تقلب بعض قطع من الملابس كانت تخيطها: «أظنك قد تضايقت يا سيد نيكولاس لأنك لم تسمع البداية»، وكانت القراءة قد توقفت لحظةً لأن ديمتري كان قد ذهب إلى مكان ما.

«أو لعلك قرأت «روب روي» من قبل؟».

وفي ذلك الوقت كنت أعتبر من واجبي، ولو لمجرد أنني أرتدي الزي الرسمي للطلبة، أن أجيب في شيء كثير من الذكاء والصدق ولو إجابةً بسيطةً عن كل سؤال، يوجهه إليَّ أناس لم أعرفهم تمام المعرفة، ممن يعتبرون الإجابات القصيرة الواضحة مثل «نعم؛ ولا؛ وحقًّا إنها لشاقة؛ ولماذا، إنها سارة» وما إليها، أشياء يخجل منها المرء. ونظرت في سراويلي الجديدة العصرية، وإلى الأزرار اللامعة على سترتي وأجبت بأنني لم أقرأ «روب روي»، ولكن يسليني كثيرًا الاستماع إليه، لأنني أفضل قراءة الكتب من وسطها على قراءتها من أولها.

وأضفت بابتسامة الرضاء عن النفس قائلًا: «إنها لتسلية مضاعفة، فأنت تبدأ بالتساؤل عما حدث، ثم عما سيحدث».

وأخذت الأميرة تضحك نوعًا من الضحك غير الطبيعي.

(لاحظت فيما بعد أن الأميرة لا تعرف نوعًا آخر من الضحك).

وقالت: «من المحتمل أن يكون ذلك صحيحًا، وهل ستبقى هنا طويلًا يا نيكولاس؟ ولعلك لا تجد جرحًا لكرامتك إن أسقطت لفظ السيد؟ متى سترحل؟».

فأجبت: «لا أعرف، ربما غدًا، ولكن قد نمكث وقتًا طويلًا جدًّا»، مع أنني كنت أعرف تمامًا أننا سنسافر في اليوم التالي.

أتمنى على السواء مدةً أطول إن استطعت، إكرامًا لنا ولديمتري معًا»، ثم قالت الأميرة وهي تتطلع إلى المدى البعيد: «إن الصداقة شيء مدهش في سنك».

وشعرت أنهم جميعًا ينظرون إليَّ ينتظرون ماذا سأقول، بالرغم من أن فارنكا تظاهرت بأنها تفحص شغل عمتها، وشعرت أنهن جميعًا يختبرنني بنوع من الامتحان، وأنني يجب أن أظهر على أحسن ما أستطيع.

فقلت: «حقًّا، إن صداقة ديمتري لي مفيدة، ولكن صداقتي ليس فيها أي نفع لع، إنه خير مني ألف مرة». (لم يكن ديمتري يسمع ما أقوله، وإلا لخشيت أن يكشف ما في كلماتي من رياء).

وضحكت الأميرة للمرة الثانية ضحكتها غير الطبيعية، التي كانت طبيعيةً بالنسبة لها.

وقالت: «فلتسمعوه يتكلم. إنك أنت المارد الصغير الكامل الخلق».

وقلت لنفسي: «مارد كامل الخلق، إنه لشيء هام فيجب أن أتذكر ذلك».

ومضت تقول وقد خفضت صوتها (وهذا شيء كان يعجبني بنوع خاص): «بصرف النظر عنك أنت، فهو بارع في هذا». ثم أشارت بعينيها إلى ليوبوف سرجيفنا قائلة: «لقد اكتشف في عمتنا المسكينة (وهذا هو الاسم الذي كانوا يطلقونه على ليوبوف سرجيفنا) التي عرفتها مع كلبتها سوزيت لمدة عشرين عامًا، صفات من الكمال لم أكن حتى أتوهمها». ثم أضافت: «اطلبي منهم يا فاريا أن يحضروا لي كوبًا من الماء والثلج»، وراحت تنظر إلى المدى البعيد مرةً أخرى، ربما حين وجدت أن الوقت مبكر نوعًا، أو أنه ليس من الضروري أن تطلعني على شئون عائلية: «أو أن الأفضل أن تدعه (هو) يذهب، فليس (لديه) شيء يعمله، واستمري أنت في القراءة.

وقالت لي: «اذهب من هذا الباب مباشرةً يا صديقي، وسر نحو خمس عشرة خطوة في الممر وقل بصوت مرتفع: «بويتر، أحضر لماريا إيفانوفنا كوبًا من الماء والثلج»، ثم ضحكت مرةً أخرى باستخفاف ضحكتها غير الطبيعية.

وقلت في نفسي بينما كنت أغادر الحجرة: «إنها تريد بالتأكيد محاورتي، ولربما تريد أن تقول إنها لاحظت أنني شاب ذكي جدًّا جدًّا». ولكني لم أكد أقطع الخمس عشرة خطوة حتى لحقت بي صوفيا إيفانوفنا، السمينة اللاهثة بخطوات خفيفة سريعة.

وقالت : «أشكرك يا عزيزي، إنني ذاهبة بنفسي إلى هناك، وسأخبره».

(٧٩)

الحب

كانت صوفيا إيفانوفنا، كما علمت فيما بعد، إحدى أولئك النسوة الكبيرات السن النادرات، اللائي وإن كنَّ قد ولدن للحياة العائلية، إلا أنهن ينكرن هذه السعادة، ونتيجةً لذلك يصممن فجأةً على إغداق كل كنز الحب الذي اختزن طوال الزمن، فنما وقوي في قلوبهن، على أحبابهن المختارين. والمخزن غير قابل للنفاد بين العوانس من هذا الطراز إلى حد كبير، بالرغم من أن الأشخاص المختارين كثيرون. ولا يزال يوجد كثير من الحب الذي يسكبنه على جميع المحيطين بهن، من جميع الناس، أخيارًا وأشرارًا، ممن يتصادف أن يقابلنهم.

هناك ثلاثة أنواع من الحب:

١ – حب الجمال.

٢ – حب التضحية بالذات.

٣– الحب الذاتي.

ولا أتحدث عن حب شاب لفتاة، أو حبها له؛ فأنا أخاف هذه العواطف، وقد كنت سيئ الحظ للغاية في الحياة من حيث إني لم أشهد

شرارةً واحدةً من الصدق في هذا النوع من الحب، بل الكذب دون سواه، الذي تغشى فيه الشهوات والعلاقات الزوجية والمال والرغبة في ربط يدي الإنسان أو حلهما، على الشعور نفسه، فيصبح من المتعذر عليه كثيرًا الوصول إلى صميمه. إنني أتحدث عن الحب الموجه للجنس البشري الذي يتركز وفقًا لقوة الروح شدةً وضعفًا، على شخص واحد أو على أشخاص عديدين، أو ينهمر على الكثيرين، وعن حب الأم أو الأب والأخ، والأبناء، حب الزميل والأصدقاء وابن الوطن، وعن حب الإنسان.

وينطوي حب الجمال على حب العاطفة نفسها والإفصاح عنها، لأن الناس الذين يحبون على هذا الوجه يكون هدف ميلهم محبوبًا بقدر ما يثيره وحسب، ذلك الشعور السار في الوجدان الذي يلذ لهم التعبير عنه. والناس الذين يحبون مع حب الجمال لا يهتمون إلا قليلًا جدًّا بالمبادلة إلا بوصفها شيئًا لا أثر له على جمال الإحساس ولذته، وكثيرًا ما يغيرون أهداف حبهم؛ إذ إن غرضهم الأساسي ليس إلا استثارة شعورهم السار بالحب. وللمحافظة على هذا الإحساس السار في نفوسهم، يتحدثون دون انقطاع عن عاطفتهم بألطف العبارات، وعن الشخص المقصود بهذا الحب، وعن أولئك الذين لا صلة لهم بهذا الحب بوجه من الوجوه.

وفي بلادنا أناس ينتمون إلى طبقة معينة ممن يحبون حبًّا «جماليًّا»، ولا يقتصرون على التحدث عن حبهم إلى كل شخص، بل لا بد لهم من التحدث عنه باللغة الفرنسية، ومن المريب والغريب أن أقول ذلك، ولكني مقتنع أن أناسًا كثيرين من الطبقة الممتازة وبخاصة من النساء اللائي كان ولا يزال حبهن لأصدقائهن ولأطفالهن ولأزواجهن يفني سريعًا إذا ما

حرمن من التحدث عنه بالفرنسية.

والنوع الثاني من الحب -حب التضحية بالذات- ويتضمن عملية تضحية الشخص بنفسه من أجل الهدف الذي أحبه دون أي اعتبار لكون الشخص المحبوب سيصبح أحسن أو أسوأ، ودستور هذا النوع من الحب هو «ليس هناك شيء مكروه لا أفعله لإثبات إخلاصي للعالم كله و «له» أو «لها». والناس الذين يحبون على هذا الوجه لا يعتقدون مطلقًا في المبادلة (لأن تضحية الشخص بنفسه في سبيل شخص لا يفهمه أجدر بالتقدير)، وهم دائمًا في حالة مرضية ترفع دائمًا من قدر التضحية، وهم ثابتون في معظمهم؛ لأنه من العسير عليهم فقدان تلك التضحيات التي بذلوها في سبيل هدف حبهم. وهو مستعدون دائمًا للموت لكي يثبتوا له أو لها مدى إخلاصهم، ولكنهم يستهينون بمظاهر الحب اليومية الصغيرة التي لا تحتاج إلى ظهور تضحية بالنفس من نوع خاص. وهم لا يهتمون بما إذا كنت قد أكلت أو نمت على ما يرام، وما إذا كنت فرحًا أو أنك بصحة، ولا يفعلون شيئًا ليدبروا لك تلك الوسائل من الراحة إذا كانت في نطاق قدرتهم، ولكنهم يواجهون الرصاص ويلقون بأنفسهم في الماء أو في النار لكي يذوبوا أسى من أجل الحب -فهم مستعدون دائمًا لكل هذا إذا ما عرضت المناسبة وحسب. وفوق هذا، فإن الناس الذين يمليون إلى حب التضحية بالنفس يزهون دائمًا بحبهم، وهم حريصون غيورون مرتابون؛ وعجيب أن أقول إنهم يمنون الخطر من أجل هدفه حتى يمكنهم إنقاذه من شقائه، ولكي يهيئوا له الراحة -بل ينشدون له الرذائل لكي يقوموه.

إنك تعيش وحيدًا في الريف مع زوجك التي تحبك حبًّا ينطوي على التضحية بالنفس، وأنت شخص طيب هادئ، ولديك مشاغل تحبها، وزوجك الودودة، يبلغ بها الضعف بحيث لا تستطيع أن تشغل نفسها بإدارة شئون المنزل التي عهد بها إلى أيدي الخدم، ولا بالأطفال الذين تتناولهم أيدى المربيات، ولا بأي شيء تحبه، لأنها لا تحب شيئًا إلا أنت. فمن الواضح أنها مريضة، ولكنها لا تريد أن تؤلمك، ولا تذكر لك هذا، وهي بادية الضيق، ولكنها مستعدة لتحمل هذا الضيق طوال حياتها من أجلك. ولكونك ممعنًا في انشغالك بأعمالك إلى حد بعيد (كيفما كانت هذه الأعمال -صيد، كتب، فلاحة، خدمة) فإن ذلك يقتلها، وهي متأكدة أن هذه المشاغل ستدمرك، ولكنها تلتزم هدوءها وتقاسي. ولكنك الآن تصاب بمرض، وتنسى زوجك المحبة مرضها من أجلك، وبالرغم من توسلاتك ألا تعذب نفسها للا شيء، فإنها تجلس إلى جوار فراشك ولا تتحول عنه، وتشعر بنظرتها الحانية عليك في كل ثانية، وتقول لك: «هذا أنت! لقد قلت لك. ولكن هذا لا يغير من الأمر شيئًا بالنسبة إليَّ، فلن أتركك، وتتحسن قليلًا في الصباح، وتذهب إلى حجرة أخرى، ولكن الحجرة غير دافئة أو مرتبة، ولم يطلب من الطباخ عمل الحساء وهو الشيء الوحيد الذي تستطيع تناوله، ولم يطلب الدواء بعد، ولكن زوجك المسكينة المحبة تنظر إليك بنفس تلك النظرة الحانية التي أضناها السهر، وتمشي على أطراف أصابعها، وتصدر إلى الخدم أوامر متضاربةً هامسةً لم يكن لهم بها عهد. وأنت تريد أن تقرأ؛ فتخبرك زوجك الودودة وهي تتنهد، أنها تعرف عدم إصغائك لنصحها وأنك ستغضب منها، وأنها قد

اعتادت هذا -ولكن من الأفضل لك أن ألا تقرأ- وأنت تريد أن تمشي في الحجرة، فالأفضل ألا تفعل. وتريد التحدث إلى صديق وصل لتوه -فالكلام ليس ملائمًا لك. وتعاودك الحمى مرةً أخرى في الليل، وتطلب أن تترك وحيدًا؛ ولكن زوجك الودودة تجلس شاحبة اللون منهوكة القوى تتنهد من وقت إلى آخر على المقعد المواجه لك في ضوء مصباح ليلي خافت، وتثير فيك الشعور بالهياج ونفاد الصبر لأقل صوت أو حركة تصدر منها، ولديك خادم عاش معك عشرين عامًا وقد ألفته، وهو يخدمك بطريقك مستحبة ومرضية لأنه نام في أثناء النهار نومًا كافيًا، بالإضافة إلى أنه يتناول أجرًا في مقابل خدماته، ولكنها لا تؤلمه بالقيام على خدمتك. إنها ستقوم بكل شيء بأصابعها الهزيلة غير المدربة، التي لا تستطيع تحاشي مراقبتها بضيق مكبوت عندما تجاهد هذه الأصابع البيضاء عبثًا في انتزاع سدادة قارورة أو إطفاء شمعة أو صب الدواء لك. وإن كنت رجلًا ملولًا حاد الطبع، ورجوتها أن تبتعد، فإن أذنك المتهيجة، أذن الشخص المريض ستسمع التنهد والنشيج خارج الباب، والهمس بشيء من الهراء إلى خادمك؛ وأخيرًا، إذا لم تمت، فإن زوجك المحبة التي لم تنم طوال العشرين ليلة التي رقدتها مريضًا «كما تكرر هذا على أذنيك دون انقطاع) تمرض هي الأخرى وتنهار وتتألم، وتصبح أقل قدرةً على أي عمل، وفي الوقت الذي تعود فيه إلى حالتك الطبيعية، تعبر هي عن حبها للتضحية، بالذات، بأن تبعث حولك نوعًا من الكآبة الرقيقة التي تصل إليك، وإلى كل ما يحيط بك دون قصد.

والنوع الثالث -الحب الذاتي- يتضمن محاولة إشباع جميع

الحاجات والرغبات، بل وجميع الرذائل الخاصة بالشيء المحبوب. والناس الذين يحبون على هذه الصورة إنما يحبون دائمًا من أجل الحياة، لأنهم كلما يزداد حبهم، تزداد معرفتهم بهدف حبهم، ويسهل عليهم أن يحبوا -أي إشباع رغباته أو رغباتها. وقلما يكون الإفصاح عن حبهم بكلمات، وإذا أمكن الإفصاح عنه بالكلمات، فلا يكون الإفصاح بليغًا مع حالة الرضاء عن النفس، ولكنه يكون على استحياء وقلة لباقة لأنهم يخشون دائمًا أن يكون حبهم غير كاف، بل إن هؤلاء الناس يحبون رذائل الشخص المحبوب؛ لأنها تمنحهم فرصةً أخرى لإرضاء رغباته أو رغباتها. وهم يبحثون عن المبادلة بل يخدعون أنفسهم عامدين، معتقدين فيها، سعداء إذا ما حصلوا عليها، ولكن الجميع على السواء يحبون حتى تحت ظروف متناقضة، وهم لا يكتفون بالرغبة في سعادة الشخص المحبوب، ولكنهم يجاهدون على الدوام في تحصيلها له أو لها بكل الوسائل المعنوية والمادية، كبيرها وصغيرها، التي تكون في نطاق قدرتهم.

وكان هذا هو الحب الذاتي الموجه لابن أخيها ولأختها ولليوبوف سرجيفنا، بل ولي أنا، لأن ديمتري أحبني. هو الحب الذي يشع من الأعين، في كل كلمة وكل حركة تصدر من صوفيا إيفانوفنا.

ولم أقدر صوفيا إيفانوفنا تقديرًا كاملًا إلا أخيرًا، ولكن حتى آنئذ كان السؤال الذي طرأ على ذهني هو: «لماذا راح ديمتري الذي كان يحاول فهم الحب على وجه مختلف تمامًا عن فهم الشبان المعتاد، والذي كانت أمام عينيه دائمًا هذه الصوفيا إيفانوفنا الحلوة المحبة، راح فجأةً يحب تلك

الليوبوف سرجيفنا الغامضة، ويسلم فقط بأن عمته أيضًا تتصف بصفات حميدة؟ حقًّا، ما أصدق المثل القائل: «لا يقام وزن لنبي في بلده». وإذَنْ لا يوجد غير أحد أمرين، إما أن يكون في كل إنسان في الواقع قدر من الشر أوفر من الخير، وإما أن يكون الإنسان أكثر تقبلًا منه للخير. ولم يكن ديمتري قد عرف ليوبوف منذ أمد طويل، بينما كان قد خبر حب عمته منذ ولادته.

❊ ❊ ❊

(٨٠)

أصبحت أكثر تعارفًا

عندما عدت إلى الشرفة وجدتهم لا يتحدثون عني كما ظننت؛ ومع ذلك لم تكن فارنكا تقرأ، ووضعت كتابها جانبًا وشغلت في جدل حام مع ديمتري الذي كان يذرع الحجرة ذهابًا وإيابًا ويسوي ربطة عنقه في رقبته ويزر عينيه. ويظهر أن موضوع النقاش كان يدور حول إيفان ياكوفلفتش والخرافة، ولكنه كان نقاشًا حاميًا جدًّا، بالنسبة لسببه الذي وإن كان حقيقيًّا إلا أنه تافه لا يهم الأسرة كلها عن قرب. وقد جلست الأمير وليوبوف سرجيفنا صامتتين تصغيان إلى كل كلمة، ومن الواضح أنهما كانتا تريديان من وقت لآخر الاشتراك في المناقشة، ولكنهما تكبحان هذه الرغبة، وتسمحان بأن تمثل فارنكا أحديهما ويمثل ديمتري الأخرى. وعندما دخلت نظرت إلى فارنكا نظرةً تدل على عدم الاهتمام، حتى لقد كان من الواضح أنها مهتمة اهتمامًا عميقًا بالنقاش، فلم تهتم إذا كنت قد سمعت أو لم أسمع ما قالته. أما الأميرة التي كانت فيما يظهر في صف فارنكا، فكان على وجهها نفس التعبير، ولكن ديمتري أخذ يناقش حتى في حضوري نقاشًا أشد حرارةً من ذي قبل، وبدا على ليوبوف سرجيفنا أنها ذعرت إلى حد بعيد لدى ظهوري، وقالت لغير شخص معين: «إن

الأقدمين محقون إذ يقولون: «لو كان الشباب يعلم، ولو كانت الشيخوخة تستطيع».

ولكن هذا القول المأثور لم يضع حدًّا للجدل، ولكنه حثني على التفكير في أن ليوبوف سرجيفنا وصديقي كانا على خطأ. وبالرغم من أنني شعرت بالضيق نوعًا ما لوجودي أثناء مشاحنة عائلية صغيرة، فقد كان يلذ لي أن ألاحظ العلاقات الحقيقية في هذه الأسرة تنكشف من خلال تقدمها وأشعر أن وجودي لم يمنعهم من الحديث بحرية.

وكثيرًا ما يحدث أن ترى أسرةً تختفي تحت نفس ستار الحشمة لعدة سنوات، وتظل العلاقات الحقيقية بين أعضائها سرًّا غامضًا عليك (لقد لاحظت حتى إنه كلما تعذر النفاذ في هذا الستار وازداد زخرفًا ازدادت غلظة العلاقات الحقيقية التي يخيفها عليك). ثم يتصادف أن يمضي يوم واحد، ثم تظهر دون أي توقع مشكلة ما في محيط هذه الأسرة، يغلب أن تكون تافهةً، تتصل بسيدة شقراء أو زيارة بخيول الزوج؛ ومن دون أي سبب ظاهر قد يثور العراك ويشتد عنفه حتى يتعذر تصفية الموقف تحت غطاء هذا الستار، ثم على حين فجأة، تنكشف جميع العلاقات الفظة مما يفزع المتشاجرين أنفسهم ويحير الحاضرين. ويرفرف الستار الذي لم يعد يغطي شيئًا بين الجانبين المتشاجرين دون جدوى، ولكنه يفيد في تذكيرك وحسب بمدى الزمن الذي ظللت فيه مخدوعًا فيها. وكثيرًا ما يكون ارتطام رأس شخص ارتطامًا شديدًا بالسقف أقل إيلامًا من لمسة مهما كانت خفيفةً، وتوجد مثل هذه القرحة والنقطة الحساسة في حب ديمتري الغريب لليوبوف سرجيفنا؛ الذي أثار في أمه وأخته، إن لم يكن

شعورًا بالحقد فهو على الأقل عاطفة أسرة جرح شعورها، وكان هذا هو السبب في أن النقاش حول إيفان ياكوفلفتش والخرافة ذا أهمية كبرى عندهم جميعًا.

وقالت فارنكا بصوتها الرخيم وهي تنطق كل حرف بجلاء: «إنك تحاول أن تفحص ما يسخر منه الآخرون ويزدرونه؛ فيجب أن تحاول دائمًا الكشف عن شيء لطيف وجدير بالاعتبار».

ورد ديمتري قائلًا بحركة عصبية من رأسه وهو يبتعد عن أخته: «أولًا، إن أكثر الناس طيشًا دون غيره هو الذي يستطيع الاستهانة برجل مثل إيفان ياكوفلفتش، وثانيًا إنكِ «أنتِ» التي تحاولين عامدةً عدم رؤية الخير الموجود تحت نظرك بالفعل».

وعندما انضمت إلينا صوفيا إيفانوفنا، نظر إلينا مرات عدةً بصورة مفزعة؛ مرةً إلى ابن أخيها ثم إلى ابنة أخيها ثم إليَّ؛ وفتحت فمها مرتين كأنها تنوي الكلام، ثم تنهدت بتثاقل.

وقالت: «والآن تفضلي يا فاريا فاستأنفي القراءة، فأنا مشتاقة جدًّا إلى معرفة ما إذا كان قد وجدها ثانية»، (والواقع أن الكتاب لا يبدو أنه يحتوي على كلمة عن أي شخص يجد أي شخص آخر)، ثم قالت لابن أخيها برغم نظرة الاستياء التي رمقها بها لأنها قطعت حبل حديثه على الأرجح: «أما بالنسبة لك يا متيا العزيز؛ فخير لك أن تغطي خدك؛ لأن الهواء رطب وقد تصاب بألم في أسنانك مرةً أخرى». واستؤنفت القراءة.

إن هذه المشاحنة الصغيرة لم تعكر هدوء الأسرة أقل تعكير، ولا

ذلك الوئام الواعي الذي يُغطي الدائرة النسائية في الأسرة.

وهذه الدائرة التي كان من الواضح أن الأميرة إيفانوفنا قد أعطتها صفتها ووجهتها، كانت بالنسبة إليَّ نغمةً جديدةً جذابةً وذات منطق من نوع معين، وفي نفس الوقت ذات بساطة وانسجام؛ وقد وضحت لي هذه النغمة جمال الأشياء ونقاءها وبساطتها -الجرس، وغلاف الكتاب والمقعد ذو المساند، والمنضدة، وجلسة الأميرة المعتدلة في مشدها المحكم، وخصلاته الرمادية الظاهرة للعيان، وفي طريقة مناداتها لي في أول مقابلة لنا باسمي المجرد، نيكولاس، وبالضمير «هو»، وفي مشاغلهم، كالقراءة بصوت مرتفع والخياطة، وفي بياض أيدي النساء الملحوظ (كانت فيهم علامة عائلية مشتركة على اليد هي جزء ناعم من راحة اليد لونه وردي قاتم، يختلف اختلافًا قويًّا عن البياض غير العادي في الجزء الأعلى من اليد)، ولكن هذه الصفة كانت تتمثل على أبرز ما تكون في الطريقة الممتازة التي يتحدث بها الثلاث اللغتين الفرنسية والروسية، والنطق بكل حرف على حدة، واختتام كل كلمة وعبارة بدقة متحذلقة -كل هذا وبخاصة معاملتهم لي في بساطة واهتمام في هذه الجماعة كشخص راشد، والإدلاء إليَّ بأفكارهم الخاصة والإصغاء إلى آرائي (لم أكن قد تعودت ذلك إلا قليلًا، وبالرغم من أزراري اللامعة وحواشي الأكمام الزرقاء فقد كنت لا أزال خائفًا من أن يوجه إليَّ سؤال على حين فجأة: «هل تظن الناس سيتحدثون معك حديثًا جديًّا؟ اذهب وادرس!»).

وقد نجم عن كل هذا عدم شعوري بأقل ضيق في جماعتهم. فنهضت من على مقعدي، وتنقلت من مكان إلى مكان، وتحدثت مع الجميع ما عدا

فارنكا، التي كنت لا أزال أرى من غير اللائق -لسبب ما- التحدث إليها أولًا.

وفي أثناء القراءة، وبينما كنت أستمع إلى صوتها اللطيف، كنت أتفرس مرةً إليها ومرةً إلى الممر الرملي بحديقة الأزهار التي كانت تتكون فيه بقع مستديرة قاتمة من المطر، وإلى أشجار الزيزفون التي كانت لا تزال قطرات المطر تتقطر على أوراقها بين حين وآخر من حافة السحابة المرعدة الزرقاء الباهتة الآخذة في الضمور، ثم أتفرس فيها ثانيةً، ثم أخيرًا في أشعة الشمس القرمزية الغاربة التي كانت تغلف بالضوء أشجار البتولا العتيقة المتقطرة بالمطر، ثم إلى فارنكا ثانيةً، وقررت أنها لم تكن ساذجةً ألبتة كما توهمتها في أول الأمر.

وقلت في نفسي: «يا للأسف لقد وقعت في الحب، وفارنكا ليست سونتشكا، كم يروق لي أن أصبح عضوًا في هذه الأسرة! سأظفر بأم وعمة وزوجة، كل ذلك على الفور، وبينما أتأمل على هذا الوجه تطلعت إلى فارنكا وهي تقرأ، وفكرت في أنني يجب أن أجتذبها وأجعلها تنظر إليَّ. ورفعت فارنكا رأسها من كتابها، وتطلعت إليَّ، وقابلت عيني، ثم استدارت.

وقالت: «لم يتوقف المطر بعد».

وعانيت في الحال شعورًا غريبًا... تذكرت فجأةً أن ما كان يحدث لي آنئذ كان تكرارًا بالضبط لما حدث مرةً من قبل، وكان المطر آنئذ يتساقط خفيفًا، وكانت الشمس تغرب وراء أشجار البتولا، وكنت أنظر (إليها) وكانت تقرأ، واجتذبها ورفعت رأسها ونظرت إليَّ، بل إنني تذكرت أن

هذا قد حدث من قبل.

وقلت في نفسي: «أتكون هي؟ هي؟ هل هي بداية»، ولكني قررت بسرعة أنها لم تكن (هي)، وأنها لم تكن البداية بعد، فهي أولًا ليست جميلة المنظر، وثانيًا هي ليست إلا سيدةً شابةً، وقد تعرفت بها تعرفًا عاديًّا إلى أبعد حد، بينما (هي) ستكون مشهورةً وسأقابلها في مكان ما غير عادي، بالإضافة إلى أن هذه الأسرة تروق لي كثيرًا لأنني لم أشاهد شيئًا حتى الآن» وقلت في تصميم: «ولكن هناك أخريات مثلها بطبيعة الحال، وسأقابل كثيرات منهن في مجرى حياتي».

❋ ❋ ❋

(٨١)

ظهرت على أحسن حال

وانتهت القراءة في وقت تناول الشاي، وشغلت السيدات بالحديث عن الأشخاص والأحداث، التي لم أكن ملمًّا بها، وتعمدن فيما أظن أن يجعلنني أشعر بالرغم من استقبالي الودي بالفرق في السن والمركز بينهن وبيني. ومع ذلك، ففي الحديث العام لذت بصمتي السابق، وبحثت عن عرض ذكائي المشهور وأصالتي، وهو الشيء الذي أعتبر أن حلتي الرسمية بنوع خاص تضطرني إلى عمله. وعندما دار الحديث حول المنازل الريفية، رويت فجأةً كيف كان للأمير إيفان إيفانتش «فيلا» رائعة بالقرب من موسكو، حتى إن الناس كانوا يفدون من لندن وباريس لرؤيتها؛ وعن وجود سياج من القضبان الحديدية يساوي ثلاثمائة وثمانين روبل، وأن الأمير إيفان إيفانتش أحد أقاربي الأقربين، حتى إنني تناولت معه الغداء في ذلك اليوم. وقال لي إنني يجب أن أؤكد له حضوري لقضاء كل الصيف معه في (الفيلا)، ولكني رفضت ذلك؛ لأنني كنت أعرف البيت جيدًا منذ أن زرته عدة مرات، وأن جميع هذه الأسيجة والقناطر لا تهمني ألبتة؛ لأنني لا أتحمل الترف وخاصةً في الريف، وأنني أحب أن يكون كل شيء في الريف مثل الريف نفسه. وما إن نطقت بهذا الكذب

الفظيع المعقد، حتى ارتبكت واحمر وجهي احمرارًا شديدًا، ولا شك أن كل واحد أدرك أنني كنت أكذب، وتحولت عني فارنكا التي كانت تناولني في تلك اللحظة فنجانًا من الشاي، وصوفيا إيفانوفنا التي كانت تتأملني أثناء حديثي، وأخذتا تتحدثان عن شيء آخر بأسلوب كثيرًا ما لاحظته منذ ذلك الحين لدى المهذبين من الناس عندما يبدأ أحد الناس الصغار في الكذب صراحةً في وجوههم، وهم يعنون بذلك: «إننا نعرف بطبيعة الحال أنه يكذب، فلماذا يكذب الزميل المسكين!».

إن سبب قولي إن الأمير إيفان إيفانتش يملك (فيلا) هو أنني لم أجد مبررًا أفضل من ذلك لذكر علاقتي بالأمير إيفان إيفانتش، وتناولي معه الطعام في ذلك اليوم، ولكن لماذا ذكرت أن السياج يساوي ثلاثمائة وثمانين ألف روبل، وأنني زرت بيته مرات كثيرةً، في حين أنني لم أزره حتى مرةً واحدةً، ولم يكن هذا مستطاعًا ما دام الأمير إيفان إيفانتش كان يعيش فقط في موسكو أو نابلي، وهذا ما كان يعرفه آل نخيلودوف جد المعرفة؟ إنني لا أستطيع في الحقيقة تعليل ذلك لنفسي؛ ولم ألاحظ أبدًا في نفسي، لا في الطفولة ولا في الصبا ولا في مرحلة النضج ولا فيما بعد رذيلة الكذب، بل على العكس، كنت صريحًا ومستقيمًا جدًّا على الأصح؛ ولكن تملكتني إبان هذه الفترة الأولى من المراهقة رغبة غريبة في الكذب لدرجة التهور دون سبب ظاهر، وأقول «لدرجة التهور» عامدًا؛ لأنني كنت أكذب في أشياء كان من اليسير إلى أقصى حد الكشف عن كذبي فيها. ويبدو لي أن الرغبة في التفاخر وإظهار نفسي كأنني رجل مختلف تمامًا عما كنت، مقترنة بأمل يتعذر تحقيقه في حياة الكاذب، بشرط ألا ينكشف

كذبه، كانت هي السبب الجوهري في هذا الميل الغريب.

وبعد أن تناولنا الشاي، وتوقف سقوط المطر، صفت السماء وهدأت، فافترحت الأميرة أن نذهب في نزهة على الأقدام بالحديقة السفلية والإعجاب ببقعتها المحبوبة، فأجبت جريًا على طريقتي في أن أكون دائمًا مبتكرًا، ولاعتباري أن أناسًا أذكياء مثل الأميرة ومثلي يجب أن يرتفعوا فوق الآداب الاجتماعية المألوفة، أجبت أنني أكره المشي العشوائي، وإذا اهتتمت بالمشي على إطلاقه، فأكون وحيدًا تمامًا. ولم أدرك أن هذه وقاحة صريحة، بل خيل إليَّ آنئذ أن ليس هناك شيء أدعى إلى الخزي من الثناء المبتذل، وليس هناك أكثر ظرفًا وجدةً من قليل من الصراحة الوقحة. ومع ذلك فقد ذهبت إلى النزهة مع بقية المجموعة راضيًا كل الرضى عن إجابتي.

كانت بقعة الأميرة المفضلة بأقصى الحديقة، في أعماقها، على جسر صغير فوق أرض غمقة ليست بالفسيحة؛ وكان المنظر محدودًا إلى أقصى حد، ولكنه غاية في الكآبة والبهجة معًا. ولقد ألفنا كثيرًا الفن والطبيعة مختلطين، حتى إن تلك الظواهر الطبيعية التي لا نقابلها ألبتة في الصور لا تلفت نظرنا في كثير جدًّا من الأحيان كما هو الحال في الطبيعة الحقيقية -وإن كانت من الطبيعة الحقيقية- والعكس بالعكس، فإن هذه الظواهر الطبيعية التي تتكرر في الفن أكثر مما ينبغي تبدو لنا مبتذلةً، أو أنها في بعض الأحوال، حين تكون متغلغلةً تمامًا في الفكر والعاطفة وحدهما، تبدو خياليةً. وكان المنظر من بقعة الأميرة المفضلة من هذا النوع، ويتكون من بركة صغيرة ذات شواطئ كثيفة النماء، من ورائها تل

منحدر تغطيه أشجار وأحجار عتيقة منتشرة، تكثر فيها التغيرات ذات الخضرة المتفاوتة الألوان، وعند سفح التل شجرة بتولا معمرة متهدلة فوق البركة، يتشبث بعضها بشاطئ البركة الرطب بجذورها السميكة، ويرتكز تاجها على شجرة دودار طويلة قوية، وتتأرجح أغصانها الملتوية على سطح البركة الصقيل الذي يعكس صورة هذه الفروع المتدلية والنباتات الخضراء المحيطة بها.

وقالت الأميرة وهي تهز رأسها دون أن توجه حديثها لشخص بعينه: «يا له من منظر ساحر!».

فقلت: «حقًّا إنه مدهش، ولكنه يبدو مخيفًا جدًّا بصورة ما كمناظر المسرح»، وذلك لرغبتي في التظاهر بأن لي رأيًا خاصًّا في كل شيء.

واستمرت الأميرة في الإعجاب بالمنظر كأنها لم تسمع ملاحظتي، والتفتت إلى أختها وليوبوف سرجيفنا، وأشارت إلى بعض التفاصيل المتفرقة -القرمة المعوجة الناتئة، وانعكاس الصورة التي كانت تروقها كثيرًا. وقالت صوفيا إيفانوفنا إن كل شيء جميل جدًّا، وإن أختها اعتادت أن تقضي هنا ساعات عدة في كل مرة. ولكن كان من الواضح أنها قالت ذلك لإرضاء الأميرة فقط. ولاحظت أن الناس الذين وهبوا الاستعداد لما أسميه الحب الذاتي، قلما يدركون جمال الطبيعة. وكان يبدو على ليوبوف سرجيفنا أنها مفتونة اللب، وكان من بين ما وجهته من أسئلة عن أشياء أخرى: «بما تتشبث شجرة البتولا تلك؟ وهل ستبقى طويلًا؟»، وكانت تنظر باستمرار إلى كلبتها سوزيت التي كانت تجري إلى خلف وإلى أمام عبر الجسر على سيقانها المعوجة، تبصبص بذنبها

معبرةً عن القلق، كأنها وجدت نفسها مصادفةً ولأول مرة في حياتها في غير حجرتها. وبدأ ديمتري مع أمه حديثًا منطقيًّا في موضوع أن المنظر لا يبلغ حد الجمال حين يكون الأفق محدودًا. ولم تقل فارنكا شيئًا. وعندما درت أتلفت نحوها كانت واقفةً منحنيةً على سياج الجسر، وجانب وجهها إلى ناحيتي، تنظر أمامها مباشرةً، ويغلب عليَّ الظن أنها كانت مهتمةً اهتمامًا عميقًا بشيء ما، بل بشيء أثر فيها، إذ كان من الواضح أنها غارقة في حلم يقظة، ولم تكن تفكر في نفسها، ولا في أن أحدًا ينظر إليها. وكانت عيناها الواسعتان مملوءتين بالملاحظة المقصودة، من فكر هادئ صاف؛ وكانت وقفتها غير مصطنعة؛ وبالرغم من قصر قامتها كان فيها شيء كثير من المهابة، حتى لقد خطر لي مرةً أخرى ما تخيلته ذكراها؛ وسألت نفسي مرةً أخرى: «أهي البداية؟»، وأجبت ثانية بأنني وقعت فعلًا في حب سونتشكا، وأن فارنكا ليست إلا سيدةً شابةً، وأخت صديقي. ولكني أحببتها في تلك اللحظة، وشعرت نتيجة لذلك برغبة غامضة في أن أقول لها شيئًا يكدرها قليلًا.

قلت لصديقي وأنا أقترب من فارنكا لكي تسمع ما كنت أوشك أن أقوله: «أتعرف يا ديمتري، أنه حتى لو لم يوجد بعوض، لما كان في هذا المكان شيء جميل»، ثم أضفت وأنا أضرب جبيني، وكنت في الحقيقة أسحق بعوضة: «وهو الآن مكان مخيف تمامًا».

وقالت لي فارنكا دون أن تلتفت إليَّ: «وإذَنْ، فأنت لا تهتم بالطبيعة؟».

وأجبت وأنا راض كل الرضى لقولي هذا الكلام المكدر، وظهوري بمظهر الشخص الشاذ الأطوار:

«إن الإعجاب بالطبيعة عمل عقيم لا نفع فيه»، ورفعت فارنكا حاجبيها، وظلت لحظةً غير مدركة تقريبًا وعليها سمة من الإشفاق، ثم استمرت في نظرتها إلى الأمام مباشرةً برصانتها المعهودة دائمًا.

وتضايقت منها، ولكن بالرغم من هذا، فإن سياج الجسر الضارب إلى الرمادي، بلونه الحائل، الذي تنحني فوقه، وانعكاس القرمة المتدلية من شجرة البتولا المتهاوية حتى لكأنها مشتاقة إلى اللحاق بأغصانها المتهدلة ورائحة المستنقع، وشعوري بالبعوضة المسحوقة على جبيني، ونظرتها الواعية ووقفتها المهيبة، بالرغم من كل هذا، كثيرًا ما كان يقفز إلى خيالي فيما بعد على غير توقع كليةً.

❊ ❊ ❊

(٨٢)

ديمتري

عندما عدنا إلى البيت بعد نزهتنا لم ترغب فارنكا في الغناء كما كانت تفعل عادةً في المساء؛ وكنت واثقًا من أنني المسئول عن ذلك، وتوهمت أن ما قلته لها على الجسر كان هو السبب. ولم يتناول آل نخيلودوف العشاء، وذهبوا إلى الفراش في ساعة مبكرة، وكان ديمتري في ذلك اليوم يتألم من أسنانه كما تنبأت صوفًا إيفانوفنا، فذهبنا إلى حجرته، مبكرين، بل أكثر تبكيرًا من المعتاد. ولظني أنني قد فعلت كل ما تطلبته مني بنيقتي الزرقاء وأزراري، وأنني أعجبت الجميع، فقد كنت في حالة عقلية لطيفة راضية. وكان ديمتري على العكس قليل الكلام مكتئبًا بسبب المشاحنة وألم أسنانه. وجلس إلى المائدة وتناول كراساته -مذكراته اليومية، والكتاب الذي تعود أن يسجل فيه كل مساء واجباته الماضية والمستقبلة- وظل يكتب فيهما وقتًا طويلًا جدًّا وهو متجهم الوجه دومًا، يدلك خده بيده.

وصاح بالخادمة التي أرسلتها صوفيا إيفانوفنا للاستفسار عن حالة أسنانه، وعما إذا كان لا يريد وضع كمادة: «آه، اتركيني وحدي!» ثم أخبرتني أن فراشي سيكون معدًّا في الحال، وأستطيع أن آوي إليه مباشرةً،

ثم عادت إلى ليوبوف سرجيفنا.

أخذت أفكر حين تركوني وحدي بالحجرة، وأقول لنفسي: «يا للأسف، إن فارنكا ليست جميلةً، وكذلك سونتشكا! كم يكون مبهجًا لو تقدمت إليهم ومنحتها يدي عندما أترك الجامعة! سأقول: «أيتها الأميرة، بما أنني لم أعد بعد صغيرًا، ولذلك لا أستطيع أن أحب حبًّا حارًّا، فستكونين موضع رعايتي كأخت عزيزةً، وسأقول لأمها: «وأنتِ، فأنا أبجلكِ الآن، أما فيما يتعلق بكِ يا صوفيا إيفانوفنا، فأتوسل إليكِ أن تصدقي أنني أقدركِ تقديرًا عاليًا»، ثم أسألها في بساطة وصراحة: «أتقبلين أن تكوني زوجي؟»، «نعم»، ثم تناولني يدها، فأضغط عليها وأقول: «ليس حبي كلامًا يا حبيبتي، ولكنه بالأعمال»، ثم خطرت لي فكرة: ماذا تكون الحال لو أن ديمتري وقع في حب ليوبتشكا فجأةً؟»؛ وذلك لأن ليوبتشكا تحبه –وترغب في أن يتزوجها؟ وإذن، فواحد منا سوف لا يستطيع أن يتزوج، وهذا أمر هام، لأن هذا ما ينبغي أن أفعله. وسأراقب كيف تجري الأمور ولا أقول شيئًا. ولكني سأذهب إلى ديمتري وأقول له: «عبثًا نحاول يا صديقي أن يكتم أحدنا أسراره عن الآخر، إنك تعرف أن حبي لأختك لن ينتهي إلا بانتهاء حياتي فقط –ومع ذلك فأنا أعرف كل شيء– لقد حرمتني من أجمل أمل، لقد صيرتني تعيسًا، ولكن هذه هي الطريقة التي يثأر بها نيكولاي أرتنييف من تعاسة حياته كلها –إليك أختي، وينبغي لي أن أمنحه يد ليوبتشكا. وسيقول: «لا، لن يكون!» وأقول له: «لا فائدة أيها الأمير نخيلودوف من محاولة التفوق عليَّ في كرم الأخلاق، لا يوجد في العالم كله رجل أكثر نخوةً من نيكولاي أرتنييف، ثم أنحني له وأنسحب.

وسيجري خلفي ديمتري وليوبتشكا دامعي الأعين، ويتوسلان إليَّ أن أقبل تضحيتهما -وقد كنت أوافق، وأكون سعيدًا جدًّا لو كنت أحب فارنكا» هذه الأحلام كانت سارةً جدًّا، حتى لقد أحببت كثيرًا جدًّا أن أنقلها إلى صديقي، ولكن بالرغم من تعاهدنا المتبادل على الصراحة، شعرت لسبب ما، أن عمل ذلك متعذر من الناحية المادية.

عاد ديمتري من عند ليوبوف سرجيفينا ببعض قطرات على ضرسه كانت قد أعطتها له، وكان لا يزال يقاسي ألمًا شديدًا وبالتالي ظل مكتئبًا، ولم يكن فراشي قد أُعِدَّ بعد، وجاء صبي صغير، وهو خادم ديمتري يسألني عن المكان الذي سأنام فيه.

وصاح ديمتري وهو يدق بقدمه: «آه، اذهب إلى الشيطان؛ فاسكا، فاسكا»، ثم صرخ قائلًا حالما خرج الخادم، وكان يزداد ارتفاع صوته في كل صرخة: «فاسكا، ضع لي فراشًا على الأرض».

وقلت: «لا، دعني أنام أنا على الأرض».

وراح ديمتري يقول بنفس لهجته الغاضبة: «حسن، هذا لا يهم، رتبه في أي مكان، ولماذا لا تجعله هنا؟»

ولكن، من الواضح أن فاسكا لم يعرف ما هو المطلوب منه، فوقف دون حراك.

وصاح ديمتري فجأةً وقد ثارت ثائرته: «حسن، ماذا تريد؟ أتسمع، اذهب في الحال، ونفذ ما أقوله لك!».

ولكن فاسكا وقف خائفًا دون حركة إذ لم يفهم.

«وإذَنْ، فأنت مصر على قتلي، على إخراجي عن صوابي؟»، ثم قفز ديمتري من على مقعده وانقض على فاسكا، وانهال على رأسه بعدة لكمات من قبضته، وهو يندفع إلى خارج الحجرة، وتوقف ديمتري عند الباب ونظر إليَّ، واستحالت مسحة الغيظ والقسوة التي اكتسى بها وجهه برهة إلى تعبير صبياني ودود لطيف خجول، حتى لقد أسفت له، وبقدر ما وددت كثيرًا أن أنصرف عنه لم أستطع حمل نفسي على ذلك. لم يقل شيئًا، ولكنه أخذ يذرع الحجرة وقتًا طويلًا، وينظر إليَّ من وقت لآخر بنفس النظرة الضارعة، ثم تناول كراسة مذكرات من على المنضدة وكتب فيها شيئًا ما، وخلع سترته وطواها بعناية، وذهب إلى الممشى حيث الأيقونات معلقة، وشبك يديه الكبيرتين البيضاوين على صدره، وأخذ يصلي؛ ظل يصلي وقتًا طويلًا، حتى لقد اتسع الوقت أمام فاسكا لإحضار الحشية وفرشها على الأرض، كما أمرته هامسًا أن يفعل. وخلعت ملابسي ورقدت في فراشي الذي أعد هنالك على الأرض، ولكن ديمتري كان لا يزال مستمرًّا في صلاته. وبينما كنت أنظر إلى ظهر ديمتري المحني نوعًا ما، وإلى نعلي قدميه اللتين كانتا تتمثلان أمامي نوعًا من الخضوع عندما انبطح على الأرض، أحببت ديمتري أكثر من ذي قبل، وظللت أفكر: «هل أخبره، أو لا أخبره بما كنت أحلم بأختينا؟ وعندما فرغ ديمتري من صلاته، رقد بجانبي على الفراش متكئًا على مرفقه، وتفرس فيَّ طويلًا، وفي صمت بنظرة ثابتة ودود، ومن الواضح أنه كان متألمًا، ولكنه كان يبدو كمن يعاقب نفسه. وابتسمت عندما نظرت إليه، كما ابتسم لي هو أيضًا.

وقال: «لماذا لم تخبرني أنني تصرفت بطريقة مكروهة؟ لقد فكرت في ذلك مباشرةً بطبيعة الحال».

فأجبت «نعم» -وبالرغم من أنني كنت أفكر في شيء آخر، إلا أنه خيل إليَّ حقيقةً أنني فكرت فيها- فقد أجبت: «نعم، لم تكن طريقةً لطيفةً كليةً؛ ولم أكن أنتظر ذلك منك». وقد جربت نوعًا خاصًّا من الترضية في تلك اللحظة حين خاطبته بضمير المفرد. ثم أضفت: «حسنًا، والآن كيف حال أسنانك؟».

وانفجر ديمتري في ود عميق جدًّا، حتى خيل إليَّ أن الدموع تقف في عينيه اللامعتين فقال: «أحسن كثيرًا. آه، يا صديقي نيكولنكا؛ لقد عرفت؛ أنا أشعر إنني شرير، والله يعلم كم أحاول أن أتحسن، وكم أتوسل إليه تعالى أن يجعلني أحسن حالًا؛ ولكن ماذا أفعل ما دام مزاجي شرسًا وفظيعًا إلى هذا الحد؟ وماذا أفعل؟ إنني أحاول كبح جماح نفسي وإصلاح ذاتي؟ ولكن كل شيء يصبح مستحيلًا عليَّ حين فجأة، إنه ليتعذر عليَّ ذلك في جميع الأحوال عندما أكون وحدي، فأنا بحاجة إلى مساعدة شخص ما ومعونته، وأصبحت تفهمني الآن ليوبوف سرجيفنا، وقد ساعدتني في هذا كثيرًا، وأعرف من مذكراتي اليومية أنني تحسنت كثيرًا إبان العام الماضي. آه، يا نيكولنكا «يا عزيزي!» ثم تابع حديثه في حب غريب غير مألوف وفي لهجة أهدأ، بعد هذا الاعتراف، فقال: «ما أكثر ما يعنيه تأثير امرأة مثلها! يا إلهي! فكر في مدى الفائدة التي أجنيها حين يكون لي صديقة مثلها بعد أن أصبح مستقلًّا! إنني رجل مختلف كل الاختلاف حين أكون معها».

وأخذ ديمتري آنئذ يكشف لي عن آرائه في الزواج، وحياة الريف، وإصلاح الذات المستمر.

قال: «سأعيش في الريف، ولربما تزورني، وستتزوج من سونتشكا، وسيلعب أطفالنا معًا. إن هذا يبدو هزلًا كله، ولكن قد يصدق أيضًا كل الصدق».

وقلت مبتسمًا وأنا أفكر في نفس الوقت أنه من الأفضل لي لو تزوجت أخته: «بطبيعة الحال، ولِمَ لا؟».

وقال بعد صمت قصير: «أخبرك عما يجول فقط بخيالك من حيث حبك لسونتشكا، ولكني أرى أن هذا ليس حبًّا جادًّا؛ إنك لا تعرف بعد ما هو شعورك الحقيقي».

ولم أحر جوابًا، لأنني كنت متفقًا معه تقريبًا، وبقينا صامتين برهةً.

«لا بد أنك لاحظت أن مزاجي عاد اليوم شرسًا مرةً أخرى، ونشبت مشاحنة بذيئة بيني وبين فاريا. وساءت حالتي كثيرًا بعد ذلك وخاصةً أنها حدثت في حضورك. وبالرغم من أنها تفكر في كثير من الأشياء بطريقة ينبغي ألا تفكر بها، فهي فتاة رقيقة، وتكون على أحسن حال إذا ما عرفتها عن كثب».

إن تحول حديثه من إثبات عدم حبي لأخته، إلى مدحها، أبهجني كثيرًا وأخجلني؛ ومع ذلك لم أقل له شيئًا عن أخته، ورحت أتحدث عن شيء آخر.

ومن ثمَّ أخذنا نتحدث حتى بلغت الساعة الثانية بعد منتصف الليل،

وكان الفجر الباهت يتراءى في النافذة، عندما ذهب ديمتري إلى فراشه وأطفأ النور.

وقال: «والآن هيا إلى النوم».

وأجبت: «نعم، ولكن بعد كلمة واحدة فقط».

«حسن وما هي؟».

«إن الحياة شيء عظيم، أليس كذلك؟».

وأجاب في صوت خُيِّل إليَّ أنني، حتى في الظلام أستطيع أن أرى معه ملامحه المرحة وعينيه المحبتين، وابتسامته الصبيانية.

* * *

(٨٣)

في الريف

وفي اليوم التالي، رحلنا، فولوديا وأنا، في عربة بريد إلى الريف. واستعرضت في ذهني أثناء الطريق ذكريات موسكو.. وتذكرت سونتشكا فالاخينا، على أن ذلك لم يحدث حتى حل المساء وكنا قد قطعنا خمس مراحل. وقلت في نفسي: «إنه لمن الغريب أنني أحب، ومع ذلك نسيت تمامًا كل شيء عن الحب، يجب أن أفكر فيها». وبدأت أفكر فيها بالفعل كما يفكر المرء أثناء السفر، تفكيرًا متقطعًا ولكنه واضح؛ ومن ثَمَّ رددت نفسي إلى حالة اعتبرتها إلى حد ما ضرورية لظهوري حزينًا مفكرًا أمام جميع أهل المنزل لمدة يومين بعد وصولنا، وبخاصة في حضور كاتنكا التي أعتبرها خبيرةً كبرى في مثل هذه الشئون، والتي ألمحت إليها بإشارة عن الحالة التي وجدت عليها قلبي. ولكن بالرغم من جميع محاولاتي في التصنع أمام الآخرين، وأمام نفسي، وبالرغم من اتخاذي جميع دلائل الرصانة المصطنعة التي لاحظتها خلال هذين اليومين على آخرين في حالة هيام، فإنني لم أحمل في ذهني بصورة دائمة أنني أحب، بل كنت أتذكر ذلك خاصةً في المساء. وأخيرًا استغرقتني دائرة الحياة الريفية الجديدة ومشاغلها، بسرعة كبرى حتى إنني نسيت كل شيء عن حبي

لسونتشكا نسيانًا تامًّا.

وصلنا بتروفسكوي في الليل، وكنت مستغرقًا تمامًا في النوم حتى إنني لم أر المنزل ولا طريق البتولا ولا أي شخص من أهل المنزل الذين آووا إلى فراشهم وناموا منذ وقت طويل. وانحنى فوكا العجوز، وكان عاري القدمين، ملفوفًا بثوب نسائي فضفاض، وفي يده شمعة، وفتح لنا الباب. كان يهتز فرحًا لدى رؤيته لنا، وقبَّل أكتافنا، وأسرع يجمع بساطه اللبادي ثم أخذ يرتدي ملابسه. واجتزت الدهليز وصعدت السلم دون أن أستفيق تمامًا؛ ولكن في حجرة الانتظار، كان قفل الباب والمزلاج، والألواح المقوسة، وخزانة الملابس، والشمعدان القديم المرقط بالشحم من قديم، وشبح البرد، والشمعة المعوجة التي أشعلت أخيرًا من مصباح الصورة، والنافذة المزدوجة المتربة على الدوام التي لم ينفض ترابها ألبتة، والتي كان ينمو خلفها، فيما أذكر، الدردار الجبلي -كان هذا كله مألوفًا لديَّ عامرًا بالذكريات، متسقًا مع نفسه كأنه متحد في فكرة واحدة، حتى لقد شعرت فجأة بهذا المنزل القديم العزيز يربت عليَّ. وتساءلت: «كيف استطعنا، المنزل وأنا، أن يستغني أحدنا عن الآخر كل هذه المدة الطويلة؟»، وجريت مسرعًا لأرى ما إذا كانت الحجرات على هذا المنوال. كان كل شيء كما هو، غير أن كل شيء بدا أصغر حجمًا وأكثر انخفاضًا، بينما أنا أطول وأكثر وزنًا وأشد غلظةً. ولكن المنزل استقبلني في حضنه فرحًا كما كنت تمامًا. وكل طابق، وكل نافذة، وكل درجة من السلم، وكل صوت أيقظ فيَّ عالمًا من الأشكال والمشاعر والأحداث من الماضي الهانئ الذي لن يعود أبدًا. وذهبنا إلى حجرة نومنا في طفولتنا، كل مخاوفي الصبيانية

كانت تتربص مرةً أخرى في ظلام الأركان والأبواب، وذهبنا إلى حجرة المائدة، كان نفس الحب الأمومي الرقيق يشع فوق كل شيء في الحجرة. وذهبنا إلى البهو، كان يبدو كأن طرب الطفولة العاصف المهمل قد تريث في هذه الغرفة، وكان ينتظر فقط أن تعاد إليه الحياة. وفي حجرة الجلوس، حيث قادنا فوكا، وحيث أعد لنا الفراش، خُيِّل إليَّ كأن كل شيء -المرآة والستار، والأيقونة الخشبية العتيقة، وكل نتوء في الجدران مغطى بالورق الأبيض -كان يتحدث عن آلام تلك التي لن توجد ثانيةً وعن موتها.

ورقدنا، وتركنا فوكا بعد أن تمنى لنا ليلةً سعيدةً.

وقال فولوديا: «في هذه الحجرة ماتت أمنا، أليس كذلك؟».

ولم أجبه وتصنعت النوم، فلو كنت قد نطقت بكلمة واحدة لانفجرت بالبكاء. وعندما استيقظت صباح اليوم التالي رأيت أبي لا يزال في عباءته المنزلية، وخفه المزخرف جالسًا على فراش فولوديا يثرثر معه ويضحك، وقفز بسرعة في وثبة مرحة، وتقدم نحوي، وقدم لي خده وضغطه على شفتي.

وقال ملاطفًا بلهجته الخاصة وهو يرمقني بعينيه الصغيرتين المتألقين: «لقد أحسنت أيها الدبلوماسي فشكرًا.. يقول فولوديا إنك اجتزت الامتحان على ما يرام، وهذا أمر هام، فأنت شخص صغير لطيف حينما تضع في رأسك ألا تكون غبيًّا.. شكرًا لك يا ولدي العزيز. سيكون الوقت متسعًا لنا هنا، وقد ننتقل في الشتاء إلى سان بترسبورج، إلا أنه من المؤسف أن موسم الصيد قد انتهى، وكان بودي أن أهيئ لكما شيئًا من التسلية بهذه الوسيلة. هل تتقن القنص يا فالديمار؟ هنالك أي عدد

من الحيوانات، وسأذهب بنفسي معكما في أحد الأيام. ولذلك سننتقل بمشيئة الله إلى سان بترسبورج في فصل الشتاء، وستقابلون أناسًا وتنشئون علاقات.. لقد كبرتم الآن يا أولادي، وكنت أقول حالًا لفالديمار أنكما الآن تقفان على أقدامكما وقد انتهى واجبي، فأنتما تستطيعان السير وحدكما. ولكن إذا رغبتما في نصيحة فأرجو أن تفعلا -فأنا لم أصبح بعد (بابا)، بل صديقكما وزميلكما وناصحكما حيثما أكون ذا نفع لكما، ولا شيء أكثر من هذا. فما مدى مطابقة ذلك لفلسفتكما يا كوكو؟ أهو خير أم شر؟».

وأجبت بطبيعة الحال أنه مطابق لفلسفتنا تمامًا، وأنني في الواقع أعتقد ذلك. كانت على وجه بابا في ذلك اليوم سمة ساحرة مرحة وسعيدة، وتلك العلاقات الجديدة التي أنشأها معي، كأنني صنوه وزميله، جعلتني أحبه أكثر من ذي قبل.

«والآن، أخبرني، هل زرت جميع أقاربنا، وآل إيفن؟ وهل رأيت الرجل العجوز؟ وماذا قال لك؟» ثم تابع حديثه مستفسرًا: «هل ذهبت لزيارة الأمير إيفان إيفانتش؟».

وتحادثنا كثيرًا قبل ارتداء ملابسنا حتى بدأت الشمس تهجر نوافذ حجرة الجلوس. ودخل إلى الحجرة ياكوف العجوز على عهدنا به دائمًا، يفتل أصابعه من وراء ظهره ويكرر على الدوام كلمة: «وأيضًا -» وأبلغ أبي أن العربة قد أعدت.

وسألت بابا: «إلى أين تذهب؟».

وقال أبي، بهزة كتفه المعتادة، وسعال الغيظ: «لقد وعدت أن أذهب اليوم إلى أسرة إيبفانوف. هل تذكر الإيبفانوفا، الفلمنكية الحسناء؟ لقد اعتادت زيارة أمك، إنهم أناس ظرفاء» وبهزة من كتفه مقصودة (هكذا بدت لي) غادر أبي الحجرة.

كانت ليوبتشكا قد جاءت إلى الباب مرات عدةً أثناء محادثتنا ونادت: «هل أستطيع الدخول»، ولكن بابا كان يصيح في كل مرة من خلال الباب: «لا تستطيعين في الحقيقة لأننا لم نلبس ثيابنا بعد».

«وما الضرر؟ لقد رأيتك في عباءتك المنزلية من قبل».

فصاح بها: «لا تستطيعين رؤية أخويك دون «سراويل»... افترضي أن واحدًا منهما يطرق بابك، فهل هذا بكاف لك؟ والآن، اذهبا واطرقا، أيها الولدان، إنه لا يليق بهما حتى التحدث معك وهما على هذه الهيئة المهملة».

وصاحت ليوبتشكا من الخارج: «آه، كم يشق عليَّ احتمالكم! مهما كانت الحال، أسرعوا بالنزول إلى حجرة الاستقبال، إن ميمي تموت شوقًا إلى رؤيتكم!».

وحالما ذهب بابا، ارتديت سترة الطالب بأسرع ما استطعت وذهبت إلى حجرة الاستقبال، وكان فولوديا على العكس، غير متعجل ومكث في الطابق العلوي وقتًا طويلًا يتحدث إلى ياكوف عن أحسن أماكن البكاشين ودجاج الأرض. لم يكن في هذا العالم شيء يخافه كما قلت، أكثر من خوفه من إبداء العواطف كما كان يسميها نحو أخيه أو أخته أو

بابا، ويتحاشى كل تعبير عن الشعور يحس به، وينحرف إلى النقيض -البرود- الذي يجرح غالبًا شعور الناس الذين لا يعرفون له سببًا. وقابلت بابا بحجرة الانتظار وهو يسرع إلى العربة في خطوات قصيرة رشيقة، وكان يرتدي معطف موسكو التقليدي الجديد وشممت رائحة عطر؛ وعندما رآني أومأ برأسه مبتهجًا كأنه يريد أن يقول: «أترى، ألست لطيفًا؟»، ولفت نظري مرةً أخرى تعبير السعادة الذي لاحظته في عينيه في ذلك الصباح.

كانت حجرة الطعام نفس الحجرة المتألقة الراقية ذات «البيانو» الإنجليزي الأصفر الفاخر، ونوافذها الضخمة المفتوحة التي ترى من خلالها الأشجار الخضراء، ومماشي الحديقة البرتقالية اللون تلوح للنظر في حبور. وبعد أن قبلت ميمي وليوبتشكا، وكنت في طريقي إلى كاتنكا خطر لي فجأةً أنه ليس من الملائم أن أقبلها؛ فوقفت عاجزًا صامتًا خجلًا. وقدمت لي كاتنكا التي لم تكن مرتبكة بالمرة، يدها البيضاء وهنأتني على دخولي الجامعة. وعندما دخل فولوديا حدث له نفس الشيء حين رأى كاتنكا. ومن العسير في الواقع بعد أن كبرنا معًا وأصبح كل منا يرى الآخر كل يوم وفي كل وقت أن نقرر كيف ينبغي الآن أن يحيي أحدنا الآخر بعد افتراقنا الأول. لقد خجلت كاتنكا منا أكثر من الأخريات، لم يُعان فولوديا أي ارتباك، بل انحنة أمامها قليلًا، ثم تقدم من ليوبتشكا التي تحدث إليها حديثًا موجزًا ولكنه غير جاد، ثم ذهب إلى مكان ما للنزهة.

(٨٤)

موقفنا من الفتيات

كانت آراء فولوديا عن الفتيات غريبةً جدًّا، حتى لقد كان يسلي نفسه بأسئلة مثل: «هل كن جائعات؟ هل نمن نومًا هادئًا؟ هل كن يرتدين ملابس ملائمةً؟ هل ارتكبن أخطاء في اللغة الفرنسية تخجله أمام الغرباء؟». ولكنه لم يسلم مطلقًا بفكرة أنهن يستطعن أن يفكرن أو يشعرن بأي شيء إنساني، وأكثر من هذا أنه لم يسلم بفكرة أن المرء يستطيع مناقشة أي شيء معهن، وعندما كان يتصادف أن يتقدمن له بأي سؤال جدي (وهو شيء كن يحاولن تحاشيه دائمًا)، وإذا سألته رأيه عن قصة أو عن دراساته بالجامعة، قطب وجهه وابتعد عنهن في صمت أو أجاب في لهجة فرنسية مشوهة[1]، أو يتظاهر بوجه جاد عليه مسحة من التبلد المقصود، وكان يتفوه بكلمات لا معنى لها ولا ترابط بينها وبين السؤال كليةً، ويكسو عينيه في الحال بالكآبة، ويقول: ملف، أو لقد انصرفوا، أو كرنب، أو ما يشبه هذا. وحين يتصادف أن أكرر على سمعه هذه الكلمات التي تكون قد نقلتها إليَّ ليوبتشكا أو كاتنكا، كان يقول دائمًا:

(١) كان يقول مثلاً بـ **Comme ci tri joli** ٢٢٤ بدلاً من **Comme c'est très joli**.

«وإذَنْ، فأنت لا تزال تبحث معهن المسائل؟ حقًّا، أرى أنك لا تزال أخرق».

ولا بد للمرء أن يسمعه؛ لكي يقدر الاحتقار العميق الراسخ الذي يتمثل في هذه الملاحظة.

لقد أصبح فولوديا راشدًا منذ سنتين، وكان يقع على الدوام في حب كل امرأة حسناء يقابلها، ومع أنه رأى كاتنكا كل يوم (وهي ترتدي الملابس الطويلة منذ عامين، وتزداد حسنًا يومًا بعد يوم)، ولكن احتمال وقوعه في حبها لم يطرأ على ذهنه مطلقًا، وسواء كان منشأ هذا أن ذكريات الطفولة العادية –المسطرة وثيابها ونزواتها، لا تزال حيةً في ذاكرته، أو أن منشأة النفور الذي يشعر به الشبان الصغار نحو كل شيء مألوف، أو من الضعف البشري عامةً الذي يؤدي بالمرء حين يقابل شيئًا طيبًا أو جميلًا جدًّا في بدء حياته، إلى أن يقول لنفسه: «آه! سأقابل مثل هذا كثيرًا»– ومهما كانت الحال، فإن فولوديا لم ينظر إلى كاتنكا بعيني الرجل.

كان واضحًا أن فولوديا كان ثقيل الظل إلى حد بعيد طوال ذلك الصيف، وكان سبب ثقل ظله احتقاره لنا، الذي لم يحاول أن يخفيه عنا كما سبق أن قلت، وكان تعبير وجهه يقول على الدوام: «آه! يا للضيق! لا يوجد من أتحدث إليه». وكان يذهب في الصباح إلى الصيد، أو يقرأ كتابًا في حجرته دون أن يرتدي ملابسه حتى وقت الغداء، فإذا لم يكن أبي بالمنزل، فإنه يصحب كتابه حتى إلى ذلك الغداء ويروح يقرأ دون أن يتبادل كلمةً مع أي شخص منا، مما جعلنا نشعر بالذنب إزاءه على نحو ما. وكان يتمدد مع المساء أيضًا على الأريكة في حجرة الجلوس، فإما أن

يروح في سبات ورأسه متكئ على مرفقه، وإما أن يقص علينا حكايات لا يمكن حدوثها -وقلما يكون محتشمًا في بعض الأحيان، مما كان يغضب ميمي فيحمر وجهها خجلًا، ونستلقي نحن من الضحك، ولكنه لم يتلطف بالتحدث مع أي فرد من أفراد الأسرة حديثًا جادًّا فيما عدا بابا، ومعي من وقت لآخر، ولم أحاول تقليد أخي عن رغبة في آرائه نحو الفتيات، وإن لم أكن شديد الخوف من العاطفة كما كان هو، وكان احتقاري للفتيات أبعد من أن يكون عميقًا راسخ الجذور. بل إنني حاولت عدة مرات في ذلك الصيف، لحاجتي إلى التسلية، توثيق علاقاتي مع ليوبتشكا وكاتنكا والحديث معهما، ولكني في كل مناسبة كنت أجد فيهن عجزًا من التفكير المنطقي، والجهل بأبسط الأشياء العادية مثل، ما هو المال، وماذا يدرس في الجامعة، وما هي الحرب وما إلى ذلك، فعدم الاهتمام بتفسيرات كل هذه الأشياء هو الذي عضد رأيي في غير صالحهن.

أذكر كيف ظلت ليوبتشكا في إحدى الأمسيات تكرر عزف مقطوعة على «البيانو» مطولة إلى درجة الإملال، وكان فولوديا مضجعًا على الأريكة بحجرة الاستقبال مغفيًا يتمتم في فترات بتهكم خبيث معين، ولكن دون أن يوجهه إلى شخص معين: «يا إلهي! ها هي ذي تشتغل بكد -يا لها من موسيقية، بتهوفن!! (ونطق هذا الاسم بتهكم خاص) هذه براعة -والآن، مرةً أخرى! هو ذلك بالضبط». وهكذا كنا، كاتنكا وأنا، لا نزال حول مائدة الشاي، ولا أذكر كيف حولت كاتنكا الحديث إلى موضوعها المفضل- الحب؛ وكنت في حالة تسمح بالتفلسف، وبدأت أحدد معنى الحب في تعال، بأنه الرغبة في الحصول على شيء لا يملكه الشخص،

وما إلى ذلك. ولكن كاتنكا أجابت بأن الأمر على العكس، فإن الحب لا يكون حبًّا إذا كانت الفتاة تؤمل الزواج من رجل لماله، وأن الملكية في أيها أقل الأشياء قيمةً، ولكن الحب الصادق الوحيد هو الذي يستطيع تحمل الفراق (أدركت من هذا أنها تشير إلى حبها لدوبكوف). ونهض فولوديا الذي ترامى إليه حديثنا بالضرورة، مستندًا إلى مرفقه وصاح مستفسرًا: «كاتنكا، ألا يوجد روسيون؟».

وقالت كاتنكا: «يا لحديثك الفارغ الذي لا ينتهي!».

وراح فولوديا يقول وهو يشدد كل كلمة: «ماذا؟ في علبة الفلفل؟»، وشعرت أن له كل الحق.

وبصرف النظر عن الصفات العامة للذكاء ودرجة الحساسية، والإحساس الفني، توجد صفة خاصة تظهر بدرجات متفاوتة في دوائر المجتمع المتفاوتة وبخاصة في العائلات، وهي الصفة التي أطلق عليها «الإدراك». والنقطة الجوهرية في هذه الصفة تتكون من شعور تقليدي بالتناسب، ومن وجهة نظر مقبولة لجانب واحد للأشياء. ويستطيع شخصان من نفس الوسط أو من نفس العائلة يتمتعان بنفس الصفة أن يسمحا لتعبيرهما عن الشعور بالوصول إلى نقطة معينة، يدرك كلاهما فيما وراءها التعبير اللفظي وحسب. ويحس كلاهما على وجه الدقة أين ينتهي المدح ويبدأ التهكم، وأين تنتهي الحماسة ويبدأ التظاهر، في حين أنه عند أناس لهم نوع آخر من الفهم قد يبدو الأمر مختلفًا تمامًا. ويرى أناس يتمتعون بنفس الفهم كل شيء في نفس الضوء الساخر أو الجميل أو المنفر. ولتيسير هوية هذا الفهم تظهر بين أناس من دائرة أو

أسرة معينة لغة خاصة به، وتعبيرات معينة من الكلام، بل كلمات معينة تعبر عن ظلال من معنى لا يوجد عند أناس آخرين. وهذا الفهم في عائلتنا نما إلى أقصى درجات النمو بين بابا وبيننا نحن الأخوين. وكان دوبكوف أيضًا مطابقًا لدائرتنا الصغيرة بدرجة كافية، ومفهومة، مع أن ديمتري -وإن كان يفوقه براعةً- فقد كان مغلق العقل في هذه الناحية، ولكن هذه المقدرة لم ترتفع في حالة من الحالات إلى هذه الذروة من التهذيب، كما ارتفعت بين فولوديا وبيني، إذ نشأنا في ظروف متماثلة. وكان بابا متخلفًا عنا، وبقدر ما كان من الواضح لنا أن العدد اثنين مضروبًا في اثنين يساوي أربعةً، بقدر ما كان ذلك عسير الفهم عليه. فمثلًا، حدث أن اتفقنا، فولوديا وأنا -لسبب يعلمه الله- على الكلمات الآتية وما يقابلها من معان: كلمة عنب تدل على رغبة في التفاخر لأظهر أن لديَّ نقودًا، وكلمة ضربة (يجب أن تتشابك الأصابع، مع تشديد خاص على الحرفين الساكنين في نفس الوقت) تدل على شيء جديد، صحي، لطيف ولكنه غير متحذلق؛ والاسم المستعمل في حالة الجمع يدل على التحيز غير المعقول لذلك الشخص وهكذا. وفوق هذا كان المعنى يتوقف على تعبير الوجه، وعلى الحديث بوجه عام، ولذلك فمهما كان التعبير الجديد الذي يخترعه أحدنا لظل جديد من المعنى، فإن الآخر يفهمه فهمًا دقيقًا بهذا المعنى عند أول تلميح. ولم يكن للفتيات هذا الفهم، وكان هذا هو السبب الجوهري في عزلتنا النفسية والاحتقار الذي كنا نشعر به نحوهن.

ربما كان لهن نوع من «الفهم» خاص بهنَّ ولكنه فهم يختلف عن فهمنا كل الاختلاف، حتى إنه حيث كنا ننظر إلى التعبير اللفظي كن

ينظرن إلى الشعور الحقيقي، وكان تهكمنا في نظرهن حقيقةً. وهكذا. ولم أفهم آنئذ أنهن غير ملومات على هذا، وأن هذا العجز عن الفهم لا يمنع أن يكن فتيات طيبات وبارعات جدًّا، وقد احتقرتهن بناءً على ذلك.

وفوق هذا، فعندما انكشفت أمامي فكرة الصراحة، وسرت في تطبيقها على حالتي إلى أقصى الحدود، اتهمت طبيعة ليوبتشكا الهادئة الحبيسة المنطوية على السرية؛ لأنها لم تجد ضرورةً للتنقيب عن أفكارها وغرائزها الروحية وفحصها. فمثلًا خيل إليَّ حين كانت ليوبتشكا تشير بعلامة الصليب فوق أبي كل ليلة، وحين كانت كاتنكا تبكي في الكنيسة الصغيرة وهي تستمع إلى القداس الذي أقيم لأمي، وحين كانت تتأوه كاتنكا وتزر عينيها أثناء عزفها على «البيانو»، كان يُخيل إليَّ أن كل هذا محض ادعاء: فمتى تعلمن التظاهر كالكبار، ولماذا كن يخجلن من أنفسهن؟

❊ ❊ ❊

(٨٥)

أشغالي

على أن ذلك الصيف قرب بين نسائنا الصغيرات وبيني أكثر مما كانت الحال في السنوات الأخرى، بسبب عشقي للموسيقى الذي أنميته. وفي ذلك الربيع قدم جار شاب لزيارتنا، فما إن دخل حجرة الجلوس، حتى أخذ يتفرس في «البيانو»، وعكف على تقريب مقعده منه، وهو يتحدث من وقت لآخر مع ميمي وكاتنكا. وبعد أن تكلموا برهةً عن الطقس ومباهج الحياة الريفية، وجه الحديث بمهارة إلى مدوزني[١] البيانو، وإلى الموسيقى، وإلى البيانو، وختم الحديث بأنه يعرف العزف؛ والواقع أنه عزف موسيقى لثلاث رقصات من «الفالس»، وكانت ليوبتشكا وميمي وكاتنكا واقفات حول البيانو يشاهدنه، ولم يأت هذا الشاب مرةً أخرى، ولكن عزفه راق لي إلى أقصى حد، كما أن جلسته إلى البيانو وعادته في إزاحة شعره، وبخاصة أسلوبه في تناول الثمانيات بيده اليسري ومده إبهام يده وأصبعه الصغيرة بسرعة فوق المسافة الثمانية، ثم سحبهما معًا ببطء، ومدهما مرةً أخرى بخفة، فحركته هذه الرشيقة، وجلسته المتوانية،

(١) المدوزن هو الشخص الذي يقوم بإصلاح الآلات الموسيقية وضبط أوتارها. (المترجم).

وطريقة إزاحة شعره، والالتفات الذي وجهته سيداتنا إلى نبوغه، انتهت بأن ألهبت فيَّ فكرة الانكباب على البيانو. وما إن أقنعت نفسي نتيجة لهذه الفكرة، بأنني أملك الموهبة والشغف بالموسيقى فقد قررت تعليمها؛ وقد تصرفت في هذه الناحية كما يتصرف ملايين الذكور، وبخاصة الإناث اللائي يدرسن من دون معلم ماهر، ودون اختيار حقيقي، وبلا أقل فهم لما يستطيع أن يضفيه الفن، وكيف تتأهب له لتحصل على هذه الهبة. إن العزف، وبالأحرى العزف على البيانو كان بالنسبة إليَّ وسيلةً لسلب لب الفتيات عن طريق مشاعرهن. وبمساعدة كاتنكا التي علمتني العلامات الموسيقية، روضت أصابعي الغليظة قليلًا، وفي هذه العملية استنفدت ضمنًا شهرين بحماسة شديدة حتى دربت أصبعي الرابعة العنيدة على ركبتي في وقت الغداء، وعلى وسادتي وأنا في الفراش، وبدأت على التو عزف «مقطوعات» عزفتها بطبيعة الحال بدافع نفساني، كما اعترفت بذلك حتى كاتنكا، ولكن بسرعة تامة.

كان اختيار المعزوفات مألوفًا -الفالس، ورقصات الجالوب، وأغاني الحب (مقتبسات) وما إلى ذلك- وجميعها من أكوام الأشياء البالغة الجمال الموجودة في حوانيت الموسيقى ويقول لك: «هذه هي التي يجب ألا تعزفها، لأنه ليس هناك أسوأ ولا أكثر مجافاةً للذوق، ولا أكثر تفاهةً منها سبق أن كتب على ورقة موسيقى ومن المرجح أنك لنفس هذا السبب تجدها على كل بيانو لسيدة روسية صغيرة. حقيقةً كان لدينا «السوناتا الشجية» و«سوناتا بتهوفن الصغرى»، اللتان تذبحهما على الدوام النساء الصغيرات، وقد عزفتهما ليوبتشكا في ذكرى أمي، وأشياء

أخرى كان قد أعطاها لها مدرس موسكو، ولكن كانت هناك مؤلفات لهذا المعلم، ألحان عسكرية وموسيقى رقصة الجالوب السخيفة التي كانت تعزفها لوبتشكا كذلك. إن كاتنكا وأنا لم نكن نحب الأشياء الجادة، وكانت الأشياء المفضلة على كل شيء عندنا هي: «المهرج» و«العندليب»، وكانت كاتنكا تعزفهما بمهارة بحيث لا ترى أصابعها، وقد بدأت العزف بهمة وبشيء من المثابرة. واقتبست حركات الرجل الشاب، وكان يؤسفني عدم وجود غرباء لسماع عزفي، ولكن سرعان ما تحققت أن «ليست، وكلكبرنر» كانا فوق مقدوري، وتحققت من أنني لا أستطيع اللحاق بكاتنكا، وتوهمت نتيجة لهذا أن الموسيقى الكلاسيكية أيسر منالًا، ومن ناحية أخرى لأجل الابتكار بنوع ما، وانتهيت فجأةً إلى الرغبة في تعلم الموسيقى الألمانية، وبدأت أستغرق في نشوة روحية عندما عزفت ليوبتشكا «السوناتا الشجية»، وإن كانت هذه السوناتا -إذا التزمت الصدق- تثقل عليَّ منذ زمن طويل. وبدأت أعزف بتهوفن بنفسي، وأنطق الاسم بالطريقة الألمانية. ولكن برغم كل هذا الخلط والادعاء -كما أذكر الآن- ربما كان يوجد في شيء من طبيعة الموهبة؛ لأن الموسيقى كثيرًا ما كانت تؤثر فيَّ إلى حد البكاء، وكنت أحاول انتقاء الأشياء التي تلذ لي فأعزفها على البيانو دون أن أستعين بالنوتة، ولذلك، فلو كان قد وجد من يعلمني أن أنظر إلى الموسيقى كغاية في ذاتها، وليست وسيلةً لسحر الفتيات، فلربما كنت أصبح بالفعل موسيقيًّا بارعًا تمامًا.

كانت مطالعة الروايات الفرنسية التي كان فولوديا قد بخسها حقها كثيرًا جدًّا، مشغلةً أخرى من مشاغلي في ذلك الصيف، ففي

ذلك الصيف كانت «مونت كريستو» والتمثيليات الدينية قد بدأت في الظهور، وانغمست في قراءة سو، ودوماس، وبول دي كوك، وكانت أكثر الشخصيات والحوادث شذوذًا حيةً تمامًا كالحقيقة، ولم أقتصر على عدم التجاسر على الشك في كذب المؤلف، ولكن المؤلف نفسه لم يكن حتى موجودًا بالنسبة لي -بل كان الناس الأحياء الذين يعملون والمغامرون يظهرون أمامي من خلال الكتاب المطبوع، وبالرغم من أنني لم أقابل قط في أي مكان، أناسًا مثل أولئكم الذين قرأت عنهم، فإنني لم أشك لحظةً في أنهم سوف «يوجدون» في يوم ما.

وكشفت في نفسي كل العواطف التي وصفت، والشبه بيني وبين جميع الشخصيات والأبطال والأوغاد في كل رواية، كما يجد كل رجل حساس في نفسه جميع أعراض الأمراض الممكنة حين يقرأ كتابًا طبيًّا. ومما سررت له في هذه القصص، الأفكار الماكرة والعواطف المشبوبة والشخصيات الطبيعية، فالرجل الطيب كان طيبًا تمامًا، كما أن الرجل الخبيث كان خبيثًا تمامًا -بالضبط كما تخيلت الناس في مستهل شبابي. وقد سرني كثيرًا جدًّا أن كل ذلك كان باللغة الفرنسية، وأنني أستطيع أن أتذكر الكلمات الفخمة التي ينطق بها الأبطال النبلاء، وأستخدمها يومًا ما حين أنشغل في عمل نبيل، وكم من عبارات فرنسية مختلفة لفقتها بمساعدة تلك الكتب لكولبيكوف إذا ما لقيته مرةً أخرى، ولها «هي» حين أقابلها وأصرح لها بحبي! لقد أعددت أشياء لأقولها لهما تقتلهما على التو. وعلى هذه الروايات أيضًا أسست مثلًا عليا جديدةً في القيمة الأخلاقية التي أردت الحصول عليها. وأهم من كل ذلك رغبت في أن

أكون «نبيلًا» في كل أعمالي وسلوكي، لا بما تعنيه الكلمة الفرنسية التي تنطوي على معنى آخر كما فهمه الألمان عندما استعملوا هذه الكلمة، فلم يخلطوه بالشرف والصدق والاستقامة والصراحة، ثم بعد ذلك أكون «عاطفيًّا»، وأن أتصف أخيرًا بالصفة التي شعرت بالميل إليها، وهي أن أكون «كما ينبغي» بقدر ما أستطيع، بل إنني حاولت أن أكون شبيهًا في مظهري الشخصي وعاداتي بالأبطال ممن يتصفون بواحدة من هذه الصفات. وأذكر أنه كان في واحدة من مئات الروايات التي قرأتها في ذلك الصيف بطل مشحوذ العاطفة إلى أقصى حد، ذو حاجبين غزيرين، فرغبت رغبةً قويةً في أن أكون على غراره شكلًا (شعرت أنني مثله تمامًا من الناحية الروحية)، وذلك أنه حدث حين كنت أختبر حاجبي في المرآة أن قصصتهما قليلًا لكي ينموا بغزارة، ولكن تصادف أنني جززت أكثر من اللازم في موضع واحد، وكان لا بد لي من تسويتهما، وعندما انتهيت من ذلك نظرت في المرآة وشاهدت شكلي، وكم كان هلعي إذا وجدتني من دون حاجبين، وبالتالي شديد القبح حقيقةً. ومع ذلك عزيت نفسي بأن حاجبي سيكونان غزيرين بعد مدة وجيزة كحاجبي الرجل الملتهب العاطفة، والشيء الوحيد الذي كان يزعجني هو ما ستقوله أسرتنا عندما يرونني عاطلًا من الحاجبين. وأحضرت مسحوقًا من فولوديا، ودعكته في حاجبي، وأشعلت فيه النار. وبالرغم من أن المسحوق لم يومض إلا أنني أصبحت تمامًا كرجل أصيب بالحرق. ولم يشك أحد في حيلتي، ونما حاجباي في الحقيقة بأغزر مما كانا، وذلك بعد أن نسيت كل شيء عن الرجل العاطفي.

(٨٦)

كما ينبغي

أشرت عدة مرات خلال هذا السرد إلى الفكرة المطابقة لهذا العنوان الفرنسي[١]، وأشعر الآن بضرورة إفراد فصل كامل لها؛ لأنها كانت من أكثر الأفكار التي غرسها فيَّ التعليم والمجتمع زيفًا ووبالًا.

يمكن تقسيم المجتمع إلى فئات عدة: أغنياء وفقراء، صالحون وطالحون، عسكريون ومدنيون، أذكياء وأغبياء، وهكذا. ومع ذلك فكل إنسان له مبدأه المفضل في التقسيم الذي يرتب بمقتضاه تلقائيًّا كل شخص جديد. أما تقسيمي الأساسي المفضل في الوقت الذي أكتب فيه، فقد كان إلى أناس كانوا «كما ينبغي أن يكونوا»، وأناس «لم يكونوا كما ينبغي أن يكونوا». والفئة الثانية كانت تنقسم مرةً أخرى إلى قسمين ثانويين: إلى أناس «لم يكونوا كما ينبغي أن يكونوا» وحسب، وعامة الناس. أما الناس الذين كانوا «كما ينبغي أن يكونوا» فقد اعتبرتهم جديرين بالاختلاط معي على قدم المساواة؛ أما بالنسبة إلى الفئة الثانية فقد تظاهرت باحتقارهم، ولكني في حقيقة الأمر كنت أبغضهم، ويخالجني نحوهم شعور معين

(١) وضع هذا العنوان باللغة الفرنسية في الترجمة الإنجليزية.

بالتأذي الشخصي، أما الفئة الثالثة فلم يكن لها وجود بالنسبة إليَّ - كنت أحتقرهم كل الاحتقار. أما فئتي هذه التي كانت «كما ينبغي أن تكون» فتتألف أولًا وأساسًا ممن يعرفون اللغة الفرنسية معرفةً ممتازةً، وينطقونها نطقًا صحيحًا بنوع خاص. فالشخص الذي لم يكن ينطق الفرنسية نطقًا سليمًا، كان يوقظ في نفسي على الفور شعورًا بالكراهية، وأسأله في عقلي بتهكم لاذع: «لماذا تريد أن تتكلم مثلنا في حين أنك لا تعرف كيف تتكلم؟» والحالة الثانية لفئة «كما ينبغي أن يكونوا» هي أن يمتازوا بالطول والنظافة وأظافر الأصابع المصقولة، والحالة الثالثة أن يكونوا على معرفة بالانحناء والرقص والحديث، والرابعة هامة جدًّا، وهي عدم الاهتمام بكل شيء، والتعبير الدائم عن كياسة معينة، وضيق ينطوي على الاحتقار. وبالإضافة إلى هذه الصفات كانت لي دلائل عامة أستطيع بها أن أقرر دون أن أتحدث إلى الرجل، إلى أي فئة ينتسب، وأهم هذه الدلائل، بالإضافة إلى تنظيم حجرته، وتوقيعه، وكتابته وعربته وخيوله، هما قدماه، وتناسق حذائه مع سرواله تحدد مباشرةً في نظري منزلة الرجل الاجتماعية. فالحذاء الخالي من الكعب، ذو الطرف المدبب والسراويل ذات النهايات الضيقة الخالية من أربطة القدم -وكان هذا هو «الشائع»، والحذاء ذو القدم والكعب المستديرين الضيقين، والسروال الضيق من أسفل ذو الأربطة التي تلتف حول القدمين، أو الواسع ذو الأربطة المقوسة فوق أصابع القدمين كالخيمة -فإن مثل هذا الرجل يكون من «النوع الرديء» وهكذا.

ومن العجيب أن هذه الفكرة قد تملكتني أنا الذي كنت عاطلًا قطعًا

من الصفات التي ينبغي أن تكون، ولكن ربما يكون السبب الذي أدى إلى تأصل هذه الفكرة في نفسي بمثل هذا العمق هو ما بذلته من جهود لأظفر بصفة «كما ينبغي أن أكون». ويفزعني أن أتذكر كم أضعت من وقتي الذي لا يقدر بثمن، وفي أثمن مرحلة من الحياة –سن السادسة عشرة لكي أنال هذه الصفة. وخيل إليَّ أنها وصلت بسهولة إلى كل شخص ممن قلدتهم–فولوديا، ودوبكوف ومعظم معارفي. كنت أتطلع إليهم حاسدًا، وكنت أشقى سرًّا في اللغة الفرنسية وفن الانحناء دون أن أنظر إلى الشخص الذي أنحني له، وفي المحادثة والرقص، وفي تنمية عدم الاهتمام والضيق، وفي تشذيب أظافر يدي –وكنت آنئذ أقص قطعًا من اللحم بالمقص– وأشعر طوال الوقت أن هناك الكثير مما يجب عمله قبل الوصول إلى هدفي. ولكن بالنسبة إلى حجرتي، ومنضدة الكتابة، وعربتي –فلم أكن أعرف على الأقل كيف أرتبها بطريقة تصبح معها «كما ينبغي أن تكون»، مع أنني كافحت في سبيل العناية بها بالرغم من نفوري من الأشياء العملية، ومع ذلك فإن كل هذه الأشياء تبدو لأناس «آخرين» شيئًا طبيعيًّا، تمامًا كما لو كانت الأمور لا يمكن أن تكون على وجه غير هذا. أذكر مرةً بعد جهد شاق غير مثمر في أظافري أن سألت دوبكوف الذي كانت أظافره مشذبةً تشذيبًا مدهشًا، عما إذا كانت بهذه الهيئة منذ وقت طويل، وكيف استطاع أن يجعلها كذلك، فأجاب دوبكوف: «لم أفعل شيئًا قط فيما أذكر لكي أجعلها هكذا، ولا أتخيل أن أظافر سيد ما يمكن أن تختلف عن هذه»، وجرحت هذه الإجابة كبريائي جرحًا عميقًا، ولم أعرف آنئذ أن أحد شروط «كما ينبغي أن يكون» هو الكتمان، فيما

يتعلق بالمشاق التي تبذل للوصول إلى «كما ينبغي أن أكون». وفي رأيي أن «كما ينبغي أن تكون» لم تكن فقط فضلًا كبيرًا، وصفةً لطيفةً وكمالًا رغبت في بلوغه، ولكنها كانت الحالة الضرورية في الحياة التي لا تكون من دونها سعادة ولا مجد ولا أي شيء طيب في العالم. فما احترمت فنانًا شهيرًا ولا عالمًا ولا شخصًا مفيدًا للجنس البشري إذا لم يكن «كما ينبغي أن يكون». والرجل الذي «يكون كما ينبغي أن يكون» يقف في مستوى أسمى من مستواهم بما لا يقاس، فهو يدعهم يرسمون الصور، ويؤلفون في الموسيقى، ويكتبون الكتب، أو يفعلون الخير، بل ويمتدحهم على هذا العمل؛ ولماذا لا يمتدح العمل الطيب مهما كان مضمونه؟ ولكنه لا يقف معهم في مستوى واحد؛ فهو «كما ينبغي أن يكون»، وهم ليسوا كذلك، وهذا يكفي، بل يخيل إليَّ أنه لو كان لنا أخ أو أم أو أب ولم يكن «كما ينبغي أن يكون» لقلت إنه من سوء طالعنا، ولكن لا يمكن أن يكون هناك شيء مشترك بينهم وبيني، ولكن ليس ضياع الوقت الذهبي الذي استنفد في القلق المستمر لملاحظة جميع شروط «كما ينبغي أن تكون» التي كانت عسيرةً جدًّا عليَّ، وحرمتني من كل مسعى جدي، ولا البغض والاحتقار لتسعة أعشار الجنس البشري، ولا عدم الالتفات إلى أي شيء جميل خارج دائرة «كما ينبغي أن يكون» -لم يكن شيء من هذا هو الضرر الرئيس الذي ألحقته بي هذه الفكرة، كان الضرر الجوهري يتضمن الاقتناع بأن «كما ينبغي أن تكون» في ذاتها ليست إلا منزلةً في مجتمع، وأن الإنسان ليس بحاجة إلى إجهاد نفسه لكي يصبح موظفًا أو صانع مركبات أو جنديًّا أو عالمًا إذا كان «كما ينبغي أن يكون»؛ فإذا ما بلغ

هذه المنزلة فقد أنجز مهمته، بل ووضع نفسه فوق معظم الجنس البشري.

في مرحلة معينة من المراهقة، وبعد كثير من الأخطاء والانحرافات، يشعر كل شخص عادةً بضرورة القيام بدور إيجابي في الحياة الاجتماعية، ويتخير فرعًا من فروع الصناعة، يكرس نفسه لها، ولكن ندر ما يحدث هذا مع رجل ممن «كما ينبغي أن يكونوا». ولقد عرفت ولا أزال أعرف كثيرين، بل كثيرين جدًّا من الناس المسنين، ذوي كبرياء وثقة بأنفسهم، صارمين في أحكامهم، إذا ما سُئلوا في العالم الآخر: «من أنتم؟ وماذا صنعتم هنالك في الدنيا؟» فإنهم لا يملكون ردًّا آخر غير: «لقد كنت سيدًا كامًلا تمامًا»[1].

إن هذا المصير كان ينتظرني.

* * *

(١) لقد كنت سيدًا كامًلا

«Je fus un homme tres comme il faut.

(٨٧)

الشباب

بالرغم من اختلاط الأفكار المدومة في رأسي في ذلك الصيف، إلا أنني كنت صغيرًا بريئًا طليقًا، ولذلك كنت سعيدًا تقريبًا. كيف أستيقظ مبكرًا أحيانًا، بل غالبًا أيضًا بشيء من التسامح (كنت أنام بالشرفة في الهواء الطلق وتوقظني شمس الصباح الساطعة المائلة)، فأرتدي ملابسي بسرعة، وأتناول منشفةً وقصةً فرنسيةً تحت ذراعي، وأذهب لأستحم في النهر في ظل غيضة من أشجار البتولا على مسافة فرسخ من البيت؛ ثم أستلقي على الحشائش في الظل، وأرفع عيني من وقت لآخر عن كتابي لأتفرس في سطح النهر الذي كان يبدو أزرق في ظل الأشجار، ثم يبدأ في التموج تحت نسائم الصباح، وفي حقل الجاودار الآخذ في الاصفرار، على الشاطئ المقابل، تحت أشعة ضوء الصباح اللامعة الحمراء، وهي تخضب جذوع أشجار الزان المكتئبة، والمكتئبة دائمًا، التي تتراجع إلى أعماق الغابة الرطبة، مختفية الواحدة خلف الأخرى. وكنت أحس بالبهجة إذ أشعر في أعماقي بنفس قوة الحياة الجديدة الفتية التي كانت تتنفس من الطبيعة فيما حولي. وعندما كانت تملأ السماء سحب الصباح الرمادية الصغيرة، ويرتجف جسمي بعد أن أستحم، أبدأ في كثير من الأحيان في

المشي كيفما اتفق، في الغابات والمروج، أبلل حذائي من أوله لآخره في الندى الرطيب. وأنساق طوال الوقت إلى أحلام زاهية عن أبطال آخر قصة قرأتها، فأتخيل نفسي تارةً جنديًّا عظيمًا، وتارةً أخرى وزيرًا، ثم رجلًا ذا قوة هائلة، ثم رجل عواطف مشبوبة، وأعطف على التطلع دون انقطاع فيما حولي مرتجفًا على أمل «مقابلتها» فجأة في بعض المروج أو وراء شجرة. وعندما كان يسوقني بعض هذا التطواف بالقرب من بعض الفلاحين وهم يعملون لا يمنعني كل تجاهلي «لعامة الشعب» من معاناة ارتابك شديد غير إرادي، ومحاولة تجنب رؤيتهم لي. وعندما كانت تشتد الحرارة، ولا تظهر سيداتنا لتناول الشاي، فكثيرًا ما كنت أذهب إلى البستان أو الحديقة لآكل أي شيء من الخضر أو الفاكهة الناضجة، وكان هذا من مباهجي الأساسية، فأنا أذهب إلى بستان التفاح، وربما أوغل في صميم حرجة من أشجار توت العليق الطويلة الضخمة الغزيرة النماء، وفوق رأسي سماء صافية حارة، ومن حولي أغصان شجيرات توت العليق ذات الخضرة الشائكة متشابكة مع أعواد الحشائش الضارة؛ وحشيشة القريص الداكنة الخضرة بشواشيها الرفيعة المزدهرة تمتد مصعدةً في رشاقة، ونبات الأرقطبون الشبيه بالمخلب، بأزهاره ذات اللون الأرجواني والأشواك غير العادية، تنمو غزيرة فوق شجيرات توت العليق، ويزيد ارتفاعها على قامتك. هنا وهنالك مصحوبةً بحشيشة القريص، حتى لتصل في ارتفاعها أغصان شجرة التفاح العتيقة ذات اللون الأخضر الباهت المتهدلة في غزارة، والتي تعلوها ثمار التفاح المستديرة لامعةً كالعاج، ولكنها لم تنضج بعد، رطيبة في حرارة الشمس. وإلى أسفل، شجيرة من حشيشة

القريص عارية من الأوراق. تكاد أن تكون جافةً، مفتولةً، وملتويةً تتطاول نحو الشمس، ونصال إبرية الشكل من الحشائش تشق طريقها بين أوراق السنوات الأخيرة، وكلها مخضلة بقطرات الندى، تنمو مخضرةً كثيفةً في الظلال الخالدة، كأنها لم تعرف كيف تداعب شمس التفاح المبهجة.

الجو رطب دائمًا في هذه الغابة، وهي عبقة بالظل الغزير الدائم، وبنسيج العناكب، والتفاح المتساقط الآخذ في السواد على التربة المتعفنة، وبأشجار حشيشة القريص، وأحيانًا بحشرة «ثاقبة الأذن» التي تبتلعها دون التفات إلى ما تأكل من التوت -وبعد ذلك تأكل أخرى بأسرع ما تستطيع. وعندما تسير قدمًا، تفزع العصافير الدورية التي تعيش دائمًا في هذه الغابة، وتسمع زقزقتها ورفيف أجنحتها الدقيقة الرشيقة في الأغصان، وتسمع في بقعة واحدة طنين الدبور، ووقع أقدام البستاني في مكان ما بالممرات، و«آكيم» الآبله الصغير وقرقرته المستمر لنفسه، وتقول في سرك: «لا! لا هو ولا أي شخص آخر في الدنيا يستطيع العثور عليَّ هنا، وتقطف بكلتا يديك ثمار التوت المليء بالعصارة من يمين ومن شمال، من على سيقانها البيضاء المخروطية وتلتهمها بانشراح الواحدة بعد الأخرى. وتبتل ساقاك حتى الركبة؛ ويظل يجري في عقلك بعض هراء مخيف أو غيره (وتكرر في ذهنك ألف مرة على التوالي، و-و-س -س- بعة، و -و- عش- ر، رين)؛ وتلسعك حشيشة القريص في ذراعيك، بل في ساقيك من خلال سروالك المبتل، وتأخذ أشعة الشمس المائلة تنفذ إلى الغابة وتلفح رأسك، وتكون رغبتك في الأكل قد اختفت منذ وقت طويل، وتظل جالسًا في الغابة الموحشة تصغي وتنظر وتفكر،

ثم تروح تقطف التوت وتأكله دون تفكير.

وفي نحو الساعة الحادية عشرة في الوقت الذي تتناوله فيه السيدات الشاي عادةً، ويستقر قرارهن في العمل، أذهب إلى حجرة الاستقبال، وإلى جوار النافذة الأولى المعلق عليها ستار أصم من تيل مبيض، ترسل الشمس من خلال ثقوبه دوائر شديدة اللمعان، فتسقط على أي شيء تقابله في طريقها حتى ليؤذي العين النظر إليها، ويقوم نول للتطريز يتنزه الذباب فوق نسيجه الكتاني الأبيض في سلام، وتجلس ميمي إلى النول تهز رأسها دون توقف وفي غضب، وتنتقل من مكان إلى آخر لتتفادى الشمس التي تنفذ فجأةً من موضع أو آخر، وتنقض شعاعة محرقة من الضوء مرةً على يدها ومرةً على وجهها. وتسقط من النوافذ الثلاث الأخرى مع ظلال الإطارات رقعًا متألقة كاملة التربيع، وترقد «ملكًا» في إحدى هذه الرقع على أرض حجرة الجلوس العاطلة من الطلاء. وتجلس كاتنكا على الأريكة تشتغل بالحياكة أو القراءة، وتلوح في ضجر بيدها البيضاء التي تكاد أن تكون شفافةً في الضوء الباهر، أو تهز رأسها عابسةً لكي تهش الذباب الذي يزحف على جدائلها السميكة الذهبية ويطن فيها. وكانت ليوبتشكا إما تذرع الحجرة جيئةً ورواحًا عاقدةً يديها وراء ظهرها تنتظر ذهابهن إلى الحديقة، أو عازفةً قطعةً بكل الأنغام التي ألفتها منذ زمن طويل. وكنت أجلس في مكان ما أستمع إلى الموسيقى أو أقرأ وأنتظر حتى أستطيع أنا نفسي الجلوس إلى البيانو، وبعد الغداء أرتضي أحيانًا امتطاء صهوة جواد مع الفتيات (كنت أعتبر المشي تدريبًا غير ملائم لسني ولا لمركزي في الهيئة الاجتماعية)، وكانت رحلتنا التي أقودهم

فيها إلى الأماكن غير العادية والوهاد ممتعةً للغاية. وكانت لنا مغامرات أحيانًا أُظهر فيها شجاعةً كبرى، فتثني النساء على مهارتي في الركوب وجسارتي، ويعتبرونني حاميهن. أما في المساء، إذا لم يكن هنا زائرون، وعقب الشاي الذي كنا نتناوله في الشرفة الظليلة، وبعد مسيرة قصيرة مع بابا إلى شئون الأملاك، أرقد في مكاني القديم بالشرفة، أقرأ أو أحلم، كما كنت من قبل أصغي إلى موسيقى كاتنكا وليوبتشكا. وأحيانًا أترك وحيدًا في حجرة الجلوس مع ليوبتشكا وهي تعزف بعض الموسيقى القديمة، فألقي بكتابي وأتطلع من خلال باب الشرفة المفتوح إلى أشجار الزان العالية ذات الأغصان الملتوية المتهدلة التي هبطت عليها ظلال المساء، وإلى السماء الصافية التي لو تأملتها بنظرة ثابتة لظهرت لك بقعة ضاربة إلى الصفرة، ثم لا تلبث أن تختفي لتوها مرةً أخرى، وأصغي إلى أصوات الموسيقى من القاعة، وإلى صريف البوابة، وأصوات النسوة والقطيع عند العودة إلى القرية، وأتذكر على حين فجأة في كثير من الجلاء ناتاليا سافشنا وأمي وكارل إيفانتش، فأشعر بالحزن لحظةً. ولكن روحي كانت مليئةً بالحياة والأمل في هذه الفترة، حتى إن هذه الذكريات كانت تمسني فقط بأجنحتها، ثم تبتعد مرفرفةً.

وبعد العشاء، وأحيانًا بعد النزهة الليلية في الحديقة مع واحد من الناس -كنت أخاف السير وحيدًا في المماشي المظلمة- كنت أذهب لأنام على أرض الشرفة، مما كان يمدني بلذة كبرى بالرغم من ملايين البعوض التي كانت تهاجمني. وعندما كان يكتمل القمر، فطالما كنت أقضي لياليَّ برمتها جالسًا فوق حشيتي أتأمل الأضواء والظلال، مصغيًا إلى

الصمت والضوضاء، أحلم بموضوعات شتى وخاصة بالهناءة الشاعرية والشهوانية، التي كانت يخيل إليَّ آنئذ أنها قمة السعادة في الحياة، وأحزن لكونها حتى ذلك الوقت منحتني فقط فرحة تخيلها. وفي بعض الأحيان، سرعان ما يأوي الجميع إلى فراشهم، وأرى الأضواء في حجرة الاستقبال وقد انتقلت إلى الحجرات العليا حيث تسمع في الحال أصوات نسائيةً، وصوت فتح النوافذ وغلقها، حتى أذهب إلى الشرفة فأذرعها مصغيًا في اشتياق لجميع أصوات البيت وهي تغط في النوم. وطالما كان هناك أقل أمل ولو قام على غير أساس لتحقيق قسط من السعادة التي أحلم بها، فلا أستطيع أن أتخيل هناءةً لنفسي وأنا هادئ البال.

عند كل صوت لقدم حافية، ولدى كل سعال وكل آهة، وكل قعقعة منخفضة لنافذة، أو حفيف ثوب، كنت أقفز من فراشي، وأقف أتبصبص خلسةً فيما حولي، وأشعر باضطراب دون أن سبب ظاهر، ولكن تختفي الأضواء في الحال من النوافذ العليا، وتفسح الأصوات ووقع الأقدام والحديث الطريق للغطيط، ويبدأ الحارس الليلي في الدق على لوحته، وتزداد ظلمة الحديقة، ومع ذلك تصبح أكثر بهاءً عندما تختفي أشعة الضوء الحمراء من النوافذ، وتنتقل آخر شمعة من حجرة المؤن إلى حجرة الانتظار ملقيةً شريطًا من الضوء على الحديقة المنداة، ومن خلال النافذة كنت أستطيع رؤية شكل فوكا المقوس في طريقه إلى الفراش، ملتفًا بدثار وبيده شمعة. وكثيرًا ما كنت أشعر بسرور عظيم مثير في الزحف على الحشائش الندية في ظلال البيت السوداء، والاقتراب من نافذة حجرة الانتظار والإصغاء بأنفاس خفيضة إلى غطيط الصبي وتأوهات فوكا

الذي كان يظن أن أحدًا لا يستطيع سماعه، وسماع صوته العجوز وهو يتلو صلواته وقتًا طويلًا، طويلًا جدًّا. وأخيرًا تنطفئ آخر شمعة، وتصفق النافذة، وأبقى أنا وحيدًا تمامًا، وأتطلع حولي لأرى ما إذا كانت هناك امرأة بيضاء في أي مكان بالقرب من الدغل المشجر أو بجوار فراشي، وكنت أسرع إلى الشرفة جريًا، ثم أرقد في فراشي، وأولي وجهي ناحية الحديقة، وأغطي نفسي ما وسعني أن أفعل خوفًا من البعوض والخفافيش، وأتفرس في الحديقة وأتسمع إلى أصوات الليل، وأحلم بالحب والسعادة.

وحينئذ كان ينطوي كل شيء على معنى آخر في نظري؛ فمنظر أشجار البتولا العتيقة تتراءى أغصانها على أحد الجانبين لامعة في ضوء القمر، وتعتم الشجيرات والطريق على الجانب الآخر، ويزداد هدوء البركة وإشعاعها الغزير لمعانًا كالصوت المرتفع، ويتلألأ ضوء القمر من قطرات الندى على الأزهار أمام الشرفة، وتلقي بظلالها الرشيقة عبر أحواض الزرع الرمادية، وصيحات طيور الشنقب من وراء البركة، وصوت رجل في الطريق، وصوت احتكاك هادئ لا يكاد يسمع بين شجرتي بتولا عتيقتين، وطنين البعوض فوق أذني وتحت دثاري، وصوت سقوط تفاحة تلقفها فرع يابس ثم الأوراق الجافة، وقفزات الضفادع التي تصل حتى إلى درج الشرفة، وتبدو عجيبةً تحت ضوء القمر بظهورها الخضراء -كل هذا اتخذ في نظري مغزى غريبًا، مغزى جمال عظيم للغاية ينطوي على سعادة لا حد لها. وحينئذ ظهرت «هي» بضفيرة من الشعر طويلة سوداء، وصدر نافر، حزينة دائمًا وبارعة الجمال، وبذراعين عاريتين وأحضان داعرة... أحبتني، وفي مقابل لحظة واحدة من حبها

ضحيت بحياتي كلها. ولكن القمر ارتفع وارتفع سامقًا وتلألأ وتلألأ في كبد السماء، وإشعاع البركة البهي المرتفع كالصوت، أصبح أوضح فأوضح، وتزايد سواد الظلال وتزايد، وشف الضوء وشف؛ وبينما أتطلع وأصغي إلى كل هذا قال لي شيء ما «إنها» بذراعيها العارتين وحضنها الناري بعيدة، أبعد كثيرًا من أن تكون كل السعادة، وأن حبها بعيد، أبعد من أن يكون كل الهناءة؛ وكلما تطلعت إلى القمر العالي المكتمل، كنت أكثر سموًّا، وأنقى فأنقى، وأقرب فأقرب «إليه تعالى»، إلى منبع كل جمال وهناءة. وتجلى أمامي الجمال الحقيقي والهناءة الحقيقية، واندفعت إلى عيني دموع فرح غير قانع ولكنه مزعزع.

كنت لا أزال وحيدًا، ولا أزال أتخيل أن هذه الطبيعة الخفية الرائعة التي يبدو أنها تجتذب إليها قرص القمر اللامع، وتمسك به لسبب ما، في بقعة عالية وإن كانت غير محددة في السموات الزرقاء الباهتة، وفي نفس الوقت تملأ كل الفضاء غير المحدود، وتملأني أنا، تلك الدودة التافهة التي وصمت بكل شهوات الحياة الأرضية الحقيرة، ولكن وهب أيضًا قدرةً غير محدودة على التخيل والحب، -وخيل إليَّ في لحظات كهذه كأن الطبيعة والقمر وأنا جميعًا أصبحنا واحدًا.

* * *

(٨٨)

الجيران

في اليوم الأول لوصولنا إلى الريف دهشت؛ لأن بابا وصف آل إيبيفانوف بأنهم أناس على خلق ممتاز؛ ومما زاد من دهشتي أنه كان يذهب إلى منزلهم. لقد كانت هناك قضية قائمة بيننا وبين آل إيبيفانوف منذ وقت طويل، وقد سمعت بابا يثور غضبًا على هذه القضية مرات كثيرةً حين كنت طفلًا ويهاجم آل إيبيفانوف، ويستدعي مختلف الناس ليدافعوا عنه ضدهم كما فهمت، وسمعت ياكوف يسميهم أعدائنا «أناس أشرار»؛ وأذكر كيف طلبت أمي ألا يذكر أحد هؤلاء الناس في بيتها أو في حضورها.

ومن هذه المعلومات كونت بنفسي إبان طفولتي فكرةً قاطعةً واضحةً وهي أن آل إيبيفانوف كانوا «أعداءنا»، مستعدين لا لقطع رقبة بابا فقط أو خنقه، ولكنهم يفعلون ذلك بابنه أيضًا لو ظفروا به، وأنهم «أناس أشرار» بكل ما تنطوي عليه الكلمة من معنى حرفي، وأنني عندما شاهدت أفدوتيا فاسيلفنا إيبيفانوفا «الفلمنكية الحسناء» تقوم على خدمة أمي في السنة التي ماتت فيها كان من العسير عليَّ أن أصدق أنها واحدة من تلك الأسرة، أسرة الناس الأشرار، وظللت محتفظًا بأسوأ فكرة عن هذه الأسرة. وبالرغم من

أنني كثيرًا ما كنت أقابلهم خلال ذلك الصيف فقد استمر تحاملي قاسيًا على كل الأسرة؛ والحقيقة أن آل إيبفانوف كانوا كذلك، وكانت الأسرة مكونة من أم أرملة تناهز الخمسين، ولكنها بقيت عجوزًا مرحةً ومتجددةً، ومن ابنتها الجميلة أفدوتيا فاسيلفنا إيبفانوفا، وابنها المتلعثم اللسان بيوتر فاسيليفتش الذي كان نقيبًا (يوزباشي) عزبًا ذا نزعة جادة للغاية.

وعاشت أنا دمتريفنا إيبفانوفنا منفصلة عن زوجها لمدة عشرين عامًا قبل وفاته، أحيانًا في بترسبرج حيث كان لها هناك بعض الأقارب، ولكنها كانت تقضي معظم الأوقات في قريتها «ميستشي» الواقعة على مسافة ثلاثة فراسخ منا. وكانت تروي فظائع كهذه في الجيرة عن طريقة حياتها، وأن «مسالينا» تعد طفلةً بريئةً إذا قورنت بها. وطلبت أمي نتيجةً لذلك ألا يذكر حتى اسم إيبفانوفا في بيتها، ولكن لو تحدثنا دون أي سخرية لقلنا إن من المحال تصديق حتى عشر الفضائح المشينة –فضائح الجيرة في الريف.

ولكنني حين عرفت أنا دمتريفنا، كانت رغم كل شيء بمنزل فلاح ناظر أشغال يُسمى «متيوشا» يدهن شعره ويجعده دوامًا ويرتدي سترةً على الطراز القوقازي ويقف وراء مقعد أنا دمتريفنا وقت الغداء. وبينما كثيرًا ما كانت تغري ضيوفها بالفرنسية أثناء وجوده بالإعجاب بعينيه الجميلتين وفمه، فإن ما كانت تتحدث عنه أمثال هذه الشائعة باستمرار لم يكن له وجود. ويبدو في الحقيقة أنه في السنوات العشر الأخيرة –أي منذ الوقت الذي استدعت فيه أنا دمتريفنا ابنها المطواع «بتروشا» من الخدمة العسكرية– قد غيرت نمط حياتها تغييرًا تامًّا.

كانت أملاك أنا دمتريفنا صغيرة الرقعة كل من فوقها مائة نسمة، وكانت نفقاتها كثير إبان حياتها المرحة، ولذلك فإن الرهون ومضاعفات الرهون السابقة على هذا بطبيعة الحال كانت قد حلت على أملاكها، ولم يكن هناك مناص من بيعها بالمزاد العلني، وخيل لها إزاء هذه الضرورات الملحة أن الوصاية وجرد الأملاك، ووصول القاضي، وأمثال هذه الأشياء المؤلمة لم تنشأ من عجزها عن دفع الفائدة بقدر ما نشأت عن كونها امرأةً؛ فكتبت أنَّا دمتريفنا إلى ابنها الذي كان يعمل آنئذٍ في فرقته العسكرية، لكي يأتي وينقذ أمه من هذه الضائقات.

وبالرغم من أن بيوتر فاسيليفتش كان يقوم بعمله في الخدمة العسكرية على خير وجه، ويأمل أن يكون مستقلًّا في القريب، فإنه توقف عن كل شيء، وتحول إلى قائمة المتقاعدين، وقدم إلى القرية بوصفه الابن المحترم الذي يعتبر أن أول واجباته مواساة أمه في سنها المتقدمة (كما كتب عن ذلك بمنتهى الإخلاص في رسائله).

كان بيوتر فاسيليفتش، بالرغم من تقاسيم وجهه الساذجة، وارتباكه، وتلعثمه، رجلًا ذا مبادئ ثابتة جدًّا وحاسة عملية جديرة بالاعتبار. وقد حافظ على الأملاك إلى حد ما بواسطة قروض صغيرة ومسايرة الظروف، والرجاء والوعود، واضطلع بيوتر فاسيليفتش بإدارة الأملاك، وارتدى سترة والده المبطنة بالفراء التي كانت متروكةً بالمخزن، وتخلص من جياده وعرباته، ولم يشجع الضيوف على زيارة ميتستشي، وحفر المصارف، وزاد من رقعة الأرض الصالحة للزرع، وخفض حصص الفلاحين، وقطع أخشابه وباعها بطريقة تجارية، ونظم شئونه وأقسم بيوتر فاسيليسفتش،

وحافظ على قسمه، أنه لن يرتدي ثيابًا أخرى سوى «بكيشا» والده، وسترة من الخيش صنعها بنفسه، وألا يركب أي وسيلة أخرى للمواصلات غير العربة العادية مع الفلاحين التي تجرها خيول الشغل حتى تسدد جميع الديون، وحاول أن يفرض هذا الأسلوب من عدم المبالاة في الحياة على جميع الأسرة بقدر ما يسمح به احترامه لأمه، الذي يعتبره واجبه. كان يتلعثم في حجرة الجلوس ويتصرف تصرفًا ذليلًا إلى أقصى حد إزاء أمه، فينجز كل رغباتها، ويزجر الناس إذا لم يفعلوا ما تأمر به أنَّا دمتريفنا، ولكنه في مكتبه الخاص كان يدعو الجميع إلى الحساب الدقيق إذا ما قدمت بطة على المائدة من دون أمر منه، أو إذا أرسلت أنَّا دمتريفنا فلاحًا (موزيك) ليسأل عن صحة أحد الجيران، أو أرسلت فتاةً فلاحةً إلى الغابات لجمع توت العليق بدلًا من استئصال الحشائش من الحديقة.

وفي مدى ثلاث سنوات دفعت جميع الديون، وعاد بيوتر فاسيليفتش من رحلة إلى موسكو، في ملابس جديدة وعربة (تارانتاس). ولكن بالرغم من ازدهار الحال في أعماله، ظل محتفظًا بنفس ميله إلى عدم المبالاة الذي كان يفاخر به دائمًا فيما يظهر، أسرته والأغراب. وكثيرًا ما كان يقول متلعثمًا «إن أي شخص يريد حقيقةً أن يزورني، فأكون سعيدًا لو رآني في معطف من جلد الشاة، ويأكل أيضًا من حساء الكرنب». ثم يضيف -«فأنا أكلها أيضًا» كانت كل كلمة وكل حركة معبرة عن كبريائه تقوم على إدراكه بأنه ضحى بنفسه لأمه، واسترد الأملاك، وأنه يحتقر الآخرين؛ لأنهم لم يفعلوا شيئًا من هذا.

إن أخلاق الأم والابنة كانت تختلف عن أخلاقه اختلافًا تامًّا، وكل

منهما تختلف عن الأخرى من وجوه عدة، فالأم كانت من خيرة نساء المجتمع لطفًا ومرحًا، وكانت كلتاهما دمثتي الأخلاق، وكانت تبتهج ابتهاجًا حقيقيًّا لكل شيء مرح سار، بل كانت تملك إلى أقصى حد، القدرة على الاستمتاع برؤية الشباب يمرح، وهذه سمة توجد فقط في ذوي الطباع الدمثة من المسنين. أما ابنتها أفدوتيا فاسليفنا، فعلى العكس، كانت شخصيةً جادةً، أو بالأحرى، تملك بصورة غريبة تلك النزعة الحالمة غير المكترثة، متعالية إلى حد ما دون أي مبررات من تلك التي تملكها الجميلات غير المتزوجات بوجه عام؛ وكلما حاولت أن تكون مرحةً، فإن مرحها يكون غريبًا بنوع ما كما لو كانت تضحك من نفسها أو من أولئك الذين تتحدث معهم أو من كل المجتمع؛ ومن المحتمل أنها لم تكن تقصد أن تفعله. وكثيرًا ما كنت أتساءل عما تقصده بمثل هذه الملاحظات: «نعم، إنني جميلة إلى حد فظيع» أو «إن الجميع بطبيعة الحال يحبونني»، وهكذا وكانت أنَّا دمتريفنا دائمة النشاط، مغرمةً بإدارة شئون المنزل وتنسيق الحدائق، وبالأزهار وطيور الكناريا والأشياء الجميلة. كانت حجراتها وحديقتها لا بالفسيحة ولا بالفاخرة، بل كان كل شيء بالغ النظافة منسقًا بعناية كبرى، ويحمل كل شيء طابعًا عامًّا من ذلك الطرب الخفيف في إطار أنيق مما يسمعه المرء واضحًا في موسيقى الفالس أو البولكا الجميلة، حتى إن كلمة «لعبة» التي كثيرًا ما كان يستعملها ضيوفها في المدح، كانت ملائمةً بنوع خاص لحديقة أنا دمتريفنا ومسكنها الأنيقين، وأنَّا دمتريفنا نفسها كانت لعبةً –فهي صغيرة نحيلة ذات وجه مشرق، ويدين صغيرتين جميلتين، مرحة على الدوام،

تتحرى اللياقة في ملبسها دائمًا. ولم يكن هناك شيء يعكر هذه السمة غير العروق الضاربة إلى اللون الأرجواني، النافرة على يديها الصغيرتين.

أما أفدوتيا فاسليفنا فعلى العكس، قلما كانت تفعل أي شيء، فهي لم تقتصر على عدم شغفها بالانهماك في الأزهار والأشياء الصغيرة الأنيقة، بل كانت قليلة العناية بمظهرها، فكانت تسرع دائمًا بارتداء ملابسها عندما يصل الزائرون. ولكنها عندما كانت تعود إلى الحجرة وقد ارتدت ملابسها كانت تبدو جميلةً جمالًا فائقًا، باستثناء تعبير عينيها وابتسامتا الفاتر الجامد، الغريب بالنسبة للوجوه المليحة، ووجهها البالغ الجمال الدقيق التناسق، وهيئتها الجليلة، كانت كأنها تقول لك على الدوام: «انظر إليَّ إن تكرمت».

ولكن كل خفة روح الأم، وعدم اكتراث الابنة وخلقها الحالم، قد حدثنا عنهما شيء ما، فقال إن الأولى لم تحب شيئًا قط، لا الآن ولا في أوقات مضت إلَّا كل جميل مفرح، وأن أفدوتيا فاسليفنا واحدة من ذوات الطبائع اللائي لو أحببن مرةً، لضحين بحياتهن كلها للشخص الذي أحببنه.

* * *

(٨٩)

زواج أبي

كان أبي في الثامنة والأربعين عندما اتخذ أفدوتيا فاسليفنا إبيفانوفا زوجةً ثانيةً له.

وأظن أن بابا عندما قدم وحده إلى الريف مع الفتيات في الربيع، كان في تلك الحالة النفسية العصبية السعيدة التي تميل إلى الاجتماع، والتي يكون فيها المقامرون عادةً عندما يتوقفون عن اللعب بعد المكاسب الوفيرة. وكان يشعر أنه لا يزال يختزن الكثير من الحظ غير المستنفد الذي إذا لم يبدده في المقامرة، فقد يصرفه على النجاح العام في الحياة. وفوق هذا كان الوقت ربيعًا، وأصبح يملك قدرًا كبيرًا من المال غير المنتظر، وكان وحيدًا تمامًا، ويشعر بالضجر. وفي أثناء مناقشته شئونه مع ياكوف، وتذكره القضية التي لا تنتهي مع آل إبيفانوف، والحسناء أفدوتيا فاسليفنا التي لم يرها منذ وقت طويل، يمكنني أن أتخيله يقول لياكوف: «أنت تعرف يا ياكوف خارلامتش ما هو رأيي، فأنا أرى من الخير أن أترك هذه القطعة الملعونة من الأرض تذهب عني، أتوافق؟ ما رأيك؟».

وأستطيع أن أتخيل أصابع ياكوف تدور بالنفي على هذا السؤال

من وراء ظهره، وكيف أثبتت: «أننا على حق قبل كل شيء يا بيوتر ألسكندروفتش».

ولكن بابا أمر بإعداد العربة، وارتدى معطفه الزيتوني الحديث الطراز، وصفف البقية الباقية من شعره، ورش منديله بالعطر. وركب إلى منزل جاره وهو في أحسن حالات المرح التي أوحى بها إليه اقتناعه بأنه يتعامل مع وجيه أرستقراطي، وبخاصة أنه كان يأمل في رؤية امرأة حسناء.

أعرف فقط أن أبي في زيارته هذه لم يقابل بيوتر فاسليفتش الذي كان في الحقول، وأنه قضى ساعة أو ساعتين مع السيدات. وأستطيع أن أتخيله يفيض ظرفًا، ويسحرهن وهو يدق الأرض بنعله الرقيق ويهمس ويرنو بنظرات الغرام، وأستطيع أن أتخيل أيضًا، كيف شعرت المرأة العجوز الصغيرة نحوه بميل رقيق مفاجئ، وكيف أصبحت ابنتها الفاترة الجميلة منتعشةً.

وعندما جرت الخادمة تلهث لتعلن إلى بيوتر فاسيلفتش أن أرتنيف العجوز نفسه قد حضر، أستطيع أن أتخيله يجيب غاضبًا: «حسن، وماذا في ذلك؟ وما سبب حضوره؟»، وكيف رجع إلى بيته نتيجةً لذلك متباطئًا قدر ما استطاع، ولعله آوى إلى مكتبه، وارتدى سترته القذرة متعمدًا، وبعث بعبارة إلى الطباخ ألا يتجاسر؛ لأي مناسبة مهمة كانت أن يضم إضافات على الغداء حتى إذا أمرت السيدات بذلك.

كثيرًا ما رأيت أبي في صحبة آل إيبفانوف فيما بعد، ولذلك أستطيع تكوين فكرة جلية عن ذلك اللقاء الأول. أستطيع أن أتخيل أنه بالرغم من أن أبي عرض إنهاء هذه القضية بسلام، فإن بيوتر فاسليفتش كان مشاكسًا

حانقًا؛ لأنه ضحى بأعماله في سبيل أمه، وأن والدي لم يفعل شيئًا مثل هذا، وكيف بوغت دون سبب، وكيف أن والدي الذي تظاهر بعدم ملاحظة كآبته، كان مرحًا ممازحًا، وعامله كأنه مهرج مدهش، وهو شيء كان يضايق بيوتر فاسيلفتش نوعًا ما في بعض الأوقات، وإن كان لا يملك إلا أن يذعن له أحيانًا رغم إرادته. ولسبب ما أو لآخر، بالإضافة إلى ميل أبي إلى تحويل كل شيء إلى مزاح، وأطلق على بيوتر فاسيلفتش لقب عقيد (أميرالاي)، وبالرغم من أن إيبفانوف الذي احمر وجهه تجهمًا، بل أخذ يتلعثم أكثر من ذي قبل، قد أبدى مرةً ملاحظةً في حضوري هي أنه «ليس عـ -عـ- ق- قيدًا، بل -ن ن- ق- قيبًا» وناداه أبي مرةً أخرى بعد خمس دقائق فقط بلقب عقيد.

لقد أخبرني ليوبتشكا أنه كانت هناك -قبل وصولنا إلى القرية- مقابلات يومية مع آل إيبفانوف، وأن الأمور كانت تجري على قدم وساق. وأعد أبي، بقدرته على تنظيم كل شيء بلمسة من الأصالة والفطنة، وفي نفس الوقت بطريقة بسيطة أنيقة، أفواجًا للقنص وصيد السمك والألعاب النارية كان يحضرها آل إيبفانوف. وقالت ليوبتشكا أن الأمور كانت تجري أيضًا بصورة أجمل لو لم يكن هناك بيوتر فاسيلفتش المتزمت، الذي كان يتجهم ويتلعثم، ويشوش كل شيء.

بعد وصولنا جاء آل إيبفانوف لزيارتنا مرتين فقط، وزرناهم مرةً واحدةً؛ ولكن بعد عيد القديس بطرس، وهو عيد والدي، الذي زارنا فيه آل إيبفانوف وعدد كبير غيرهم، توقفت كل علاقاتنا بآل إيبفانوف، وكان أبي يزورهم وحده.

خلال الفترة القصيرة، عندما كانت تتسع الفرص لرؤية بابا ودونتشكا -كما كانت تناديها أمها، كان هذا ما لاحظته عنهم: كان بابا باستمرار في تلك الحالة النفسية السعيدة التي لفتت نظري يوم وصولنا. لقد كان مرحًا للغاية، فتيًّا ممتلئًا حيويةً وسعادةً، حتى إن سعادته كانت تشع على جميع من حوله، وتنقل إليهم نفس المزاج، ولم يكن ينتقل خطوةً قط بعيدًا عن أفدوتيا فاسيلفنا عندما تكون بالحجرة، وكان يقدم لها دون انقطاع من الثناء العذب، ما كنت أشعر معه بالخجل له، أو يجلس يتأملها في صمت، وينتفض كتفاه بصورة عاطفية ورضاء ذاتي، ثم يسعل؛ بل يهمس أحيانًا إليها مبتسمًا، ولكنه يفعل كل هذا بتلك السمة الشبيهة بالمزاح الخاصة به في أكثر الأمور وقارًا.

كان يبدو أن أفدوتيا فاسليفنا قد أصابتها من بابا عدوى السعادة التي كانت في هذه الفترة تشع دون انقطاع تقريبًا من عينيها الواسعتين الزرقاوين، باستثناء اللحظات التي تتملكها فيها نوبات من الخجل المفاجئة حتى لأتألم من أجلها أنا الذي ألفت هذا الشعور، ويؤذيني النظر إليها. ومن الواضح أنها في مثل هذه اللحظات تخشى كل نظرة وكل حركة، ويخيل إليها كأن كل شخص يتأملها ولا يفكر في سواها، ويستنكر كل شيء عنها. ونظرت إلى الجميع على استحياء، وكان اللون يظهر على وجهها ثم يغيب، وبدأت تتحدث في شجاعة وبصوت مرتفع، ولكنه حديث لغو في معظمه، وهي مدركة لهذا، مدركة أن الجميع ومن بينهم بابا، كان مصغيًا، ثم احمر وجهها مرةً أخرى. ولم يكن أبي حتى في مثل هذه الأحوال يلاحظ هذا اللغو، ولكنه يروح يسعل بحماسة كالمعتاد،

ويتفرس فيها فرحًا طروبًا. كنت ألاحظ أن نوبات الخجل وإن كان تتملك أفدوتيا دون أي سبب، فإنها في بعض الأحيان كانت تحدث مباشرةً بعد ذكر امرأة صغيرة جميلة في حضرة بابا. إن التحولات المستمرة من الأشياء الجديرة بالتأمل، إلى انبساطها الغريب المحرج الذي تحدثت عنه من قبل، وتكرار بابا لكلماته المفضلة، ودورات الحديث، وطريقتها في مواصلة الجدل الذي كان يبدأه بابا -كل هذا كان يمكن أن يفسر لي العلاقات التي نشأت بين بابا وأفدوتيا فاسليفنا، لو كان موضوع الحديث أي شخص آخر غير بابا، ولو كنت أنا أكبر قليلًا، ولكنني لم أشك في شيء قط. حتى حين تسلم أبي في حضوري رسالةً من بيوتر فاسيلفتش وتكدر كثيرًا، ثم أوقف زياراته إلى منزل آل إيبفانوف حتى نهاية أغسطس.

في آخر أغسطس بدأ بابا يزور جيرانه مرةً أخرى؛ وفي اليوم السابق على رحيلنا، فولوديا وأنا إلى موسكو أعلن لنا أنه سيزوج من أفدوتيا فاسليفنا.

❊ ❊ ❊

(٩٠)

كيف تلقينا الخبر

عرف كل من في البيت الحقيقة في اليوم السابق على إعلانها، وكانوا يناقشونها، ولم تفارق ميمي حجرتها طوال اليوم وكانت تبكي، وجلست معها كاتنكا، وخرجت فقط للغداء، وعليها سمات استياء من الواضح أنها استعارتها من أمها، وكانت ليوبتشكا متهللةً للغاية، وقالت أثناء الغداء إنها عرفت سرًّا ممتازًا لن تفشيه لأحد.

وقال فولوديا الذي لم يشاركها رضاءها: «لا يوجد في سرك شيء هام، بل على العكس إن كنت قادرةً على أي تفكير جاد، لفهمتِ أنه من سوء الطالع إلى حد كبير»، وتفرست فيه ليوبتشكا في غيظ، ولم تقل شيئًا.

أراد فولوديا بعد الغداء أن يتأبط ذراعي، ولكنه خشى أن يكون هذا تصرفًا عاطفيًّا أكثر مما ينبغي، فلمس مرفقي فقط، واتجه بي إلى القاعة بإيماءة منه.

وسألني عندما اقتنع بنفسه أننا وحيدان: «هل تعرف السر الذي أشارت إليه ليوبتشكا؟».

ندر ما كنا نتحدث، فولوديا وأنا، أحدنا إلى الآخر وجهًا لوجه عن

أي شيء هام، ولذلك عندما حدث هذا شعرنا بشيء من الحرج المتبادل، وأخذت مقلتانا تتراقصان في أعيننا أثناء شرح فولوديا للموضوع، ولكنه راح الآن يحدق في عينيَّ بإمعان مجيبًا على الدهشة البادية فيهما: «ليس هناك ما يخيفك، ولكنا أخوان لا فرق بيننا، ويجب أن نتشاور معًا في موضوع عائلي خطير». ففهمت ما يريد، وتابع قوله:

«بابا سيتزوج إبيفانوفا، أتعرف؟».

فأومأت بالإيجاب؛ لأني كنت قد سمعت عن ذلك.

وراح فولوديا يقول: «وهذا شيء غير كريم».

«لماذا؟».

فأجاب منزعجًا: «لماذا؟ سيكون شيئًا مبهجًا جدًّا أن يكون لك خال متلعثم اللسان، عقيد (أميرالاي)، وكل هؤلاء الأقارب. حقًّا إنها تبدو طيبةً الآن فقط، ليست سيئةً، ولكن من يدري كيف ستصير؟ ولنسلم جدلًا بأن هذا لا يحدث تغييرًا في حياتنا، فلا بد أن تظهر ليوبتشكا بسرعة في المجتمع، وليس هذا بالشيء المستحب مع زوجة أب كهذه، فهي حتى لا تجيد التحدث بالفرنسية، وأي آداب يمكن أن تعلمها إياها! إنها بائعة سمك، ولا شيء أكثر من هذا: وحتى لو كانت طيبةً، فهي بائعة سمك، لا فرق بينهما». وختم فولوديا حديثه، وكان فيما يظهر مسرورًا جدًّا بهذا الوصف «بائعة سمك».

وكان من العجيب أن أسمع فولوديا آنئذٍ يصدر حكمه في هدوء على اختيار بابا، وقد صدمت لأنه كان صائبًا.

واستفسرت: «ولماذا يتزوج بابا؟».

«إنها قصة غريبة، يعرفها الله وحده؛ وكل ما أعرفه أن بويتر فاسليفنش أغراه بالزواج وطالبه به؛ وأن بابا لم يكن يريده، ثم مال إليه بسبب نوع من الشهامة، إنها قصة عجيبة». لقد بدأت الآن فقط أفهم «أبي». وراح فولوديا يقول: «(وهو يطلق عليه «أبي» بدلًا من بابا فسبب لي ذلك جرحًا عميقًا): إنه رجل لطيف وذكي، ولكنه هوائي متردد، وهذا شيء محير! إنه لا يستطيع أن ينظر إلى امرأة بجنان ثابت، فأنت تعرف أنه لا يتعرف بأي امرأة إلا ويقع في حبها، حتى مع ميمي، كما تعرف».

«ماذا تقصد؟».

«أخبرك أنني اكتشفت أخيرًا أنه كان يحب ميمي عندما كانت صغيرةً، وكان يكتب لها الشِّعر، وكان بينهما شيء، ولا تزال ميمي تقاسي حتى اليوم»، ثم انفجر فولوديا ضاحكًا.

وقلت في دهشة: «لا يمكن أن يحدث هذا!».

وتابع فولوديا حديثه، وعاودته روح الجد، وأخذ يتكلم فجأة بالفرنسية: «ولكن الموضوع هو كيف يرضي مثل هذا الزواج جميع أقربائنا! وهي لا بد أن تنجب أطفالًا».

وأجفلت من رأي فولوديا المتعقل ومن بعد نظره إجفالًا شديدًا، حتى إنني لم أعرف بماذا أجيب.

وفي هذه اللحظة اقتربت منا ليوبتشكا.

وقالت بوجه متهلل: «وإذَنْ، فأنتما تعرفان؟».

وقال فولوديا: «نعم، ولكنني مندهش يا ليوبتشكا، إنك لم تعودي بعد طفلةً، فكيف تشعرين بالفرح لأن بابا سيتزوج قطعة نفاية؟».

وبدا على ليوبتشكا الاهتمام فجأةً، وراحت تفكر.

«آه، فولوديا! قطعة نفاية؟ كيف تتجاسر أن تتحدث هكذا عن أفدوتيا فاسليفنا؟ فإذا كان بابا مزمعًا على الزواج منها، فلا يمكن أن تكون قطعة نفاية».

«حسن»، لا –لقد كانت هذه فقط طريقتي في عرض الموضوع، ولكن لا تزال–» وقاطعتني ليوبتشكا في حمية قائلة: «لا. (ولكن لا أزال) إنك لم تسمعني ألبتة أصف الفتاة التي تحبها بأنها قطعة نفاية، فكيف تقول ذلك عن بابا وعن امرأة ممتازة؟ لا تقل لي ذلك حتى لو كنت أخي الأكبر، يجب ألا تفعل».

«قد لا أستطيع حتى التعبير عن رأي عن –».

واعترضه ليوبتشكا ثانيةً: «لا! ليس عن أب كوالدنا، إن ميمي تستطيع، أما أنت، يا أخي الأكبر فلا».

وقال فولوديا في غرور: «آه، إنك لا تفهمين شيئًا بعد... أصغي.. هل من المستحب أن واحدةً مثل إيبفانوفا «دونتشكا» تحتل مكان أمك الراحلة؟».

وظلت ليوبتشكا صامتةً لحظةً، ثم فاضت عيناها فجأةً بالدموع.

وقالت: «عرفت أنك كنت مغرورًا، ولكنني لم أعرف أنك خبيث إلى هذا الحد»، ثم تركتنا.

وقال فولوديا، وقد انطبع وجهه بطابع الوقار الساخر، وألقى نظرةً كئيبةً بليدةً: «مضيعة للوقت» ثم مضى يقول كأنه يؤنب نفسه على نسيانه نفسه إلى حد التنازل بالحديث مع ليوبتشكا.

كان الطقس رديئًا في اليوم التالي، ولم يكن قد نزل بابا ولا السيدات لتناول الشاي حين دلفت إلى حجرة الاستقبال، وكانت هناك أمطار خريفية باردة هطلت أثناء الليل، وبقايا السحب التي أفرغت جعبتها أثناء الليل لا تزال متفرقةً في السماء مع قرص الشمس المكفهر الذي كان في أعلى ارتفاعه، يظهر من خلالها خافتًا. كان الجو عاصفًا رطبًا باردًا، وكان الباب المؤدي إلى الحديقة مفتوحًا، وقد جفت البرك التي خلفتها أمطار الليل من على ألواح السقيفة التي اسودت من الرطوبة، والريح تؤرجح الباب المفتوح إلى خلف وأمام على مفصلتيه، والممرات مبللة موحلة، وأشجار البتولا العتيقة بأغصانها البيضاء العارية، والشجيرات والحشائش، ونبات حشيشة القريص وأشجار الزبيب (البناتي)، الكبيرة منها التي انقلبت أوراقها الشاحبة تكافح كل منها في نفس مكانها، كأنها تريد أن تنفصل عن جذورها، تتطاير من حولها أوراق صفراء مستديرة، يطارد بعضها البعض من ممشى أشجار الزيزفون، وبينما كان يخضلها البلل، تتأثر على الطريق الرطبة، وعلى «الحشة الثانية» في المرعى الرطيب الداكن الخضرة. كان يشغل أفكاري زواج أبي الثاني، من وجهة النظر التي ارتآها فولوديا: فمستقبل أختي، ومستقبلنا، بل ومستقبل والدي نفسه، لا يبشر بخير بالنسبة إليَّ. كانت تعذبني فكرة أن امرأة غريبة، أجنبية، بل أهم من كل هذا أنها امرأة «صغيرة» لم يكن لها حق في كثير من الوجوه، في

أن تحتل المكان فجأةً –ومكان من؟ كانت مجرد سيدة «صغيرة» ستحتل مكان أمي الميتة! كان قلبي مثقلًا، وكان يتراءي لي أبي مذنبًا أكثر فأكثر. وفي تلك اللحظة سمعت صوته وصوت فولوديا يتحدثان في مخزن رئيس الخدم، لم أكن أريد في تلك اللحظة بالذات رؤية أبي، فابتعدت عن الباب، ولكن ليوبتشكا تقدمت مني وقالت إن بابا يسأل عني.

كان واقفًا في حجرة الاستقبال مسندًا إحدى يديه على البيان، يتطلع ناحيتي بصبر نافد، ولكن عليه سمات الظفر. لقد فارقه ذلك التعبير عن الشباب والسعادة الذي لاحظته على وجهه إبان هذه الفترة، كان يبدو مهمومًا. وكان فولوديا متجهًا إلى الحجرة وغليونه في يده. واتجهت إلى أبي وقلت له: صباح الخير.

وقال في تصميم وهو يرفع رأسه، في تلك اللهجة الغريبة الفاترة التي يتكلم بها المرء عن الأشياء الكريهة في ظاهرها، والتي لا يتسع الوقت للحكم عليها: «حسن يا أصدقائي، أظنكم تعرفون أنني أفكر في الزواج من أفدوتيا فاسليفنا» (ثم صمت لحظةً) «ولم أكن أفكر مطلقًا في الزواج بعد أمكم، ولكن –» (وتوقف لحظةً) –«ولكن– ولكن، من الواضح أنه النصيب... إن دونتشكا فتاة عزيزة لطيفة، ولم تعد صغيرة جدًّا، وآمل أن تحبوها يا أطفالي، وقد أحبتكم من قبل بكل قلبها، وهي امرأة طيبة». ثم قال وهو يلتفت إلى فولوديا وإليَّ حتى لا يترك لنا فسحةً من الوقت للاعتراض عليه: «والآن، قد حان الوقت لمغادرة المنزل، ولكني سأبقى حتى العام الجديد، فأذهب إلى موسكو» (وتردد مرةً أخرى) «مع زوجتي وليوبتشكا». وقد آلمني أن أرى أبي يبدو هيابًا مذنبًا أمامنا، واقتربت منه؛

ولكن فولوديا استمر في التدخين وأخذ يذرع الحجرة مطأطئًا الرأس.

وختم والدي حديثه قائلًا: «وهكذا يا أصدقائي ما دبره والدكم الرجل العجوز» واحمر وجهه وسعل، وضغط على يد فولوديا ويدي. وكانت الدموع تترقرق في عينيه وهو يتكلم، ولاحظت أن اليد التي مدها إلى فولوديا الذي كان في الجانب الآخر من الحجرة في تلك اللحظة، ترتجف قليلًا؛ وأثر في منظر هذه اليد المرتجفة تأثيرًا مؤلمًا، وخطرت على ذهني فكرة لا تزال تقلقني، كانت الفكرة التي خطرت لي، هي أن بابا كان في الجيش سنة ١٨١٢، وكان ضابطًا شجاعًا، كما كان مشهورًا. واستبقيت يده الضخمة القوية، وقبَّلتها؛ وضغط هو على يدي. وما إن كبح دموعه، حتى تناول رأس ليوبتشكا الأسود بين يديه وأخذ يقبِّلها في عينيها. وتظاهر فولوديا بأن غليونه قد سقط، فانحني ومسح عينيه بقبضة يده، ثم غادر الحجرة محاولًا ألا يلاحظه أحد.

* * *

(٩١)

الجامعة

كان الزواج سيتم في مدى أسبوعين، ولكن محاضراتنا كانت قد بدأت، وعدنا، فولوديا وأنا إلى موسكو في مستهل شهر سبتمبر، وعاد آل نخيلودوف أيضًا من الريف، وجاء ديمتري لزيارتي مباشرةً (كنا قد وعدناه أن يكتب كل منا للآخر عند رحيلنا، ولكن لم نكتب بطبيعة الحال مرةً واحدةً)، وصممنا على أن يصحبني في اليوم التالي إلى الجامعة إلى المحاضرة الأولى.

وحالما دخلت القاعة العامة، شعرت بشخصيتي تختفي في زحام الزملاء الصغار المرحين الذي تموج بضجته جميع الأبواب والدهاليز في ضوء الشمس الساطع. وكان شعوري بأنني عضو في هذه الجماعة الكبرى سارًّا للغاية، ولكنْ عدد من كنت أعرفهم بين هؤلاء الأشخاص كان قليلًا، وكان التعارف مقصورًا على الإيماءة بالرأس وكلمات: «كيف حالك يا أرتينييف؟». ولكن جميع من حولي كانوا يحيون بالأيدي وبالحديث -عبارات الصداقة، والابتسامات، والتمنيات الطيبة، والإشارات كانت كالمطر في كل الأركان؛ وفي كل مكان كنت أشعر بالرابطة التي تشدني إلى هذه الجماعة الفتية. وشعرت بالأسف لأن هذه الرابطة قد فاتتني

بطريقة ما، ولكن هذا لم يكن إلا انطباعًا مؤقتًا. ونتيجة لهذا وللكدر الذي تسبب فيه، اكتشفت بسرعة أنه كان من الخير لي عدم انتسابي لهذا المجتمع، وأنه يجب أن تكون لي دائرتي من الناس الظرفاء. وجلست في الصف الثالث حيث كان يجلس الكونت (ب) والبارون (ز) والأمير (ر) إيفن وسادة آخرون من تلك الطبقة التي عرفت منها فقط إيفن والكونت. ونظر إليَّ هؤلاء السادة عرضًا، وشعرت أنني لا أنتسب إلى هذه الطبقة كذلك. وأخذت أراقب كل ما يجري حولي. سيمنوف بشعره الرمادي المجعد وأسنانه البيضاء، وسترته المفكوكة الأزرار، يجلس على مسافة ليست بعيدةً عني، يتكئ على مرفقيه يقرض ريشته، والجمنازي الذي كان الأول في الامتحان، وكان يجلس في الصف الأول بعنقه الملفوف بربطة الرقبة السوداء، ويلعب بمفتاح ساعة فضي على صدريته الحريرية. وكان أيكونين الذي كافح في سبيل دخول الجامعة يجلس في أعلى صف في سرواله الأزرق الذي يغطي كل حذائه تمامًا، يضحك ويصيح بأنه على جبل برناسوس(١). ولشد ما أدهشني، أن ألنكا الذي لم يحيني فقط ببرود، بل باحتقار كأنه يريد أن يذكرني بأننا هنا سواء، كان يجلس أمامي ويضع ساقيه النحيلتين على المقعد بطريقة خاصة طليقة هينة (وكان هذا لصالحي فيما كنت أظن)، يتحدث إلى طالب آخر ويلقي نظرات عارضةً ناحيتي. كانت جماعة إيفن بجواري يتحدثون بالفرنسية، وخيل إليَّ أن هؤلاء السادة كانوا على غباء مطبق، فلم تكن كل كلمة ترامت إليَّ من

(١) جبل في وسط بلاد الإغريق كان مكرسًا في الزمن القديم للإلهات التسع بنات زيوس، ويستوحى منهن الشِّعر والموسيقى. ويقصد أنه يجلس في أعلى مكان. (المترجم).

حديثهم لا معنى لها وحسب، بل كانت خاطئةً كذلك، فهي ببساطة لم تكن لغةً فرنسيةً بحال، كما قلت في سري، في حين أن جماعة سيمنوف وألنكا وغيرهم؛ وأحاديثهم وسلوكهم كانت تبدو كلها خسيسةً وليست شريفة الخصال، أي «ليست كما ينبغي أن تكون».

لم أتبع أي جماعة، واستولى عليَّ الامتعاض لشعوري بالعزلة وعجزي عن تكوين أصدقاء. كان أحد الطلبة في الصف الذي أمامي يقضم أظافره التي احمرت كل أذيناتها بسبب الالتهاب؛ وقد أثارني هذا فيما يخيل إليَّ، حتى لقد ابتعدت عنه، وأذكر في أعماق روحي أن هذا اليوم الأول كان يومًا محزنًا جدًّا لنفسي.

أذكر حين دخل الأستاذ، وحدث هرج عام، ثم أعقبه صمت، أنني ألقيت على الأستاذ نظرتي الناقدة للأشياء؛ وقد دهشت إذ بدأ الأستاذ محاضرته بعبارة تمهيدية ليست في رأيي، ذات معنى. كنت أحب أن تكون المحاضرة منطوية على الفطنة من أولها إلى آخرها، بحيث لا يقتطع منها شيء ولا تضاف إليها كلمة واحدة. ولما كنت غير مخدوع من هذه الناحية، فقد خططت بسرعة ثمانية عشر وجهًا جانبيًّا متلاصقة في دائرة على شكل ضفيرة وضعتها تحت عنوان «المحاضرة الأولى»، في كراسة مذكرات مجلدة تجليدًا جميلًا، كنت قد أحضرتها معي، وكنت أحرك يدي فقط عبر الورقة بين حين وآخر لكي يظن الأستاذ أنني أكتب (كنت واثقًا من أنه كان يوليني قسطًا وافرًا من الالتفات)، وما إن قررت في هذه المحاضرة نفسها أنه ليس من الضروري كتابة كل شيء يقوله الأستاذ، بل إنه لمن الغباء عمل هذا، حتى حافظت على هذه القاعدة طوال فترة الدراسة.

لم أشعر في المحاضرات التالية شعورًا قويًّا بعزلتي، فقد كونت معارف كثيرين، أحييهم باليد وأتحدث معهم، ومع ذلك فلسبب أو لآخر لم تنشأ بيني وبين رفاقي ألفة حقيقية، وكثيرًا ما كنت أجد نفسي منقبضًا وأتصنع الابتهاج فقط. ولم أكن أستطيع الانضمام إلى جماعة إيفن والأشراف، كما كان يطلق عليهم؛ لأنني أذكر الآن أنني كنت خشنًا فظًّا معهم، ولا أنحني لهم إلا بعد أن ينحنوا لي، وواضح أن حاجتهم إلى معرفتي كانت ضئيلةً جدًّا. ومع ذلك فإن هذا الموقف بالنسبة للآخرين، قد نشأ من سبب مختلف كل الاختلاف. وسرعان ما كنت أشعر بأن أحد الزملاء قد بدأ يميل إليَّ بدرجة مشجعة حتى أجعله يفهم أنني أتناول الطعام بمنزل الأمير إيفان إيفانتش، وأنني أملك دروشكي، وكنت أقول كل هذا لأضع نفسي في مكانة أكثر تشجيعًا، ولكي يزداد زميلي حبًّا لي، ولكن كان يحدث العكس تقريبًا في كل مرة، وكان يحيرني أن أرى زميلي يتصنع نحوي الفتور والتعالي حالمًا يسمع عن علاقتي بالأمير إيفان إيفانتش.

كان بيننا طالب تكفله الدولة على نفقتها، هو أوبروف، الشاب المتواضع، الحاذق الشغال إلى أقصى حد، والذي كان يقدم لكل شخص يده جامدةً مثل لوح الخشب دون أن يثني أصابعه، أو يحدث بها أي حركة، ولذلك فإن الممازحين من بين أقرانه كانوا يصافحونه باليد أحيانًا بنفس الطريقة، ويطلقون عليها «طريقة اللوح» في المصافحة. كنت أجلس باستمرار تقريبًا بجانبه، وكنا نتجاذب الحديث غالبًا، وكان أوبروف يعجبني بنوع خاص لآرائه الحرة فيما يتصل بالأساتذة؛ فهو

يحدد بطريقة غاية في الوضوح والسداد مزايا تدريس كل أستاذ ونقائصه، بل إنه كان يسخر منهم في بعض الأحيان، مما كان يترك في نفسي بنوع خاص أثرًا غريبًا مفزعًا، لصدوره من فمه البالغ الصغر، وبصوته الهادئ. ومع ذلك فإنه كان يسجل بعناية جميع المحاضرات دون استثناء بخطه الصغير. وكنا قد بدأنا نصبح صديقين، وقررنا المذاكرة معًا، وأخذت عيناه تلتفتان إليَّ بابتهاج عندما كنت أذهب لأحتل مكاني المعتاد إلى جانبه، ولكني وجدت من الضروري أن أوضح له مرةً في مجرى المحادثة أن أمي وهي على وشك الموت التمست من أبي ألا يلحقني بأي معهد من معاهد الدولة، وأن جميع طلبة معاهد الدولة، وإن كانوا على جانب كبير من العلم، إلا أنهم ليسوا الناس اللائقين. وقلت متلعثمًا إذ شعرت بحمرة الخجل لسبب أو لآخر: «ليسوا كما ينبغي أن يكونوا». ولم يقل لي أوبروف شيئًا، ولكنه في المحاضرات التالية لم يحيني أولًا، ولم يصافحني بيده الصغيرة الشبيهة باللوح، ولم يخاطبني. وعندما كنت أجلس في مكاني، كان يحني رأسه حتى لتكاد تلمس كتبه؛ ويتظاهر بالانشغال فيها. ودهشت لفتور أوبروف المفاجئ، ولكني اعتبرت أن ملاطفة شاب كريم المحتد لطالب تعوله الدولة شيء لا يليق، فتركته في سلام؛ بالرغم من أن فتوره كان يؤلمني، ويجب أن أعترف بهذا. ووصلت مرة مبكرًا عنه، ولما كان الأستاذ المحاضر مشهورًا؛ فقد احتشد الطلبة الذين لم يتعودا حضور محاضرات، وتقاطروا إلى هذه المحاضرة وشغلت كل المقاعد، فجلست في مكان أوبروف، ووضعت كراسة مذكراتي على الدرج ثم خرجت. ولدى عودتي إلى قاعدة المحاضرات أدهشني أن كراسة

مذكراتي قد نقلت إلى المقعد الخلفي، وجلس أوبروف في مقعده، فنبهته إلى أنني كنت قد وضعت كتبي هناك.

فأجاب فجأةً في غضب، بل دون أن ينظر إليَّ: «لا أعرف شيئًا عن ذلك».

وقلت في تعال: «أقول لك إنني وضعت كتبي هناك»، ثم أضفت وأنا أتطلع إلى الطلبة من حولي: «الجميع رأوني وأنا أفعل هذا». وبالرغم من أن كثيرين تطلعوا إليَّ في فضول إلا أن أحدًا منهم لم يحر جوابًا.

وقال أوبروف وهو يستقر في مكانه غاضبًا، ويحدق في النظر حانقًا: «إن المقاعد هنا ليست بالبطاقات، ويحتلها الذين يأتون أولًا».

فقلت: «معنى ذلك أنك عديم التربية».

وخُيِّل إليَّ أن أوبروف غمغم بشيء ما، بل خيل إليَّ أنه قال متمتمًا: «إنك جرو غبي»، ولكنني لم أسمعه بالتأكيد. وماذا كان يفيدني إذا سمعته؟ هل كان ينبغي أن نتشاجر مثل اثنين من المتشردين (كنت مغرمًا جدًّا بكلمة متشرد، وقد استخدمتها كإجابة وحل في كثير من الشئون المعقدة)، ولربما أكون قلت شيئًا أكثر من ذلك، ولكن في تلك اللحظة صفق الباب، ودخل الأستاذ الحجرة مرتديًا سترته الرسمية وهو يحك الأرض بقدمه، واجتازها إلى مكتبه.

ومع ذلك فحين احتجت إلى كراسات المذكرات قبل الامتحان، تذكر أوبروف وعده، فمنحني كراساته، ودعاني إلى المذاكرة معه.

(٩٢)

شئون القلب

استوعبت شئون القلب انتباهي شطرًا كبيرًا في غضون الشتاء. لقد أحببت ثلاث مرات، مرةً وقعت في حب حار مع سيدة موسرة كانت تركب الخيل بمدرسة فريتاج لركوب الخيل، وكنت أذهب نتيجةً لذلك إلى المدرسة كل ثلاثاء وجمعة –وهما اليومان اللذان كانت تركب فيهما– لكي أتطلع إليها، ولكني في كل مناسبة كنت أخاف كثيرًا أن تراني، حتى إنني كنت أقف بعيدًا عنها على الدوام، ثم أهرب على التو متغافلًا إذا ما رأيت احتمال قربها من البقعة التي أقف فيها، وأتحول جانبًا إذا ما نظرت ناحيتي، حتى إنني لم أتأمل وجهها جيدًا، ولا أعرف حتى هذا اليوم إذا كانت جميلةً حقيقةً أو لا.

وفاجأني دوبكوف الذي كان يعرف هذه السيدة مرةً في مدرسة ركوب الخيل مختبئًا وراء الخدم وعباءات الفراء التي كانوا يحملونها، وما إن عرف من ديمتري عن هيامي، حتى أفزعني باقتراح تقديمي إلى هذه السيدة المسترجلة وأسرعت بالابتعاد، وكانت فكرة حديثه إليها بشأني هي نفسها التي حالت دون اجترائي على دخول المدرسة مرةً أخرى، حتى إلى مكان وقوف الخدم خشية أن أقابلها.

عندما كنت أقع في حب امرأة لا أعرفها، وبخاصة المتزوجات منهن،

كان يكتنفني خجل أعنف ألف مرة من الخجل الذي كابدته في حالة سونتشكا، وكنت أخاف أكثر من أي شيء آخر في العالم أن يكشف هدف حبي هذا الخجل، أو حتى مجرد وجودي؛ وخيل إليَّ أنها إذا فعلت ذلك مرة، فإنها ستشعر بالمهانة إلى الحد الذي لا تستطيع معه أن تغفر لي. والواقع أن هذه المرأة المسترجلة لو عرفت بالتفصيل كيف فكرت حين اختلست النظر إليها من وراء الخدم، في القبض عليها وحملها بعيدًا إلى الريف، وكيف كنت سأعيش معها هناك، وماذا كنت سأفعل، لساغ لها أن تشعر بشدة إهانتها، ولكني لا أستطيع أن أدرك بوضوح أنها حتى إذا عرفتني بالفعل، فسوف لا تعرف كل أفكاري عنها، وأن ليس هناك شيء يشينني إذَنْ لمجرد تعرفي بها.

ووقعت في حب سونتشكا مرةً أخرى حين رأيتها مع أختي. وقد ذبل حبي الثاني لها منذ أمد طويل، ولكني وقعت في حبها للمرة الثالثة عندما أعطتني ليوبتشكا مجلدًا من الشِّعر كانت سونتشكا قد نسخته، وكان يضم كثيرًا من فقرات العشق الحزين من قصة «الشيطان» للرمنتوف، موضوع تحتها خطوط بالحبر الأحمر، وفيه أزهار وضعت لتشير إليها. وعندما تذكرت كيف قبل فولوديا كيس حبيبته الصغير في العام السابق، حاولت أن أفعل مثله، والواقع أنني حين أكون وحيدًا بحجرتي في المساء، كنت أقع في هواجس، وأضم شفتي على الأزهار عندما أتفرس فيها، وأشعر بعاطفة معينة، دامعة سارة، ويعاودني الحب مرةً أخرى، أو أتخيل على الأقل لعدة أيام أنني أحب.

وأخيرًا وقعت في الحب لثالث مرة في ذلك الشتاء مع المرأة الصغيرة التي كان يحبها فولوديا، والتي زارت بيتنا. وعندما أتذكر الآن

تلك السيدة، لا أجد فيها شيئًا جميلًا ولا شيء من ذلك الجمال المعين الذي يروقني عادةً. كانت ابنة سيدة من موسكو واسعة الشهرة؛ راجحة العقل؛ متضلعة في العلم، كانت صغيرةً نحيلةً، ذات شعر أشقر أجعد طويل على الطراز الإنجليزي، وخد شفيف. كان الجميع يقولون إن هذه السيدة أذكى من أمها وأكثر علمًا، ولكن لا يسعني أن أصدر حكمًا في هذه النقطة أيًّا كان نوعه، ولشعوري بنوع من الاستحياء المستسلم عند تفكيري في ذكائها علمًا، ولكن لا يسعني أن أصدر حكمًا في هذه النقطة أيًّا كان نوعه، لا توصف. ولكن هيام فولوديا الذي لم يكبحه قط في التعبير عن طربه وجود الآخرين، قد انتقل إليَّ بقوة شعرت معها بوقوعي في حب السيدة الصغيرة حبًّا حارًّا، ولما شعرت بأن أخبار «أخين كانا واقعين في حب سيدة صغيرة بعينها» لن تكون مرضيةً لفولوديا، لم أذكر له شيئًا عن حبي. ومن ناحية أخرى، حصلت على أقصى حد من الرضا، عن طريق هذه العاطفة على أساس أن حبنا كان نقيًّا، حتى إنه بالرغم من أن هدفه واحد وهو نفس الكائن الفاتن، فينبغي أن نظل أصدقاء، متأهبين لتضحية ذواتنا بعضنا لبعض إذا ما عرضت الضرورة. ومع ذلك ظهر أن فولوديا لم يشاطرني شعوري ألبتة فيما يتصل باستعداده للتضحية؛ لأن حبه بلغ من العنف حدًّا جعله يعزم على أن يلطم -الرجل الذي قيل إنه سيتزوجها- وهو دبلوماسي أصيل -على وجهه ويتحداه للمبارزة. كان مما يلذ لي كثيرًا تضحية مشاعري، ولربما كان السبب هو أن ذلك لا يكلفني جهدًا، ولذلك وجهت مرةً واحدةً فقط إلى السيدة الصغيرة ملاحظةً متساميةً جدًّا في قيمة الموسيقى الكلاسيكية، ورغم بذل كل جهدي للمحافظة على حبي حيًّا فقد انطفأت جذوته في الأسبوع التالي.

(٩٣)

المجتمع

إن المباهج التقليدية التي كنت أحلم بأن أهب لها نفسي عندما أدخل الجامعة تقليدًا لأخي الأكبر، تركتني في غاية خيبة الأمل في ذلك الشتاء. كان فولوديا يرقص كثيرًا، وكذلك كان بابا يذهب إلى الحفلات الراقصة مع زوجته الصغيرة، ولا بد أنهما كانا يعتبرانني أصغر من أن تلائمني هذه المباهج، ولم يقدمني أحد إلى تلك البيوت التي كانت تقام فيها الحفلات الراقصة. وبالرغم من وعدي لديمتري بالتزام الصراحة، لم أتحدث إلى أي شخص، بل إليه هو نفسه عن رغبتي في الذهاب إلى حفلات الرقص، وعن مدى ما كان يضايقني من إغفالي، واعتباري على ما يظهر فيلسوفًا، وهو ما كنت أتظاهر به نتيجةً لذلك.

ومع ذلك، فإن الأميرة كورناكوفا أقامت حفلةً مسائيةً، ودعتنا بنفسها جميعًا، ودعتني أنا من بين الباقين، فكانت هذه أول حفلة راقصة أذهب إليها. وجاء فولوديا إلى حجرتي قبل ذهابه، يريد أن يري هندامي. وقد أدهشني منه وحيرني كثيرًا تصرفه هذا، وخُيِّل إليَّ أن رغبته في حسن هندامي تدعو إلى الخجل، وكان يجب أن يخفيها، وهو من ناحية أخرى اعتبر هذه الرغبة طبيعية ولا مفر منها، إلى حد أنه قال بصراحة تامة إنه

كان يخشى أن أسبب له خزيًا. وأمرني أن أتأكد من انتقاء الحذاء ذي الجلد اللامع، وفزع حين رآني ألبس قفازًا من جلد الغزال (شاموا)، ونظم لي وضع ساعتي بطريقة خاصة، واصطحبني إلى محل حلاق في «كوزنتسكي موت» حيث جعدوا لي شعري، وتراجع فولوديا إلى الخلف وتأمل شعري من مسافة بعيدة.

وقال للحلاق: «حسن، على ما يرام، ولكن ألا تستطيع فقط تسوية هذه الخصلات القليلة؟».

ولكن بالرغم من تسوية السيد شارل كثيرًا لهذه الخصلات الصغيرة بمادة صمغية، فقد كانت تنفر وتعود كما كانت عندما أضع قبعتي، بل كنت أبدو جملةً بهذه التجعيدات أسوأ حالًا مما كنت؛ وكان عزائي الوحيد هو تظاهري بالإهمال، وذلك وحده يمكن أن يضفي عليَّ نوعًا من المظهر.

يبدو أن فولوديا كان يري نفس الرأس؛ لأنه رجاني أن أفك التجعدات، فلما فعلت ذلك ولم يتحسن منظره، لم يتأملني مرةً أخرى، وظل صامتًا مغمومًا طوال الطريق إلى منزل آل كورناكوف.

دخلت مسكن آل كورناكوف بشجاعة مع فولوديا، ولكن دعتني الأميرة إلى الرقص، وقلت لسبب أو لآخر، إنني سوف لا أرقص، بالرغم من أنني جئت بفكرة وحيدة هي أن أرقص وقتًا طويلًا جدًّا، فقد اعتراني الخجل، وتركت وحدي مع أناس لا أعرفهم، ترديت في خجلي الكؤود المعتاد، والمتزايد دائمًا. وبقيت صامتًا في تلك البقعة طوال المساء.

وجاءتني إحدى الأميرات في رقصة «فالس» وسألتني بالطريقة الودية التقليدية الشائعة في أسرتها عن السبب في إحجامي عن الرقص، وأذكر كم كان خجلي من هذا السؤال، ولكني أذكر أيضًا كيف شملت وجهي في نفس الوقت ابتسامة لا إرادية تنطوي على الرضاء الذاتي، وأخذت أتكلم لغوًا، في لغة فرنسية بالغة الفخامة مليئة بالعبارات الاعتراضية، حتى لأشعر بالخجل حتى الآن كلما تذكرت هذا، بالرغم من انقضاء عشرات السنين. ومن ثمَّ فلا بد أن تكون الموسيقى قد أثرت في نفسي وأثارت أعصابي، وكنت أؤمل أيضًا أن تخفي ما قلته من أشياء أقل وضوحًا. تكلمت عن المجتمع، وعن غرور الناس وبخاصة النساء، وأخيرًا أوجدت نفسي في ورطة معقدة حتى إنني عجزت عن إتمام عبارة في منتصفها.

حتى الأميرة الدمثة الأخلاق أصابها الارتباك ونظرت إليَّ نظرة لوم، فابتسمت. وفي هذه اللحظة الحرجة جاء فولوديا الذي لاحظ أنني كنت أتكلم بحماسة، ولعله أراد أن يعرف كيف فضلت الحديث عن الرقص، فاقترب منا مع دوبكوف. وعندما رأى وجهي الباسم وسحنة الأميرة المذعورة، وترامت إلى سمعه مادة الحديث الذي أتناوله، احمر وجهه، وعاد أدراجه. ونهضت الأميرة وتركتني، ورحت أبتسم ولكن في محنة من عذاب الضمير لغبائي، حتى لقد تمنيت لو ابتلعتني الأرض، وشعرت أنه لا بد لي من القيام بحركة ما مهما كان الثمن، وأقول شيئًا يحسن موقفي بعض الشيء. ذهبت إلى دوبكوف وسألته عما إذا كان قد رقص «معها» رقصة الفالس عدة مرات، وفعلت ذلك ممازحًا وفي مزاج طروب، ولكني

في الحقيقة كنت ألتمس في ذلك عون دوبكوف نفسه الذي صحت به أثناء الغداء بمطعم «يار» قائلًا: «أمسك لسانك!»، وتظاهر دوبكوف أنه لم يسمعني وانتحى جانبًا، فاقتربت من فولوديا وقلت له بمشقة محاولًا أن أضفي على صوتي لهجةً مرحةً: «حسن، يا فولوديا! ألم تتعب بعد؟». ولكن فولوديا تطلع إليَّ كأنه يقول: «إنك لا تتحدث إليَّ هكذا عندما نكون وحيدين»، ثم سار مبتعدًا في صمت، وواضح أنه كان يخشى أن أستمر في ملازمته.

وقلت في نفسي: «يا إلهي! حتى أخي أيضًا يتخلى عني!».

ومع ذلك، فلسبب ما لم أعد أقوى على الانصراف، فوقفت مكتئبًا حيث كنت حتى آخر المساء، وعندما أخذ الجميع يغادرون الحجرة واحتشدوا في القاعة، وأخذ الخادم يساعدني في ارتداء سترتي بطريقة جعلت قبعتي تميل، وأضحك ضحكةً مغمومةً، قلت دون توجيه عبارتي إلى شخص معين: «يا له من جمال!».

* * *

(٩٤)

مجالس الشرب

بالرغم من أن تأثير ديمتري كان لا يزال يمنعني من الاستسلام للهو الطلبة المألوف الذي يطلق عليه المنادمة، فإن ذلك الشتاء شهد مرةً مشاركتي في مثل هذا الترويح عن النفس، وحملت منه انطباعًا غير مقبول كل القبول. وهذا ما حدث:

ذات يوم في مستهل العام، وأثناء المحاضرة، دعانا جميعنا إلى بيته البارون (ز) لقضاء سهرة جماعيه معه. وهو شاب طويل أشقر يمتاز بملامح جادة للغاية وتقاسيم عادية. وكلمة جميعنا كانت تعني بطبيعة الحال كل أعضاء فصلنا الذين كانوا على حد كبير أو صغير «كما ينبغي أن يكونوا» ولا تشمل بالطبيعة، جراب، ولا سيمنوف ولا أوبروف، ولا أي زميل من الزملاء العاديين. وضحك فولوديا بازدراء عندما سمع أنني ذاهب إلى وليمة طلبة السنة الأولى، ولكني توقعت منها مسرة كبرى جديرةً بالاعتبار، فهي بالنسبة إليَّ وسيلة جديدة تمامًا لتزجية الوقت، فبلغت بيت البارون (ز) في موعدي، في الثامنة وهي الساعة الموضحة.

واستقبل البارون (ز) ضيوفه وهو في صدريته البيضاء وسترته

المفكوكة الأزرار بالقاعة الباهرة الضوء وحجرة الاستقبال، في بيت صغير يسكنه والداه: وقد سمحا له باستخدام حجرات الاستقبال لتلك الوليمة المسائية. وكانت تظهر في الدهليز رؤوس الخادمات الفضوليات وثيابهن، وفي مخزن المؤن ثوب سيدة خطر بذهني أنها البارونة.

كان عدد الضيوف عشرين، وكانوا جميعًا من الطلبة فيما عدا هر فروست الذي جاء مع إيفن، وسيد طويل القامة أحمر الوجه يرتدي الملابس المدنية، حضر الوليمة وكان الجميع يعرفونه بوصفه أحد أقارب البارون، وطالب سابق بجامعة دوربات. وأحدثت الأنوار الباهرة الضوء، والزينة التقليدية المعتادة بحجرات الاستقبال في أول الأمر أثرًا غير مشجع في هذه الجماعة من الشباب التي احتشد أعضاؤها قسرًا عند الجدران، باستثناء قليلين من ذوي الجرأة وطالب جامعة دوربات السابق الذي كان يبدو بصدريته المفكوكة الأزرار كأنه في كل حجرة، وفي كل ركن من كل حجرة، في نفس الوقت، ويملأ كل المسكن بضوضاء صوته الصداح الفكه المجلجل الذي لا يصمت. ولكن الزملاء إما بقوا صامتين، وإما مكثوا يبحثون في حياء فيما يتصل بالأساتذة والعلوم والامتحانات، والموضوعات الجدية الهامة بوجه عام. وكان الجميع يتطلعون إلى باب حجرة العشاء دون استثناء، وقد اتسموا جميعًا بطابع لا إرادي يقول: «حان وقت البدء!»، وشعرت أنا أيضًا أن وقت البدء قد حان، وانتظرت «البداية» فرحًا نافد الصبر.

وبعد أن دار الخادم بالشاي على الضيوف، قال طالب جامعة دوربات لفروست باللغة الروسية:

«هل تعرف كيف تصنع الينش[1] يا فروست؟».

وأجاب فروست وهو يهز ساقيه: «آوه، بالتاكيد!». ولكن طالب دوربات عاد فوجه إليه الحديث بالروسية قائلًا:

«وإذَنْ، فعليك به» (وقد خاطبه بضمير المفرد كأنه طالب من زملائه بجامعة دوربات)، وبدأ فروست يذهب من حجرة الاستقبال إلى حجرة العشاء ثم يعود، بخطوات واسعة، بساقيه المعوجتين العضليتين، وبعد قليل من الذهاب والإياب وضع على المائدة سلطانية حساء ضخمةً بها قمع من السكر يزن عشرة أرطال تسنده ثلاثة من خناجر الطلبة موضوعة متصالبة. وفي نفس الوقت لم يكف البارون (ز) عن التقرب إلى ضيوفه الذين تجمعوا في حجرة الاستقبال، ويقول للجميع وعلى وجهه سمات الجد الجامدة، وبنفس الكلمات: «هيا يا سادة، فلنشرب كالرفاق الطيبين الأوفياء، على طريقة الطلبة، فمن العار ألا تسود الصداقة دائمًا بين أعضاء قسمنا.. فكوا أزرار صدرياتكم إذا سمحتم، أو اخلعوها -كالآخرين»، والواقع أن طالب دوربات أشعل النار في شراب «الروم» بسلطانية الحساء بعد أن خلع سترته، طوى كمي قميصه الأبيض ورسخ قدميه متباعدتين في إصرار.

وصاح طالب دوربات فجأةً بصوت مرح مرتفع كأننا نحن الذين صحنا مجتمعين: «أطفئوا الأنوار يا سادة»، ونظرنا جميعًا في صمت إلى سلطانية الحساء وإلى قميص طالب دوربات الأبيض، وشعرنا جميعًا أن اللحظة المهيبة قد حانت.

---

(١) مشروب يصنع عادةً من خليط النبيذ والماء الساخن أو اللبن والسكر والتوابل وغيرها. (المترجم).

وصاح طالب دوربات ثانيةً، وكان واضحًا أنه شعر بالحرارة شعورًا شديدًا. وشرع فروست وبقيتنا في إطفاء الشموع. ساد الظلام الحجرة، ولم يعد هناك غير الأكمام والأيدي البيضاء التي ترفع قمع السكر على الخناجر، وحدها، التي يضيئها اللب الضارب إلى الزرقة ولم يعد صوت طالب دوربات وحده هو الصداح؛ لأن الحديث والضحك ترامى من كل ركن بالحجرة. وخلع كثيرون ستراتهم (وبخاصة أولئك الذين كانوا يرتدون قمصانًا فاخرةً بالغة النظافة)، وفعلت نفس الشيء، وفهمت أنه قد «بدأ» ومع أنه لم يحدث شيء مطرب حتى الساعة، فقد كنت مقتنعًا تمامًا، بأن شرب كأس من الشراب الذي تم إعداده سيكون شيئًا عظيمًا.

لقد أعد المزيج، وصب طالب دوربات «الينش» في الأكواب، وانسكب قدر كبير منه على المائدة أثناء العمل، فصاح: «والآن هيا تعالوا أيها السادة!»، وكنا في كل مرة نتناول كوبًا مليئًا لزجًا يستهلها كل من طالب دوربات وفروست بأغنية ألمانية، كان يتكرر فيها كثيرًا الهتاف بكلمة «جوتشى»[1]. واشتركنا فيه بنغمات غير متساوقة، وأخذنا نخشخش بأكوابنا، أو نصيح بشيء ما، أو نمتدح «الينش»، أو نحتسي الشراب الحلو القوي، وكل يخز بذراعه ذراع الآخر، أو نقتصر على مجرد الوقوف. ولم يعد هناك شيء ينتظره آنئذٍ، ومجلس الشراب في إبان المعمعة، وقد احتسيت كوبًا مليئًا من الينش، وملأوا لي آخر، وأخذ صدغاي يختلجان، وبدت النار حمراء قرمزية، كل واحد من حولي يصيح ويضحك، ولكن شيئًا ما لم يبد لي مبهجًا وحسب، بل

(١) كلمة ألمانية تدل على المزاح. (المترجم).

كنت مقتنعًا بأنني أنا نفسي، وكل شخص غيري يشعر بالضجر، ولكننا جميعًا اعتبرنا من الضروري لسبب أو لآخر أن نتظاهر بأنه مجلس مبهج للغاية؛ والشخص الوحيد الذي لم ينافق هو طالب دوربات، ظل وجهه يزداد احمرارًا، وكثر كلامه وكان يملأ كل كأس فارغة، ويريق أكثر وأكثر على المائدة التي أصبحت محلاةً لزجةً. ولا يحضرني على أي نظام جرت الأمور، ولكن أذكر أنني أغرمت كثيرًا بفروست وطالب دوربات في تلك الأمسية، حتى إنني حفظت أغنيةً ألمانيةً عن ظهر قلب، وقبلت كلًّا منهما على شفتيه الحلوتين، وأذكر أنني كرهت طالب دوربات في نفس ذلك المساء، وأردت أن أقذف عليه مقعدًا، ولكني أمسكت عن هذا؛ ويحضرني بالإضافة إلى الشعور بتمرد جميع أطرافي الذي عانيته في مطعم «اليار»، فإن رأسي أصيب بصداع ودوار، حتى لقد خفت في ذلك المساء خوفًا شديدًا أن أموت للحظتي، وأذكر أيضًا أننا جلسنا جميعًا على الأرض لسبب أو لآخر، ولوحنا بأذرعنا مقلدين المجاذيف، وأنشدنا أغنية «انزلوا إلى أمنا الفلجا»، وأنني كنت في نفس الوقت أفكر في عدم ضرورة عمل ذلك؛ وأبعد من هذا أذكر أنني عندما كنت راقدًا على الأرض كانت إحدى ساقي مشبوكةً في الأخرى، وأخذنا دورًا في المصارعة على طريقة الغجر، وتسببت في تشنج عضلة بعنق شخص ما، وقلت في نفسي إن هذا لم يكن ليحدث لو لم يكن سكرانًا، وأذكر كذلك أننا تناولنا طعام العشاء وشربنا شيئًا آخر، وأنني خرجت إلى الفناء لأروح عن نفسي، وشعرت بالبرد في رأسي، وأنني لاحظت عندما انصرفت أن الظلام دامس، وأن طريق الدروشكي أصبح منحدرًا زلقًا، وكان من

المتعذر الإبقاء على كوزما؛ لأنه أصبح واهنًا يهتز كالخرقة. ولكني أذكر بنوع خاص أنني خلال المساء كنت أشعر باستمرار أنني كنت أتصرف بغباء كبير لتظاهري بالفرح الشديد، وبأنني أحب الشرب بوفرة. ولم أفكر في أنني ثمل. وكنت أشعر طوال الوقت أن الجميع كانوا يتصرفون تصرفًا فيه حمق كثير بتظاهرهم كذلك. وخيل إليَّ أن هذا لم يكن من الملائم لكل فرد على حدة، وكذلك بالنسبة لشخصي؛ ولكن لما كان كل منا قد افترض أنه هو وحده الذي قاسى من هذا الشعور غير السار، فقد شعرت أنه ينبغي أن استمر في هذا الادعاء، لا لشيء إلا لأن ثلاث زجاجات من الشمبانيا ثمن الواحدة عشرة روبلات، وعشر زجاجات من الروم بأربعة روبلات لكل منها قد أفرغت في سلطانية الحساء فبلغت جملتها سبعين روبل، وهذا إلى جانب العشاء. كنت مقتنعًا تمامًا بكل هذا، حتى إنني دهشت كثيرًا في اليوم التالي أثناء المحاضرة من أن زملائي الذين كانوا عند البارون (ز)، لم يقتصروا على عدم الخجل من ذكر أنهم كانوا هناك، بل تحدثوا عن الوليمة حتى يسمع الطلبة الآخرون. قالوا إنه كان مجلس شراب فاخر، وأن طلبة دوربات كانت لهم اليد الطولى في هذه الأشياء، وأن عشرين رجلًا شربوا أربعين زجاجة من الروم فيما بينهم، وأن كثيرين قد تركوا كالأموات تحت الموائد. ولا أستطيع أن أفهم لماذا تحدثوا عن ذلك، بل إنهم كذبوا في الحديث عنهم.

* * *

(٩٥)

صداقتي مع آل نخيلودوف

رأيت الكثير في غضون الشتاء، لا من ديمتري وحده الذي كان يتردد كثيرًا جدًّا على بيتنا، ولكن من جميع أسرته التي بدأت أعقد معهم أواصر الصداقة.

كان آل نخيلودوف -الأم والعمة والابنة يقضين الأمسيات دائمًا في منزلهن، وكانت الأميرة تحب أن يأتي الشباب لزيارتها في المساء، رجال من النوع الذي وصفته بأنه قادر على قضاء المساء من دون لعب الورق أو الرقص. ولكن لا بد أن يكون أمثال هؤلاء الرجال قليلين؛ لأنني ندر ما كنت أقابل أي زائرين هناك، مع أنني كنت أزورهم كل مساء تقريبًا. وقد ألفت أعضاء هذه الأسرة وطباعهم وكونت فكرةً واضحةً عن علاقاتهم المتبادلة، وألفت حجراتهم وأثاثهم. وعندما لا يكون هناك ضيوف، كنت أشعر بغاية الراحة فيما عدا المناسبات التي أترك فيها الحجرة وحدي مع فارنكا. لم أكن أستطيع التخلص من التفكير في أنها ما دامت فتاةً ليست وافرة الجمال فإنها ستكون سعيدة لو أنني وقعت في حبها، ولكن حتى هذه المضايقة بدأت تتبدد، فقد كان في مظهرها الطبيعي الذي ينطوي على عدم الاهتمام إذا ما تحدثت إليَّ أو إلى أخيها أو ليوبوف سرجيفنا ما

جعلني أنظر إليها على أنها ليست شخصًا مهينًا أو خطيرًا وأظهر السرور الذي أحظى به في الاجتماع بها. وطوال فترة معرفتي بها كانت تبدو لي أحيانًا فتاةً قبيحةً جدًّا، ثم مرةً أخرى ليست بالغة القبح، ولكني لم أسأل نفسي مرةً واحدةً مطلقًا فيما يتصل بها «هل وقعت في حبها أم لا؟» كان يتصادف أحيانًا أن أتحدث إليها مباشرةً، ولكني كثيرًا ما كنت أوجه ملاحظاتي أثناء وجودها إلى ليوبوف سرجيفنا أو إلى ديمتري، ووجدت في هذه الوسيلة الأخيرة لذةً معينةً. وكنت أشعر برضاء كبير في التحدث أمامها والاستماع إلى غنائها والإحساس بوجه عام بوجودها في الحجرة التي أكون فيها، ولكن التفكير فيما ستصير إليه علاقاتي مع فارنكا آخر الأمر، وأحلامي بشأن تضحية نفسي في سبيل صديقي فيما إذا وقع في حب أختي، فقلما كان آنئذ يجول بخاطري. وإذا حدث أن خطر لي شيء من هذه الأفكار والأحلام، فإنني كنت أدفع عني أي تفكير في المستقبل ما دمت راضيًا عن الحاضر.

ومع ذلك فبالرغم من هذه الصداقة ظللت أشعر بأن واجبي الحتمي هو أن أخفي عن مجتمع نخيلودوف كليةً، وعن فارنكا بخاصة عواطفي وميولي الحقيقية، وأحاول دائمًا أن أبدو مختلفًا كل الاختلاف عن حقيقتي، وفي صورة لم يكن من المحتمل في الواقع أن أكون عليها. لقد تصنعت أن أكون روحانيًّا، وأن أفرط في الطرب وإظهار العجب، والمزاح عندما يستخفني الفرح لأي شيء، وأحاول في نفس الوقت إظهار عدم الاهتمام لكل حدث غير عادي أراه أو يقال لي عنه. وحاولت أن أبدو مزدريًا حقودًا لا يحافظ على قدسية شيء، وهو حاد الملاحظة في

نفس الوقت، وحاولت أن أكون منطقيًّا في جميع أعمالي، مهذبًا مدققًا في حياتي، وفي نفس الوقت شخصًا يزدري كل الأشياء المادية وأستطيع القول آمنًا أنني كنت في حقيقتي أفضل كثيرًا من الكائن العجيب الذي اصطنعته، ولكني مع تعبيري عن نفسي على هذا الوجه، أحبني آل نخيلودوف، وكانت النتيجة لحسن الحظ أنهم لم يصدقوا نفاقي، ولكن ليوبوف سرجيفنا، التي كانت تعتبرني أنانيًّا كبيرًا وملحدًا وساخرًا، كانت هي وحدها فيما يظهر التي لم تحبني، وكثيرًا ما كانت تتشاجر معي وتثور ثائرتها، وتحيرني بألفاظها الخارجة عن الموضوع والمفككة. ولكن ديمتري ظل محافظًا معها على العلاقات الغريبة التي تزيد على علاقات الصداقة، وقال إن أحدًا لم يفهمها، وأنها قدمت له خيرًا كثيرًا، واستمرت صداقته معها تسبب الغم لأسرته.

كانت فارنكا مرةً تناقش معي هذه العلاقة التي لا يفهمها الجميع، ففسرتها لي على هذا الوجه: «ديمتري شخص أناني، وهو متكبر جدًّا، وبالرغم من كل مهارته فهو مغرم جدًّا بأن يكون موضع المديح والإعجاب -يجب أن يكون الأول دائمًا-، وتجد «عمتي» نفسها ببراءة روحها معجبةً به، ولا تملك الحصافة الكافية لإخفاء هذا الإعجاب عنه، وهكذا تطريه -لا نفاقًا، ولكن بخلوص نية».

تذكرت هذا الحكم، وعند فحصه فيما بعد لم يسعني إلا أن أظن فارنكا كانت ماهرةً جدًّا، فأطربتها نتيجة لذلك عن اقتناع برأيي الشخصي، وكان هذا النوع من الإطراء ناجمًا عما كشفته فيها من ذكاء ومن صفات أخلاقية أخرى، وقمت بهذا الإطراء باعتدال شديد وإن كان عن اقتناع،

ولم أبلغ إلى أقصى حد من الإغراق في ذلك الإطراء. ومن ثمَّ، فعندما أخبرتني صوفيا إيفانوفنا التي لم تتعب أبدًا من الكلام عن ابنة أخيها، كيف أن فارنكا أعطت حين كانت طفلةً في الريف منذ أربع سنوات، جميع ملابسها وأحذيتها لأطفال الفلاحين دون إذْن فكان لا بد من استرجاعها فيما بعد، ولم أسلم لساعتي بأن هذا العمل يستحق الإطراء في رأيي، بل يستوجب السخرية من الناحية العقلية، من هذه النظرة غير العملية إلى الأمور.

عندما يكون لدى آل نخيلودوف ضيوف آخرون، ومن بين الآخرين فولوديا ودوبكوف، أنسحب بعيدًا عن الأنظار راضيًا عن نفسي، وبشعور معين هادي بالقوة، كشعور أحد أفراد الأسرة، لا أتحدث، بل أكتفي بالإصغاء إلى ما كان يقوله الآخرون. وكان يخيل إليَّ أن كل ما كان يقوله الآخرون ينطوي على غباء لا يمكن تصديقه حتى لقد كنت أتساءل كيف أن امرأة في مثل ذكاء الأميرة ومنطقها، وكذلك كل أسرتها العاقلة يمكن أن يصغوا إلى مثل هذه التفاهة ويجيبوا عليها. ولو حدث أن قارنت آنئذ ما قاله الآخرون بما قلته أنا حين كنت وحيدًا لما شعرت بالتأكيد بأقل دهشة؛ كان لا بد أن أشعر بدهشة أقل لو أنني آمنت بأن أعضاء أسرتي -أفدوتيا فاسليفنا، وليوبتشكا وكاتنا -كن كغيرهن من النساء الأخريات جميعًا، ولسن أسوأ من غيرهن، ولو كنت قد تذكرت أن دوبكوف وكاتنكا وأفدوتيا فاسليفنا كانوا يتحدثون معًا أمسيات برمتها، ويضحكون في حبور، وأن هذا كان يحدث في كل مناسبة تقريبًا، فيقبض دوبكوف على أول كلمة مناسبة كتكأة، وينشد بحماس أشعار: «ضيف

تعيس على مائدة الحياة» أو مقتبسات من «الشيطان». كم كان هراء ذلك الذي كانوا يتحدثون فيه إجمالًا!! وبأي قدر من اللذة ولعدة ساعات دون انقطاع كانوا يتحدثون!

عندما يكون هناك زائرون، فإن فارنكا بطبيعة الحال كانت توليني اهتمامًا أقل مما لو كنا وحيدين؛ وآنئذ لا تكون هناك موسيقى ولا قراءة؛ وكنت مغرمًا جدًّا بالاستماع إليهما. وكانت أثناء حديثها مع الزائرين تفقد الشيء الذي كان في نظري فتنتها الأساسية –حصافتها الهادئة وبساطتها. وأذكر كم كان حديثها مع أخي فولوديا عن المسرح والطقس مفاجأةً غريبةً لي. كنت أعرف أن فولوديا كان يتجنب الأماكن العامة وينفر منها أكثر من أي شيء آخر في العالم؛ وكانت فارنكا كذلك تسخر دائمًا من المناقشات المسلية المصطنعة عن الطقس وما إليه، فلماذا إذَنْ حين يجتمعان معًا ينطقان على الدوام بما لا يمكن احتماله من سخافات، وأنهما يكونان أيضًا كأن أحدهما يخجل من الآخر؟ وكنت أثور على فارنكا في الخفاء عقب كل حديث وأهزأ بالزائرين في اليوم التالي، ولكني كنت أجد سرورًا عظيمًا في بقائي وحدي في دائرة أسرة نخيلودوف.

ومهما كانت الأحوال، فقد بدأت أظفر بلذة في وجودي مع ديمتري في حجرة الاستقبال مع أمه أكثر من وجودي معه وجهًا لوجه.

* * *

(٩٦)

صداقتي مع نخيلودوف

كانت صداقتي لديمتري حتى هذا الوقت معلقةً على شعرة، وكنت أنتقده منذ وقت طويل لعدم كشفه عن سقطاته، وكنا في شبابنا الأول نحب بالعاطفة فقط، ولذلك كنا نحب أناسًا كاملين وحسب، ولكن حالما يأخذ ضباب العاطفة في الذوبان، فتنفذ فيه بالضرورة أشعة التميز العقلي الصافية، وتميط اللثام عن هدف عاطفتنا على وجهه الحقيقي، بما فيه من استحقاق وقصور، فإن القصور وحده هو الذي يلفت نظرنا بوصفه شيئًا غير متوقع، وفي صورة جلية مبالغ فيها. والشعور بالجاذبية نحو الجدة والأمل في وجودها غير مستحيل تمامًا في رجل آخر يشجعنا لا على الفتور وحسب، ولكن على النفور من الهدف السابق لعاطفتنا، فنهجره دون ندم ونسرع قدمًا للبحث عن كمال جديد، فإن كان لم يحدث لي هذا بالضبط في علاقتي مع ديمتري، فالسبب فقط هو أنني كنت مرتبطًا به بانعطاف عقلي عنيد متحذلق أكثر منه انعطافًا قلبيًّا، الأمر الذي كنت أخجل من زيفه؛ وفوق هذا كانت تربطنا قاعدة الصراحة الغريبة. وكنا نخشى كثيرًا جدًّا إذا ما افترقنا، فإن كلًّا منا سيترك تحت سلطان الآخر كان الأسرار الخاصة التي أسرها كل منا إلى الآخر، والتي يخجل منها كل

منها، هذا بالإضافة إلى أننا منذ وقت طويل لم نطبق قاعدتنا في الصراحة كما كانت واضحةً أمامنا، وقد أربكنا ذلك وأوجد بيننا علاقات غريبةً.

كنت في كل مرة تقريبًا أذهب فيها إلى ديمتري في ذلك الشتاء، أجد معه زميله الجامعي، وهو طالب اسمه بيزوبيدوف الذي كان يذاكر معه. كان بيزوبيدوف صغيرًا نحيلًا، به آثار مرض الجدري، يداه صغيرتان جدًّا يكسوهما النمش، وكتلة كبيرة من الشعر الأحمر المشعث. وكان دائمًا مهلهل الملابس قذرًا، غير مهذب بل لا يحسن المذاكرة. وكانت علاقات ديمتري به مثل علاقاته بليوبوف سرجيفنا، غير واضحة في ذهني، والسبب الوحيد الذي من أجله اختاره من جميع زملائه، فأصبح صديقه الحميم هو عدم وجود طالب في كل الجامعة أقبح من بيزوبيدوف مظهرًا؛ ولا بد أن يكون ذلك السبب على وجه التحديد هو الذي يوجده ديمتري ملائمًا لإظهار صداقته له متحديًا الجميع، وكان الشعور بالتعالي يظهر في كل علاقته بهذا الطالب – «لا يهم من تكون، فهذا سواء عندي، فإن أحببته فهو الشخص الملائم».

ومن المدهش أنه لم يجد صعوبة في أن يضغط على نفسه باستمرار، وأن يحتمل بيزوبيدوف التعيس موقفه النبيل. ولم تعجبني هذه الصداقة ألبتة.

ذهبت مرةً لقضاء أمسية مع ديمتري في حجرة استقبال أمه في الحديث والاستماع إلى غناء فارنكا أو قراءتها، ولكن بيزوبيدوف كان جالسًا في الطابق العلوي. وأجابني ديمتري في لهجة عنيفة أنه لا يستطيع النزول؛ لأن لديه زميلًا كما أستطيع رؤية ذلك بنفسي.

ثم أضاف قائلًا: «وزيادةً على ذلك، فماذا يوجد في الجلوس هنالك من لهو؟ فالبقاء هنا والثرثرة أفضل كثيرًا»، وبالرغم من أن فكرة الجلوس والتحدث مع بيزوبيدوف لمدة ساعتين لم ترقني، فإنني لم أستطع أن أحمل نفسي على دخول حجرة الاستقبال وحدي، وتكدرت لغرابة أطوار صديقي، فجلست على كرسي هزاز، وأخذت أتأرجح في صمت. لقد أثارني ديمتري وبيزوبيدوف كثيرًا جدًّا؛ لأنهما حرماني لذة الذهاب إلى الطابق السفلي. واستمعت منفعلًا نفسي: «إنه ضيف ممتع جدًّا يلذ الجلوس معه»، وذلك حين أحضر الخادم الشاي، وكان على ديمتري أن يرجو بيزوبيدوف خمس مرات على الأقل ليتناول كوبًا؛ لأن الضيف الخجول اعتبر نفسه مضطرًا إلى رفضه أولًا، وإلى أن يقول: «أرجوك لا تهتم بي»، وبذل ديمتري مجهودًا واضحًا، فشغل زائره بمناقشة، وبذل عدة محاولات فاشلة ليجرني إليها، ولكني التزمت صمتًا مقبضًا.

وقلت في عقلي لديمتري بينما كنت أتأرجح في رتابة وصمت في مقعدي: «لماذا تحاول، فتتظاهر بسمات من لا يتجاسر على التفكير بأنه متضايق؟ وأججت لهيب البغضاء الكامنة في دخيلة نفسي أكثر فأكثر نحو صديقي، وقلت في نفسي: «يا له من أبله! كان يمكن أن يقضي أمسيةً مرحةً مع أقاربه الأعزاء، ومع ذلك يجلس هنا مع هذا الحيوان، وسيبقى كذلك إلى أن يتأخر الوقت كثيرًا فلا يسمح بالنزول إلى حجرة الاستقبال؛ ثم ألقيت نظرةً على صديقي من وراء ظهر مقعدي، فخيل إليَّ أن يديه وهيئته ورقبته وبخاصة قفاه، وركبته، كريهة مقبضة إلى حد أنني لو فعلت به شيئًا حتى لو كان مؤذيًا له إلى أقصى حد، لشعرت في تلك اللحظة

بسرور عظيم.

وأخيرًا نهض بيزوبيدوف، ولكن ديمتري لم يستطع أن يفترق بسرعة عن ضيفه المبهج وطلب منه قضاء الليلة معه، ولكن لحسن الحظ أن بيزوبيدوف لو يوافقه وانصرف.

وعاد ديمتري بعد أن ودعه، وهو يبتسم بإشراق في هيئة المعجب بنفسه، ويفرك يديه، ولعل ذلك يرجع إلى إصراره على غرضه، ولأنه استطاع أخيرًا التخلص من ضيق. وأخذ يذرع الحجرة ويرمقني بنظراته الفينة بعد الفينة. كان لا يزال بغيضًا على نفسي، وقلت في سري: «كيف يستطيع أن يستمر في المشي وتقطيب الوجه على هذه الصورة؟».

وقال لي فجأةً وقد وقف أمامي: «لماذا أنت غاضب؟».

فأجبت الإجابة الوحيدة التي يلجأ إليها المرء في مثل هذه المناسبات: «لست غاضبًا أقل الغضب، إنني متضايق وحسب، لأنك تموه عليَّ وعلى بيزوبيدوف وعلى نفسك».

«يا للهراء!! إنني لا أموه على أحد مطلقًا».

إنني لم أنس قاعدة الصراحة، وأقول لك دون مواربة، إنني مقتنع أن ذلك البيزوبيدوف لا يطاق بالنسبة إليك وكذلك بالنسبة إليَّ؛ لأنه غبي، والله يعلم ماذا غير ذلك؛ ولكنك تريد أن تبدو في عينيه عظيمًا».

«ليس هذا بصحيح؛ بالإضافة إلى أن بيزوبيدوف رجل لطيف جدًّا، ولنبدأ بـ...».

«ولكني أقول لك، إنه لكذلك؛ بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول

لك أن صداقتك مع ليوبوف سرجيفنا قائمة كذلك على أنها تظنك إلهًا».

«وأنا أقول لك إنه ليس كذلك».

فأجبت في حرارة الكدر المكبوت رغبةً في تجريده من سلاحه بصراحتي: «وأنا أقول لك أنه هذا، لأنني أعرفه من تجربتي الخاصة. لقد قلت لك إنه هذا، لأنني أعرفه من تجربتي الخاصة. ولقد قلت لك، وأكرره إنه يبدو لي دائمًا أنني أحب الناس الذين يذكرون لي أشياء طليةً، ثم عندما أختبر الأمر بدقة، أرى أنه ليس هناك ورد حقيقي».

وراح ديمتري يصلح من ربطة عنقه في حركة غاضبة: «لا، فأنا عندما أحب، لا يستطيع مدح ولا تأنيب تغيير مشاعري».

«هذا ليس صحيحًا، وقد اعترفت لك أنني كرهت بابا برهةً وتمنيت له الموت حين وصفني بأنني لا أصلح لشيء، تمامًا كما ....».

«تكلم عن نفسك، فإنك لو كنت مع مزيد الأسف مثل ....».

وصحت وأنا أقفز من مقعدي وأحدق في عينيه بشجاعة اليائس: «على العكس، إن ما تقوله ليس كريمًا؛ ألم تحدثني إلا عن أخي؟ لن أذكرك بما قلت لأنه لا يشرفك؛ ألم تتحدث إليَّ .... سأقول لك كيف أفهمك الآن ....».

ولرغبتي في إيلامه حتى بأقوى مما آلمني، بدأت أثبت له أنه لم يحب أحدًا، وأذكر له كل شيء خيل إليَّ أنه يعطيني الحق في تأنيبه. وشعرت بسرور كبير جدًّا لذكر كل شيء له، متناسيًا تمامًا أن الغرض الوحيد المحتمل لما قلته، والذي جعله يعترف بقصوره الذي اتهمته به، لا يمكن

بلوغه في اللحظة الراهنة عندما يكون منفعلًا، ولكني لم أقل له هذا مطلقًا وهو رابط الجأش ويستطيع أن يعلنه.

وأنذرنا النقاش بالتطور إلى مشاحنة عندما صمت ديمتري فجأةً وذهب إلى الحجرة الأخرى؛ وكنت على وشك أن أتبعه للتحدث طوال الوقت، ولكنه لم يحبني. وعرفت أن هذا الانفعال العنيف كان في قائمة نقائصه، وأنه كان يحاول آنئذ التغلب عليه، ولعنت كل أفكاره.

كانت هذه هي نتيجة قاعدتنا (أن يقول كل منا لصاحبه كل شيء يفكر فيه، ولا يقول مطلقًا أي شيء عن صاحبه لأي شخص ثالث). وقد جرفتنا الصراحة في بعض الأحيان إلى أوقح الاعترافات؛ فكان من المخجل أن كشفنا عن أحلام وأمنيات غامضة كأنها رغبات وعواطف محددة، وتمامًا كما أوضحت له على سبيل المثال، ولم تقتصر هذه الاعترافات على عدم إحكام الرباط الذي وحد بيننا، بل إنها جمدت شعورنا نفسه وفرقت بيننا. والآن، لم تسمح له الأنانية بأقل تسليم. وفي حرارة نقاشنا استخدمنا نفس الأسلحة التي زود بها أحدنا الآخر من قبل، والتي كالت ضربات مؤلمةً أفظع الألم.

* * *

(٩٧)

زوجة الأب

بالرغم من أن بابا لم يقصد الحضور إلى موسكو مع زوجته إلا بعد العام الجديد، فإنه وصل مع الكلاب في أكتوبر، في موسم الصيد الخريفي الممتاز. وقال بابا إنه غير فكرته لأن قضيته ستعرض على مجلس الشيوخ، ولكن ميمي قالت لنا إن أفدوتيا فاسليفنا قد ضاق صدرها بالريف، وأنها كثيرًا ما كانت تتحدث عن موسكو، وتتمارض، حتى إن بابا صمم على الاستجابة إلى رغباتها –وقالت ميمي وهي تشير وتفكر تفكيرًا عميقًا، كأنها تريد أن تقول: «إنها لم تحبه مطلقًا، ولكنها عكفت على ترديد الحب على آذان كل شخص؛ لأنها كانت تريد الزواج من رجل غني، وتصور ماذا كانت تفعل له «واحدة معينة»، لو أنه فقط عرف كيف يقدرها حق قدرها».

ومع ذلك فإن هذه «الواحدة المعينة» لم تتصف أفدوتيا فاسليفنا. فإن حبها لبابا –وهو حب حار غيور– وتضحيتها لذاتها كانا ظاهرين في كل كلمة وكل نظرة وكل حركة. ولكن هذا الحب لم يمنعها على الأقل، بالإضافة إلى رغبتها في عدم ترك زوجها، من التعلق برغبتها في شراء قبعة فاخرة تصنعها «مدام آنيت» صانعة القبعات؛ بها ريش نعام عجيب

أزرق، وفي ثياب من قطيفة البندقية الزرقاء، التي تكشف في ذوق فني عن ذراعيها وصدرها البيض الناعمة التي لم تنكشف من قبل لشخص ما غير زوجها ووصيفات ثيابها. وانحازت كاتنكا بطبيعة الحال إلى صف والدتها، في حين توطدت علاقات غريبة مازحة بيننا وبين زوجه والدنا منذ اليوم الأول لوصولنا. وحالما هبطت من العربة، تقدم فولوديا يصرف بقدمه، ويميل إلى خلف وإلى أمام ليقبل يدها، بوجه وقور ونظرة مكتئبة متبلدة، ثم قال كمن يقدم لها شخصًا ما:

«لي الشرف أن أقدم لك تهانيَّ بوصول أم عزيزة وأن أقبل يدها».

وقالت أفدوتيا فاسليفنا بابتسامتها الجميلة الرتيبة: «آه، ابني العزيز!».

وقلت أنا أيضًا وأنا أقترب منها لأقبل يدها محاولًا اصطناع هيأة فولوديا ولهجته عن غير قصد: «ولا تنسي ابنك العزيز الثاني».

لو كانت زوجة أبي ونحن واثقين من تبادلنا الود، فلربما دل هذا التعبير على احتقار لعرض أي علامات للود، وإذا كانت علاقتنا بعضنا ببعض غير سليمة فلربما دلت على السخرية أو الاحتقار أو المداهنة أو الرغبة في إخفاء علاقاتنا الحقيقية عن والدنا الذي كان موجودًا، وكذلك إخفاء كثير من الأفكار والمشاعر، ولكن في هذه الحالة لم يكن هذا التعبير، الذي يلائم ذوق أفدوتيا فاسليفنا إلى أبعد حد، يدل على شيء مطلقًا وإنما كان يشير وحسب إلى عدم وجود أي علاقات مطلقًا. وكثيرًا ما كنت ألاحظ هذه العلاقات الزائفة المصطنعة منذئذ بين عائلات أخرى، أدرك أعضاؤها أن العلاقات الحقيقية لن تكون سارةً تمامًا، ثم توطدت هذه العلاقات بطريقة تلقائية بيننا وبين أفدوتيا فاسليفنا. ولم

نكد نحيد عن هذه العلاقات أبدًا، وكنا على الدوام ننافق في تأدبنا معها، ونتكلم الفرنسية، ونحك قدمنا وننحني، ونناديها «بأمنا العزيزة» وتجيب هي بمزاح دائمًا وبنفس الطريقة، وبابتسامتها الرتيبة. وكانت ليوبتشكا الباكية بساقيها المقوستين وثرثرتها البريئة قد أخذت هي وحدها تميل إلى زوجة أبينا، وكافحت بسذاجة كبرى وأحيانًا في غلظة لكي تقربها من كل أفراد أسرتنا، ولقاء ذلك كانت ليوبتشكا هي المخلوقة الوحيدة في العالم التي تحمل لها أفدوتيا فاسليفنا قطرةً من الحب باستثناء حبها الحار لبابا، بل كانت أفدوتيا فاسليفنا تظهر نحوها إعجابًا خاصًّا مدهشًا واحترامًا مترددًا، مما سبب لي غيظًا شديدًا.

كانت أفدوتيا مغرمةً جدًّا في أول الأمر بتسمية نفسها «زوجة أب»، وتومئ إلى الطريقة السيئة المجحفة التي ينظر بها الأطفال وأهل البيت دائمًا إلى زوجة الأب، وما يترتب على هذا من حرج موقفها. ولكن بالرغم من إدراكها لكل متاعب هذا الموقف، لم تفعل شيئًا لتحاشيه، مثل ملاطفتها لشخص أو تقديم هدايا لآخر، أو تحمل التذمر، وكان هذا من أيسر الأمور عليها، ما دامت محبوبةً جدًّا، ولا يسلبها طبعها. ومع ذلك، فإنها لم تقتصر على الامتناع عن عمل شيء من هذه الأعمال، بل على العكس، كانت تدرك مركزها، وأعدت نفسها للدفاع دون أن تهاجم، وهي تسلم بأن جميع أعضاء المنزل يرغبون في استخدام كل الوسائل التي في متناولهم لإهانتها، وترى في كل شيء غرضًا، وتعتبر أن أكرم طريقة هي أن تقاسي في صمت، فهذا الميل إلى السلبية في كسب الود أورثها العداوة. وفوق ذلك كان ينقصها إلى حد كبير صفة

فهم بعضهم البعض من دون كلام تقريبًا، وكانت هذه قد تقدمت كثيرًا في منزلنا، وقد سبق أن أشرت إليها، وكان عاداتها تتعارض كثيرًا مع العادات التي أصبحت متأصلةً في بيتنا حتى إن هذه الحالة وحدها جعلت الناس يتحاملون عليها. وكانت تعيش دائمًا في بيتنا النظيف المرتب كما لو كانت قد وصلت في هذه اللحظة؛ كانت تستيقظ وتذهب للنوم آونةً مبكرةً، وآونةً متأخرةً، ومرةً تخرج لتناول الغداء ومرةً أخرى لا تخرج؛ تتناول العشاء في بعض الأحيان ثم تعود فلا تتناوله أحيانًا أخرى. وتتجول في البيت معظم الوقت نصف كاسية حين لا يكون لدينا ضيوف ولا تخجل منا لظهور أمامنا، بل أمام الخدم في منطق[1] أبيض مع شال حول جسمها، وذراعين عاريتين. وكان عدم المبالاة بالعرف، يروقني أول الأمر، ولكن كانت نتيجته أنني سرعان ما فقدت كل احترام كنت أضمره لها. وأهم ما لفت نظري، بل كان أشد غرابةً أنها كانت تجمع في شخصها امرأتين مختلفتين كل الاختلاف، وفقًا لوجود الضيوف أو عدم وجودهم: واحدة سليمة في حضرة الضيوف، جميلة صغيرة فاترة، أنيقة الملبس، لا بالذكية ولا بالغبية، ولكنها مرحة؛ أما الأخرى فحين لا يكون هناك ضيوف، امرأة مكتئبة مهمومة، لم تعد بعد صغيرةً، مهملة الهندام متضايقة، وإن كانت ودودًا.. وكثيرًا ما كنت أفكر حين أنظر إليها بعد عودتها باسمة من زياراتها، موردة الوجه من برودة الشتاء سعيدة لشعورها بجمالها، وتذهب إلى المرآة لتعاين شكلها وهي تنزع قبعتها، أو وهي ذاهبة إلى العربة تخشخش في ثوب

(١) ما ترتديه النساء تحت الثوب كالوزرة أو «الكمبينزون».

الرقص الثمين ذي النحر العاري، شاعرة بقليل من الخجل ولكن في كبرياء، أمام الخدم؛ أو في البيت؛ في الاجتماعات المسائية الصغيرة، مرتدية ثوبًا حريرًا ضيقًا، حول عنقها الناعم شريط من المخرم الرفيق؛ وتشرق في كل انحناءة بابتسامتها المطردة، الجميلة مع ذلك -كثيرًا ما فكرت فيما يمكن أن يقوله أولئك الذين يهرفون ضدها لو أنهم رأوها كما رأيتها في الأمسيات وهي باقية في بيتها، وهي تائهة في الحجرات الخافتة الضوء كالشبح، في انتظار عودة زوجها من النادي، في نوع من الدثار وبشعر مشعث؟ كانت تذهب أحيانًا إلى البيانو فتعزف مقطوعتها الوحيدة في «الفالس» ضجرةً بالجهد الذي تبذله، ثم تتناول روايةً، وبعد أن تقرأ سطورًا قليلةً من وسطها تلقي بها جانبًا، ثم لكي لا توقظ الخدم، تذهب بنفسها إلى مخزن المؤن فتحضر خيارةً وقطعةً من لحم العجل البارد، فتأكلهما وهي واقفة بالقرب من نافذة المخزن، أو تطوف من حجرة إلى حجرة على غير هدف، قلقةً مهمومةً. ولكن الأهم من جميع الأشياء الأخرى التي سببت التباعد بيننا كان عدم فهمها الذي تجلى بنوع خاص في طريقة التفاتها الغريبة عندما يتحدث الناس إليها عن أشياء لا تعرف عنها شيئًا. ولا لوم عليها في أنها اكتسبت دون وعي عادة الابتسام الخفيف بشفتيها وحدهما، وإحناء رأسها حين تقال لها أشياء لا تهمها (وهي لا تهتم بشيء سوى نفسها وزوجها)؛ ولكن تلك الابتسامة وانحناءة رأسها التي كانت تتكرر كثيرًا كانتا مستقبحتين لسبب غير واضح.

وكذلك مرحها الذي كان يبدو كأنه سخرية من نفسها ومنا ومن

المجتمع كله، كان سخيفًا ولا ينتقل إلى أحد. ولكن أهم شيء على الإطلاق أنها لم تكن تخجل من الحديث المستمر لكل شخص عن حبها لبابا. وبالرغم من أنها لم تكذب أقل كذب في قولها بأن حياتها كلها تتألف من حبها لزوجها؛ وبالرغم من أنها أثبتت ذلك في حياتها برمتها، فمع ذلك، ووفقًا لآرائنا الخاصة؛ فإن تأكيدها المستمر وفي غير تحفظ لحبها كان شيئًا بغيضًا، ونخجل لها حين نتحدث عنه أمام الغرباء، بل كان يخجلنا أكثر مما لو أخطأت في اللغة الفرنسية.

لقد أحبت زوجها أكثر من أي شيء في العالم، وقد أحبها زوجها، وبخاصة في أول الأمر؛ وحين رأى أنه لم يكن الوحيد الذي تروق له وأن الهدف الوحيد من وجودها كان الظفر بحب زوجها، ولكن كان يبدو عليها كما لو كانت تفعل عن عمد كل شيء لا يروق له أن يعمله، وذلك لكي تظهر له قوة حبها كاملةً واستعدادها لتضحية ذاتها.

كانت مغرمةً بالتنميق، وكان والدي يحب أن يراها جميلةً في المجتمع، تثير المديح والإعجاب، وقد ضحت بحبها للولائم من أجل والدي، وتعودت شيئًا فشيئًا البقاء في البيت، مرتديةً قميصًا نصفيًّا (بلوزة) رمادي اللون، وكان بابا الذي يعتبر الحرية والمساواة حالتين لا بد منهما في العلاقات المنزلية، يأمل في أن تسير محبوبته ليوبتشكا مع زوجته الصغيرة الطيبة معًا بطريقة مخلصة ودية؛ وما دامت أفدوتيا فاسليفنا هي التي تضحي بنفسها، فقد أخذت على عاتقها أن تبدي احترامًا في غير موضعه «لسيدة البيت الحقيقية» وهو اللقب الذي كانت تطلقه على ليوبتشكا، وكان ذلك يؤلم بابا ألمًا عميقًا. وقامر

أبي كثيرًا في ذلك الشتاء؛ وفي نحو نهاية الشتاء خسر قسطًا كبيرًا من المال، وأخفى شئون مقامرته عن جميع أهل البيت كما كان يفعل دائمًا؛ إذ لم يكن يحب الخلط بين لعبة وبين حياته العائلية. وضحت أفدوتيا فاسليفنا بنفسها برغم مرضها في بعض الأحيان، بل إنها قرابة نهاية الشتاء، وهي حبلى كانت ترى من واجبها الذهاب لمقابلة بابا بمشيتها المتأرجحة و«بلوزتها» الرمادية وشعرها المشعث في الساعة الرابعة أو الخامسة صباحًا عند عودته من ناديه، متعبًا خجلانًا بعد خسائره في بعض الأحيان.

كانت تستفسر منه بفكر شارد عما إذا كان موفقًا في اللعب، ثم تصغي إليه بالتفاتتها المتلطفة وإيماءات رأسها، وهو يقص عليها أعماله في النادي، ويلتمس منها ويكرر مائة مرة ألا تظل ساهرة في انتظاره. ولكن بالرغم من أن مكاسبه وخسائره والتي تتوقف عليها كل ممتلكات بابا، لا تهتم لها أقل اهتمام، وكانت أول من تقابله كل ليلة عندما يعود من النادي. وفوق هذا كانت مضطرة إلى الذهاب لمقابلته لا بدافع شغفها بتضحية ذاتها وحدها، ولكن بدافع من الغيرة الخفية التي كانت تقاسي منها إلى أبعد حد. ولم يستطيع أحد ألبتة إقناعها بأن بابا كان يرجع متأخرًا من النادي وليس من عند إحدى العشيقات. كانت تحاول قراءة أسرار حب بابا في وجهه، ولما كانت لا تستطيع أن ترى فيه شيئًا، كانت تتنهد في كثير من الأسى، وتستسلم إلى التفكير في تعاستها.

ونتيجة لهذه التضحيات الكثيرة المستمرة نشأ في موقف بابا إزاء

زوجته في نحو الأشهر الأخيرة من الشتاء، التي خسر فيها قدرًا كبيرًا، مما ترتب عليه انقباضه النفسي معظم الوقت، نشأ شعور واضح ومختلط من «الكراهية الصامتة»، ومن ذلك النفور المكبوت من الهدف الذي تدور حوله عواطف المرء التي تعبر عن نفسها بالرغبة غير الإرادية في إلحاق كل نوع مستطاع من المضايقات الأدبية الحقيرة بذلك الهدف.

* * *

(٩٨)

زملاء جدد

كان الشتاء قد انقضى دون أن نشعر به، وبدأ ذوبان الجليد، وفي الجامعة علقت قوائم الامتحان، فتذكرت فجأةً أنني يجب أن أجيب على ثمانية عشر موضوعًا حضرت محاضرات فيها، ولكني لم أصغ إلى واحد منها أو أكتبها أو أعدها. ومن العجيب أن سؤالًا مثل: «كيف أستطيع اجتياز الامتحان؟» لم يدر بذهني مرةً واحدةً، ولكني كنت في حالة مبهمة للغاية طوال ذلك الشتاء ترجع إلى سروري لكوني أصبحت «كما ينبغي أن أكون»، وأنني حين كان يتصادف أن أقارن نفسي بزملائي وأقول لنفسي: «إنهم سيجتازون الامتحان، ولكنهم ليسوا «كما ينبغي أن يكونوا» حتى الآن؛ ومن ثمَّ فلدي ميزة فائقة عليهم، ويجب أن أنجح». وكنت أذهب إلى المحاضرات لمجرد أنني اعتدتها وحسب، ولأن بابا أخرجني من البيت، هذا بالإضافة إلى معارفي الكثيرين الذين كثيرًا ما كنت ألقاهم وأقضي وقتًا سعيدًا معهم بالجامعة.. كنت أحب الضوضاء والثرثرة والضحك في القاعة الكبرى، وأصبحت آنئذ أحب الجلوس في المقاعد الخلفية أثناء المحاضرات، فأحلم بشيء أو بالآخر لرتابة صوت الأستاذ، وأراقب زملائي، وكنت أحب الهرب أحيانًا مع شخص ما إلى

حانة «ماترن» لشرب الفودكا، وتناول وجبة خفيفة. ولما كنت أعرف أن الأستاذ سيعنفني على دخولي القاعة بعد الأستاذ، وإحداث صريف مخجل بالباب، أحببت أن أشترك في عراك لعبة «شوط مقابل شوط» التي نظمت في كثير من الضحك في الدهاليز. وكان كل ذلك مدعاةً لكثرة الفكاهة.

ومع ذلك، ففي الوقت الذي بدأ فيه الجميع حضور المحاضرات بانتظام أكثر من ذي قبل، وبعد أن أتم أستاذ الطبيعيات مقررة، وانصرفنا حتى يحين وقت الامتحانات، انشغل الطلبة في مذكراتهم، وإعداد أنفسهم، وبدأت أنا أيضًا أفكر في إعداد نفسي. ولم يقتصر أوبروف الذي لم أكف عن الانحناء له، برغم أن علاقاتنا فيما عدا ذلك كانت فاترةً كما سبق أن قلت، لم يقتصر على منحي مذكراته، بل دعاني إلى الاستعداد معه ومع طلبة آخرين من هذه المذكرات. فوافقته شاكرًا مؤملًا أنني بهذا الكرم أن أخفف تمامًا اختلافي السابق معه، وكان كلما طلبته أن تعقد الاجتماعات دائمًا في منزلي؛ لأن لديَّ مسكنًا لطيفًا.

وقد أجابوا على هذا بأنهم يقصدون عقد هذه الاجتماعات بالمناوبة -فأحيانًا يكون الاجتماع في مسكن زميل، وأحيانًا لدى زميل آخر بحسب القرب. وتم الاجتماع الأول بمسكن زوخين، وكان غرفةً صغيرةً خلف فاصل في بيت واسع في تروبني بوليفار. وتأخرت في الاجتماع الأول وحضرت بعد أن بدأت القراءة؛ وكانت الحجرة الصغيرة ملأى بدخان التبغ الخشن الذي يستعمله زوخين. وكانت على المائدة زجاجة فودكا وأكواب وخبز وملح وعظمة ضأن.

ودعاني زوخين دون أن ينهض من مكانه لأتناول جرعةً من الفودكا وأن أخلع سترتي.

وأضاف قائلًا: «أتوقع أنك لم تتعود مثل هذه المنادمة؟».

كان كل منهم يرتدي صدرًا قذرًا لقميص من البفتة[1]، وحاولت ألا أظهر لهم ازدرائي، فخلعت سترتي ووضعتها على الأريكة بروح الزمالة. وراح زوخين يقرأ بصوت مرتفع مشيرًا بين حين وآخر إلى كراسات المذكرات، بينما كان الآخرون يستوقفونه ليوجهوا إليه الأسئلة، فكان يجيب عنها باختصار وذكاء ودقة.. واستمعت برهة، ولما كنت لم أفهم كثيرًا لعدم إلمامي بما سبق، وجهت سؤالًا.

فقال زوخين: «ليس من الخير أيها الزميل القديم أن تستمع إذا لم تعرف ذلك، وسأعطيك كراسات المذكرات لكي تقرأها حتى الغد».

وخجلت لجهلي، وأدركت في نفس الوقت ما تنطوي عليه ملاحظة زوخين من عدالة تامة. فتوقفت عن الاستماع وشغلت نفسي بملاحظة رفاقي الجدد؛ ووفقًا لتقسيم الرجال إلى فئة الذين «كما ينبغي أن يكونوا» وفئة من «ليسوا كما ينبغي أن يكونوا»، فمن الواضح أنهم كانوا يتبعون الفئة الثانية وبالتالي أثاروا في نفسي، لا الشعور بالاحتقار وحسب، بل كراهيةً شخصيةً معينةً كنت أحملها لهم، إذ بالرغم من أنهم لم يكونوا «كما ينبغي أن يكونوا»، لم يبد لي أنهم يعتبرونني مساويًا لهم وحسب، بل كانوا يشجعونني بطريقة لطيفة. ومما أثار في نفسي هذا الشعور، أقدامهم

(١) يكتفي بعض الفقراء بلبس صدر قميص، وهو الجزء الذي يظهر من السترة فيظهر كأنه قميص كامل وذلك للاقتصاد وحسب.

وأيديهم القذرة بأظافرها المقضومة، وكان لأوبروف ظفر واحد طويل بأصبعه الخنصر، وصدور القمصان الوردية، والسباب الذي اعتادوا توجيهه بعضهم إلى البعض، والحجر القذرة، وعادة زوخين من الشمشمة باستمرار وضغطه على إحدى فتحتي أنفه بأصبعه، وطريقة حديثهم بنوع خاص، حيث يشددون النبرة على كلمات معينة، فكانت تبدو لي شكليةً ومنافيةً جدًّا للرقة. ولكن الشيء الذي أثار كراهيتي «كما ينبغي أن تثور» تلك النبرة يشددونها على كلمات روسية معينة، وعلى الكلمات الأجنبية خاصة.

ولكن بالرغم من ظاهرهم الذي كنت أنفر منه في ذلك الوقت نفورًا لا يقاوم، استطعت الكشف عن شيء طيب في هؤلاء الناس؛ فقد شعرت بجاذبية نحوهم مدفوعًا بحسدي لرفقتهم الفكهة التي ربطت بينهم، وأردت أن أوثق تعارفي بهم، ولم يكن هذا بالشيء العسير عليَّ، وكنت قد عرفت أوبروف الرقيق المستقيم، وقد أعجبني كثيرًا زوخين المقدام، ذو الذكاء الفائق الذي كان من الواضح أنه يسيطر على كل الحلقة. كان رجلًا صغيرًا قوي البنية أسمر البشرة؛ ذا وجه منتفخ إلى حد ما، ومشرق دائمًا، ولكنه ذكي نشيط مستقل إلى أقصى حد. وترجع هذه السمة بنوع خاص إلى جبينه الذي لم يكن عاليًا، بل مقوسًا فوق عينين عميقتين سوداوين، وشعره القصير الخشن، ولحيته الكثة السوداء التي يدل مظهرها على أنها لم تحلق أبدًا، ويبدو أنه لم يكن يفكر في نفسه (وهو الشيء الذي كان يعجبني دائمًا في الناس)، ولكن كان من الواضح أن عقله لم يكن عقيمًا بحال، وكانت ملامحه المعبرة من تلك التي تتعرض في نظرك إلى تغير تام

ومفاجئ بعد ساعات قلائل من رؤيتها لأول مرة. وهذا ما حدث لزوخين قرب نهاية السهرة، فقد ظهرت على وجهه فجأةً تجعدات جديدة، وازداد غور عينيه، واختلفت ابتسامته، بل تغير كل وجهه حتى لقد أصبح من العسير أن أعرفه.

وعندما انتهى الاجتماع، شربنا، زوخين والطلبة الآخرون وأنا، زجاجة من الفودكا لكل منا، إظهارًا لرغبتنا في أن نكون أصدقاء أوفياء ولم يبق شيء يذكر في الزجاجة. واستفسر زوخين عمن لديه ربع روبل حتى يمكن إرسال المرأة العجوز القائمة على خدمته لشراء بعض الفودكا، فقدمت نقودي، ولكن زوخين التفت إلى أوبروف كأنه لم يسمعني، فسحب أوبروف كيسًا صغيرًا من الخرز وأعطاه النقود المطلوبة.

وقال أوبروف الذي لم يكن قد شرب هو نفسه شيئًا قط: «لاحظ ألا تأخذ مبلغًا أكثر من اللازم».

وأجاب زوخين وهو يمتص النخاع من عظمة الضأن: «لا أظن ذلك» (وتذكرت أنني فكرت آنئذ أنه لا بد أن يكون سبب ذكائه هو أكله النخاع)، ثم كرر عبارته «لا أظن ذلك» وهو يبتسم ابتسامةً خفيفةً، وكانت ابتسامته كتلك التي يلاحظها الإنسان قسرًا، ويشعر له بالامتنان من أجلها: «ولكن ما الضرر إذا فعلت؟ أراهن على أنني أستطيع الآن مواجهة أي واحد من أصحابنا الذين يتطايرون كالغبار، كل شيء هنا على أهبة الاستعداد»، ثم أضاف وهو يربت رأسه في زهو: «ولكن سيمنوف يجازف إلى حد الإخفاق بطريقته في شرب الخمر».

الحقيقة أن نفس هذا السيمنوف الرمادي الشعر الذي سرني كثيرًا

في الامتحان الأول أن ثيابه كانت أسوأ مني، والذي عكف بعد أن أصبح الثاني في امتحانان دخول الجامعة، على حضور المحاضرات بانتظام أبان الشهر الأول كطالب، قد أدمن الشراب إدمانًا شديدًا، ثم لم يظهر في الجامعة مطلقًا قرابة آخر العام الدراسي.

وسأل عنه شخص ما «أين هو؟».

فراح زوخين يقول: «لقد غاب عني، وفي آخر مرة كنا معًا، قضينا ليلةً في «لسبون»، وانتهت نهايةً بديعةً. ويقال إن فضيحةً ما حدثت بعد ذلك، فهذا رجل أمامك! أي حرارة تتأجج فيه! وأي عقل! ومن المؤسف أنه سينتهي إلى النوم، ولكن لا شك في هذا. إنه ليس من النوع الذي يجلس هادئًا بالجامعة مع ثورانه هذا».

وبعد قليل من الحديث نهضنا لكي ننصرف، وقد اتفقنا على الاجتماع عند زوخين في الأيام التالية؛ لأن بيته كان أقرب لجميع الباقين. وعندما خرجنا إلى الفناء، كان ضميري يعذبني نوعًا ما لأنهم سيذهبون جميعًا سيرًا على الأقدام، بينما أركب أنا وحدي الدروكشي، فاقترحت على أوبروف في استحياء أن آخذه إلى بيته. وخرج زوخين معنا وبعد أن اقترض قطعةً فضيةً من فئة الروبل من أوبروف، ثم ذهب ليقيم بها ليلةً مع أصدقائه. وبينما كنا راكبين في طريقنا حدثني أوبروف كثيرًا عن أخلاق زوخين وطريقة حياته؛ وعندما وصلت إلى البيت لم أنم إلا بعد وقت طويل، إذ أخذت أفكر في الناس الجدد الذين تعرفت بهم، وظللت فترةً طويلةً راقدًا متيقظًا، مترددًا بين الاحترام الذي أثاره في نفسي علمهم وبساطتهم وأمانتهم وشاعرية شبابهم وجسارتهم، وبين النفور الذي شعرت به نحو

مظهرهم غير الكريم. وبالرغم من كل شوقي كان من المحال تامًّا في ذلك الوقت أن أعاشرهم. لقد كانت آراؤنا مختلفة اختلافًا تامًّا، كانت هناك ظلال لا حصر لها تشكل لي كل سحر الحياة ومعناها ليس لديهم منها أي إشارة، والعكس بالعكس. والسبب الجوهري في عدم معاشرتهم هو العشرون روبل ثمن قماش سترتي، وعربتي، وقمصاني الفاخرة، وكان لهذا السبب اعتبار خاص عندي؛ وخيل إليَّ أنني أهنتهم بدلائل رخائي، وشعرت بذنبي أمامهم، فلم يكن من المستطاع بحال الارتباط معهم بعلاقات من المساواة والصداقة الخالصة؛ لأنني أهنت نفسي أولًا ثم ثرت ضد إذلالي الذي لا أستحقه، وأصبحت واثقًا من نفسي. ومع ذلك فإن تلك الشجاعة ذات القوة الشاعرية التي أحسستها في زوخين في ذلك الوقت قد طغت إلى حد كبير على الجانب الخشن المعيب من أخلاقه بحيث لم تؤثر في نفسي مطلقًا تأثيرًا غير سار.

ظللت أسبوعين تقريبًا أذهب كل مساء للمذاكرة عند زوخين، وكانت مذاكرتي قليلةً جدًّا؛ لأنني كما سبق أن قلت فقدت الأساس منذ البداية، ولم يكن لديَّ الصلابة الكافية للمذاكرة وحدي لكي ألحق بهم، ولكني ادعيت فقط أنني أصغي لما يقرأونه وأفهمه. ويخيل إليَّ أن زملائي قد تكهنوا بادعائي، ولاحظت أنهم كثيرًا ما تخطوا فقرات كانوا هم يعرفونها، ولم يسألوني عنها مطلقًا.

وكان تساهلي يتزايد كل يوم شيئًا فشيئًا إزاء قلة النظام في هذه الحلقة، وشعرت بالانجذاب إليها، وجدت فيها كثيرًا من الشاعرية. وكانت كلمة الشرف وحدها التي عاهدت بها ديمتري على ألا أذهب إلى أي مكان من

مجالس الشرب هي التي قمعت رغبتي في مشاطرتهم لهوهم.

فكرت مرةً في استعراض معلوماتي في الأدب وبخاصة الأدب الفرنسي، ولذلك وجهت الحديث إلى ذلك الموضوع؛ ولشد ما كانت دهشتي، أنهم بالرغم من نطقهم عناوين الكتب الأجنبية بالطريقة الروسية، فقد قرأوا عددًا من الكتب أكثر مما قرأت، وأنهم يعرفون ويقدرون الكتَّاب الإنجليز بل والإسبانيين، وكذلك ليساج الذي لم أكن حتى قد سمعت عنه. أما بوشكين وتشيكوفسكي فكانا أدبًا بالنسبة إليهم (وليس كما كانت الحال بالنسبة إليَّ، كتب صغيرة ذات أغلفة صفراء كنت أقرأها وأدرسها كطفل)، واحتقروا دوماس وسو وفيفا على السواء، وأصدروا حكمًا، وبخاصة زوخين، على الأدب خيرًا من حكمي عليه، وأكثر وضوحًا مما أستطيع، بحيث لم يسعني إلا أن أسلم؛ ولم يكن لي ميزة عليهم في معلوماتي الموسيقية، وأكثر ما أدهشني أن وجدت أوبروف يعزف على الكمنجة، وواحدًا آخر من المجموعة يعزف على الفيولونسلو والبيانو، وكلاهما كانا يعزفان في فرقة الموسيقى الجامعية، ويعرفان الموسيقى جد المعرفة ويقدرانها أسمى التقدير. وقصارى القول، فإنهما باستثناء النطق بالفرنسية والألمانية كانا يعرفان كل شيء حاولت أن أفاخر به أمامهم، خيرًا مني، ولم يكونوا على الأقل فخورين به. كان يمكن أن أفاخر بأنني رجل مجتمع، ولكني لم أكن كذلك، واختلف عن فولوديا، فما هو إذَنْ هذا التعالي الذي كنت أنظر به إليهم؟ -هل هو معرفتي بالأمير إيفان إيفانتش؟ أم نطقي للغة الفرنسية؟ أم الدروشكي؟ أهو قمصاني الفاخرة؟ أم أظافر يدي؟ ألست كل هذه الأشياء عبثًا وهراءً؟ وكان يتبدل هذا

التفكير في ذهني تحت تأثير الحسد لبهجة الزمالة اللطيفة الناضرة التي أراها أمامي. كانوا ينادون بعضهم البعض بضمير المفرد «أنت»، وكانت بساطة معاملتهم تقرب من الخشونة، ولكن حتى هذا المظهر الخشن لم يستطع إخفاء خوفهم من أن يجرح أحدهم شعور الآخر. وكانت كلمتا «نصاب، وخنزير» اللتان يستعملانهما في معنى ودى يجعلانني أتراجع وأتلمس لنفسي سببًا للتهكم الباطن، ولكن هاتين الكلمتين لا تسيئان إليهم أقل إساءة، ولا تحولان دون استنادهم إلى أقوى أساس من الصداقة كل إزاء الآخر. كانوا يتصفون بالحرص والرقة في معاملاتهم بعضهم مع البعض، كما هو الحال فقط لدى الفقراء جدًّا والصغار جدًّا من الناس. ولكن النقطة الأساسية هي أنني شممت رائحة شيء جريء وهمجي في أخلاق زوخين ومغامراته في مشرب «لسبون»، وساورني الشك في أن هذه المشارب لابد أن تكون شيئًا مختلفًا تمامًا عن التمويه بالروم المشتعل والشمبانيا التي اشتركت فيه عند البارون (ز).

❊ ❊ ❊

(٩٩)

زوخين وسيمينوف

لست أعرف إلى أي طبقة من المجتمع كان ينتمي زوخين، ولكني أعرف أنه من طلبة مدرسة الجمنازيوم، ولم يكن لديه مال كيفما كان، ومن الواضح أنه لم يكن كريم المحتد، كان في الثامنة عشرة في ذلك الوقت، وإن كان يبدو أكبر كثيرًا من ذلك، وهو بارز الذكاء، سريع الإدراك للفكرة بنوع خاص؛ وكان تسليمه بموضوع برمته متعدد الجوانب، وإدراك جميع فروعه والاستنتاجات المستمدة منه، أيسر عليه من الفحص الدقيق للقوانين التي أدت للوصول إلى هذه الاستنتاجات عن طريق المعرفة. وكان يعرف أنه ذكي، وكان مزهوًّا بذلك، وترتب على هذا الزهو أنه كان بسيطًا ودمث الخلق في معاملة كل شخص على نسق واحد؛ ولا بد أنه قاسي كثيرًا في مجرى حياته. وقد نجحت كثيرًا طبيعته المتوقدة الحساسة في الظهور بذاتها في الحب والصداقة والمال. وإلى حد محدود، وفي الطبقات الدنيا من المجتمع، لم يكن هناك شيء بالرغم من ذلك لم يشعر نحوه بعد أن يتحقق منه، إما بالاحتقار وإما بنوع من عدم الاهتمام أو الالتفات، الناشئ عن السهولة الكبرى التي كان يحصل بها على كل شيء. وواضح أنه كان يتشبث فقط بكل جديد من أجل ازدراء

ما يحصل عليه بعد الظفر بغايته، وكانت طبيعته الموهوبة تدرك هدفها دائمًا، فمن حقه أن يكون مزدريًا. وكان هذا هو موقفه تمامًا من العلوم: كان يدرس قليلًا، ولا يكتب مذكرات، ومع ذلك كانت معلوماته كاملةً في الرياضيات، ولم يكن تفاخره غرورًا حين قال إنه يستطيع التفوق على الأستاذ. ولقد فكر كثيرًا في أن ما يتعلمونه لا معنى له، ولكنه بطبيعته النوعية، العملية الجادة الماكرة دون وعي، سرعان ما توافق مع ما يحتاجه الأستاذ، وأحبه جميع الأساتذة. كان صريحًا مع السلطات ومع ذلك كانت السلطات تحترمه، ولم يقتصر على عدم تقديره أو حبه للعلوم وحسب، بل كان يزدري حتى أولئك الذين أجهدوا أنفسهم في تحصيل ما حصله هو بغاية السهولة. إن العلوم، كما يراها هو، لا تحتاج إلى أكثر من جزء من عشرة من مواهبه؛ والحياة بالنسبة إليه كطالب، لم تمنحه أي شيء يستطيع أن يكرس له نفسه تكريسًا كاملًا، ولكن طبيعته الثائرة النشيطة، تطلبت الحياة، كما قال فاستسلم للانغماس في شيء ما بقدر ما سمحت له إمكانيته، وأذعن بحماسة ورغبة لكي يستنزفه بقدر ما بقي فيه من قوة. والآن، قبل الامتحانات، تمت نبوءة أوبروف، فقد اختفى أسبوعين لكي نستعد أثناء الشطر الأخير من الوقت في مسكن أحد الطلبة، ولكنه ظهر في القاعة عند الامتحان الأول، شاحبًا هزيلًا، مرتجف اليدين، واجتاز الامتحان بتفوق إلى المرحلة الثانية.

وفي بداية هذه المرحلة كان هناك ثمانية رجال في جماعة المشرب، وعلى رأسهم زوخين، وكان أكونين وسيمينوف بين هذا العدد في أول الأمر، وترك الأول هذه الجماعة؛ لأنه لم يستطع تحمل الانغماس

الطائش الذي أسرفوا فيه في بداية ذلك العام، بينما هجرهم الثاني لأنه وجد عربدتهم تعبث به عبثًا شديدًا، وكان كل رجال فرقتنا ينظرون إليهم في أول الأمر بنوع من الخوف، ويقص بعضهم على بعض أخبار لهوهم.

كان زوخين هو أهم الأبطال، وقرابة نهاية العام أصبح سيمينوف هو البطل، فكان ينظر إلى سيمينوف بنوع معين من الخوف، فإذا ما ظهر في محاضرة، وهو ما كان يحدث في القليل النادر، يسود الشعور بالحماس.

كان سيمينوف ينتهي من أعمال الانغماس في الملذات قبيل الامتحانات مباشرةً بطريقة على أعظم جانب من الإبداع وقوة العزيمة، إذ تهيأت لي فرصة مشاهدتها بفضل معرفتي بزوخين. وهذا ما حدث: في مساء أحد الأيام، وكنا قد اجتمعنا عند زوخين، وبعد أن وضع أوبروف بالإضافة إلى الشمعة الدهنية الموضوعة في الشمعدان، شمعةً أخرى في زجاجة، وأخذ يقرأ، وقد مال برأسه فوق كراسات المذكرات، بصوته الحاد من مذكراته الخرساء المكتوبة في العلوم الطبيعية، دخلت صاحبة المنزل الحجرة وأخبرت زوخين أن شخصًا أحضر له رسالةً مختصرةً.

وترك زوخين الحجرة، ولكنه عاد بسرعة، وكان يبدو عليه الاهتمام وقد أحنى رأسه. كان ممسكًا بمذكرة مكتوبة على ورقة تغليف رمادية اللون وورقتين من فئة العشرة روبلات.

وقال وهو يرفع رأسه وهو ينظر إلينا في رزانة بل في مهابة، وقال: «يا سادة!! هذا جزء من خبر غير عادي»، وسأله أوبروف وهو يقلب صفحات مذكراته: «هل دفعوا لك أجر قيامك بتثقيفنا»، واقترح شخص آخر قائلًا: «فلنستمر»، ولكن زوخين تابع حديثه بنفس اللهجة: «لا يا

سادة، ليس لأجلي، لقد قلت لكم -جزء من خبر لا يصدق! لقد أرسل سيمينوف جنديًّا يحمل إليَّ هذه الروبلات العشرين التي كان قد اقترضها مني مرة، ويكتب لي أن أذهب إلى الثكنات العسكرية إن كنت أرغب في رؤيته... ثم أضاف وهو يتفرس في كل منا بدوره: هل تدركون معنى ذلك؟» ولم يقل أحدنا شيئًا.. وتابع زوخين حديثه: «إنني ذاهب إليه الآن مباشرةً، فهيا إن شئتم». وارتدى كل منا سترته بسرعة، استعدادًا للذهاب إلى سيمينوف»، وسأل أوبروف بصوته المصرصر: «أليس من السماجة أن نذهب إليه جميعًا بكامل عددنا، ونتفرس فيه كما لو كان تحفةً نادرةً»، وكان شعوري أقرب ما يكون إلى شعور أوبروف، وبخاصة في معرفتي بسيمينوف كانت ضئيلةً، ولكني كنت شديد الرغبة في أن أشعر بأنني عضو في الجماعة العامة، وأن أرى سيمينوف، حتى إنني لم أعلق على هذه الملاحظة.

وقال زوخين: «هذا لغو! أي سماجة في أن نذهب جميعًا لتوديع زميل لنا؟ وماذا يهم المكان الموجود فيه؟ إنه هراء في الحقيقة، فلماذا لا تأتون إن أردتم ذلك».

استأجرنا عربات قليلةً، واصطحبنا معنا الجندي وذهبنا. لم يرض ضابط الصف القائم بالعمل أن يدعنا ندخل إلى الثكنات، ولكن زوخين استماله بطريقة ما، وقادنا نفس الجندي الذي أحضر المذكرة إلى حجرة كبيرة تضيئها عدة مصابيح ليلية صغيرة إضاءةً خافتةً، وكان يجلس أو يرقد على الأسرة الموضوعة إلى الجانبين، المجندون في معاطف خارجية رمادية ضخمة، وجميعهم محلوقو مقدم الرأس. وأغرب ما لفت

نظري عند دخولنا الثكنات هو جوها الذي يكتم الأنفاس، وصوت عدة مئات من الأشخاص المحبوسين يغطون. وتبعنا دليلنا وزوخين الذي سار بخطوات واسعة وثقة أمامنا بين الأسرة، وعرتني قشعريرة باطنة وأنا أتفحص كل راقد، أحاول أن أطابق بينه وبين الصورة العقلية التي تخيلتها لوجه سيمينوف المكتئب القوي بشعره الطويل المشعث الذي يغلب عليه اللون الرمادي، وشفتيه الباهتتين ونظرة عينيه اللامعتين الرصينة. وعندما بلغنا أبعد ركن في الثكنة حيث كان الطرف المتدلي من ذبالة منصهرة تخفق في آخر وعاء خزفي صغير مليء بالزيت الأسود. وأسرع زوخين الخطا، وحينئذ وقفنا فجأةً.

وقال لأحد المجندين، وكان حليقًا كالباقين، يجلس على سريره في ثياب الجندي الداخلية، ومعطف خارجي رمادي ملقي على كتفيه، وكان يتحدث مع مجند آخر ويأكل شيئًا ما. لقد كان «هو» برأسه ذي الشعر الرمادي المجزوز حديثًا، ومقدم رأسه الضارب إلى الزرقة من أثر الحلاقة. وكان وجهه يتسم كالمعتاد بتعبير رصين قوي العزم، كنت أخشى أن تضايقه رؤيتي، ولذلك انتحيت جانبًا. ويبدو أن أوبروف شعر بنفس الشعور، ولذلك بقي في المؤخرة، ومع ذلك فإن صوت سيمينوف وهو يحيي زوخين والآخرين بطريقته المقتضبة هدأت من روعنا، فأسرعنا بالتقدم نحوه، وقدمت له يدي، وقدم له أوبروف يده الشبيهة بلوح الخشب، ولكن سيمينوف بادرنا فمد يده السمراء الضخمة ليوفر علينا الشعور البغيض بأننا نقدم له فضلًا. وتكلم كالمعتاد، في هدوء وتردد قائلًا: «هالو، زوخين، شكرًا لحضوركم... اجلسوا يا سادة، ثم

قال وهو يلتفت إلى المجند الذي كان يؤاكله ويتحدث معه: «اذهب أنت يا كودرياشكا، سوف نتم حديثنا فيما بعد... هيا اجلسوا، حسنًا. هل دهشت يا زوخين؟ آه؟». فأجابه زوخين، وهو يجلس بجانبه على السرير، وعليه ما يشبه سمات الطبيب وهو يجلس بجوار سرير أحد مرضاه: «لا شيء يدهشني منك ألبتة، ولربما كانت دهشتي أكثر لو أنك حضرت لأداء امتحاناتك... حسن، قل لنا أين كنت وكيف حدث كل هذا؟ فقال بصوته المليء القوي: «في الحانات والكهوف وأمثال هذه الأماكن، يوجد مكان للجميع هيا اجلسوا يا سادة، ثم صاح في لهجة آمرة، وومضة خاطفة من أسنانه البيضاء، بالمجند الراقد إلى يساره مسند رأسه على ذراعه موجهًا نظره نحونا في فضول بليد: «أبعد قدميك عن الطريق»، ثم استمر في تعبير وجهه المصمم المتغير مع كل جملة محكمة العبارة «أسمعتم تلك القصة الخاصة بالتاجر؟ لقد مات الوغد... لقد أرادوا طردي، وبددت كل ما كان عندي من مال، وليس هذا أسوأ ما في الأمر، سوف لا أنتهي من ديوني -إنهم قذرون أيضًا. ليس لديَّ شيء أسدده لهم... حسن، هذا كل شيء». وسأل زوخين: «ولكن كيف تدخل فكرة كهذه في رأسك». «بكل بساطة.. لقد كنت في ياروسلافل، في ستوزنكا، كما تعرف، وكنت مع تاجر سابق، وهو الآن معتمد تجنيد، وقلت له: أعطني ألف روبل فأسجل نفسي، وقد فعلت» وقال زوخين: «ولكن لاحظ، أنك سيد محترم». «هذا لا يهم في شيء، لقد اهتم كيريل إيفانوف بذلك». ومن هو كيريل إيفانوف؟». «هو نفس المعتمد الذي اشتراني (ولمعت عيناه بصورة غريبة جدًّا -بمرح وتهكم- وبدا كأنه يبتسم وهو يقول هذا). وقد

حصلنا على إذْن من (السناتو) المجلس التشريعي، وذهبت إلى نوع آخر من اللهو، وسددت ديوني، وها أنا ذا هنا. وهذا كل شيء. حسن، لا بأس من هذا، ليس لهم الحق في تأديبي، فالباقي على خمسة روبلات، ثم من يدريني فقد تنشب الحرب».

ثم راح يقص على زوخين مغامراته الغريبة التي لا تصدق، وكان تعبير وجهه المصمم المتغير على الدوام وعيناه تومضان بقوة.

ولما كنا لم نستطع البقاء مدةً أطول من ذلك في الثكنات، فقد ودعناه وانصرفنا، وصافح كلًّا منا، وقال لنا دون أن يصحبنا إلى الخارج: «تعالوا من وقت لآخر أيها السادة، فهم يقولون أننا سنرحل في مدى شهر فقط»، ثم أومأ إلينا مرةً أخرى بما يشبه تلك الابتسامة الخاصة به. ومع ذلك فبعد أن خطا زوخين عدة خطوات، دار إلى الخلف ثانيةً. ولما كنت أريد أن أرى كيف سيودع أحدهما الآخر، فقد وقفت أنا كذلك. رأيت زوخين يخرج نقودًا من جيبه، ويقدمها لسيمينوف، ولكن الأخير دفع يده جانبًا، ثم رأيتهما يقبل أحدهما الآخر، وسمعت زوخين يصيح بصوت مرتفع نوعًا ما وهو يقترب منا: «مع السلامة أيها المعاقب! أراهن أنك ستصبح ضابطًا قبل إتمام دراستي». وأجابه سيمينوف الذي لا يضحك أبدًا، بضحكة عالية مجلجلة غير عادية آلمتني ألمًا شديدًا، وخرجنا.

وسرنا على الأقدام طوال الطريق إلى البيت. وظل زوخين صامتًا، وهو يشمشم باستمرار ويضع أصبعًا مرةً في أحد منخاريه ومرةً في الآخر. ثم تركنا عندما وصلنا إلى البيت، وراح يأخذ دورةً من الشرب حتى يحين موعد الامتحانات.

(١٠٠)

رسبت

وأخيرًا جاء يوم الامتحان الأول -في حساب التفاضل والتكامل- ولكني كنت لا أزال على حالتي المكفهرة، ولم تكن لديَّ فكرة واضحة عما ينتظرني؛ وخطر ببالي أثناء الليل بعد استمتاعي بصحبة زوخين وزملائه أنه لا بد من إحداث تغيير في اعتقاداتي؛ وأن فيها شيئًا غير كريم وغير عادل فيما يجب أن تكون عليه، ولكن في الصباح، في ضوء الشمس، أصبحت مرةً أخرى «كما ينبغي أن أكون»، وكنت راضيًا جدًّا عن ذلك، ولم أرغب في إحداث أي تغيير في نفسي.

وذهبت وأنا على هذه الحال النفسية إلى الامتحان الأول، وجلست على مقعد جانبي حيث يجلس الأمراء والكونتات والبارونات، وأخذت أتحدث معهم بالفرنسية؛ وقد يبدو من الغريب أنه لم تطرأ على ذهني فكرة أنني سأطلب حالًا للإجابة عن أسئلة في الموضوع الذي لا أعرف عنه شيئًا مطلقًا. وأخذت أتفرس بفتور في أولئك الذين ذهبوا للامتحان، بل وسمحت لنفسي أن أسخر من بعضهم.

قلت لألنكا وهو عائد من منضدة الامتحان: «حسن، يا جراب؟ هل خفت؟».

وقال ألنكا الذي تمرد تمامًا على نفوذي منذ اليوم الذي دخل فيه الجامعة: «سنرى كيف ستدبر أمورك»، ولم يبتسم عندما تحدثت إليه، وأظهر نفورًا مني.

وابتسمت في احتقار لإجابة ألنكا، وإن كان الشك الذي عبر عنه قد هزني هزةً مؤقتةً، ولكن الضباب غطى هذا الشعور مرةً أخرى، وبقيت غير مكترث شارد العقل، حتى لقد وعدت أن أتناول الغداء مع البارون (ز) بمحل ماتزن حالما أنتهي من الامتحان، (كما لو كان هذا أتفه الأمور شأنًا). وعندما استدعيت مع أكونين، أصلحت من قميص زيي الرسمي وتقدمت إلى منضدة الامتحان دون أي اكتراث.

وعرتني رعدة خفيفة من الخوف هبطت على ظهري عندما تفرس في وجهي مباشرة الأستاذ الشاب، وهو نفس الأستاذ الذي سبق أن سألني في امتحان الدخول -ولمست ورقة المذكرة التي كتبت عليها الأسئلة. وبالرغم من أن أكونين أخذ بطاقته بانحناءة بكل جسمه كما فعل في الامتحانات السابقة، فإنه أجاب إلى حد محدود، وإن كانت إجابته سيئةً جدًّا، وفعلت أنا ما فعله هو في الامتحانات السابقة، بل فعلت ما هو أسوأ؛ لأنني أخذت بطاقةً ثانيةً، ولم أجب بالمرة. ونظر الأستاذ في وجهي بإشفاق وقال لي بصوت ثابت، وإن كان هادئًا:

«لن تنجح إلى المرحلة التالية يا سيد أرتنييف، وخير لك ألا تتقدم إلى أي امتحان بعد... إن هذا المرحلة يجب أن تصفى». ثم أضاف:

«وأنت كذلك يا سيد أكونين».

والتمس أكونين السماح له بإعادة الامتحان كما لو كان يستجدي إحسانًا، ولكن الأستاذ أجاب بأنه لا يستطيع أن يعمل في يومين ما عجز عن عمله على مدى عام، وأنه بالضرورة لا يستطيع أن ينجح. والتمس أكونين ثانيةً بطريقة مهينة يرثى لها، ولكن الأستاذ رفض للمرة الثانية.

وقال بنفس الصوت الخفيض، الثابت: «يمكنكما أن تنصرفا يا سادة».

ولم أفكر في مبارحة المنضدة إلا في تلك اللحظة، وأخجلني أنني اشتركت بواسطة صمتي بنصيب في توسلات أكونين المهينة، ولا أتذكر كيف سلكت طريقي في القاعة بين الطلبة؛ وأي إجابات أديتها عن أسئلتهم، وكيف اجتزت حجرة الانتظار وعدت إلى البيت. لقد كنت مغتاظًا مهينًا تعيسًا في غير تصنع.

وبقيت ثلاثة أيام لا أفارق حجرتي ولم أقابل أحدًا؛ ووجدت عزائي في الدموع كما كنت في طفولتي، وبكيت كثيرًا. بحثت عن غدارة لكي أقتل نفسي لو اشتدت بي الرغبة كثيرًا إلى هذا العمل، وفكرت في أن ألنكا جراب سوف يبصق على وجهي حين يقابلني، وأنه إن فعل فسيكون محقًّا تمامًا، وأن أوبروف سوف يبتهج لمصيبتي ويخبر كل شخص عن ذلك، وأن كولييكوف كان على حق تمامًا حين أهانني في مشرب «اليار»، وأن أحاديثي السخيفة مع الأميرة كورناكوفا لم يكن ينتظر لها نتيجة أخرى، وهكذا وهكذا. إن جميع لحظات حياتي التي كانت عذابًا لحبي الذاتي، وكانت أقسى من أن تحتمل، مرت بذهني الواحدة بعد الأخرى،

وحاولت أن ألوم شخصًا سواي على مصائبي. وفكرت في أن شخصًا ما قد فعل هذا عامدًا، وتذمرت من الأساتذة؛ ومن زملائي؛ ومن فولوديا؛ ومن بابا لأنه أرسلني إلى الجامعة؛ بل شكوت من «العناية الإلهية» لأنها سمحت بأن أحيا لأرى مهانةً كهذه. وأخيرًا؛ بعد أن شعرت بمهانتي التامة في أعين جميع من عرفوني، رجوت بابا أن يدعني ألتحق بفرقة الخيالة (الهوسار) أو أذهب إلى القوقاز. كان بابا مستاءً مني، ولكنه حين رأى حزني الفظيع، واساني بقوله إن الأمر لم يبلغ إلى هذا الحد من السوء، وأن الأمور يمكن أن تنظم بنقلي إلى قسم آخر. وكذلك قال فولوديا الذي لم يجد في مصيبتي الفظيعة أي شيء، إنني يجب ألا أشعر على الأقل بالخجل أمام زملائي الطلبة في الدراسات الأخرى.

لم تفهم سيداتنا شيئًا مما كان يدور، وما كن ليفهمن أو يستطعن فهم ما هو الامتحان –وما معنى الرسوب، وإنما أشفقن عليَّ إذ رأينني حزينًا.

كان ديمتري يأتي لزيارتي كل يوم، وكان لطيفًا ودودًا إلى أقصى حد إبان هذه الفترة كلها؛ ولكن لنفس هذا السبب خيل إليَّ أنه أصبح فاترًا نحوي، وكان يؤلمني دائمًا، ويبدو مهينًا لي حضوره وصعوده إلى حجرتي وجلوسه بالقرب مني صامتًا؛ وعلى وجهه شيء من مسحة الطبيب التي يتخذها حين يجلس عند فراش مريض اشتدت به العلة. كانت صوفيا إيفانوفا وفارنكا ترسلان إليَّ معه كتبًا كنت أرغب في قراءتها من قبل، وأرادتا أن أذهب لأراهما. ولكني أدركت في هذه الالتفاتة نفسها تلطفًا متعاليًا ومهينًا لشخصي الذي هبط إلى الحضيض. وفي نهاية الأيام الثلاثة أصبحت رابط الجأش قليلًا، ولكني لم أبارح المنزل إلى يوم رحيلنا إلى

الريف، وكنت أفكر فقط في حزني، وأتنقل متكاسلًا من حجرة إلى حجرة محاولًا تجنب جميع أفراد المنزل.

فكرت، وفكرت؛ وأخيرًا، في ساعة متأخرة من المساء، بينما كنت جالسًا في الطابق السفلي أستمع إلى عزف أفدوتيا فاسليفنا موسيقى الفالس، قفزت على حين فجأة وجريت إلى الطابق العلوي؛ وتناولت كراسة المذكرات التي كتبت عليها «قواعد الحياة»؛ وفتحتها؛ وساورتني لحظة ندم وموجة نفسية، فبكيت، ولكن لم تعد دموع يأس. وعندما أفقت صممت على كتابة قواعد للحياة من جديد، وكنت مقتنعًا اقتناعًا راسخًا بأنني من الآن فصاعدًا لن أرتكب خطأً، ولا أبدد دقيقةً واحدةً في تكاسل؛ بل ولا أحيد عن قواعدي.

ومهما كان من استمرار هذه القوة الأخلاقية الدافعة وقتًا طويلًا بما تحتويه، وبما فيها من قوانين جديدة فُرضت على نموي الأخلاقي، فسيظهر أثر ذلك في بقية حياتي.

ياسنايا بوليانا

في ٢٤ من سبتمبر